

مجلة مجمع اللغة العربية



الجزء التاسع والأربعون
رجب ١٤٠٢ هـ
مايو ١٩٨٢ م



مجمع اللغة العربية بالقاهرة
١٥ شارع عزيز أباظة الزمالك

مجلة مجمع اللغة العربية

(تصدر مرتين في السنة)

الجزء التاسع والأربعون
رجب ١٤٠٢ هـ - مايو ١٩٨٢ م

المشرف على المجلة:
الدكتور محمد عبد الله

رئيس

الجنة

الفهرس

تصدير :

● بقلم ابراهيم التري

ص ٥

البحوث :

● كلمة الأستاذ منصور حسين

ص ٧

● ترائنا الفكرى واللغوى
للدكتور ابراهيم مذكور

ص ٢٧

● كلمة افتتاح المؤتمر
للدكتور ابراهيم مذكور

ص ٩

● حاشية على كناية
للدكتور اسحاق موسى الحسينى

ص ٣١

● المجمع بين مؤتمرين
للدكتور مهدى علام

ص ١٣

● الشمال والجنوب
للدكتور أحمد الجوفى

ص ٣٨

● كلمة الاعضاء العرب
للاستاذ عبد الله كنون

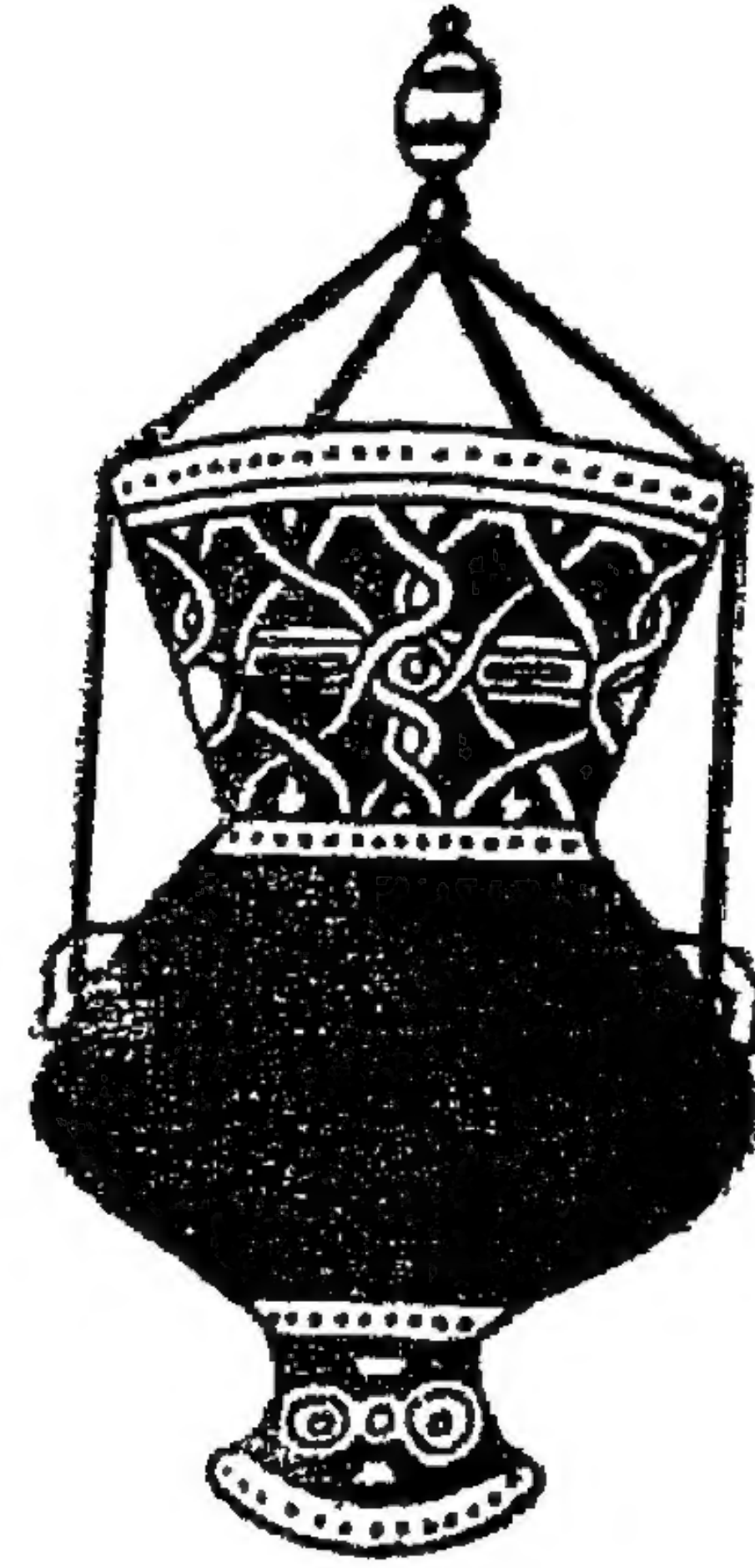
ص ١٧

● المراثى النبوية وشعراؤها
للاستاذ محمد عبد الفنى حسن

ص ٤٦



- من كناشة النوادر (٣)
للأستاذ عبد السلام هارون
ص ٦٤
- حياتي
قصيدة للدكتور حسن ابراهيم
ص ٧٨
- التراث اللغوي وكلمة حتى عندنا وعند
غيرنا
للدكتور عمر فروخ
ص ١٢٥
- أصالة ومعاصرة بتآن
للدكتور محمد عزيز الحبابي
ص ١٤١
- تجربتني في احياء التراث
للأستاذ عبد السلام هارون
ص ٨٢
- جولة مع تراثنا اللغوي وبعض من
حفظوه
للأستاذ محمد عبد الفنى حسن
ص ١٥١
- نقد الشعر عند صاحب المثل السائر
للدكتور عبد الله الطيب
ص ١٥٩
- عود الى ابن سينا
للدكتور حسن ابراهيم
ص ٩٤
- المتنبي بين نفسيته وشاعريته
للدكتور مهدي علام
ص ٩٩
- من طرق القرآن الكريم
للدكتور تمام حسان
ص ١٧٥
- عوائل الأعيان في غابر العصور والازمان
للدكتور رودلف زلهاييم
ص ١٩٤
- بين القرآن والنحو
للأستاذ علي النجدي ناصف
ص ١١٩



شخصيات مجمعية :

استقبال :

- كلمة الدكتور ابراهيم مذكور في استقبال
الدكتور توفيق الطويل

ص ٢١١

- كلمة الأستاذ بدر الدين ابو غازي في
استقبال الدكتور توفيق الطويل

ص ٢١٢

- كلمة الدكتور توفيق الطويل

ص ٢١٩

- كلمة الختام للدكتور ابراهيم مذكور

ص ٢٢٦

تأبين :

- كلمة الدكتور ابراهيم مذكور في تأبين
المرحوم الأستاذ على النجدي ناصف

ص ٢٢٧

- كلمة المجمع في تأبين الأستاذ على النجدي
ناصر

للدكتور نسوقى ضيف

ص ٢٢٩

- كلمة الأسرة
للدكتور جلال النجدي

ص ٢٣٥

- كلمة الختام
للدكتور ابراهيم مذكور

ص ٢٣٦

- كلمة الافتتاح
للدكتور ابراهيم مذكور في تأبين المرحوم
الأستاذ محمد زكي عبد القادر

ص ٢٣١

- كلمة الأستاذ محمد عبد الفنى حسن
في تأبين الأستاذ محمد زكي عبد القادر

ص ٢٣٩

- كلمة الأسرة
لنجل الفقيه الأستاذ سمير عبد القادر

ص ٢٤٩

- كلمة الختام للدكتور ابراهيم مذكور

ص ٢٤٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَصْدِير

بقلم : ابراهيم الترنزي

لكلّ لغة تراثها الأصيل .

وبقدر ما يمتدّ الزمان والمكان باللغة ، ويتوافر عطاء أهلها الثقافي ، تكون ذخيرة هذا التراث اللغوي في ميادينها العلمية والأدبية والفنية .

ولغتنا العربية من أعرق لغات العالم ، ولكنها تتفوّق على كل اللغات بوفرة تراثها ، وتنوّعه ، وجلاله ، وجماله .

كما تمتاز لغتنا العربية بأنّها - مع قِدَم حركة تدوينها - قد تلاحقت ، ونشطت ، ولم تتوقف في عطائها الثقافي ، بل أخذت تغزو بلداناً كثيرة في الشرق والغرب ، وتُصبح اللغة القومية لأبنائها .

وبذلك الامتداد الزماني والمكاني للغة العربية ، وفي ظلّ الحضارة الإسلامية المزدهرة ، ازداد تراثنا العربي قدراً وقيمة ، وأخذ تأثيره الحضاري يتجاوز حدود العالم الإسلامي إلى سائر الحضارات في شتى أرجاء العالم ، بعثاً ، وإحياء ، وتنويراً ، وتطويراً ، وبذلك كان للتراث العربي آثاره العميقة العريقة في مختلف الحضارات ، وصارت جزءاً غالياً من التراث الإنساني العالمي !

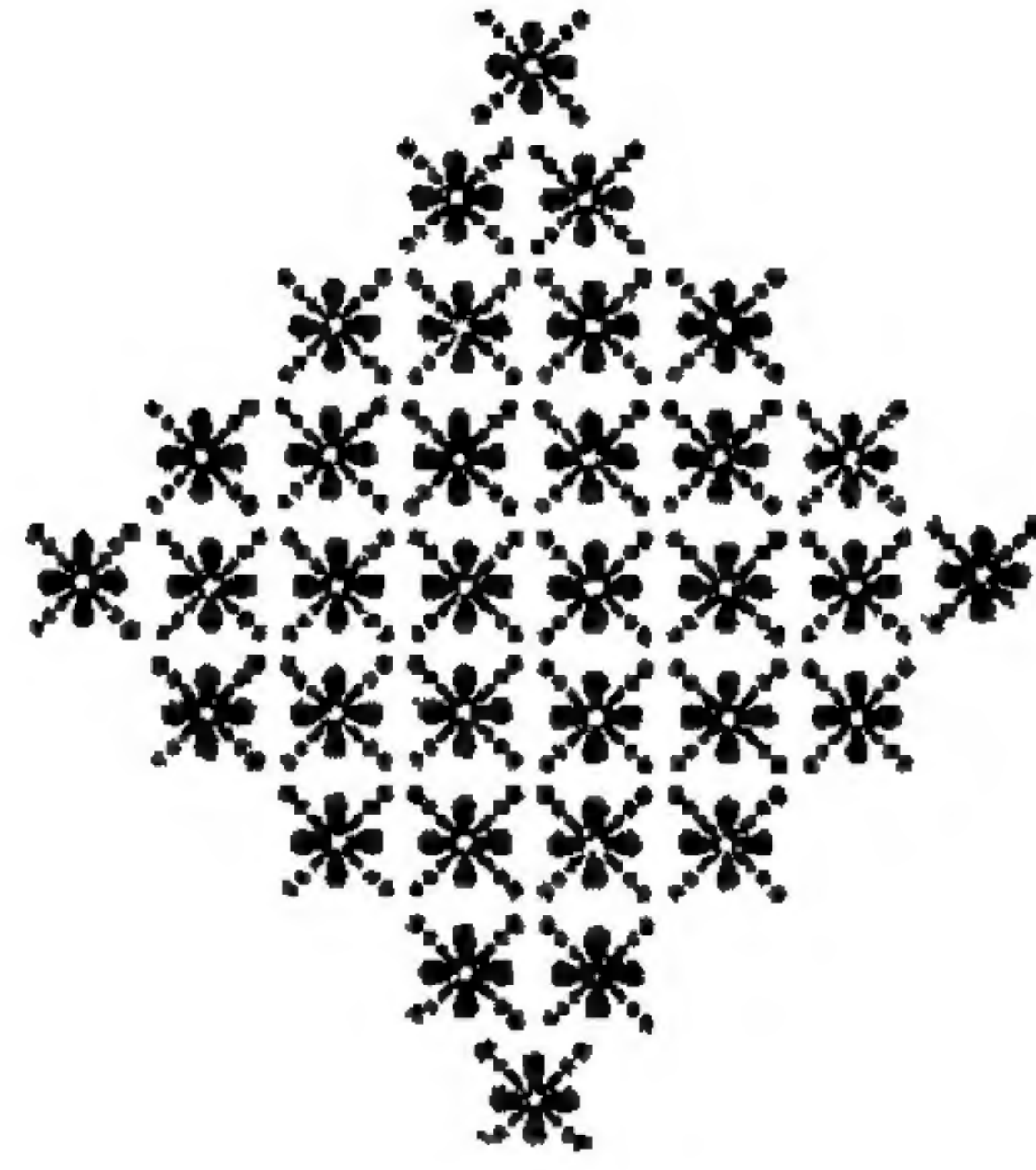
ولعلّ هذا ما حدا ببعض المستشرقين إلى إحياء تراثنا العربي ونشره ، وإلى أن يكونوا سبّاقين إلى ذلك ، في عناية وإتقان نفتقدهما في كثير من المحقّقين العرب !

وإن واجب الوفاء لأمتنا ، بل واجب الوفاء لأنفسنا ، ليفرضان علينا ألاّ ندّخر وشعاً في إحياء تراثنا العربي ، تعميقاً لأصالتنا العربية الإسلامية ، وتأكيداً لقدرتنا على العطاء الحضري ، ودّعماً لثقافتنا المعاصرة بمقوماتنا الثقافية العريقة !

ولا تتوقف الآثار الجلية لإحياء تراثنا العربى عند هذه الحدود ، و كلاًها مطلوب منشود ، لأن هذا الإحياء لتراثنا فيه تقويم وتسديد لبعض أحكامنا الثقافية والتاريخية . بل إنه يكشف - أحياناً - ما يؤدى إلى تغيير بعض هذه الأحكام التى صارت قضايا ومسلمات فرضت نفسها على الدارسين والباحثين !

ولهذا كله يدعو المجمع فى توصياته إلى العناية بإحياء تراثنا ونشره . ويسهم فى هذا الإحياء والنشر ، وقد اقترحه موضوعاً للبحث فى مؤتمره هذا العام . وقف عليه بعض أعضاء المؤتمر بحوثهم ، التى نلتقى بها فى هذا الجزء من المجلة .

ابراهيم الترسى
رئيس التحرير



كلمة الأستاذ منصور حسين

نائب وزير التعليم

فروع العلم والأدب والفن حتى أصبح المجمع حقيقة مجمعا للغة ومجمعا للعلم ومجمعا للثقافة ، ونحن في مصر كلما لجأنا إلى نص في اللغة أو العلم يكون مجمع اللغة العربية عوننا لنا في الخروج من هذه المشكلة أو تلك بإرشاداته وتوجيهاته ، لا على مستوى جمهورية مصر فحسب ، بل على مستوى العالم العربي وجميع الناطقين بلغة الضاد .

وبهذه المناسبة فإنه يشرف مصر ويشرف مجمع اللغة العربية أن يحضر زملاء لهم ، وأساتذة لنا من الدول العربية ، يشاركون في هذا اللقاء الهام ، يشاركون في هذا اللقاء القومى ، في هذا اللقاء الإنسانى ، من أجل دراسة كثير من الموضوعات التى يتناولها جدول الأعمال ، على يد أساتذة أفاضل نخوضون معارك اللغة والعلم بكل الجدارة والكفاءة والثقة .

تحية لكم أيها السادة الأفاضل ، تحية لجهلكم البناء فى سبيل دراسة كثير من الموضوعات المتصلة باللغة والعلم والثقافة ، وإن دراسة اللغة العربية وما يتصل بها تعتبر دراسة لثقافة عربية ، وتراث أصيل فى مجتمعنا العربى . حياكم الله وحيا جهودكم

بسم الله الرحمن الرحيم
« ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين » .

السيد الأستاذ الدكتور رئيس مجمع اللغة العربية :

السادة علماء اللغة والعلم فى جمهورية مصر العربية والدول العربية :

أتشرف فى بداية كلمتى بأن أبلغ الحاضرين جميعا اعتذار الأستاذ الدكتور مصطفى كمال حلمى وزير الدولة للتعليم والبحث العلمى من عدم حضوره هذه الجلسة ، فقد اضطر لسفر مفاجئ إلى السودان الشقيق مساء أمس . للاحتفال بتسليم رئيس جمهورية السودان الشقيق شهادة الدكتوراه الفخرية من جامعة القاهرة .

وبعد ، فيسرنى بالإنابة عن أسرة التعامم والبحث العلمى أن أفتتح أولى جلسات مؤتمر مجمع اللغة العربية فى دورته الثامنة والأربعين وأن أنوه بنشاط مجمع اللغة العربية سواء فى هذه المناسبة أو فى مناسبات غيرها فقد شارك مشاركة لغوية وعلمية جادة وبناءة فى صقل اللغة العربية ومصطلحاتها فيما يتصل بالعلوم والاقتصاد وغير ذلك من

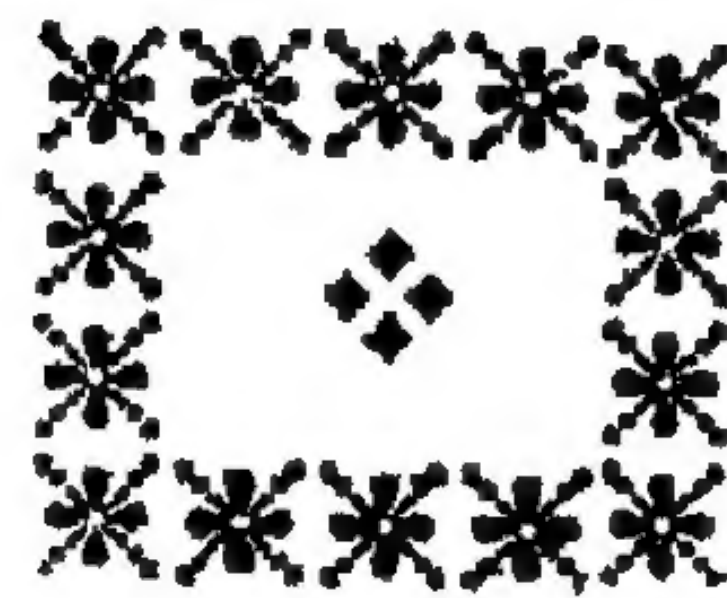
(*) ألقى الكلمة فى الجلسة الافتتاحية من مؤتمر الدورة الثامنة والأربعين فى ٢٨ من ربيع الآخر ١٤٠٢ هـ

الموافق ٢٢ من فبراير ١٩٨٢ م .

وإن قطاعات التعليم - سواء في مصر أو في غيرها من الدول العربية والإسلامية - لتنتظر بفارغ الصبر كل ما تتوصلون إليه من توصيات ومقترحات ، ولا بد لي في هذه المناسبة أن أقرر حرص مؤسسات التعليم في مصر ، وأعلم أيضاً ذلك الحرص في الدول العربية ، على أن تعود اللغة العربية إلى أصالتها وإلى ازدهارها التي كانت تتمتع به من قبل ، وكم دعونا أساتذة اللغة العربية إلى الاهتمام بالتحدث والكتابة باللغة العربية . وقد كان هناك لقاء قريب دعوت فيه إخواني المدرسين والمعلمين على مستوى نقابة المهن التعليمية في القاهرة ، دعوتهم إلى أن تكون اللغة العربية لغة الحديث في مواد اللغة العربية والتربية الدينية ، وفي بقية المواد الدراسية الأخرى ، حتى تأخذ اللغة مكانها الصحيح ، فهي ثقافة وهي علم وهي فن وهي تاريخ وهي حضارة ، وأنا شخصياً على رغم أنني لست من رجال اللغة ، إلا أنني أتوقع دائماً أن يكون لي دور للمواد العلمية والرياضيات ولغيرها من المواد الدراسية ، دور في تأصيل هذه اللغة وفي تحقيق مكانتها ،

فالحق أننا كلما أردنا أن نتزود من الثقافة لحأنا إلى اللغة العربية وقيمها ، وكلما أردنا أن نتزود من العلم لحأنا إلى اللغة العربية ومصطلحاتها ، وفي هذه المناسبة أتوقع أن تصدر عن هذه الدورة توصيات وتوجيهات ومقترحات أعد مقدماً بأن تضعها وزارة التعليم نصب أعينها لاهتمامها البالغ والشديد بقيم هذه اللغة ، والاهتمام البالغ والشديد بأن تعود اللغة العربية إلى ما كانت عليه ، لا بين المدرسين فحسب ، بل بين الطلاب وبين الشعب كله ، فهي مصدر من مصادر الحضارة ، وهي مصدر من مصادر الثقافة . وفقكم الله وحيا جهادكم سواء في هذه الدورة أو فيما سبقها من دورات أو فيما يتلوها من دورات أخرى ، حتى يتحقق الجهد البناء الذي نتوق إليه على أيديكم .

مرة أخرى أعود فأكرر الترحيب بحضراتكم جميعاً ، وأذكر بالشكر والتقدير كل ما بذلتم من جهود ، وفقكم الله ، يسدد خطاكم ، إنه نعم المولى ونعم النصير . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته



كلمة الدكتور إبراهيم مكرم رئيس المجمع في افتتاح المؤتمر

السيد نائب وزير التعليم والبحث العلمي :

إخواني وزملائي :

إن أول ما نبداً به هو أن نوجه الشكر الخالص إلى السيد نائب وزير التعليم والبحث العلمي على تلك الكلمات الطيبة التي تفضل بها . وإني أشاركه في الترحيب بزملائنا أعضاء مؤتمرنا ، الذين وفدوا إلينا من البلاد العربية الشقيقة ، وهم شركاء لنا في كل ما نبذله من جهد ، في خدمة اللغة العربية ، ولست في حاجة أن أشير إلى أن مجمع اللغة العربية بدأ حياته في تعاون صادق منذ نصف قرن تقريباً مع وزارة المعارف حينذاك ، ثم وزارة التربية والتعليم بعد هذا ، ثم انقطعت الصلة وقتاً ما ، وعاد المجمع مرة أخرى إلى قواعده مع وزارة التعليم والبحث العلمي . وإنصافاً للتاريخ أود أن أشير إلى بعض الأعمال الجمعية التي تمت خلال نصف القرن هذا ، وهذا مثل من أمثلة التعاون بين المختصين والقائمين على أمر تعليم اللغة العربية ورعايتها . أقول - إنصافاً للتاريخ - أود أن أقرر أن مجمع اللغة العربية اتجه نحو معجمه الوسيط بناء على رغبة من وزير سابق لوزارة المعارف هو المرحوم محمد علي علوبة ، فقد طالب إلى مجمع العربية أن يضع معجماً مدرسياً ، يغني

أو على الأقل ، يمكن أن يحل محل مختار الصحاح والمصباح المنير . عرض الأمر على المجمع فرحب - حينذاك - وسار به شوطاً طويلاً . قضى فيه نحو عشرين عاماً أو يزيد . بعد مادته ولكنه - وهو مجمع أكاديمي - لم يقف عند الرغبة الأولى التي اتجه إليها الوزير حينذاك فجاء معجمه أوسع من المعجم المدرسي . والمعجم الوسيط لم يمس على طبعته الأولى التي ظهرت عام ١٩٦١ بضع سنوات حتى نفذت ، ثم أعيد للطبع في عام ١٩٧٢ ، ودرج المجمع دائماً على ألا يعيد مطبوعاً إلا بعد تنقيحه وتهذيبه ، فيضيف ما يضيف ، ويحذف ما يحذف . ولست في حاجة إلى أن أقول لكم : إن هذا المعجم الوسيط يجد طريقه إلى المدارس والباحثين في العالم العربي جميعه ، بل في العالم الإسلامي . وأستطيع أن أقول أيضاً : إن سوقه خارج مصر أروج من سوقه في مصر . وهانحن أولاء نعد العدة لطبعته الثالثة وأرجو أن نقدمها للمطبعة قريباً إن شاء الله . ولست في حاجة إلى أن أشير إلى طبعات أخرى قام بها بعض الشطار في الأقطار الشقيقة ، ولم نحاول أن نحاسهم على ما صنعوا ولكننا اضطررنا في العام الماضي أن نخرج خمسة آلاف نسخة مصورة من الطبعة الثانية ، لأننا أحسبنا أن السوق في

(*) أقيمت الكلمة في الجلسة الافتتاحية من مؤتمر الدورة الثامنة والأربعين في ٢٨ من ربيع الآخر ١٤٠٢ هـ ، الموافق ٢٢ من فبراير ١٩٨٢ م .

حاجة إليها ، وكان الباعث الكبير في هذا أن نقاوم السروق السوداء في أسفار المعجم الوسيط .

ولا أظنني أبالغ إن قلت : إن المعجم الوسيط يعد معجم القرن العشرين العربى .

على أن الأمر في التعاون بين الجمع ووزارة المعارف ، أو وزارة التعليم ، لم يقف عند هذا ، بل شاء وزير آخر من وزراء التعليم أن نعود إلى فكرة المعجم المدرسى ، وهو السيد / كمال الدين حسين ، فاتجه نحو هذه الفكرة في جلد ، ورحب الجمع برغبته الترحيب كله ، وكون لجنة مشتركة من القائمين على أمر اللغة العربية في وزارة التربية والتعليم ، ومن رجال الجمع أنفسهم ، وقد سارت في الطريق شوطا ، ثم انقطعت الصلة فأبى الجمع إلا أن يسير في طريقه ، وانتهى أخيرا في العام الماضى بأن يخرج معجمه الوجيز ، الذى أخرجه مرة أخرى تلبية لرغبة وزارة التربية والتعليم أو وزارة المعارف ، أو وزارة المعارف على حسب أطوار الزمان . وهذا المعجم الوجيز ، وإن كان حديث العهد ، لست بحاجة إلى أن أقول : إنه مطلوب في العالم الخارجى وله سوقه فيها ، ولا أظن أن وزارة التعليم ستغفله ، بل أعتقد أنها ستفيد منه ، في أن تزود كل طالب من طلاب المدارس الثانوية بنسخة منه على نحو ما كان يحدث في الماضى من تزويدهم بنسخة من المصباح المنير ، أو مختار الصحاح .

وأختم بمثال آخر في التعاون التام بين الجمع والقائمين على أمر تعليم اللغة العربية ، هو تلك القضية الكبرى ، قضية تيسير النحو ، ولا تنتظروا من أكاديمى أن يغلق الباب على البحث في الأجرومية لمتخصصين ماشاءوا ، وليس من عملنا أن نعارض هذا البحث ، أو أن نصيِّقه أو نحدده وإنما الذى يعنيننا - كمعنيين بأمر اللغة ونشرها ونحن نعيش في عصر التعليم الإلجبارى . الذى يراد به أن تكون اللغة طوعا لكل أبناء الشعب في الأمة العربية جميعها - أن نبحث عن سبل التيسير في تقديم هذه اللغة لطلابنا ، وهنا - مرة أخرى - نجد وزيرا آخر من وزراء وزارة المعارف هو المرحوم بهى الدين بركات ، قد استوقفته مشكلة الأجرومية العربية ، أو مشكلة النحو كما يسمونها ، فشكّلت لجنة عام ١٩٣٠ في أواخر العقد الرابع من هذا القرن مثلت فيها وزارة التعليم والجامعة وانتهت إلى بعض المقترحات ، التى أرسلت إلى نجمع اللغة العربية ، فقضى عاما كاملا يدرسها ، وعامه الكامل حينذاك كان شهرين كاملين من الدرس بين المصريين والعرب والمستعربين ، وانتهى إلى قرارات زودها بتوصية هامة ، تقول : إن تلك المبادئ التى وُضِعَتْ تَسْتَأْزِمُ أمرين أساسيين في تنفيذها : الأمر الأول : إعداد الكتاب الملائم لها .

والأمر الثانى : تهيئة المدرّس لذلك .

ولم يكن من عمل مجمع اللغة العربية أن يضطلع بهذين العيشتين ، وترك أمرهما إلى وزارة المعارف أو وزارة التربية والتعليم بعد ذلك ، وقد شاء وزير جريء من وزارة التربية والتعليم هو السيد / كمال الدين حسن أن يضع هذا الموضوع موضع التنفيذ ، وقد أسف هو وأسفنا جميعاً ، لأنه وُضِعَ دون أن يؤخذ في الاعتبار ما أوصى به مجمع اللغة العربية من قبل ، من إعداد الكتاب الملائم ، ومن تهئية المدرس لتقبل هذه الصورة الجديدة من تعليم الأجيال العربية وكانت النتيجة أن التجربة لم تحقق الغرض المقصود منها ، ولا يزال الحديث تيسير النحو قائماً ، وقال قال مجمع اللغة العربية فيه كلمته ، وأحسن أن المربين والمعلمين ومدرسي اللغة العربية يشعرون بالحاجة إلى ذلك ولهم جهودهم ولكني أرجو أن تتسع هذه الجهود ، وأن تصل إلى مدى قريب ، مما سبق لمجمع اللغة العربية ووزارة المعارف نفسها أن وصلت إليه ، ولا أظن أن هذا مسلك جديد ، فقد سلكته اللغات الأخرى ، وأنتم تعرفون ما تم بوجه الخصوص في أجرومية اللغة الإنجليزية .

وأتى بعض الزملاء في هذه الجلسات التسع بحوثاً في الموضوع المقترح للمؤتمر وهو « لغة العسلم » ، كما ألقوا بحوثاً أخرى في موضوعات لغوية ، وأدبية ، وعروضية . وكان للشعر نصيب ملحوظ بقصيدة الزميل الأستاذ محمد عبد الغنى حسن : تحية للمؤتمر ، وقصيدة للطبيب الدكتور حسن إبراهيم : « في الدين والدنيا »

وفي الجلسة الختامية أصدر المؤتمر التوصيات والقرارات التالية :

١ - يوصى المؤتمر وزارات التربية والتعليم في مصر والوطن العربي بضرورة تيسير تعليم النحو للناشئة في ضوء الصيغة الميسرة التي قدمها الدكتور شوقي ضيف وأقرها مجلس المجمع ومؤتمره .

٢ - يوصى المؤتمر بأن تُعنى وسائل الإعلام - صحافة وإذاعة مسموعة ومرئية - بضرورة الحفاظ على قواعد اللغة العربية ونطق الكلمات نطقاً سليماً وإعداد العاملين بها إعداداً لغوياً وصوتياً . مستعينة في ذلك بالأساتذة المتخصصين في مجال النحو والصوتيات .

٣ - إن الحفاظ على سلامة اللغة العربية يتطلب من الجامعات والمسؤولين في وزارات التعليم ضرورة العناية باستخدام اللغة العربية السليمة في التدريس سواء في فروع اللغة العربية أو المواد الأخرى ، ومن ثم يوصى المؤتمر بضرورة إعداد المدرسين إعداداً لغوياً وصوتياً ييسر لهم استخدام اللغة العربية في التدريس استخداماً صحيحاً .

٤ - يوصى المؤتمر الصحافة العربية بمزيد من العناية بسلامة لغتها ، ويقدر للصحافة ما أخذت به من تخصيص جانب من صفحاتها للثقافة العربية بعامة ويوصى كذلك بفسح مجال أوسع لها ، مع ضرورة الاهتمام بما تخرجه الهيئات المتخصصة في مجال اللغة العربية وقنونها المختلفة .

هـ - إن تعريب التعليم الجامعي هدف يسعى إليه العالم العربي بأسره . وسبيله الحق هو تزويد مكاتبها بالمصادر العربية القديمة والحديثة ، وتزويدها بفهارس المكتبات الأخرى في العالم العربي ؛ حتى يتيسر للباحثين إنجاز مهامهم العلمية التي أصبحت الآن في حدود قواعد ضيقة قليلة .

هذا هو مجمع اللغة العربية في صلاته الوثيقة بوزارة المعارف ، أو وزارة التعليم ، وله صلة أخرى هامة ورئيسية هي لغة العلم ، وأستطيع أن أقرر - دون تردد - أن لغة العلم تشغل من نشاط مجمعنا مالا يقل عن ٦٠٪ من هذا النشاط ، ويكفي أن أشير إلى أن لجان المجمع المتخصصة ، وتكاد تبلغ العشرين أو تزيد ، فيها نحو ست عشرة لجنة منها ، تُعنى بالمصطلح العلمي في الطبيعة والكيمياء والصيدلة والأحياء والزراعة والحيولوجيا والهيدرولوجيا إلى جانب العلوم الرياضية والإنسانية المختلفة ، وفي كل ذلك يتخذ المجمع مقررات مختلفة ، ويقر مصطلحات معينة .

وإنصافاً - مرة أخرى - للجهاد المجمعى ، أحب أن أشير إلى أن المجمع في هذا ليس مصنّعاً ولا معملاً للألفاظ ، وإنما هو يسجل ما يرتضيه من استعمال استقرار وقدرة له الحياة التي نقدرها بالأقل عن ثلاثين سنة في الاستعمال المألوف ، تأليفاً أو كتابة ، في الصحافة أو في المجلات العلمية . المصطلح العلمي هنا في مجمع اللغة العربية من صنع أساتذة العلم في جامعاتنا

وغيرها ، وهؤلاء هم خبراؤنا ، وعندهم نأخذ ما نأخذ من مصطلح علمي .

وليس لنا أن نتكلم عن الرياضة مثلاً ، دون أن يكون بيننا أستاذ رياضي إلى جانب الرياضيين المحمدين أنفسهم ، أمثال الدكتور محمد مرسى ، شفاه الله ، وغيره من أساتذة الرياضة الآخرين ، أريد بكل ذلك أن أبين أن مجمع اللغة العربية ليس مغلقاً كما يظن ، بل هو مفتوح للبحث والدرس .

وهذه الجهود على اختلافها ، لغوية كانت أو علمية ، يسعدنا أن إخواننا وزملائنا من أعضاء المجمع في الأمة العربية يشاركون فيها عن بعد ، وعن قرب ، فنحن على اتصال بهم ، نبحث اليهم على مدى العام بما تنهى إليه لجاننا من دراسات وما يتخذ المجلس من قرارات ، ثم النظر فيما ينبغي أن نعيد النظر فيه .

تلك جوانب أحببت أن أشير إليها بمناسبة هذا المؤتمر ، ونحن على مقربة من العيد الخمسيني ، الذي أرجو أن نحتفل به جميعاً في العام المقبل إن شاء الله . وهنا لا يفوتني قبل أن أختم كلمتي أن أشكر الدكتور سيد نوفل الذي أتاح لنا ، كما أتاح لنا من قبل ، أن نلتقي في رحاب هذه الدار بجلستنا الافتتاحية ، ثم نعود مرة أخرى إلى مجمعنا للبحث والدرس إن شاء الله .

والسلام عليكم ورحمة الله .

ابراهيم مذكور
رئيس المجمع

المجمع بين مؤتمرين

الدكتور محمد عبد السلام

السيد وزير التعليم والبحث العلمي :

السيد رئيس المجمع :

السادة الزملاء أعضاء المؤتمر :

سيداتي . . سادتي :

المؤتمر السابق :

على هذا المؤتمر اللاحق ، دليل صادق ناطق ببعض ما نوهت به من شأن لغتنا العربية .

لقد تابع المؤتمر السابق نشاطه في اثني عشرة جلسة ، منها ثلاث علمية . إحداها جلسة الافتتاح ، وخصصت الثانية والثالثة لمحاضرتين عامتين ، ألقى إحداهما الزميل الدكتور شوقي ضيف ، وكان موضوعها : تيسير النحو ، وألقى الأخرى الزميل الأستاذ محمد زكي عبد القادر ، وكان موضوعها : لغة الصحافة .

أما الجلسات التسع الباقية فكانت مغلقة عرض فيها على المؤتمر ما أعدته لجان المجمع ، وأقره مجلسه ، من مصطلحات في الجيولوجيا ، والهيدرولوجيا والفيزيكا ، والكيمياء والصيدلة ، والرياضة ، وعلوم النبات والحيوان ، والطب ، والتربية ، والتاريخ ، وألفاظ الحضارة ، ومواد المعجم الكبير من حرف الجيم ، ومسائل من أعمال لجنة الألفاظ والأساليب .

وبعد مناقشات في هذه الجلسات تواصلت على مدى أسبوعين ، أقر المؤتمر

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته وبعد ، فيسعدني أن أرحب بكم ، في افتتاح مؤتمرنا المجمع ، ترحيب الشكر والتقدير والعرفان ، وأخص به من أقبلوا إلينا من زملائنا العرب الأشقاء ، والمستعربين الأعزاء ، ليسهموا في هذا المؤتمر اللغوي الكبير ، الذي يقيمه المجمع للعربية كل عام . وكم تجتلي فيه آيات بينات ، شواهد على ثراء هذه اللغة ، وما تمتاكه من طاقة خلاقية ، تهيب لها أسباب البقاء والنماء والعطاء ، فهي تنفرد بين اللغات بالعراقة والخلود ، وبالقدرة على التطور مع كل مستحدث جديد ، وحسبها شرفاً أنها اللغة الوحيدة التي ظلت أطول مدة في التاريخ لغة حية ، موصولة الكيان ، يفهم أهلها اليوم ما نطقت به منذ أكثر من ستة عشر قرناً ، وهو ما لا يتحقق للغتين العريقتين الآخرين ، اللاتينية واليونانية . ولعل الحديث عن مؤتمرنا السابق ، وما أنجزه المجمع ليعرض

(*) أقيمت الكلمة في الجلسة الافتتاحية من مؤتمر الدورة الثامنة والأربعين في ٢٨ من ربيع الآخر ١٤٠٢ هـ

الموافق ٢٢ من فبراير ١٩٨٢ م

أكثر ما عرض عليه من هذه المصطلحات العلمية ، والألفاظ الحضارية ، والمواد المعجمية .

كما أقر المؤتمر المسائل الآتية من أعمال لجنة الأصول ، وهي :

— حذف تاء التأنيث من المؤنث المجازي المصغر ، في المصطلح العلمي .

— النسبة إلى المثنى في المصطلحات العلمية .

— « لا » في محدث الاستعمال .

— الجمع بين « لم » و « لن » ، وبين

« لا » و « لن » بالواو ، في العربية المعاصرة ،

في مثل قولهم : « لم ولن يخلف وعده » .

وأقر الألفاظ والأساليب التالية ، التي

عرضتها لجنة الألفاظ والأساليب :

— الموسوعة .

— المنضدة .

— القيمة والقيم .

— صفراوى وصفرائى .

— جماد وتجمد .

— تربوى وتنموى .

— ترسم خطأ فلان .

— فحص الشيء .

— مصر تشجب العدوان .

— الاستشعار من بعد .

— حتى أنت يا صديقى .

أعمال المجلس واللجان في الدورة الحالية :

عقد مجلس الجمع تسعا وثلاثين جلسة ،

إحداها علنية ، استقبل فيها زميلا جديدا

فاز بعضوية الجمع ، وهو أحد شيوخ الفلسفة العربية والإسلامية ، الدكتور توفيق الطويل .

أما سائر الجلسات فكانت مغلقة .

وقد جدد المجلس انتخاب الأمين العام

لمدة أخرى ، ونظر مجلس الجمع في

هذه الجلسات ما أنجزته لجان الجمع من

مصطلحات في الحيلولة ، والنفط ،

والطب ، والكيمياء والصيدلة ، والأحياء

والزراعة ، والهندسة ، والرياضة ،

والفيزياء ، والاقتصاد ، والتربية وعلم

النفوس ، والجغرافيا ، والتاريخ ، والسدما ،

وألفاظ الحضارة الحديثة ، وأقر المجلس

منها أكثر من ألف وخمسة مئة مصطلح ،

ستعرض على مؤتمرنا هذا ، مع قرارات

لجان الأصول ، والألفاظ والأساليب ،

واللهجات ، ومواد جديدة أعدها لجناتا

المعجم الكبير .

مسابقة الجمع الأدبية :

كان موضوع المسابقة الأدبية ، في

الدورة السابقة : الشباب في الأدب العربي

الحديث — بحث فنى . وقد فاز بجائزتها

الأولى الأستاذ صلاح الدين عبد العزيز .

أما الجائزتان الثانية والثالثة فقد حجبتا

لأنه لم يرق إليهما بحث من الأبحاث المقدمة

إلى هذه المسابقة .

وقد أعلنت لجنة الأدب — بعد موافقة

المجلس — مسابقتها في هذه الدورة وموضوعها

الشيخ مصطفى عبد الرازق ، عضو الجمع —

مفكرا وأديبا .

مسابقة المجمع في احياء التراث :

فاز بجائزة المسابقة الأستاذ السيد إبراهيم محمد ، عن تحقيقه كتاب «ضرائر الشعر» لابن عصفور الأشبيلي الأندلسي . وقد قررت لجنة إحياء التراث ، تشجيعا لتحقيقه ونشره ، أن تكون لمسابقته جائزتان : أولى وثانية وأقرها المجلس على أن تكون الجائزة الأولى ستمائة جنيه ، والثانية أربعمئة جنيه ، والمسابقة مفتوحة للعالم العربي ولجميع المعنيتين بالتراث .

كذلك تسير اللجنة في تحقيق كتاب آخر من أهم كتب التراث اللغوي وهو التكملة والذيل والصلة ، على القاموس المحيط ، تأليف السيد محمد مرتضى الزبيدي صاحب تاج العروس ، وقد وزعت أجزاءه على المحققين .

المعجم الوسيط :

توشك لجنة المعجم الوسيط على الفراغ من إعدادها للطبعة الثالثة ، بعد مراجعة لغوية وعلمية ، وإضافة جزء ثالث إليه ، وهو الجزء الموسوعي الذي يتضمن ما يزيد على ألفي عكسم من أشهر الأعلام العالمية .

العيد الخمسيني للمجمع :

كان من المقرر أن نحتفل به في مستهل هذا المؤتمر ، لكن قصور الاعتمادات المالية ، والشؤون الطباعية ، وتأخر تأثيث المبنى الجديد للمجمع ، واستكمال وسائل تجهيزه وإعداداته ، كل هذا يدفع بموعد الاحتفال بهذا العيد إلى مؤتمر العام القادم ، إن شاء الله .

مطبوعات المجمع :

أصدر المجمع في هذه الدورة المطبوعات التالية . وهي :

— الجزء الثاني والعشرون من مجموعة المصطلحات العلمية والفنية .

— مجموعات المصطلحات التي نفذت طبعها ، فأعاد طبع أجزاءها : من الثاني إلى السادس .

— محاضر جلسات الدورة السادسة والأربعين .

— الأجزاء : من الثاني والأربعين إلى الرابع والأربعين من مجلة المجمع .

— الجزء الثاني من كتاب «التنبيه والإيضاح» المعروف باسم «حواشي ابن بري على الصحاح» .

— «مع الخالدين» للدكتور إبراهيم مذكور رئيس المجمع ، وهو باكورة مطبوعات العيد الخمسيني للمجمع .

وقيد الطبع المطبوعات التالية :

— الجزء الثاني من المعجم الكبير .

— الجزء الثالث والعشرون من مجموعة المصطلحات العلمية والفنية .

— محاضر جلسات الدوريتين : الثالثة والعشرين ، والرابعة والعشرين .

— محاضر جلسات الدوريتين : الخامسة والأربعين ، والسابعة والأربعين .

— الجزء الخامس والأربعون من مجلة المجمع .

— المعجم الجيولوجي .

— الجزء الأول من معجم الفيزيكا الحديثة .

— الجزء الأول من معجم الكيمياء والصيدلة .

كلمة الأعضاء العرب

د. سنان عبد الله كنون

سيدى الرئيس :

السيد نائب وزير التعليم :

السادة العلماء والأساتذة :

المحل اللائق بها بصفتها لغة أكثر من
مائة مليون نسمة ، ولغة الإسلام الذى
يدين به نحو ($\frac{1}{5}$) خمس سكان العالم ، ولغة العلم
والحضارة فى الماضى ، والتجديد والانبعاث
فى الحاضر ، فهذه أعماله ومنشأته كفيلا
بإسماع الصم وإنطاق البكم ، ممن يتجنون
عليه وينكرون أن يكون صنع شيئا للغتنا
الضادية الشريفة.

فقد بلغ ما وضعه أو أقره من المصطلحات
العلمية الحديثة أكثر من خمسين ألف مصطلح
وما أصدره من قرارات تتعلق بتيسير
قواعد اللغة العربية المثات ، وما أخرجه
من مجموعات للمصطلح العلمى العشرات
مما يكون معجما علميا بحثا بالمعنى الصحيح ،
وهذا إلى المعجم الوسيط الذى شرق
وغرب وأصبح توأم القاموس المحيط فى
الشهرة والاستعمال ، ومعجم ألفاظ القرآن
الكريم ، والجزء الأول من المعجم الكبير الذى
هو أول معجم من نوعه فى العربية ، والمعجم
الوجيز الذى سد فراغا كبيرا فى الاستعمال
اليومى للكاتب والطالب وعموم الناس ، إلى
مجلته التى دأب على إصدارها منذ أكثر من
أربعين عاما ، ولأنسى ما بهتم الجمع بإخراجه
من الكتب الأمهات فى اللغة مثل كتاب
التكملة للصاغاني ، وكتاب الحيم لآبى
عمرو الشيباني ، وكتاب الأفعال للسرقسطى

أحييكم تحية مباركة طيبة باسم أعضاء الجمع
الوافدين من مختلف أنحاء العالم العربى لمشاركة
إخوانهم أعضاء الجمع من المصريين فى هذا
المؤتمر الذى يعد مظهرا من مظاهر وحدة
الأمة العربية ، يمثل نضالها وتضامنها فى ميدان
الفكر والتعبير الذى هو أساس كل وحدة
فى أى ميدان آخر .

وإنها لفرصة عظيمة يتيحها لنا انعقاد
هذا المؤتمر كل سنة ، فى مدينة القاهرة
قلب العرب النابض وعاصمة الفكر العربى
للالتقاء برجال اللغة وأعلام الأدب المؤتمنين
على تراث العرب ، الذين قلما يجتمعون
على صعيد واحد إلا فى هذه المناسبة الفريدة .

لذلك تهفو قلوبنا وتتحرك مشاعرنا
كلما دنا الموعد ، وتلقينا الدعوة الكريمة
للحضور إلى مؤتمر الجمع ؛ فننفذ فى غبطة
وسرور ونهبط مصر العزيزة فنجد فيها كل
ما نريد من متعة النفس والعقل والقلب والروح
بجانب حفاوة الأهل والإخوة وإكرام الأقارب
والخلائ ، وإذا كان لى أن أذكر بشيء من
التنويه والإكبار ما يبذله الجمع فى
سبيل النهوض باللغة العربية وإحلالها

(*) أقيمت الكلمة فى الجلسة الافتتاحية من مؤتمر الدورة الثامنة والأربعين فى ٢٨ من ربيع الآخر ١٤٠٢ هـ ،
الموافق ٢٢ من فبراير ١٩٨٢ م .

والسلام الأمان تقرأه الأمم

ـلاك عند استقبالها والـور

والأمانى دوانىـا كالحجاني

كلها إيانع الثمار إـنضـير

والصلاة والحشوع فى هياكل الخـا

ـالذى إـستطير إـمنه إـالنور

ثمت الـبر إـوالتودد والتعـ

ـظيم إـللخالدين إـوالتوقـير

من زميل أو ما زميل إـهنا إـلا

مجاز عن عاجـز لا يحـير

قاصراً أو مقصر بل هما فالشأ

ن فيه القصور والتقـير

إن يكن قد غدا جليس الثرىـا

وهو منها سهيل المهجـور

فاللـىـالى يدنين كل بعـيد

يقطع الدرب إـمانأى ـ من يسـير

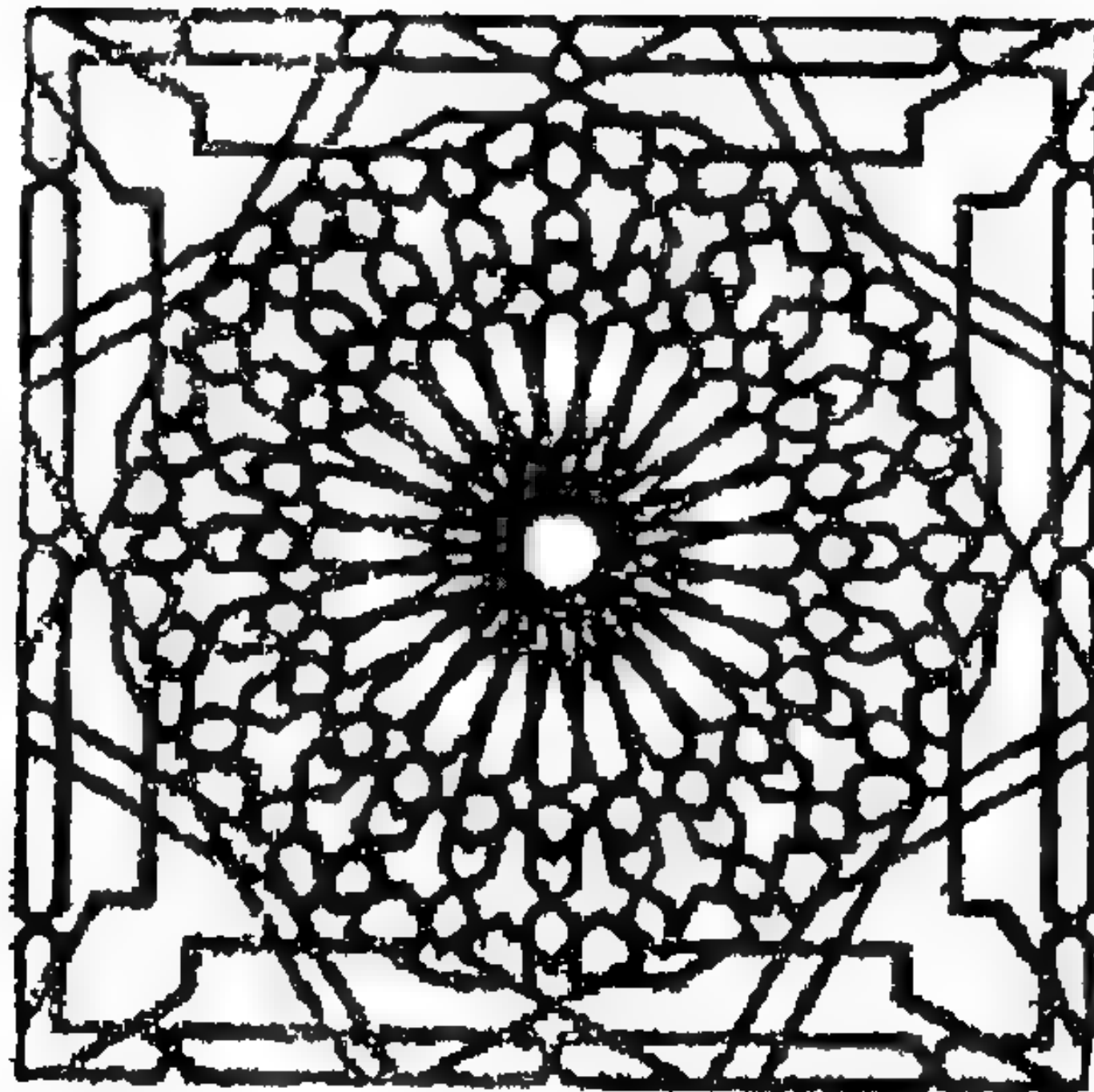
ولكم أفاز إـغير قيس بـلىـسى

إن لىلى أوصالها مـقـدور

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

عبد الله كنون

عضو المجمع من المغرب



لقاء الأحيّة

لـلـمـسـتـار محمد عبد الفتى حسن

كلّ عام لكم لدينا لقاء
سنة تنقضى ، وتقبل أخرى
موعد في أواخر البرد حيث الدّ
حيث (آذار) فيه موكب الزه
يأرجح الطيب منه في كل روض
موسم تنجلي الطبيعة فيه
تُسفر الأرض فيه عن كل حُسن
فهى عُريانة ، ولكن عليها
قطع في الرياض شتّى ؛ ولكن
ياربيع الحياة ! أنت حياة
موكب يلتقى الأحيّة فيه

يتجلى فيه الهوى والوفاء
وربيع يأتي ، ويمضي شتاء
فيه يسرى فتنشط الأعضاء !
ر ، وفيه نصارة ، ورؤاء . . .
وترف الظلال ، والأنباء
ويرق الهوى ، ويصفو الهواء
ليس فيه تنكر ، أو خفاء
من شفيف من الزهور كساء !
للمتها غلالة زهراء . .
بعد موت ، وصحوة ، ونماء
مثما يلتقى مع الراح ماء !

* * *

مزجت بيننا المودة . . . حتى
الخلافات بيننا تتلاشى
ولكل منا مسار على الدّر
ما اختلفنا على «العروبة» لما

لم تفرق ما بيننا الشحنة
ويحلّ السّماح والإغضاء
ب ، ولكن أهدأنا جمعاء
خالفت بيننا لها الآراء . . .

(*) أُلقيت القصيدة في الجلسة الافتتاحية من مؤتمر الدورة الثامنة والأربعين في ٢٨ من ربيع الآخر ١٤٠٢ .

الموافق ٢٢ من فبراير ١٩٨٢ م .

كلُّ قوم لهم طريقٌ . . . ولكن يلتقى في النهاية البعداء . .

* * *

أولسنا هنا نوطدُ (للضما
(مَجْمَعٌ) نلتقى عليه جميعا
حيث يغدو الأداء وهو سليمٌ
كلَّ عامٍ إليه يحتشدُ الجسد
من رجالٍ لهم على البحث فضلٌ
ويُذيبون في الطروس عُيُوننا
عملٌ صامتٌ بغير ادعاء
أَكْثَدوا العلم بالمحبسة حتى
لم تكدرهم السياسة بالفضة
فإذا دمدم النقاش فففيهم
ويعودون للهود . . . كببحر
في المحاريب عاكفون على الدر
التقينا بهم هنا . . . فتلاقى ال
وعلى صفحة الوجوه ائتلاق
وإذا ماصفا الوداد فإننا ال

(د) وتبنى لها ونعم البنساء ؟
لتنقى من بيننا الأخطاء
ويعودُ اللسان وهو نقاء .
ع ، ويحلو الحديث والإصغاء
وعلى العلم أنعمُ غراء
لم تذبهنَّ حلوةُ حَسَناء ! !
لا ضجيجٌ فيه ولا ضوضاء !
لم تعبهُم ضغينةُ عمياء .
ن ، ولم تظوهم لها الأهواء . . .
حدة في ثقاتهم وضراء
هدأت فوق متنه الأنواء . . .
س غراثٌ إلى العلوم ظماء . . .
عزُّ والمجدُ إيشامخاً ، والإباء
وعلى غرة الجبين ضياء . .
كُونُ حُبٍّ مُذَوَّبٌ وصفاء . .

* * *

شهد (المجلس الموقر) أننا
شرفُ العبء أننا فيه لسنا
شكرنا للرجال في (مجلس الشعب
فوق أكتافنا هنا أعيناء
وخذنا بل يُمدنا شركاء
(ب) عميقٌ يعيا به الأبيناء

قد أبانوا ، وأفصحوا ، فإليهم
 ماشكونا حملاً ، ولكن شكونا
 فد غزانا الدخيل من كل لفظ
 أيها المدخلون كل غريب
 يتناهى مديحنا والثناء
 أننا في لساننا غرباء !
 فيه - والله - عجمة والتواء !
 حسبنا في بلادنا الدخلاء !

* * *

(انفتحنا) في الاقتصاد . . . ولكن
 أكذا يُصبح البيان المصفى
 كيف نرجو شأو القوى وفيذنا
 ما كفانا الغزو السياسي حتى
 التوت ألسن الرجال ، وشاعت
 وعلى كل متجر قد تبدت
 غمعان من البيان خلاء
 بهرتنا بزيفها الأضواء !
 وهو حي ، واللفظ وهو هراء ؟
 معشر في لسانهم ضعفاء ؟
 قد غزتنا (الأفعال) و (الأساء) !
 في النوادي رطانة : عجماء !
 كلمات غريبة ، شوهاء
 وبيان من المعاني خواء . . . !

* * *

نحن لانهظر اقتراضاً لللفظ
 فليكن أخذنا (الغريب) اعتدالاً
 كيف ضاقت (أم اللغات) بشيء
 فتشوا معجم (المخصص) تلقوا
 لم يضيقوا بأي معنى دقيق
 فهو باب فيه لنا إثراء
 مثلما كان قومنا العقلاء !
 كان فيه أخذ لها وعطاء ؟
 ثروة فيه مالها إحصاء
 احتوته السماء والغبراء . . . !

* * *

أيها الوارثون مجدد (معد)
 إن أردتم لكم قواماً صحيحاً
 وعلاً (يعرب) وهم آباء
 فلتقوم لسانها الأبناء !

* * *

أصبحُ بـأَنَّ عاماً تولَّى
أصبحُ بـأَنَّ عاماً تَفْضَى
أصبحُ بـأَنَّ دَوْرَةَ دَهْرٍ
أصبحُ بـأَنَّ مَافِساتِ مَنا
حِقْبَةُ من مِساْفَةِ العُمُرِ ، فيها
طَلَعَ الصُّبْحُ بِالمَواكِبِ زُهْرا
فإذا الضاحكونَ في موكبِ الشَّمــ
عَبْرٌ للحِياةِ . . . نَعْرِفُ منها

وَأَنا ساءَ راحوا ، وقوما جاءوا ؟
بالسدى شَتُّهُ ، وما لا أَشاءُ ؟
انتهى أمرها ، وحسانَ ابتداءُ ؟
هو بلدٌ ، وليس فيه انتهاءُ ؟
ناوبتنا الأَفْراحُ ، والأَرْزاءُ . . .
وتولَّى بفضْهُنَّ المِساءُ . . . !
س ، وقد ذَوَّبَ العِيونَ البِكاءُ
كيف تَمْضِ الحِياةُ ، والأَحِياءُ ؟ !

* * *

سَقَطَ الفارِسُ الشَّجَاعُ مَهِيضاً
وَهَوَى النُّسْرُ من عُلاه وبات الـ
بَقِيَ اللهُ . . . وانتهى كُلُّ حَيٍّ
فَرَدَ اللهُ بالدَّوامِ . . . وأما

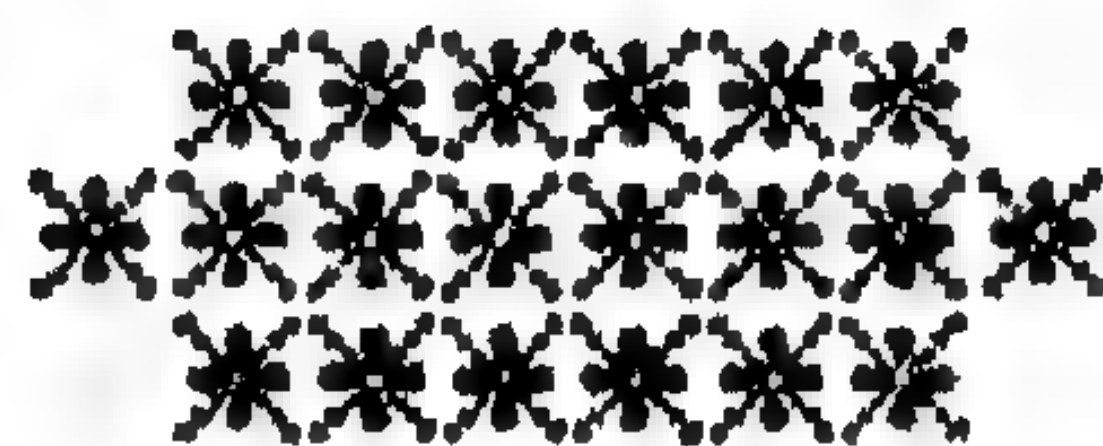
ضُرْجَتُهُ في غيرِ حَرْبِ دِماءِ
قَصُرُ من سا كُنِيهِ وهو خِلالُ !
مالِ شَيْءٍ سِوَى الإلهِ بِقِساءِ . . .
كُلُّ شَيْءٍ عِداؤُهُ فهو هِباءُ . . .

* * *

هَـمَنا نَلتَقى على شَرَفِ (الضا
صانِها اللهُ (بالكتاب) فَعَزَّتْ
أنا - والله - لستُ أَخْشى على (الضا
كيف نَخْشى هنا على الأرض شيئاً

(د) فَمَناها لَنا هَوى وانتماء
ولها فيه مَوئِلٌ واحتماء
(د) وفيها منُ بَينَكم نَصْراءُ
قَدِ أَمَدَّتْهُ بالخلودِ السِماءُ ؟

محمد عبد القنى حسن
عضو المجمع





تراثنا الفكري واللغوي

للكتور إبراهيم مكي

أن أشير إلى مثليين اثنين : أولهما « كتاب الفهرست » لابن النديم ، وثانيهما « كتاب كشف الظنون » لحاجي خليفة . وقد ظهر الكتاب الأول في النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة ، وشاء واضعه أن يحصى ما أُلِّف أو ترجم إلى العربية منذ صدر الإسلام . وهو وراق يتحدث حديث خبير . وأسفر إحصاءه عن عشرات العلوم والفنون ومئات المؤلفات والمؤلفين . ثم جاء الكتاب الثاني بعد الأول بسبعة قرون فتضاعف العدد عشرات ، بل مئات . وأصبحت الفنون نحو ٢٤٠ ، والمؤلفون نحو عشرة آلاف ، والمؤلفات نحو خمسة عشر ألفا ، وتتابع السير ، واطرد النمو ، وشهدت بذلك إحصاءات متلاحقة .

٢ - ولا سبيل لأن يعيش الفكر الإنساني بمعزل عن السياسة يضيء معها حيناً ويخبو حيناً آخر .

يزدهر بازدهارها ، ويُبلى بآمالها من ويلات ونكبات . وكثيراً ما قضت الحروب الداخلية

١ - للحضارات الإنسانية الكبرى آثارها ومخلفاتها . من أدب وفن ، وعلم وفلسفة . والحضارة الإسلامية من أعماق هذه الحضارات أثراً . وأوسعها أفقا . انتشرت ثقافتها شرقاً وغرباً ، وامتدت إلى العالم القديم في قاراته الثلاث . كتبت بعدة لغات : بين عربية وعبرية ، وسريانية أو فارسية ، وتركية وأردية ، فتراث الإسلام الفكري غني فسيح طويل عريض عَمَّرَ قروناً متلاحقة ، وأسهمت فيه شعوب مختلفة . وجه إليه الدين أصلاً ، وكان الاشتغال به عبادة ، وحفظه وتعمده قربة تعددت ألوانه : فيه شرعيات ، ولغويات وعقليات .

وتحت كل شعبة من هذه علوم وفنون ، وتحت كل علم أبواب وفصول . ووضعته فيه بحوث ودراسات : مختصرة ومطولة ، متون وأصول ، شروح وحواش . تعليقات وتقارير .

نمت على مر الزمن وتنوعت أساليبها ومناهجها ويكفي للتدليل على هذا الثراء والنمو المطارد

والخارجية على ما خالف الفكر الإنساني من نفائس وكنوز، ويكفي أن نشير إلى غزوات التار الذي أهلك الحرث والنسل، وحرماننا من مؤلفات لا نعرف منها اليوم إلا الاسم، أو بعض ما نقل عنها في مؤلفات معاصرة. ومن حسن الحظ أن الأمراء والعلماء كانوا يتنافسون في اقتناء الكتب والمخطوطات، وكان ينسخ من الكتاب الواحد عشرات المخطوطات، وكثيرا ما أعيد نسخه في عصور لاحقة.

وللوضع السياسي والخلاف المذهبي شأن في تخرير الكتب وجمعها، فكان الفاطميون مثلاً حراً أصابوا على كتب الشيعة حرص السلاجقة على جمع كتب أهل السنة.

وأضحى لكل فرع من الدراسات مظهران يبحث عنه فيها، ففقه المالكية مدين في حفظ أصوله لشمال أفريقيا، ويرجع إلى الشام ومصر في البحث عن كتب الشافعية.

ويعد اليمن اليوم أكبر مصدر لما بقي من مخلفات متأخرى المعتزلة. وأذكر أن المرحوم طه حسين استطاع يوم أن كان وزيراً للمعارف أن يرسل إليه بعثة كشفت عن بعض نفائسه ومن بينها كتاب المفتي للقاضي عبد الجبار الذي لم تستكمل أجزاءه حتى اليوم. ويوم أن آل النفوذ السياسي في الإسلام إلى الدولة العثمانية اتجهت حركة جمع المخطوطات وحفظها نحو مكتبات استامبول الخاصة والعامة التي نأمل في صدق أن يستكمل حصرها وأن ييسر أمر تصويرها والأخذ عنها.

٣- وللتراث العربي شأنه في تاريخ الثقافة الإنسانية، فهو ثمرة حضارة سادت العالم عدة قرون، وهمزة وصل بين القديم والحديث، أخذ عن الحضارات القديمة ما أخذ، وأضاف إليها ما أضاف. احتفظ منها بأجزاء ضاعت أصولها، ووجه إليها النظر في التاريخ المتوسط والحديث. والتراث اللاتيني مدين دون نزاع للتراث العربي. بدأ يأخذ عنه منذ عهد مبكر، في القرن العاشر الميلادي. وامتد هذا الأخذ إلى عصر النهضة والتاريخ الحديث. وهناك قدر من مؤلفاتنا العلمية القديمة نفتقد أصلها العربي، ولم يبق منها إلا ما احتفظت به الترجمة اللاتينية وعلى سبيل المثال نفتقد قدرا من أصول تفاسير ابن رشد على أرسطو، في حين نجدها مكتومة في الترجمات العربية واللاتينية.

واتجه الغرب مرة أخرى نحو الكنوز العربية في التاريخ المعاصر، وجدد في الكشف عنها والحصول عليها. وأعانه على ذلك الرحلة والسياحة، ومكنه منه الاستعمار الذي فتح الباب فسيحا أمام الباحثين وهوأة بجمع النصوص النادرة، وصاحب هذا أننا لم نكن نقتدر حقاً تراثنا، ولم نحرص على حفظه، ولا يزال عرضة للسلب والتجارة غير الشريفة. وفي المكتبات العامة الكبرى بأوروبا وأمريكا أقسام عربية عامرة بمخطوطاتنا ومؤلفاتنا القديمة وقد وقفت شخصيا على مخطوط منطق. «كتاب الشفاء» لابن سينا في «اليودليان» والمتحف البريطاني «قبل أن أحصل عليه من

مكتبات استامبول. ولم يكتف الغرب بهذا بل قام منذ القرن التاسع عشر بدراسات بيليوغرافية بجادة حاولت حصر المؤلفات العربية القديمة ، والتعريف بها وبمؤلفيها ومن أهم ما ظهر منها في آخريات هذا القرن فهرس مخطوطات القسم العربي بمكتبة برلين ، ويقع في عشر مجلدات ، وصنف تصنيفا تاريخيا دقيقا .

ثم جاء بعده ببضع سنين « تاريخ الأدب العربي لبروكلمان » ، الذي ظهر أولا في مجلدين اثنين ، ثم ألحق به بعد مدة ثلاثة مجلدات أخرى .

وعول عليه الباحثون تعويلا يذكر طوال النصف الأول من هذا القرن ، ورغم ما أخذ عليه من نقص أو قصور . وبدأ زميلنا الدكتور فؤاد سزكين منذ أربعين سنة تقريبا يتدارك على بروكلمان بعض ما فاتته ثم انتهى به الأمر إلى وضع دراسة بيليوغرافية جديدة تشمل مخطوطات العلوم الإسلامية المختلفة منذ النشأة حتى منتصف القرن الخامس الهجري . وتقع في عشرة مجلدات ينصب كل واحد منها على علوم معينة ، ونختمها بفهرس عام . ويأمل أن يتابع الشوط حتى القرن الحادي عشر . ومما يؤسف له أن هذه الدراسات كتبت كلها بلغات أجنبية ، ونأمل أن تجد سبيلها إلى العربية وبدأت الإدارة الثقافية بالجامعة العربية منذ زمن مضى ترجمة بروكلمان ، ولكنها لم

تتابع السير . وترجمت أخيرا أجزاء من كتاب سزكين .

٤ - وليس تراثنا اللغوي بأقل شأنًا من تراثنا الفكري . تعهدناه منذ عهد مبكر وتوالت الوفود على البادية ، لكي تهمل من الحياض الأولى ، وتأخذ العربية من منابعها وتنافس النقلة والرواة في السماع والحفظ والرواية ، ينقلون نثرًا وشعرا ، خطبا وقصائد حكايات ونوادر ، وشجعهم على ذلك الخلفاء والأمراء ، وأجزلوا لهم العطاء . وربما كان بينهم بعض المحترفين ، ولكن كان على رأسهم رواة ثقات وأئمة أعلام ، أمثال الأصمعي ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى ، وعلى هؤلاء عوّل اللغويون والمحققون . ومهد ذلك كله للتأليف المعجمي ، وليس ثمة لغة من اللغات العالمية الكبرى توفر لها ما توفر للعربية من معجمات ، وقد افتتح الخليل بن أحمد عصر المعجمات في القرن الثاني للهجرة ، ووضع « كتاب العين » المشهور . وتنافس الباحثون من بعده في وضع معجمات في أحجام متفاوتة ، وفي تبويب متنوع . ولا يكاد يخلو قرن بعد ذلك من ظهور معجم عربي ، وربما ظهر في القرن الواحد عدة معاجم . وبين أيدينا من هذه المعجمات قدر لا بأس به ، ومنه ما ترجم إلى بعض اللغات الأوروبية . ومنه ما لم ير النور بعد وتبذل جهود في تحقيقه وإحيائه .

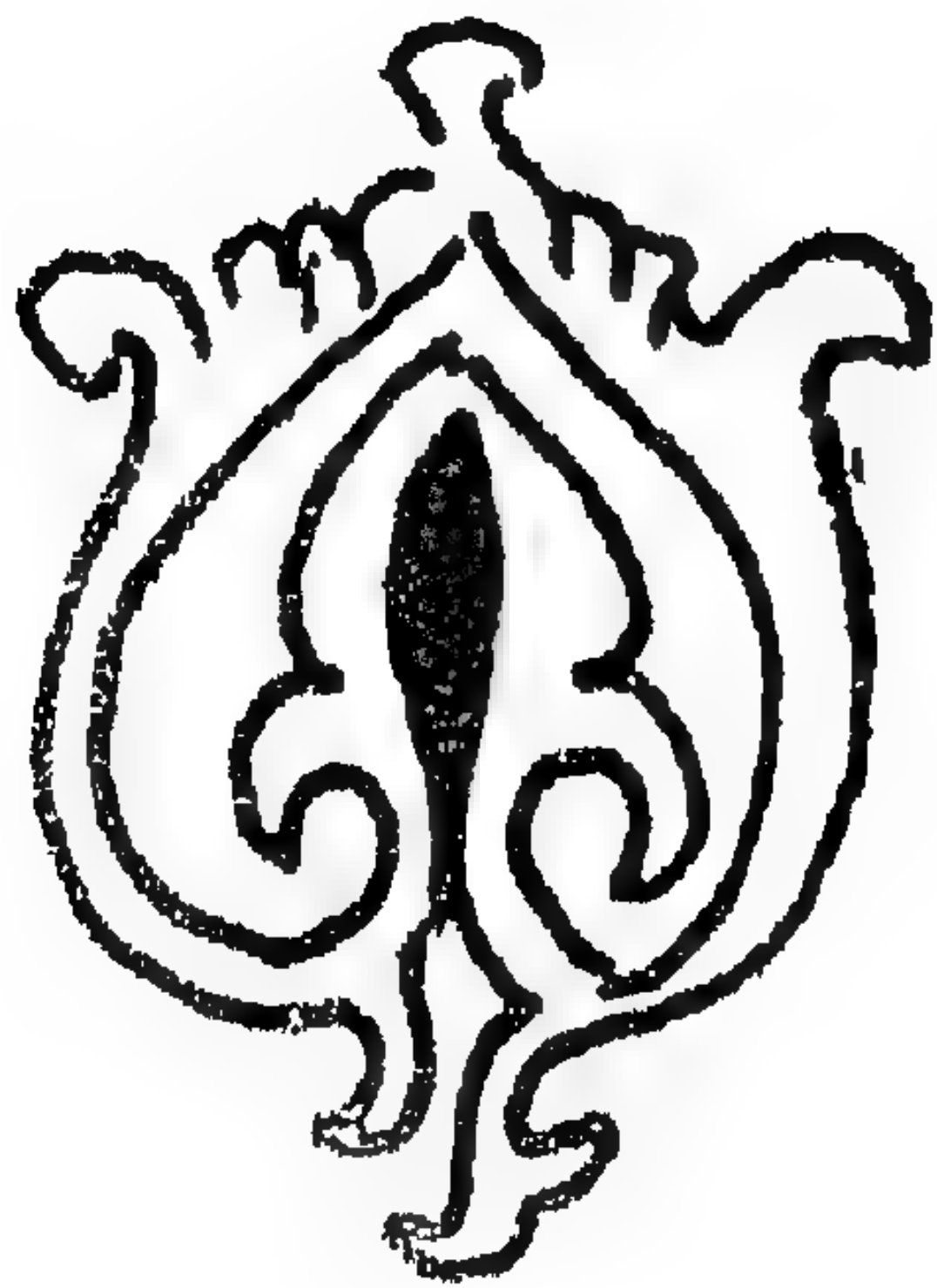
وقد رأى مجمعا أن من واجباته الأولى أن يضطلع بشيء من هذا العبء ، إلى جانب معجماته الحديثة ، وبذل في سبيله جهودا متلاحقة .

وفي الاثنى عشر عاما الأخيرة استطاع أن يسهم في هذا الإحياء إسهاما ملموحا فوضع نواة لمكتبة معجمية لم تكن رأت النور من قبل ، وتشتمل على ثمانية عشر مجلدا ينصب ست منها على « كتاب التكملة والذيل » للصاغاني ، وأربعة على « كتاب الجيم » للشيباني ، وأربعة أخرى على « كتاب الأدب » للفارابي ، واثنان على « كتاب الإبدال » لابن السكيت ، « وكتاب الأفعال » للسرقي واثنان أخران على حواشي ابن بري وهو يتابع السير ، وتحت يده نصوص

لغوية قيمة جديرة بالتحقيق والإحياء. ولست في حاجة أن أشير إلى أن تحقيقاته تجد سبيلها إلى العالم العربي بأسره ، ومن بينها ما نفذت طبعته الأولى .

هذا هو تراثنا الفكري واللغوي وما أحوجه إلى الجمع والتنسيق ، والحفظ والتسجيل والتحقيق والنشر. وجدير بنا أن ننظم الجهود المبذولة لنشره وننسقها تفاديا للتكرار ، وأن نأخذ في هذا النشر بالمنهج العلمي الدقيق ، وتراثنا العلمي بوجه خاص لم ينل بعد من عنايتنا ما نال من المستشرقين والباحثين الغربيين ، وهذا دون نزاع واجبنا ، وعلينا أن نؤديه . والسلام عليكم ورحمة الله .

ابراهيم مدكور
رئيس المجمع



حاشية على كناشة

للكنوز اسحق موسى الحسيني

أطرفنا

الزميل المحقق الأستاذ
عبد السلام هارون

بطاقة من كُنَّاشَة النوادر عامين متواليين .
وأستأذنه في أن أطرّز على كناشته هذه
الحاشية تحيةً له وإعجاباً به ، وهو
الذي غاص في بحور المكتبات وأخرج
منها لآلء كالدّر الغوالي ، عرضها في
(نوادير المخطوطات) في جزئين .

استرعت نظري لفظة كناشة لندرة
استعمالها في هذا العصر . وقد أطلقها
المؤرخ المرحوم محمود سليمان العابدی على
كتاب له سماه (كُنَّاشَة معلّم) صدر في
عمّان سنة ١٩٧٢ م .

فما أصل هذه الكلمة ، وما معناها ،
ومن استعمالها ، وما الألفاظ المرادفة لها ؟
جاءت الكلمة الثلاثي (كنش) شق (كنس)
فكنش وكنس بمعنى واحد ، وهي سامية
قديمة وردت بالسين في العربية وبالسين
في الحبشية **ሕሕ** وبالسامخ في العبرية
חִשַּׁח وبالسامخ وبالشين في الكلدانية

والآرامية ، وبالشين في السريانية **ܕܢܫܐ**
ومعناها فيها جميعاً واحد هو الجمع ،
ولا حاجة إلى سرد الألفاظ المشتقة منها
في هذه اللغات .

وحسبنا أن نذكر كنيس وكنيسة وكناس
وكنّاس وميكنسة .

والمعروف أن السين والشين تتعاوران
في اللغات السامية . فقنشرين بالعربية
هو قنشرين بالسريانية ، وسلام بالعربية
شالوم بالعبرية .

وردت كنش في العربية . ونصبت المعاجم
على معنيين لها هما :

١ - الكنّش : أن يأخذ الرجلُ المسواك
فيلين رأسه بعد خشونة .

٢ - الكنش : فتلّ الأَكْسِيَّةَ .
وربما كان فيهما معنى بعيد من كنّس ،

فالقتل يتضمن معنى الجمع .

وذكر التاج أن الجوهرى أهمل كنّش .
على كل حال لم تلاحظ المعاجم القديمة
العلاقة الوثيقة بين كنّس وكنش . والتاج

(*) ألقى البحث في الجلسة الثامنة من مؤتمر الدورة الثامنة والأربعين بتاريخ ٢٩ من ربيع الآخر ١٤٠٢ هـ ،

الموافق ٢٣ من فبراير ١٩٨٢ م .

أول معجم - بحسب علمي - أثبت الكُنْشَة في مادة كَنْشَش قائلًا : « ومنه - كَنْش - الكُنْشَة : الأوراق تُجعل كالدفتر يُقَيَّد فيها الفوائد والشوارد للضبط . هكذا يستعمله المغاربة . واستعمله شيخنا في حاشيته على هذا الكتاب كثيرا » . ونقل عن التاج أصحاب المعاجم المصنفة بعده ، أمثال علماء السريان مثل المطران توما (توماس) أودو في قاموسه (كنز اللغة الآرامية) ، والبطريك أغناطيوس يعقوب الثالث في كتابه (البراهين الحسبية على تقارب السريانية والعربية) والبطريك مار أغناطيوس أفرام الأول برصوم في كتابه (الألفاظ السريانية في المعاجم العربية) فقد أجمعوا على أن الكلمة سريانية الأصل وزاد البطريك أغناطيوس يعقوب الثالث أن الخفاجي ذكر في الشفاء أن « كُنْشَش زنة (غُرَاب) لفظ سرياني معناه المجموعة والتذكرة . والكَنْشَش الجماعة »

ولعل شهاب الدين الخفاجي المتوفى سنة ١٠٩٦ هـ (١٦٥٩ م) أقدم مَنْ نَصَّ على أن اللفظة سريانية في كتابه (شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل) .

وعبارة الخفاجي ، علاوة على ما تقدم : « . . . والكَنْشَش الجماعة كما أخبرني به بعض الثقات من الأخبار . وقد وقع هذا اللفظ كثيرا في كلام الحكماء وسموا

به بعض كتبهم كما يعرفه مَنْ طالع كتب الحكمة » .

وتبع الخفاجي المرتضى الزبيدي وعلماء السريان . واسترعى نظري الأستاذ المحقق قسطنطين M. J. Kister وأنا أنحوض غمار هذا البحث الدقيق إلى أن عالمين مستشرقين طرقا هذا الموضوع قبل نحو ربع قرن . وخلاصة ما ذهب إليه أولهما للأستاذ جويتاين (Sh. D. F. Goitein) أن اللفظة آرامية دخلت العبرية من قديم الزمان بدليل ورودها في التلمود البابلي وكتب السامرة الدينية ولم تدخلها بوساطة اللغة العربية لورودها بالشين . ورد عليه الأستاذ ن . ألوني^(١) أن لفظة كِنْشُوش - بهذا النطق - لم تدخل العبرية إلا بوساطة العربية عندما اشتغل اليهود بالطب مع السريان في صدر الإسلام . وظنى أن كلا الرأيين صائب مع توضيح يسير هو أن الاستعمال الأول كان بمعنى الجامع ومجموع الصلوات أو الأدعية فقط ، وهما من المعاني الرئيسية للفظ ، وأن الاستعمال الثاني بمعنى (المجموع في الطب) دخل العبرية بوساطة العربية فقط .

إن لفظة كُنْشَش (ج . كَنْشَش) وكُنْشَشَة (ج . كُنْشَشَات) لم تدخل العربية إلا في صدر الإسلام عندما ترجم السريان

(١) بحث الأستاذ « ن . ألوني » منشور في مجلة (قربات سيفر) مجلد ٣٢ ص ٤٩٥ سنة ١٩٥٧

كتب الطب إلى العربية ، ومن أقدمها
كنّاش ترجمة ما سرجيس (ماسرجون)
من السريانية إلى العربية عن كتاب أهرون
القسّس زمن مروان أو عمر بن عبد العزيز
(ابن القنطلى ص ٨٠ - دائرة المعارف
الإسلامية) .

ومن أقدمها كنّاش في الطب لجريس
ابن جبريل بن بختيشوع المتوفى ١٥١ هـ
(٧٦٨ م) ويذكره ابن النديم باسم جرجس
أبي بختيشوع (١) .

ذكر بروكلمان في كتابه (تاريخ
الأدب العربي) G. der Arab. Literatur
أحد عشر كتابا باسم كنّاش ، ستة منها
في الطب راثنان في التصرف وواحد في النحو
والصرف ، وواحد لم أتأكد من موضوعه
اسمه « كنّاش الحوارى في الحسان الحوارى »
لأبي الطيب الخزرجى المتوفى سنة ٨٧٤ هـ .
وأثبت حاجى خليفة في (كشف الظنون)
عددا من الكنانيش في الطب . وأثبت
ابن النديم في (الفهرست) عددا آخر .

ولا أدري أخطأ حاجى خليفة حين
أثبت (كنّاش) و (كنّاشة) منفردين
أم هو خطأ مطبعى : إذ لا شك في أن
ما أسماه (كناسه) ما هو إلا (كناشة)
بدليل أن الكناسيتين اللتين ذكرهما هما

في الطب ، وأن كناسة بالسین لم ترد في
العربية قط في ما بين أيدينا من مصادر .

وفرق الشيخ أحمد رضا في (معجم
متن اللغة) بين كنّاشة وكنّاش (زنة غراب)
وشرح الكنّاشة بأنها أوراق تجعل كالدفتر
يقيد بها الفوائد والشوارد للضبط عند أهل
المغرب ، وأظنه نقل العبارة عن صاحب
التاج ، وشرح الكنّاس (زنة غراب)
بأنه لفظة سريانية معناها مجموع فوائده
(معربة) الأمر الذى قد يوهم أن اللفظين
مختلفتان ، والحال أنهما شيء واحد .

لقد وردت لفظة كنّاش في المصادر
العربية بهذه الصورة على أنها مفرد جمعها
كنانيش . ثم جاء صاحب التاج وأثبت
كنّاشة - بالتاء المربوطة - جمعها كنّاشات
وجاراه في ذلك الشيخ أحمد رضا في
معجم متن اللغة ودوزى في قاموسه :
" Sup. aux Dict. Arabes " ، إجماعا بين
كنّاش وكنّاشة راداً الأصل إلى الآرامية :

ܟܢܢܐܝܬܐ ويبدو لي أن لفظة كنّاش
شاعت في المشرق العربى ، وأن كنّاشة
شاعت في المغرب العربى لقول صاحب التاج :
« وهم كنا يستعمله المغاربة ، واستعمله شيخنا
في حاشيته على هذا الكتاب » .

ولكنّاشة في العربية الدلالات التالية :
(١) الأصل تتشعب منه الفروع ، ولعلها
متصلة بالمعنى السريانى القديم لنصّ القسّس

(١) قال ابن النديم في الفهرس ط لبيزك ١٨٧٢ م ص ٢٩٦ : جورجس أبو بختيشوع في صدر الدولة وكان
فاضلا وله من الكتب كتاب الكنّاش المعروف .

جبرائيل قرداحي في كتابه (الباب في
الآرامية والسريانية والكلدانية) ط بيروت
١٨٨٩) بأنها عند علماء المنطق : المطلوب
والنتيجة .

(ب) الموسوعة الطبية Pandectae وهي
ما استعاض عنها العرب فيما بعد بالقانون
مثل قانون ابن سينا وبالكلييات مثل الكليات
لابن رشد .

(ج) مجموع فوائد وشوارد .

(د) بمعنى الكشكول تدون فيه الملاحظات
وإذا كانت الكلمة من مواليد العصر
العباسي فما الذي استعمله العرب في صدر
الإسلام ثم في العصر الحديث بمعناها أو بما
يشبهها ؟

لقد استعملوا القرطاس والدفتري والكراسة
والكشكول والنوطة .

ولنلق نظرة سريعة على كل منها :

أما القرطاس — وهي في الصيغة من أي
شيء كانت — فقد وردت مفردا وجمعا في
القرآن الكريم : « ولو نزلنا عليك كتابا في
قرطاس . » الأنعام ٧ ، « وما قدرُوا الله حقَّ
قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء
قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى
نورا وهدي للناس يجعلونه قرطاسا تبدلونها
وتخفون كثيرا » — الأنعام ٩١ — وشرح

المفسرون القرطاس بأنه « ما يكتب فيه من
ورق ونحوه » . ووردت في الشعر القديم
مرارا . ومن ذلك قول جرير في النقائض :

كأن ديار الحى من قديم البلى

قراطيس رهبان أحوال سطورها (١)
وذكر المحاظ في الحيوان أن أعرابية
قالت : أتهدى لى القرطاس والخبز حاجتى (٢) ؟
ووردت في شعر ليزيد بن معاوية وعروة
بن أذينة وأبي الشَّيْعى والشَّماخ بن ضرار .
وورد في أنساب الأشراف للبلاذرى
أن مروان بن الحكم صحب يوم مقتل عثمان
إلى بيت فيه قراطيس (٣) .

ويبدو أن الكلمة يونانية أصلا . جاء
في معجم جاسترو « Marcus Jastrow » أن

كلمة **קרטס** العبرية مأخوذة
من اليونانية بمعنى ورقة أو وثيقة . وعلى ذلك
تكون من ألفاظ الحضارة . وهي
تكتب بالعبرية بالكاف والقاف .
ويستعملون في بلاد الشام (خرطوشة)
بمعنى الورقة ، فهل هي من اللفظة نفسها ؟
أما دفتري — ج دفاتري — فقد ذكر معجمنا
الوسيط أنها تركية . وذكر محيط المحيط
للبيستاني أنها فارسية معربة . أما التاج فذكر
عن ابن دريد أنه لا يُعرف لها اشتقاق .
وذكر الخفاجي في الشفاء أنها عربية صحيحة
وإن لم يعرف لها اشتقاق .

(١) النقائض ج ١ ص ٥٣٧ ط ليدن سنة ١٩٠٥

(٢) الحيوان ص ١٩٢ ط القاهرة سنة ١٩٣٨

(٣) أنساب الأشراف للبلاذرى ج ١ ص ٢٢ — القاهرة سنة ١٩٥٩

وأرجح أنها من اليونانية ΔΕΦΤΕΡΙ،
 دخلت العربية مع ألفاظ الحضارة في قديم
 الزمان قبل أن يتصل العرب بالترك . ولكنها
 شاعت في الفارسية والتركية حتى أنا لم
 نعرف في المدارس التركية سوى الدفتر .
 ومنها الدفتر دار والدفتر نخانة . وفي الفارسية
 الدفتر نخوانة بمعنى المدرّس . وشيوعها
 في التركية حمل على الظن أنها من أصل
 تركي ولا تزال كثيرة الدوران على الألسنة
 في المعاملات التجارية .

ومن أمثلتها في الشعر القديم قول رؤبة
 ابن العجاج :

كيف تراني أنتحى في الدفتر

على قضيب المناهبات الشُّبَّير^(١)

وقول يحيى بن نوفل :

أبعد الدواة وبعد الطروس

وبعد انكبابٍ على الدفتر^(٢)

وذكر الجاحظ في الحيوان لمحمد بن

يسير :

إذا ما غدا الطلاب للعلم ما لهم

من الخط إلا ما يدون في الكتب

غدوت بتشميرٍ وجد عليهم

فمحرقي أذني ودفترها قلبي^(٣)

أما كراسة بمعنى الجزء من الصحيفة
 أو الدفتر فقدمت أيضا .

قال الجوهري : « الكراسة واحدة
 الكراس والكراريس » ، وأنشد للكميت :

حتى كأن عراض الدار أوعية

من التجاوز أو كُراس أسفار

ويذهب البطريرك أفرام برصوم في كتابه
 (الألفاظ السريانية في المعاجم العربية) ،
 إلى أن اللفظة من أصل سرياني هو Couroço
 وليس على ذلك دليل قاطع لاسيما ومادة
 (كرس) في العربية يشتم منها معنى الضم
 والجمع .

جاء في القاموس المحيط : « الكرسُ أبيات
 من الناس مجتمعة ج أكراس . وقلادة ذات
 أكراس إذا ضُمَّت بعضها إلى بعض » .
 وروى التاج عن ابن الأعرابي : « كرس
 الرجل إذا ازدحم علمه على قلبه . وسُميت
 الكراسة بذلك لتكرسها » .

واليوم شاعت كراسة حتى حلت محل
 دفتر في مصر وبلاد الشام .

وتوجد كلمات أخرى مماثلة مثل كشكول
 أصلها قدح المكدي يجمع فيه رزقه ثم
 أطلق على الكراسة . ويذهب البطريرك
 أغناطيوس يعقوب الثالث إلى أن الكلمة سريانية .

(١) ديوانه ص ٦١ ط برلين سنة ١٩٠٣ .

(٢) الشعر والشعراء ص ٤٦٥ ط . ليدن سنة ١٩٠٤

(٣) سبط اللاك ج ١ ص ٥١٥ ط . القاهرة سنة ١٩٣٦ .

ويذهب بطرس البستاني في محيط المحيط
إلى أنها فارسية ، وهو أرجح لورودها في
المعاجم الفارسية^(١)

وفي الفارسية كشكول ساز = صانع
الكشاكيل .

وقد أغفلها معجمنا الوسيط ومعجم متن
اللغة لأحمد رضا . وإذا صح قول البستاني
إنها أصلاً قدح المكدي يكون استعمالها بمعنى
الكناشة مجازاً مستساغاً .

وكتاب الكشكول صنو الخلاة لبهاء الدين
العاملي (١٠٣١ هـ) من الكتب الطريفة وهو
يحتوى على طرائف مرسلة بلا أبواب ولا
فصول . ومجلة الكشكول في مصر شهيرة .

وما نزال نستعمل اليوم الكشكول للكراس
الكبير أو المتفرع الموضوعات .

واستعملت لفظة (نوتة) بمعنى ما يدون
المرء من رأى أو خاطرة أو خلاصة المحاضرة .
وهى من الإنكليزية . واسترعى نظرى قول
الشيخ أحمد رضا فى مادة كناشة قوله :
« وأكثر استعمالها — الكناشة — عند الأطباء
وهى المفكرة عند أهل العصر . وأطلقها

مجمع دار العلوم على ما يعرف بالنوتة » .
وأذكر أنا كنا نستعملها فى الجامعة المصرية
قديماً . ورأيت استعمال جزازة بما يقرب
من كراسة فى كتاب (الخواص) للحسين
ابن على بن الحسين المغربى (٣٧٠ — ٥٤١٨ هـ)
الذى حققه زميلنا الكبير حمد الجاسر ،

فقد ورد فيه قول المؤلف : « وقد سلمت
لى من جزازات كشىء ما هو اليوم دال على
مشاغلى بالدين القيم » وذكر فى موضع آخر
أنه لم يسلم له سوى نسختين من الموطأ .
فهل معنى جزازة هنا ما فضل من كتبه؟
وقال الحريرى :

إذا ما هبطتُ مصرًا فبيتي

غرفة الخان والنديم جزازي

وذكر الشريشى فى شرحه للمقامات أن
الجزازات قراطيس صغار كان الكداء يكتب
فيها صفة حاله للاستجداء . فلما كانت تلك
القطعة تسقط من الورقة سموها جزازة
ثم اشتهر عندهم ما صغر من القراطيس بهذا
الاسم .

(1) Dict. Persian Arabic and English by Francis Johnson, London 1852.

— The Concise Persian - English Dict. 1976 by Abbas A. Kashani, Tehran .

— Persian - English Dist. F. Steingass, London .

إن جزارة تستعمل اليوم مرادفة لبطاقة أى
الرقعة الصغيرة من الورق يكتب عليها، وهى
عربية أصيلة من جزّ . وبطاقة لها جملة
دلالات مثل :

(١) بطاقة شخصية أو هوية - فى
بلاد الشام .

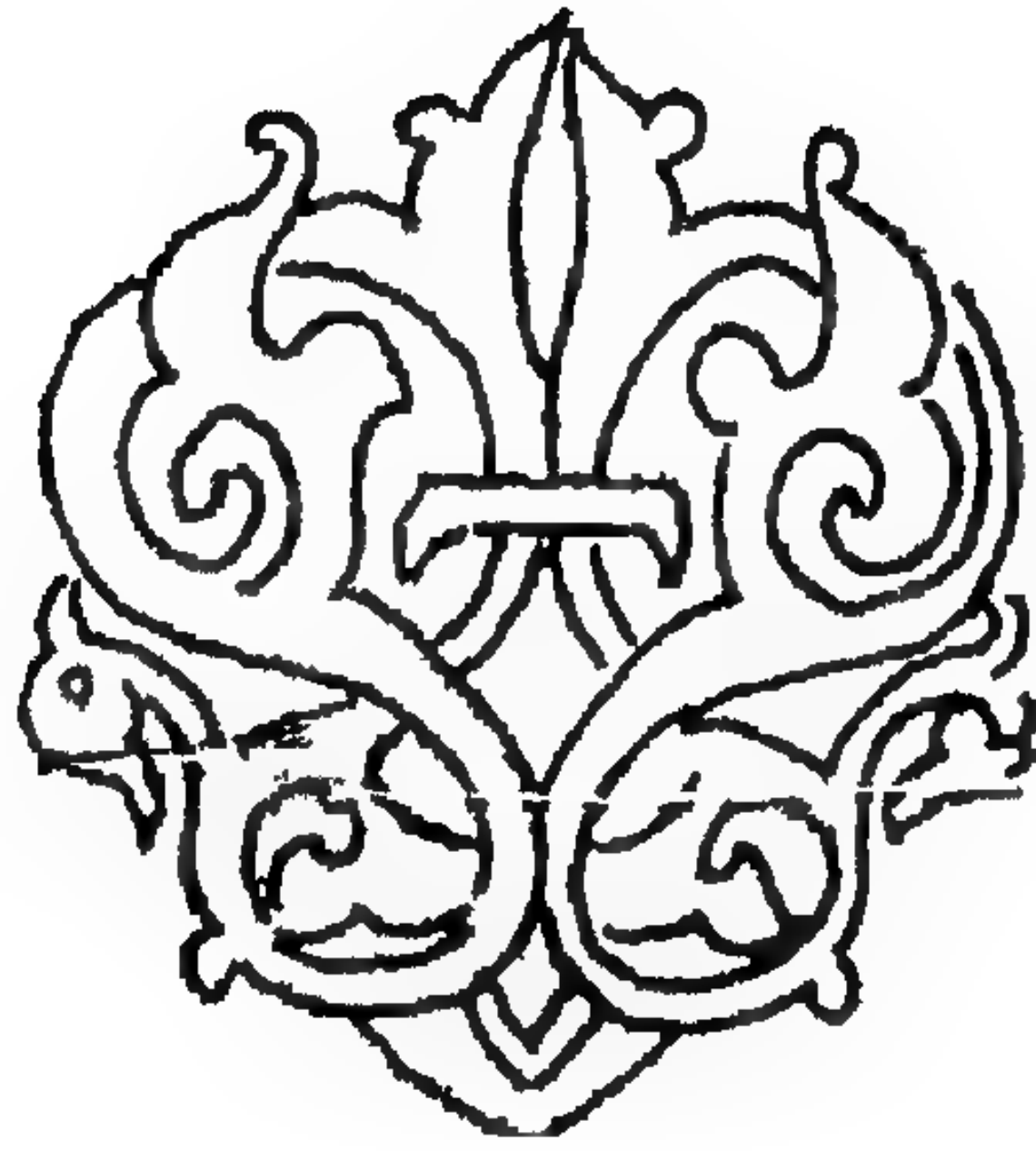
(٢) بطاقة زيارة .

(٣) بطاقة مواد غذائية أو التموين .

(٤) بطاقة معايدة .

وذهب بطرس البستاني إلى أنها تعريب
(بتاكيون) اليونانية بمعنى الورقة والرسالة .
ومع ذلك هى قديمة . جاء فى اللسان : (إن
امراه سألت ابن عباس عن مسألة فقال لها
اكتبيها فى بطاقة أى رقعة صغيرة » ثم قال :
« وهى كلمة كثيرة الاستعمال بمصر
حماها الله تعالى » . وهذا الدعاء مسك
الختم .

اسحاق موسى الحسينى
عضو المجمع من فلسطين



الشمال والجنوب

للكاتب أحمد الحوفي

على أنها اسم لنوع من الرياح هي الشمال والجنوب
فلنستشر علماء اللغة . ثم علماء الجغرافية ،
ثم نعقب بالرأى .

أولاً : في معاجم اللغة

المعاجم كلها تذكر أن الشرق هو الجهة
التي تشرق منها الشمس . والغرب هو الجهة
التي تغرب فيها الشمس .

لكنها لم تذكر — في مادة شمل وجنب —
أن الشمال والجنوب جهتان ، بل ذكرت
أنهما ريحان^(١) .

١ - الشمال

قال ابن دريد ٣٢١ هـ (٩٣٣ م) الريح
الشمال معروفة ويقال لها شمال وشمأل وشامل
بلا همز^(٢) .

وقال الأزهري ٣٧٠ هـ (٩٨٠ م) :

الشمال : ريح تهب من قبل الشام عن

إلى الذهن أول وهلة أن
الناس جميعاً يعرفون

بـ

الشمال ويعرفون الجنوب ، لأنهما الجهتان
الأصليتان اللتان تكملان الجهات الأصلية
الأربع وهي الشرق والغرب والشمال
والجنوب .

وقد يتساءل بعض الناس عن السبب في
تخصيص الشمال والجنوب بدراسة ، بل
قد يعجب من هذا التخصيص .

فما الداعي إذن لبحث عن الشمال وعن
الجنوب ؟

قبل الإجابة على هذا السؤال أضيف إلى
العجب من دراسة الشمال والجنوب عجباً
آخر هو أن كلمتي الشمال والجنوب لم تردا

في معاجم اللغة بمعنى الجهتين أو الناحيتين
المعروفتين ، بل وردت كل منهما على

(*) إلى البحث في الجلسة الثالثة من مؤتمر الدورة الثامنة والأربعين بتاريخ ٣٠ من ربيع الآخر ١٤٠٢ هـ ،
الموافق ٢٤ من فبراير ١٩٨٢ م .
(١) ماعدا المعجم الوسيط فقد ذكر في مادة جنب أن الجنوب الجهة المقابلة للشمال ، والريح التي تهب منها ،
وفي مادة شمل أن الشمال الجهة التي تقابل الجنوب ، والريح التي تهب من تلك الجهة .
(٢) الجمهرة لابن دريد ٣ / ٧١

يسار القبلة ، والشمال لغة فيها ، ويقال شامل
وشؤمئل وشؤمئل وشؤمئل ..

وأشمل يومنا : إذا هبت فيه الشمال .

وغدير مشمول : شملته ريح الشمال أى
ضربته فيبرد ماؤه .

ونقل المادة عن أبي عبّيد وأبي عبيدة وأبي
زيد والأصمعي والكسائي والليث وأبي حاتم
وابن السكيت وابن حبيب (١) .

وقال الزمخشري ٥٣٨ هـ (١١٤٣ م) غدير
مشمول : تضربه الشمال ، وليلة مشمولة :
باردة ذات شمال ، ونوى مشمولة : مفرقة
بين الأحبة ، لأن الشمال تفرق السحاب (٢) .

وقال ابن منظور ٧١١ هـ (١٣١١ م) :
الشمال الريح التي تهب من ناحية القطب ،
ونقل عن المحكم لابن سيده وعن ثعلب وعن
ابن الأعرابي ما سبق أن نقاه الأزهري ،
وقال : إنها تكون اسما وصفة (٣) .

ولم يخالف الفيروز ابادي ٨١٧ هـ (١٤١٤ م)
في شيء من هذا ، وزاد عليه أنها لا تكاد
تهب ليلا (٤) .

ثم جاء الزبيدي ١٢٠٥ هـ (١٧٩٠ م)
فردد ما سبق به (٥) .

٢ - الجنوب

أما الجنوب فقد ذكر ابن ذريرد أنها ريح
معروفة (٦) .

وقال الأزهري : الجنوب من الرياح
حارة ، وهي تهب في كل وقت . وبها
ما بين مهبي الصبا والدبور .

ونقل عن ابن بزرج وعن الأصمعي
وعن ابن السكيت وعن عماره (٧) .

وقال الزمخشري : إنها ريح (٨) .

وذكر ابن منظور أنها ريح ، ونقل عن
ثعلب وعن ابن الأعرابي وعن الأصمعي وعن
عمار وعن التهذيب للأزهري وعن الصحاح
للجوهري ما يدل على أنها ريح ، وأنها
عند سيديويه اسم وصفة ، وعارض الفارسي
في هذا (٩) .

وذكر الفيروز ابادي أن الجنوب ريح
تخالف الشمال ، مهبا من مطلع سنبل إلى
مطلع الثريا (١٠) .

(٢) أساس البلاغة للزمخشري مادة شمل (١٠)

(٤) القاموس المحيط للفيروز ابادي مادة شمل .

(٦) الجمهرة ١ / ٢١٥ .

(٨) أساس البلاغة مادة جنب .

(١٠) القاموس المحيط مادة جنب

(١) التهذيب للأزهري ١١ / ٣٧١

(٣) لسان العرب لابن منظور مادة شمل .

(٥) تاج العروس للزبيدي مادة شمل .

(٧) التهذيب ١١ / ١١٩ .

(٩) لسان العرب مادة جنب .

ولكن في لسان العرب وفي تاج العروس
تعبيراً آخر جديراً بالانتباه إليه والحرص
عليه ، هو : هذا أمر لأهل المدينة ومن كانت
قبلته على ذلك سمت من هو في جهتي
الشمال والجنوب (٤).

ففي هذا النص اللغوي الفريد دلالة على
أن الشمال جهة ، وعلى أن الجنوب جهة .
وسيتضح من أقوال الجغرافيين جميعاً
الشمال والجنوب جهتان ، كما أن الشرق
والغرب جهتان .

ثانياً : في مؤلفات الجغرافيين والمؤرخين

أما علماء الجغرافية — وهم ذوو الاختصاص —
فقد نقلت آراء طائفة منهم ، مرتبة ترتيباً زمنياً
لنتبين دلالة كل من الكلمتين منذ استعملوها .
١ — قال ابن خردادبه ٢٨٠ هـ (٨٩٣ م) :
... وهو من القطب الشمالى عن يساره إلى
وسط المشرق ... (٥).

وقال : حد القسطنطينية من الجنوب
بحر الشام ، ومن الشمال بحر الخزر ... وحد
تراقية من المشرق السور ومن الجنوب عمل
مقدونية ، ومن الشمال بحر الخزر .

وقال الزبيدي إن الجنوب على وزن صبور
رياح تخالف الشمال ، تأتي من يمين القبلة (١).

ثم ردد المعجم الكبير ما ذكرته المعاجم
السابقة ، ولم يذكر أن الجنوب جهة (٢).

كذلك اتفق شراح القصائد الطوال
الجاهلية المسماة بالمعلقات على أن الشمال
والجنوب ريحان ، في شرحهم لبیت امرئ
القيس :

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها

لما نسجتها من جنوب وشمال

أى لم يدرس رسمها لما نسجته من الجنوب
والشمال ، فهو باق .

وكان الأصمعى يذهب إلى أن الريحين
إذا اختلفتا على الرسم لم تعفياه ، ولو دامت
عليه واحدة لعفته ، لأن الريح الواحدة تسنى
على الرسم فيدرس ، وإذا اعتورت ريحان
فسفت عليه إحداهما فغطته ثم هبت
الأخرى كشفت عن الرسم ما سفت الأولى .

ففي نسجت ذكر الريح ، لأنه لما ذكرت
المواضع والنسج والرسم دلت على الريح ،
فكنى عنها للدلالة المعنى عليها (٣).

(١) تاج العروس مادة جنب .

(٢) أصول المعجم الكبير (لم يطبع) مادة جنب . أما مادة شمل وشمال فلم يحن جمعها بعد .

(٣) شرح القصائد السبع الطوال . ابن الأنبارى ٣٢٨ هـ (٩٣٩ م)

وشرح القصائد السبع للزوزنى ٤٨٦ هـ (١٠٩٣ م) .

وشرح القصائد العشر للتبريزى ٥٠٢ هـ (١١٠٨ م) .

(٥) المسالك والممالك لابن خردادبه .

(٤) لسان العرب وتاج العروس مادة شرق .

وعمل مقدونية حده من المشرق السور
وما يلي الجنوب بحر الشام^(١) .

وقال : رومية لها ثلاثة جوانب ، منها
الشرقي والجنوبي والغربي في البحر والجانب
الشمالي يلي البحر^(٢) .

وهذه نصوص قديمة فيها كلمة الشمال
والشمالي والجنوب والجنوبي للدلالة على الجهة .

٢ - وقال الهمداني - أبو عبد الله أحمد
ابن محمد الهمداني المعروف بابن الفقيه -
حوالي ٢٩٠ هـ (١٩٠٣ م)^(٣) :

عرض الأرض من القطب الجنوبي
إلى القطب الشمالي^(٤) ...

وقال : والبحر الجنوبي^(٥) ..

وقال : ... اليمامة واديان يصحبان من
مهب الشمال ويفرقان في مهب الجنوب^(٦) .

فوصف القطبين بأنهما شمالي وجنوبي .

ووصف البحر بأنه جنوبي .

وعين واديين بأنهما ينبعان من مهب
الشمال ، ويصبان في مهب الجنوب ولا معنى
للمهب إلا أنه مكان المبوب أي الجهة .

٣ - وقال الهمداني ٣٣٤ هـ (٩٤٥ م)
أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب :

فجنوبها اليمن ، وشمالها الشام^(٧) .

وقال : تظهر على أهل الجنوب كواكب
لا يراها أهل الشمال ، ويظهر على أهل
الشمال ما لا يراه أهل الجنوب^(٨) .

وقال : فإذا مالت الشمس في الشمال
سقطت الأظلال بها إلى الجنوب ، وإذا مالت ...
سقطت أظلالها إلى الشمال^(٩) .

٤ - وقال المسعودي ٣٤٦ هـ (٩٥٧ م) :
« وأما أهل الربع - ربع الأرض - الشمالي »
وهم الذين بعدت الشمس عن سمتهم من
الواغلين في الشمال كالصقالبة والإفرنجية ...
وأما أهل الربع الجنوبي كالزنج^(١٠) ...

(١) المصدر السابق ١٠٥

(٢) المصدر السابق ١١٣

(٣) الهمداني بالذال المعجمة لم تعرف سنة وفاته ، ولكن المعروف أنه انتهى من تأليف كتابه (البلدان) سنة ٢٨٩ هـ عقب وفاة الخليفة المتوكل . وهو كتاب ضخم في خمسة أجزاء في حوالي أثنى صفحة ، وقد اختصره على الشيزري سنة ٤١٣ هـ (١٠٢٢ م) راجع بروكلمان ٤ / ٢٣٨ والأدب الجغرافي العربي تأليف : اغناطيوس كراتشكوفسكي ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ١٦٢ ومعجم الأدباء ٤ / ١٩٩ ، والأعلام للزركلي ، والفهرست لابن النديم ٢١٩ وذكر معجم المؤلفين أنه توفي سنة ٣٦٥ هـ .

(٤) البلدان للهمداني ٥

(٥) المصدر السابق ٧

(٦) المصدر السابق ٥٨

(٧) صفة جزيرة العرب للهمداني (الهمداني بالذال المهملة) .

(٨) المصدر السابق ٣

(٩) المصدر السابق ١١ (١٠) التنبية والإشراف للمسعودي ٢٢

قسمت الحكماء الأرض إلى جهة المشرق والمغرب والشمال والجنوب . . . فوجدوا العمران من موضع خط الاستواء إلى ناحية الشمال . . . فبعرض ما بين الشمال والجنوب (١).

وقال : فما كان من الفلك أخذاً من الجنوب إلى الشمال يسمى العرض ، وما كان أخذاً من الشرق إلى الغرب يسمى الطول (٢).

٥ - وقال الإصطخرى ٣٤٦ هـ (٩٥٧ م) :

وقسمة الأرض على الجنوب والشمال . . . فما كان في حد الشمال من هذين القسمين فأهله بيض ، وكلما تباعدوا في الشمال ازدادوا بياضاً . . . وما كان مما يلي الجنوب من هذين القسمين فإن أهله سود ، وكلما تباعدوا في الجنوب ازدادوا سواداً (٣).

٦ - وقال المقدسي ٣٧٥ هـ (٤٠٥ م) :
... القطب الجنوبي ... إلى الشمال ، ... فالخلق على الربع الشمالي من الأرض ، والربع الجنوبي خراب (٤).

٧ - وقال أحمد بن محمد المرزوقي الأصفهاني ٤٢١ هـ (١٠٣٠ م) :
أحد السماكين جنوبي وهو الأعزل ، والآخر وهو الرامح شمالي . . . منحدر من الجنوب .

ونقل عن الفراء قوله : البوارج الرياح الصيفية ، وسميت بذلك لأنها هي السوم التي تأتي من الشمال . . . وجهة القطب الجنوبي وجهة القطب الشمالي . . . والتي تهب من جهة القطب الجنوبي هي الجنوب ، والنعامي وهي تهب من جهة القطب الشمالي وتسمى الشمال (٥).

وتكرر هذا في مثل قوله : ولكنني أعني بالشمال والجنوب اللذين هما عن جانبي خط الاستواء (٦).

فترددت في كتابه كلمة الشمال والشمالي وكلمة الجنوب والجنوبي .

٨ - وقال البيروني ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ م) :
... عند تناهي قرب الشمس من القطب الشمالي (٧).

وقال : . . . البلاد المصاوبة لمقرهم في مشارق الأرض وشمالها (٨).

٩ - وقال الإدريسي ٥٦٠ هـ (١١٦٤ م) :
والخلق بجملته على الربع الشمالي من الأرض وأيضاً فإن الربع الجنوبي غير مسكون (٩).
وقال : إلى شمال التيه . . . إلى جنوب وسطها . . . فيمر في جهة الشمال . . . فيتصل من جهة الجنوب بأرض هرقلية (١٠).

(١) المصدر السابق ١ / ٨٩

(٢) أحسن التقاسيم للمقدسي ٥٩

(٣) المصدر السابق ٢ / ٨٥

(٤) المصدر السابق ٣٦

(٥) المصدر السابق ١١

(١) مروج الذهب للمسعودي ١ / ٨٦

(٢) المسالك والممالك للإصطخرى ١٦ .

(٣) الأزمينة والأمكنة للمرزوقي ١ / ٢١٦

(٤) الآثار الباقية عن القرون الخالية للبيروني ٨

(٥) نزهة المشتاق للإدريسي ٨

١٠ - وقال ياقوت الحموي سنة ٦٢٦ هـ
(١٢٢٨ م) :

الخلق في الربع الشمالي من الأرض ،
والربع الجنوبي خراب . . . العمران في
الجانب الشمالي من الأرض أكثر منه في
الجانب الجنوبي ، ويقال : إن في الشمالي
أربعة آلاف مدينة ، وإن كل نصف من
الأرض ربعان ، فالربعان الشماليان هما
النصف المعمور . . . فهذا الربع غربي
شمالي . . . فهذا الربع شرقي شمالي ، وكذلك
النصف الجنوبي فهو ربعان : شرقي جنوبي . . .
وربع غربي لم يطأه أحد (١) .

واختلف قوم في هذه الأقاليم السبعة : في
شمال الأرض وجنوبها أم في الشمال دون
الجنوب . وذهب الأكثرون إلى أن الأقاليم
السبعة في الشمال دون الجنوب ، لكثرة
العمارة في الشمال وقلتها في الجنوب ، ولذلك
قسموها في الشمال دون الجنوب (٢) .

١١ - وقال ابن سعيد المغربي (- على
ابن موسى) ٦٨٥ هـ (١٣٨٦ م) :

عرض المعمور أقصاه في الجنوب إلى
أقصاه في الشمال ٨٠ درجة ، وما بعد ذلك
في الجنوب لا يسكن ، لقوة حرارة

الشمس . . . وما بعده في الشمال لا يسكن ،
لقوة البرد والجماد .

ومجموع المعمور مقسوم على تسعة أقسام .
المعمور خلف خط الاستواء إلى الجنوب . . .
إلى أقصى العمارة في الشمال (٣)

وقال : المعمور خلف خط الاستواء
إلى الجنوب عرضه ١٦ درجة . لا يظهر فيه
البحر المحيط من المغرب الأقصى ، ولا في
الجنوب .

وقال : كما تدخل إليها خمسة أنهار من
الجانب الشمالي (٤) .

وقال : وتحتها بمصر نيل مقدشو الخارج
في شمال الخط . . . ومجالات أكرار
في شمالها (٥) .

وقال : المعمور من الأرض في شمالي
الأقاليم السبعة (٦) .

ولقد ردد ابن سعيد الدلالة على جهة الشمال
وعلى جهة الجنوب بقوله الشمال والجنوب
تارة ، والشمالي والجنوبي تارة ، كما فعل كثير
من سابقيه .

١٢ - وأجتزئ من أبي الفداء ٧٣٢ هـ
(١٣٣٠ م) بقوله :

خط الاستواء يفصل الأرض بنصفين ،

(٢) المصدر السابق ١ / ٢٥

(٤) المصدر السابق ١٢

(٦) المصدر السابق ١٣٣ .

(١) معجم البلدان لياقوت ١ / ١٩

(٣) بسط الأرض في الطول والعرض لابن سعيد ١١

(٥) المصدر السابق ١٣

أحدهما شمالي ، والآخر جنوبي أحد الشماليين هو الربع المسكون وأما جنوب المغرب فإنه لم يصل أحد فيه إلى البحر ، وكذلك شمال المشرق^(١).

١٣ - وهكذا ترددت كلمة الشمال والشمالي والجنوب والجنوبي في نهاية الأرب للزويري ٧٣٢ هـ (١٣٣٠ م)^(٢).

وفي مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري^(٣) ٧٤٨ هـ (١٣٤٦ م).

وفي رحلة ابن بطوطة ٧٧٩ هـ (١٣٧٧ م)^(٤).

وفي مقدمة ابن خلدون ٨٠٨ هـ (١٤٠٦ م)^(٥).

وفي صبح الأعشى للقلقشندي^(٦) ، وقد

ذكر أن أهل مصر يسمون جهة الجنوب

القبليّة ؛ لأنها في جهة قبلتهم ، ولهذا

يبدأون بها في التحديد^(٧) ..

لعل فيما سبق ما يعزز الصواب في إطلاق

الشمال والجنوب على الجهتين المكملتين

للجهات الأربع ، ولأنه ليس في اللغة ما يمنع

هذا الإطلاق ، على الجهة وعلى الريح

التي تهب منها .

وإذا كانت كل من الكلمتين قد سمي

بها نوع من الريح فإن هذا لا يمنع من أن

الريح سميّت بالجهة التي تهب منها ، فالشمال

جهة ، والشمال أيضاً الريح التي تهب من تلك

الجهة ، وكذلك الجنوب .

ولأنه ليزيد هذا تعزيزاً .

١ - أن ابن منظور والزبيدي ذكرا في مادة

شرق أن الشمال والجنوب جهتان .

٢ - وأن المرزوقي الأصفهاني نقل في

كتابه الأزمنة والأمكنة عن الفراء قوله :

البوارج الرياح الصيفية ، وسميت بذلك

لأنها هي السوم التي تأتي من الشمال^(٨) .

فجاءت كلمة الشمال في هذا النص المنقول

عن الفراء دالة على الجهة .

٣ - جاء في لزوميات أبي العلاء المعري

قوله :

فيا دار الخسار ألا نخـ

فأذهب في الجنوب أو الشمال

والجنوب والشمال هنا جهتان لا ريحان .

٤ - ثم إن علماء الجغرافية أجمعوا على

على أن كلا من الشمال والجنوب جهة معينة .

وتردد في مؤلفاتهم كلمات الشمال

والشمالي والجنوب والجنوبي كما سبق .

وعجب أنه لم يرد في المعاجم اللغوية

إطلاق الشمال والجنوب على الجهتين ، كما

جاء إطلاق الشرق والغرب ، مع أن مؤلفي

هذه المعاجم منذ ابن دريد مؤلف الحمهرة

٣٢١ هـ (٩٣٣ م) والأزهري مؤلف التهذيب

(١) تقويم البلدان لأبي الفدا هـ

(٣) مسالك الأبصار ١ / ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٩

(٥) مقدمة ابن خلدون ٤٢٥ ، ٤٣٤ ، ٤٥٠ ، ٤٨٦ .

(٧) يقصد تحديد الأرض الزراعية وغيرها .

(٢) نهاية الأرب ١ / ٢٣٣ ، ٢٣٧

(٤) رحلة ابن بطوطة في مواضع متفرقة .

(٦) صبح الأعشى ٣ / ٢٢٤ .

(٨) الأزمنة والأمكنة للمرزوقي ١ / ٢١٦ .

وعلى الريح التي تهب منها ، فهي الريح الشمال ، أو هي الشمال ، وإذا ما أطلقنا كلمة الجنوب على الناحية وعلى الريح التي تهب منها ، فهي الريح الجنوب ، أو هي الجنوب ؛ لأنها اسم وصفة كما سبق وإن عارض في هذا الفارسي .

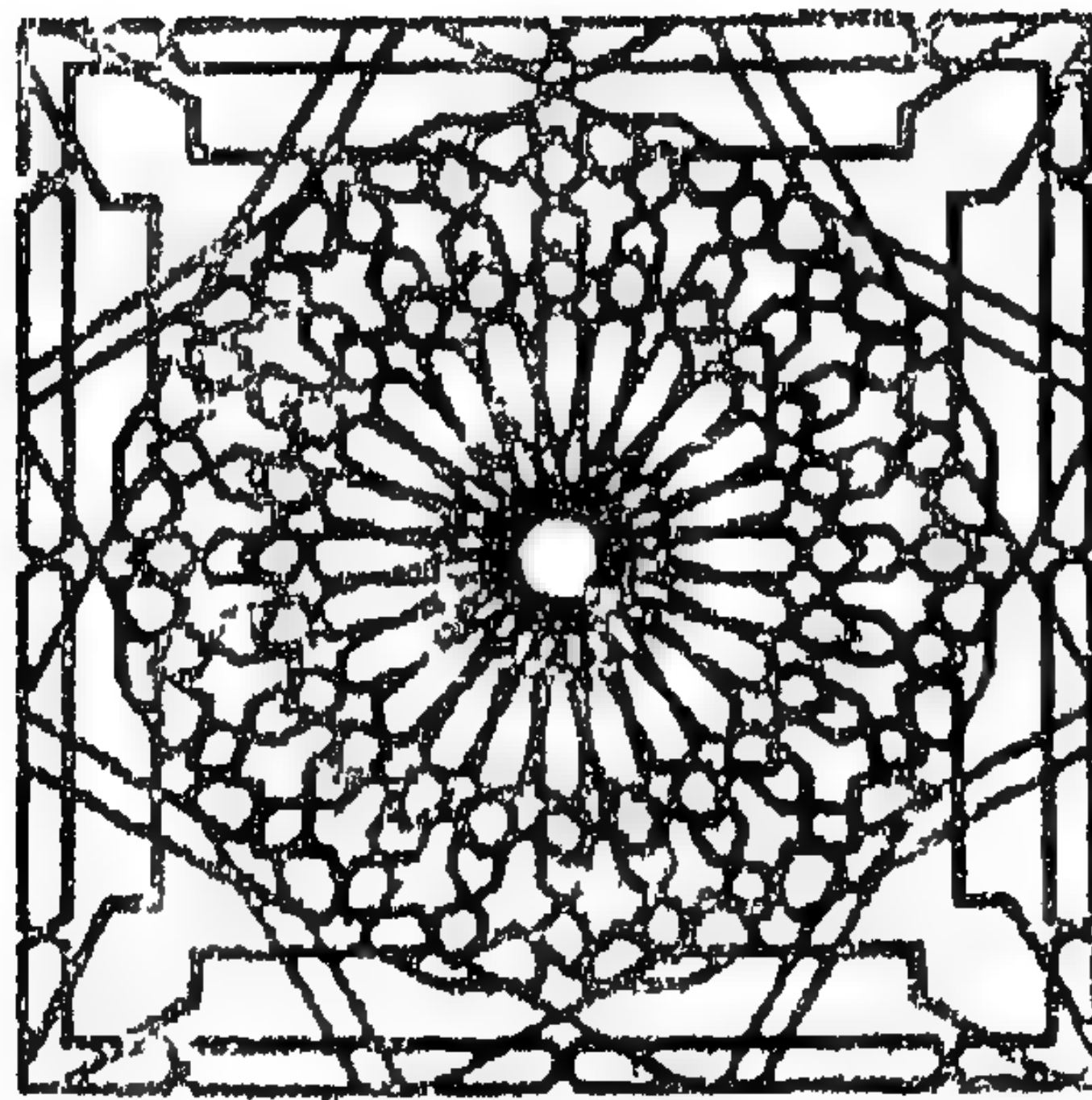
ولهذا يصح تفسير بيت امرئ القيس :
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها
لما نسجتها من جنوب وشمال

بأن رسم الطلل باق لأنه معرض لريحين متقابلتين تهبان عليه هما الريح الجنوب والريح الشمال ، أو هما الجنوب والشمال ، لأن إحداهما تعرى الرسم والأخرى تكسوه .

أحمد الحوفي
عضو المجمع

٣٧٠ هـ (٩٨٠ م) إلى الزبيدي مؤلف تاج العروس ١٢٠٥ هـ (١٧٩٠ م) . عاصروا الجغرافيين الذين أطلقوا كاصتي الشمال والجنوب على الجهتين^(١) ، أو عاشوا بعدهم وكان من البديهي أن يطلعوا على مؤلفاتهم وأن يطلقوا الشمال والجنوب على الناحيتين المعروفتين كما أطلقوا الشرق والغرب ، أو ينقلوا عن علماء الجغرافية هذا الإطلاق وربما كانت المشكلة تبدو أهون وقعا وأقل تعقيدا لو أن اللغويين لم يطبقوا جميعا على أن الشمال والجنوب ريحان ، على حين أن علماء الجغرافية أجمعوا على أن الشمال والجنوب ناحيتان أو جهتان .

ولكن هذا التعقيد سرعان ما يزول إذا ما دللنا بكلمة الشمال على الجهة المعروفة



(١) مثل ابن خرداذبه ٢٨٠ هـ والهمداني ٣٣٤ هـ والمسعودي ٣٤٦ هـ والاصطخري ٣٤٦ هـ والهمداني ٣٦٥ هـ والمقدسي ٣٧٥ هـ والمرزوقي الأصفهاني ٤٢١ هـ والبيروني ٤٤٠ هـ .

عندما ينفعل الشعراء في الحادث الجلل :

المراثى النبوية وشعراؤها

د. سنان محمد عبد الغنى حسن

لا شك

أن حادث انتقال سيدنا

محمد صلى الله عليه

وسلم إلى الرفيق الأعلى كان حدثا عظيما تفرغت له قلوب العرب والمسلمين في شبه الجزيرة العربية وفيما جاورها من البلاد التي ارتبطت بها ببعض الأسباب . ولقد أثارت وفاة الرسول الكريم كوامن الأحزان والأشجان عليه من كل من سمع بالخطب فيه . لم يخل من ذلك رجل أو امرأة ، شاب أو شيخ إلا مارواه لنا « ابن الكلبي » ، ونقله عنه الإمام يوسف بن عبد البر النمرى القرطبي في « باب الشماتة » من كتابه الممتع : (بهجة المسجalis ، وأنس المسجalis) حيث قال : (لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم شمتت به نساء كنلة وحضرموت ، وخضبن أيديهن ، وأظهرن السرور لموته وضربن بالدفوف . فقال شاعر فيهم :

أبلغ أبا بكر إذا ما جثته

أن البغايا رمن شر مرام

أظهرن من موت النبي شماتة

وخضبن أيديهن بالعُتَم

فاقطع — هديت — أكفهن بصارم
كالبرق أومض في متون غمام
وموضوع مراثى الشعراء للرسول عليه الصلاة والسلام لم أجده مجموعا في كتاب ، ولم أقع عليه بحثا مستقلا ، أو فصلا قائما بذاته في كتب السيرة النبوية ، أو مطولات التاريخ ، أو الأخبار والطرائف والمحاضرات الأدبية ، كسيرة « ابن هشام » « والسيرة الحلبية » ، « وتاريخ الأمم والملوك » للطبري ، و « الكامل » لابن الأثير « والبداية والنهاية » لابن كثير ، « والبيان والتبيين » للجاحظ ، « والعقد الفريد » لابن عبد ربه . ولم أجده حتى في الباب المطول الذي عقده « النويري » في الجزء الخامس من كتابه (نهاية الإرب) تحت عنوان : « المراثى والنوادر » ، ولكنني لممت أطرافه ، وجمعت متفرقة من بضعة عشر كتابا سأذكرها في سياق الحديث ، وفي خلال البحث ، تسهيلا للمارس ، وعونا للباحث .

وعجيب جدا أن تمر على الأمة العربية الإسلامية هذه القرون الأربعة عشر الطويلة

(*) إلى البحث في الجلسة الرابعة من مؤتمر الدورة النامنة والأربعين بتاريخ ٣٠ من ربيع الآخر ١٤٠٢ هـ ، الموافق ٢٤ من فبراير ١٩٨٢ م .

وأن يمر على وفاة هاديا وزعيمها محمد ابن عبد الله هذا الزمان الممتد المبسوط . فلا تجد موضوع « وفاته » وما يتصل بها مضموماً ملموماً . كما تجد موضوع مولده الذي أكثر النظم والنثر فيه عشرات وعشرات من الشعراء والكتاب منذ القرن السابع الهجرى حتى يومنا هذا . من أمثال (مولد النبي الشهير بالعروس) للبرعى الشاعر اليمنى ، ومولد النبي لأحمد ابن قاسم الحريرى الأندلسى ، والمولد النبوى لعائشة الباعونية ت ٩٢٢ هـ ، ومولد البرزنجى المشهور ت ١١٧٧ هـ ، ومولد البشير النذير للحسينى ت ١٣٠٣ هـ ، ومولد النبي لمحمد العبادى المصرى ت ١٣٠٠ هـ . ومولد الشيبانى ، ومولد النبي لسيدى أحمد الدردير المصرى ت ١٢٠١ هـ وقبره يزار بالكحكيين ، والمولد النبوى المختار للمرحوم الشيخ عبد الله عفيفى الدرعمى الإمام بقصر عابدين قبل الثورة . ويجمع بين النظم والنثر . وقد أقترته مشيخة الأزهر ليتلى وينشد فى أيام مولد النبي ، بدلا من الموالد القديمة التى عطلت.

وتجد المولد النبوى حتى فى اللغة الفارسية والتركية ، كمولد سليمان چلبى الذى ترجمه إلى العربية أخيرا الدكتور حسين مجيب المصرى ، الخبير بلجنة المعجم الكبير إحدى لجان مجمعنا ... ولا أدري لماذا لم تجمع مرأى الشعراء للنبي فى كتاب واحد منذ القدم ، كما جمعت - مثلاً - مرأى

الشعراء للبارودى الشاعر ، ومرأى الكتاب والشعراء لعبد الله فكرى . ومرأى الشيخ محمد عبده ، والمرأى التى قيلت فى رثاء بشارة تقلا باشا أحد مؤسسى الأهرام . والمرأى التى قيلت فى رثاء سعد زغلول . والمرأى التى نظمت فى رثاء أستاذنا محمد اللواتى بك أستاذ الرياضيات بدار العلوم . وزميلنا وأستاذنا د . مهدي علام يعرف خبر هذه الأخيرة . وأظنه لم ينس مطالع قصيدة أستاذنا الشاعر البدوى : الشيخ محمد عبد المطلب . حيث يقول مجنسا :

أعني أين أدمعك اللواتى
ذرفن دما غداة قضى (اللواتى)

ويبدو أن شعراءنا منذ القدم ومدونى أدبنا اهتموا بشعر « الموالد » لأن الولادة استقبال للحياة .. أما شعر المرأى فهو توديع للحياة .. أو لأن ميلاد النبي ووفاته وقعا فى تاريخ واحد - على الراجح - وهو الثانى عشر من ربيع الأول ، فآثروا الاحتفاء بأقواهما وهو يوم استقبال الحياة ..

ولنما يصادف القارئ عن وفاة النبي وملابساتها نبأ هنا ، أو مرثية هناك ، حتى إنك لا تجد فى كتاب المؤرخ الطبرى فى التاريخ - على طوله وضخامته وتوسعه فى أخبار الرسول ، - وولوع صاحبه برواية الشعر المناسب لأحداث التاريخ - لا تجد فيه بيتا واحدا من قصيدة رثى بها

النبي عليه الصلاة والسلام. ولولم يرد في تاريخ الطبري شعر البتة لقننا إن مؤرخنا الإسلامي العظيم قد جرى على طبعه من عدم الاهتمام بذكر الشعر في كتابه الكبير . ولكن تاريخ الطبري مملوء بأشعار غزار ، جاهلية وإسلامية ، فما باله يغفل المراثي التي قيلت في رثاء النبي ويسقطها من حسابه ؟

ولقد جرى المؤرخ ابن الأثير صاحب « الكامل » على نهج مؤرخنا الطبري في كتابه من حيث عدم التعرض لرثاء الرسول ، فلم يذكر لنا مرثية شعرية واحدة ، أو مقطوعة قصيرة من الشعر قيلت في رثاء نبي هذه الأمة .

ولعل المؤرخ الوحيد الذي لم يغفل ذكر مراثي الشعراء للرسول من كتابه ، ولم يسقطها من حسابه ، هو أبو محمد عبد الملك ابن هشام صاحب «سيرة النبي» والذي يعد أوثق مصادرنا عن حياة النبي وعن وفاته . إلا أن ابن هشام - لأمر لا نعلمه - لم يذكر من الشعراء الذين رثوا النبي صلى الله عليه وسلم إلا « حسان بن ثابت » .

والغريب أن الأبشهي صاحب كتاب (المستطرف ، في كل فن مستظرف) يروي في كتابه هذا : (أن حسان بن ثابت سئل : مالك لم ترث رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : لم أر شيئا إلا رأيته يقصر عنه) . وهذا الخبر يتعارض مع

ما رواه ابن هشام صاحب السيرة من مراثي الشاعر حسان بن ثابت للرسول : فكيف غفل الأبشهي - وهو واسع المعرفة بالأخبار والنوادر والأسرار - عن تلك المراثي الشعرية التي رواها ابن هشام في السيرة ؟ ومن أين جاءه الخبر عن سؤال حسان : كيف لم يرث الرسول ؟ مع أن مراثي «حسان» للنبي مدونة وثابتة في السيرة النبوية ، وفي ديوانه ؟

ولعل القصائد الأربعة التي رواها المؤرخ ابن هشام في الجزء الأخير من السيرة النبوية تؤكد لنا أن «حسان بن ثابت» شارك في رثاء النبي عليه السلام بأربع قصائد : ثلاث منها دالية القافية ، والرابعة منهن رائية القافية. والغريب كذلك أنها جاءت في ديوان حسان كلها ، فكيف خفيت كلها أو واحدة منها على صاحب «المستطرف» حين روى في كتابه الخبر الذي ذكرناه عنه . والغريب أيضا أن واحدة من مراثي «حسان بن ثابت» التي ذكرها ابن هشام والتي جاءت في ديوانه ، قد بلغت من الطول ستة وأربعين بيتا ، فهي ليست قصيرة ولا مقطوعة صغيرة حتى تُغفل الإشارة إليها ، أو تسقط من حساب «الأبشهي» ، أما الثانية فتبلغ عدة أبياتها سبعة عشر بيتا ، وهو قدر ليس باليسير . أما القصيدتان الأخريان فواحدة تبلغ عدة أبياتها ثمانية ، والثانية ستة أبيات .

وأطول قصائد حسان بن ثابت في رثاء
النبي عليه الصلاة والسلام—وفق رواية المؤرخ
ابن هشام — هي القصيدة الدالية التي
أولها :

بطيبة رسمٌ للرسول ومعهد
منير ؛ وقد تغفو الرسوم وتهمد

وقد جاءت هذه المراثية في سيرة ابن هشام
كاملة كما جاءت في ديوان حسان، وعدتها
ستة وأربعون بيتاً كما سلف القول .

ونبحث في «سيرة ابن هشام» عن مراثية
نبوية لغير حسان بن ثابت ، فلا تجد
إلا تلك المراثي الأربع (الحسانية) . ولا
أدرى لماذا لم يكن ابن هشام المؤرخ راصداً
إلا لمراثي حسان بن ثابت ، فلم يلتفت
في كتابه الجليل لمراثي غيره من الشعراء
المعاصرين لذلك الخطب الجليل ؟

ولا شك أن اتصال «حسان بن ثابت»
بالنبي وقربه منه ، وتنصيبه نفسه للدفاع
عنه وعن دعوته حياً ، قد أثار في نفسه
كوامن الأسى العميق حين قبض رسول الله إلى
ربه ، فإذا شاعرنا العظيم يفعل أشد الانفعال
لهذا الحادث المروع له وللمسلمين والعرب
جميعاً ، وإذا شاعرية «حسان» المتدفقة تنهمر
عن عدد من المراثي ، نحس ونحن نقرأها أثر
الفجعية البالغة في نفس شاعر الرسول .

ولم يكن حسان بن ثابت وهو يرثي رسول
الإسلام معبراً عن نفسه وحده أو عن

المسلمين بصفة عامة ، ولكنه صور مصيبة
«الأنصار» في النبي أدق تصوير ، حتى
لقد خشي على مصير الأنصار بعد وفاته
عليه السلام ؛ ولم يكن شاعرنا (حسان) في هذا
إلا معبراً عن شعور قومه ، فهو أنصاري
بل هو من السابقين منهم إلى الإسلام . وما
أصدقه وهو يقول في هذا المعرض :

والله أسمعُ ما بقيت بهالك
إلا بكيتُ على النبي محمد

يا ويح أنصار النبي ورهطه
بعد المغيب في سواد الملحد

ضاقَت بالانصار البلاد فأصبحوا
سوداً وجوههم كلون الإثمد

وما أكثر تفجعه وهو يبكيه بهذه الأبيات
الرائية من قصيدة أخرى :

نَبَّ المساكين أن الخير فارقه
مع الرسول تولى عنهم سخرا

من ذا الذي عنده رحلى وراحلى
ورزق أهلى إذا لم يؤنسوا المطرا ؟

ذاك الذى ليس تخشاه مجالسه
إذا الجليس سطا في القول أو عثرا

كان الضياء ، وكان النور نتبعه
وكان بعد الإله السمع والبصرا

فليتنا يوم اَرَوْه بِمُلْحَدِهِ
وغيبه ، وألقوا فوقه المدرا

لم يترك الله منا بعده أحدا
ولم يعيش بعده أنثى ولا ذكرا ..

ورثاء « حسان بن ثابت » للرسول يجمع
بين شعر العاطفة الخاصة التي تعبر عن شعور
شخصي وانفعال ذاتي ، وبين شعر الرثاء
العام الذي يعبر فيه الشاعر عن عظيم المصيبة
في المراثي أو خسارة الناس بفقدته ، وحيرة
أمورهم من بعده . ونرى « حسان بن ثابت »
يجمع في المراثية الواحدة للنبي عليه الصلاة
والسلام بين هذين الاتجاهين ، فبينما يقول
من قصيدة :

تالله ما حملت أنثى ولا وضعت
مثل الرسول نبي الأمة الهادي

ولا برى الله خلفاً من بريته
أوفى بنامة جارٍ أو بميعاد

من الذي كان فينا يستضاء به
مبارك الأمر ، ذا عدل وإرشاد

إذا به يقول في القصيدة نفسها عن نفسه
واصفاً وحده وتفرده بعد موت النبي :

يا أفضل الناس ! إني كنت في نهر

جار ، فأصبحت مثل المفرد الصادي ؟

وبينا يقول في رثائه عليه السلام من قصيدة :

يا بركر « آمنة » المبارك بكرها

ولدت محصنة بسعد الأسعد

نورا أضاء على البرية كلها

من يهتد للنور المبارك يهتدى

إذا به يقول في القصيدة نفسها واصفاً حالته
بعد أن غيب النبي في بقيع « الغرقد » :

ما بال عينك لا تنام كأنما
كحلت مآقيها بكحل الأرم

جزعاً على المهدي أصبح ثاوياً
ياخير من وطىء الحصا لا تبعد!

وجهي يقيك الترب ! لهنى ! ليتني
غيبت قبلك في « بقيع الغرقد »

بأبي وأمي من شهدت وفاته
في يوم الاثنين النبي المهدي !

فظلمت بعد وفاته متلدا
ياليثني صبحت سم الأسود !

أقيم بعدك في (المدينة) بينهم
يا لهف نفسي ليتني لم أولد !

على أن شاعرنا حسان بن ثابت لم يستسلم
في مراثيه النبوية إلى البكاء والنحيب والتفجع

وتمنى الموت — كما فعل في البيت الذي قبل
الأخير حيث تمنى فيه أن يسقى على الصباح

سم الحيات ، حتى يرتاح ويتخلص من آلامه
وأحزانه — ولكنه اتخذ من مراثيه للرسول

معرضاً يعرض فيه أخلاقه النبوية ، وصفاته
الكريمة ، على أنصع ما تعرض عليه الأخلاق

حين يطويها الفناء — أو يطوى صاحبها —
فلا يبقى إلا ذكرها ، ولا يارج إلا عطرها ..

اسمعه يقول من قصيدة أخرى في وصف
الرسول باكياً عليه ، مفجوعاً فيه :

إمام لهم . يهديهم الحق جاهداً
معلم صدق إن يطيعوه يسعدوا

عفو عن الزلات ، يقبل عذرهم
وإن يحسنوا فالله بالخير أجود

وإن ناب أمر لم يقوموا بحمله
فمن عنده تيسير ما يتشدد ..

فبيننا هم في نعمة الله بينهم
دليل به نهج الطريقة يقصد

عزيز عليه أن يجوروا عن الهدى
حريص على أن يستقيموا ويهتدوا

عطوف عليهم لا يشقى جناحه
إلى كنف يحنو عليهم ويمهد

فبيناهم في ذلك النور إذ غدا
إلى نورهم سهم من الموت مقتصد

فإذا بلغ حسان هذا المبلغ من وصف النبي
مضى إلى وصف وحشة البلاد من فقدته ،
وانقطاع الوحي الذي كان ينزل عليه فيؤنس
الأرض ، ويصف حسان هذه البقاع الموحشة
الكثيية لفقد الرسول ؛ إلا بقعة معمورة للحد
ضافها فقيد الإسلام الكريم ، وهي البقعة
التي ضمت جسده الطاهر فهي روضة
آنسة بضيافة الرسول . ويقوده هذا الوصف
لموحش البقاع إلى استئناف البكاء ثانية ،
فيستنزف دموع عينيه قطرة قطرة ، قائلا
في نغم بالك حزين :

فبكى رسول الله ياعين جبرة
ولا أعرفنك الدهر دمعك يجمد

وما لك لا تبكين ذا النعمة التي
على الناس منها سابغ يتعمد ؟

فجودى عليه بالدموع وأعوى
لفقد الذي لامثله الدهر يوجد

ويظل « حسان » يبكي ويستنزف الدمع عينيه ،
فإذا ما أعهقه انحدار الدمع راحة ، أو شفى
شجى بلابله عاد إلى وصف الرسول قائلا :

وما فقد الماضون مثل « محمد »
ولا مثله حتى القيامة يفقد

أعف وأوفى ذمة بعد ذمة
وأقرب منه نائلا لا ينكد

وأبدل منه للطريف وتالد
إذا ضنَّ معطاء بما كان يتلد

وأكرم صيتاً في البيوت إذا انتمى
وأكرم جدا أبطحياً يسود

وأمنع ذروات ، وأثبت في العلا
دعائم عز شاهقات تشيد

وأثبت فرعاً في الفروع ومنبتاً
وعوداً غذاه المزن فالعود أغيد

رباه وليدا فاستم تمامه
على أكرم الخيرات ربهم مجد ..

على أن رواية مؤرخ السيرة « ابن هشام »
لمراثي « حسان » وحده في الرسول عليه السلام
لا تدل على أن شاعرنا قد انفرد وحده من بين
شعراء عصر الرسالة برثاء الرسول . فهناك
شعراء آخرون من الصحابة وغيرهم ،
وشواعر كذلك رثوا النبي ، ولكن مراثيهم
جاءت مشتتة ومتفرقة في غير مظان ومن

هنا لم ينبه عليها ولم يلتفت إليها . فقد
عقد المؤرخ الموسوعى المصرى (النويرى)
صاحب « نهاية الأرب » فى الجزء الثامن عشر
من موسوعته الحافلة فصلا عن مرأى الصحابة
والشعراء للنبي عليه السلام . وأثبت لأبى بكر
الصدىق الخليفة الأول قطعتين فى رثاء النبي
يقول فى أولهما :

أيا عين فابكى . ولا تسأى
وحتى البكاء على السيد

على خير خندف عند البلا
أمسى يغيب فى الملاحد

فصلى المليك ولى العباد
ورب البلاد على (أحمد)

فكيف الحياة لفقد الحبيب
وزين المعاشر فى المشهد

فليت الممات لنا كلنا
وكنا جميعاً مع المهتدى !

ويقول فى الثانية :

لما رأيت ندينا متجدلا
ضاق على بعرضهن الدور

وارتعت روعة مُسْتَهَامِ والهِ
والعظم منى واهن مكسور

يالىتنى من قبل مهلك صاحبي
غيب فى جدثٍ على صخور

فلتجدثن بدائع من بعده
تعيان جوائح وصدور

وروى الحافظ المفسر المؤرخ « عماد الدين
ابن كثير » صاحب كتاب (البداية والنهاية)
فى كتابه هذا مرثيتين فى الرسول ؛ أولاهما
دالية حسان بن ثابت التى سبقت الإشارة
إليها ، والثى مطلعها :

(بطيبة) رسم للرسول ومعه
منير وقد تعفو الرسوم وتمهد

وثانيتهما قصيدة « لأبى سفيان بن الحارث
ابن عبد المطلب » ، وهو ابن عم النبي
صلى الله عليه وسلم . وكان أبو سفيان هذا
شاعراً ، وقد أسلم يوم فتح مكة بعد أن
عادى الرسول زماناً وعرض نفسه على النبي
فأذن له النبي بعد تمنع لما كان يلقاه من عداوته
قبل إسلامه . فلما أدخل على رسول الله أنشد
بين يديه قصيدة يعتذر فيها مما مضى منه ،
ويقول فى أوائلها :

لعمرك إني يوم أحمل راية
لتحمل خيل « اللات » خيل محمد

لكا لمدلج الحيران أظلم ليله
فهذا أوانى حين أهدى وأهتدى

فلما مات عليه الصلاة والسلام رثاه بالأبيات
التي أوردها ابن كثير فى « البداية والنهاية » ،
ولم يذكرها أو يشير إليها ابن الأثير ، ولا
الطبرى ، ولا ابن هشام صاحب السيرة
كما سلف القول . ولكن جاء ذكرها فى كتاب
متأخر عنوانه : (الذخائر والأعلاق ، فى
آداب النفوس ومكارم الأخلاق) للإمام
أبى الحسن بن سلام الباهلى ، إلا أن روايتها

في « البداية والنهاية » تختلف عن روايتها في
« الدخائر » ونحن مثبتون هنا نصها كما جاءت
في « تاريخ ابن كثير » :

أرقت فبات ليلى لا يزول
وليلى أخى المصيبة فيه طول

وأسعدنى البكاء ، وذاك فيما
أصيب المسلمون به قليلى

لقد عظمت مصيبتنا ، وجلت
عشية قيل : قد قبض الرسول

وأضحت أرضنا مما عراها
تكاد بنا جوانبها تميل .. !

فقدنا الوحي والتنزيل فينا
يروح به ويغدو « جبرئيل »

وذاك أحق ما سالت عليه
نفوس الناس أو كربت تسيل

نبي كان يجلو الشك عنا
بما يوحى إليه وما يقول

ويهدينا فلا نخشى ضلالا
علينا ، والرسول لنا دليل

« أفاطم » إن جزعت فذاك عذر
وإن لم تجزعى ذاك السبيل

فقبر أبيك سيد كل قبر
وفيه سيد الناس الرسول

وأما رواية « الدخائر والأعلاق » ففيها
هذه الأبيات الزائدة التي لم ترد في (البداية
والنهاية) :

كأن الناس إذ فقلوه عمن
أضر بلب حازمهم غليل
وفيها في وصف النبي :

يخبرنا بظهر الغيب عما
يكون ، ولا يحور ، ولا يحول
وفيها خطاب لفاطمة الزهراء بنت النبي عليهما
السلام :

فعودى بالعزاء ، فإن فيه
ثواب الله والفضل الجزيل

ولاشك أن وفاة النبي عليه الصلاة والسلام
كانت حدثاً جليلاً نزل بالإسلام وتلقاه
المسلمون بالدهشة . فهذا عمر بن الخطاب

قام في الناس قائلاً يوم التحق الرسول بالرفيق
الأعلى : (إن رجلاً من المنافقين يزعمون
أن رسول الله قد توفى ؛ وإن رسول الله

مامات ، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب
موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه
أربعين ليلة ، ثم رجع إليهم بعد أن قيل :

قد مات . والله ليرجع رسول الله كما يرجع
موسى ! فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم
زعموا أن رسول الله قد مات !) . ولم يفتق

عمر بن الخطاب من دهشته إلا حين نبهه
أبو بكر في خطبته التي خطبها يوم الوفاة
إلى قوله تعالى : (وما محمد إلا رسول قد خلت

من قبله الرسل ، أفئن مات أو قتل انقلبتم
على أعقابكم) . وإلى قوله عز شأنه في موضع

آخر من القرآن الكريم : (إنك ميت وإنهم ميتون) .

فما مبلغ أثر وفاة النبي في نفوس بقية الشعراء غير حسان بن ثابت وغير أبي سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب ابن عم النبي عليه السلام ؟ وأين كان في ذلك اليوم المغبرة آفاق سمائه عبد الله بن الزبير ، وعبد الله ابن أنيس ، وضرار بن الخطاب ، وكعب ابن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وعلى بن أبي طالب ؟ وأين كان من الشواعر السيدة فاطمة بنت محمد عليها السلام ، وصفيّة بنت عبد المطلب عمّة الرسول ، والخنساء الشاعرة التي رثت قبل ذلك أخويها : صخرًا ومعاوية ، كما بكّت - بدموعها فقط - لا بشعرها - أبناءها الأربعة الذين استشهدوا في حرب القادسية في السنة السادسة عشرة من الهجرة ؟

لقد كان نصيب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قبض إلى ربه أبياتاً رثاه بها كعب ابن مالك الأنصاري ، وهو في هذا يشترك مع أخيه في الإسلام وشريكه في النسب إلى الأنصار : حسان بن ثابت .

ومقام « كعب بن مالك » في الشعر معروف مشهور ، وقصائده في رفع الأذى عن صاحب الدعوة الإسلامية مذكور كثير منها في كتب السيرة ، وخاصة سيرة ابن هشام . وقد شهد له صاحب كتاب (نكت الحميان ، في نكت الحميان) بقوله : (كان

مجدّداً مطبوعاً . قد غلب عليه في الجاهلية أمر الشعر وعرف به ، وأسلم وشهد أحياناً والمشاهد كلها ، حاشى تبوك ، فإنه تخلّص عنها) وقد ترجم له « الصنفدي » في كتابه « نكت الحميان » هذا الذي صنعه في أخبار من فقدوا بصرهم لأنه أصيب بالعمى في آخر عمره .

ولم ترد مرثية « كعب بن مالك » للرسول في الطبري ، وابن الأثير وابن كثير ولا في سيرة ابن هشام ، ولا في « إمتاع الأسماع » للمقريزي ، ولا في « نهاية الأرب » للنويري ، ولا في « المنتظم » لابن الجوزي ، ولا في ابن قتيبة ، ولا في تاريخ يعقوبي ، فلم يذكرها واحد من هذه الكتب التي كانت مظنة ورودها ، بل لم يشر إليها ، ولكنها وردت في كتاب (الذخائر والأعلاق) للباهلي وهو من رجال القرن التاسع بالأندلس ، ولا أدري عن أي مصدر نقلها . ولا نعرف من حياة صاحب الذخائر والأعلاق إلا سطرًا أو سطرين عند صاحب (كشف الظنون) ، وعند يوسف أليان سرقيس صاحب (معجم المطبوعات العربية) . والأبيات التي أوردها الباهلي خمسة فقط . ولعلها منتقاة من قصيدة طويلة وقعت له . وهذه هي :

وباكية حراء تحزن باليك
وتلطم منها خدها والمقلدا
على هالك بعبد النبي محمد
ولو علمت لم تبك إلا « محمدًا »

فجعلنا بخير الناس حياً وميتاً
وأدناه من رب البرية مقعداً

وأفطعهم فقدما على كل مسلم
وأعظمهم في الناس كلهم يداً

لقد ورثت أخلاقه المحمد والتقى
فلم تلقه إلا رشيداً ومرشداً

ومن عجائب الروايات في الشعر العربي
أن « أبا الفرج الأصبهاني » صاحب كتاب
(الأغاني) حين ترجم لكعب بن مالك
وأورد طرفاً من أخباره وشعره ، لم يشر
مطلقاً إلى رثائه للنبي عليه السلام على حين
أنه أشار لمراثيته للشهيد « عثمان بن عفان »
الحليفة الثالث ، وذكر منها أربعة عشر بيتاً.
فما معنى ذلك ؟ هل معناه أنه لم تصل إلى سمعه
مرثية « كعب بن مالك » للرسول ؟ أم أن
الأبيات التي أوردها « الباهلي » صاحب
الذخائر ليست له ؟ الحق أننا لا نستطيع
الحزم بكلمة في جواب هذا السؤال .

ولكننا نحمد الله على هذا القدر الذي
وصل إلينا من مرثية « كعب بن مالك »
للرسول فإن كثيراً من شعره قد ضاع ،
لولا ما حققه وحفظه لنا « ابن هشام »
صاحب السيرة النبوية . من شعر كعب الذي
قل أن نجده في كتاب سواها .

أما عبد الله بن أنيس — بصيغة التصغير —
فقد روى له صاحب (الذخائر والأعلاق)
خمسة أبيات لا غير في رثاء الرسول ؛

فكانت أبياته — من حيث العدد — كأبيات
كعب بن مالك . ولم أعثر على مصدر آخر
لهذه المرثية غير « ذخائر الباهلي » . وابن
أنيس هذا من الصحابة الذين شهدوا بيعة
العقبة ، وكان من شجعان المسلمين . ويذكر
« ابن هشام » صاحب السيرة النبوية ، أنه
كان من الأوائل الذين تسابقوا إلى قتل
« ابن أبي الحقيق » ، لأنه كان أحد الذين
حزبوا الأحزاب على النبي وأصحابه .
وقد تحمل ابن أنيس على ابن أبي الحقيق
بسيفه في بطنه حتى أنفذه ، وهو يقول :
قطني : قطني . أي : حسبي ؟ حسبي ؟
وكان ابن (أنيس) هذا يجمع بين الشجاعة
والشعر ؛ وقد روى له ابن هشام قصيدة يصف
بها قتاله « لابن سفيان بن نبيح الهذلي » ،
الذي كان يؤلب الناس على قتال الرسول ،
وقد ظفر « ابن أنيس » بالهذلي فقتله ، وقدم
على رسول الله يبشره بمقتله . فلما رآه النبي
قال : أفلح الوجه .

وليس من موضوعنا هنا أن نذكر قصيدة
« عبد الله بن أنيس » في قتله لابن نبيح
الهذلي ، فهي ليست من باب هذا البحث
في المراثي النبوية ، ولكن مرثيته للرسول
عليه السلام هي كما ذكرها الباهلي الأشبيلي
في ذخائره .:

تطاول ليلي ، واعتراني القوارع
وخطب جليل للخلائق جامع

غداة نعى الناعى إلينا « محمدا »
وتلك التى تستلك منها المسامع
وقد قبض الله النبيين قبـله
وعاد أصيب قبله والتوابع (١)

فأليت لا آسى على هلك هالك
مدى الدهر مارسا (ثبير) و(فارغ)

فيا لسقر يش قلّدوا الأمر بـعضكم
فإن نصير القوم للقوم نافع

أما « عبد الله بن الزبـعـرى » فلم تقع فى
مصادر تاريخى أو أدبى على مرثية له فى
الرسول عليه الصلاة والسلام . ولقد كان
شاعراً فحلاً ، بل كان شاعر « قريش » فى
الجاهلية . ومهما كان من أمر شدته على
النبي والمسلمين بالأذى بلسانه فقد أسلم واعتذر
للنبي ومدحه ، فأمر له النبي بحملة . ولقد عاش
حتى سنة ١٥ من الهجرة ، أعنى أنه أدرك
وفاة الرسول ، فما الذى أسكته عن رثائه ،
وصرفه عن بكائه ؟ أو ما الذى أسكت
المصادر عن أن توصل إلينا رثاءه للنبي
لو كان وقع منه رثاء ، وشارك مع الباكين
من الشعراء على محمد ؟ سوألان لا نستطيع
القطع فيهما بجواب إلا إذا ادّعيـنا أننا أحطنا
بأخبار « ابن الزبـعـرى » كلها ، وبشعره كله
وبحوادث السيرة النبوية كلها تفصيلاً .
وهيات ! هيات !

أما زميله فى الشاعرية : « عبد الله بن
رواحه » ، الذى كان أحد شعراء الدعوة
الإسلامية وأمرائها البارزين ، فقد استشهد
فى السنة الثامنة من الهجرة فى غزوة مؤتة ،
فلم يكن له أن يدرك وفاة الرسول ، وبالطبع
لم يكن له أن يكون فى أصحاب المراثى
النبوية .

أما « ضرار بن الخطاب » ، الصحابى
الفارس الشاعر فلم نجد له فى أصحاب المراثى
النبوية ذكراً ، ولم نقرأ له شعراً ، على حين
تمتلىء صفحاته بالبطولة والفروسية والجهاد
فى سبيل الله . وقد عاش إلى السنة الثالثة
عشرة من الهجرة ، فشهد موقعة أجنادين
واستشهد فيها . وله فى فتح الشام فى عهد
عمر بن الخطاب أخبار طوال . فأين شعره
الذى رثى به الرسول يوم وفاته ؟ ألم تتحرك
شاعريته فى ذلك اليوم الرعيب الذى هز
عواطف المسلمين ، بل هز كيانهم هزاً
عنيفاً ؟

على أننا بينما لانجد مراثى شعرية للنبي
عليه السلام عند « عبد الله بن الزبـعـرى »
« وضرار بن الخطاب » وهما من شعراء
الرسول وألسنة الدعوة الحميدية ، نجد عند
الباهلى الأشبيلي صاحب (الدخائر والأعلاق)
قصيدتين ؛ إحداهما لعمر بن الخطاب
والثانية للإمام على بن أبى طالب . وقد انفرد

(١) هكذا وردت بمطبوعة (الدخائر والأعلاق) وفيها تصحيف غير قليل ، ولعلها : التتابع جمع تبع .

كتاب الذخائر بذكر المرثيتين : أما الأولى
فهذا نصها كما جاءت في كتاب الباهلي :

مازلت مذ وضع الفراش لجنبه
وثوى مريضاً ، خائفاً أتوجع

شفقاً عليه أن يزول مكانه
عنا ، فنبقى بعده نتفجع

نفسى فداؤك ؟ من لنا في أمرنا
أم من نشاوره إذا نتوجع ؟

وإذا تحل بنا الحوادث من لنا
بالوحي من رب رحيم يسمع ؟

ليت السماء تفتت أكنافها
وتناثرت منها النجوم الطلع !

لما رأيت الناس هدًى جميعهم
صوت ينادى بالنعى فيسمع

وسمعت صوتاً قبل ذلك هدنى
(عباس) ينعاه بصوت يقطع

فليبهكه أهل المدائن كلها
والمسلمون بكل أرض تجزع (١)

وأما أبيات الإمام « على » في رثاء الرسول
فهى كما يلى نقلاً عن المصدر السابق :

ألا طرق الناعى بليل فراعنى
وأرقنى لما استقل منادياً

فقلت له لما رأيت الذى أتى
أغير رسول الله إن كنت ناعياً ؟

فحقق ما أشفقت منه ، ولم يبل
وكان خليلي عزة وجمالاً

فوالله ما أنساك «أحمد» ، مامشت
بى العيس فى أرض وجاورت وادياً

وكنت متى أهبط من الأرض تسعة
أرى أثراً منه جديداً وعافياً ،

وبعد ؟ فهذا شعر الرجال من الشعراء
الذى أثر حتى القرن التاسع فى رثاء النبى
عليه السلام ، أو على الأقل هذا هو الشعر
الذى وصل إلينا عن مصادر تاريخية وأدبية
قديمة ومتأخرة ، وأحطنا به خبراً فيما بين
أيدينا من مراجع . ولم ينفرد الرجال وحدهم
برثاء النبى العربى محمد صلى الله عليه وسلم ،
فقد روت بعض المصادر شعراً للسيدتين
الطاهرتين : فاطمة بنت محمد عليها السلام ،
وصفية بنت عبد المطلب بن هاشم عمه النبى ،

أما فاطمة الزهراء ، فقد روى لها ابن
رشيح القيروانى فى كتابه (العمدة) أبياتاً
مؤثرة حزينه فى رثاء أبيها محمد عليه السلام ،
كما روى هذه الأبيات أيضاً أبو إسحاق
الحصرى صاحب كتاب (زهر الآداب) ،
ونقلها أيضاً الأستاذ عمر رضا كحالة
فى موسوعة (أعلام النساء) ج ٣ ص ١٢٠٤
والأبيات كما رواها صاحب زهر الآداب
هى :

اغبر آفاق السماء وكورت
شمس النهار ، وأظلم العصران

(١) روى السهيل فى كتابه (الروض الأنف) أبياتاً عليه أخرى ومن وزن آخر لعمر بن الخطاب ج ٢ ص ٢٧٧

فالأرض من بعد النبي كئيبة
أسفاً عليه كثيرة الرجفان

فليبهكه شرق البلاد وغربها
وليبهكه مضر وكل يمانى

وليبهكه (الطور) المعظم جوه
والبيت ذو الأستار والأركان

يا خاتم الرسل المبارك ضوؤه
صلى عليك منزل الفرقان

وقد عد ابن رشيق القيروانى هذه المرتبة
مثلاً يحتذى فى الرثاء ، وتمنى على شاعر
كالكميت أن يقول مثله فى رثاء الرسول ،
بدلاً من قوله فى إحدى هاشمياته :

وبورك قبر أنت فيه ، وبورك
به وله أهل بذلك يشرب

لقد غيبوا برا ، وحزماً ، ونائلاً
عشية واره الضريح المنصب

ويذكر صاحب (أعلام النساء) أن فاطمة
عليها السلام وقفت على قبر أبيها المصطفى صلى
الله عليه وسلم ، وأخذت قبضة من تراب
القبر ، فوضعتها على عينها ، وبكت وأنشأت
تقول :

ماذا على من شم تربة أحمد
أن لا يشم مدى الزمان غواييا ؟

صُبَّتْ على مصائب ، لو أنها
صُبَّتْ على الأيام صرن لياليا !

وقالت على قبره :

إنا فقدناك فقدت الأرض وابلنا
وغاب - مُدْ غِيبَتْ عَنَّا - الوحي والكتب

فليت قبلك كان الموت صادفنا
لما نعيم ، وحالت دونك الكتب !

وأما صفية عمة النبي عليها السلام ،
فقد روت لها الأديبة المرحومة زينب عبد الله
فواز صاحبة كتاب (الدُّر المنثور ، فى طبقات
ربَّات الخدور) خمسة أبيات فى رثاء محمد
عليه الصلاة والسلام ، إلا أن الباهلى الأشبيلي
صاحب (الذخائر والأعلاق) روى لها
مرثية أخرى تبلغ عدتها عشرة أبيات ، نذكرها
فيما يلي :

ألا يا رسول الله ! كنت رجاءنا
وكنيت بنا برّاً ولم تلك جافيا

لعمرك ما أبكى النبي لموته
ولكن أمرا بعده كان آتياً

أفاطم ! صلى الله رب محمد
على جدث أمسى بيثرب ثاوياً

فدا لرسول الله أمى وأسرقى
وعسى ، ونفسي ، والحدود ، ونخاليا

وكنيت لنا حرزا حصينا ندينا
ليبك عليك اليوم من كان باكيا

لِكَانَ على قلبي لذكر محمد
وما خُفْتُ من بعد النبي المكاويا !

أبا حسن : أيتمته وتركته
يبكى ، ويدعو جده اليوم نائيا

صبرت ، وبلغت الرسالة صادقاً

وقمت صليب الدين ، أبلغ صافياً

فلو أن رب الخلق أبقاك سالماً

سعدنا ولكن أمره كان ماضياً

عليك من الله السلام تحية

وأدخلت جنات من العدن راضياً

على أن لها قصيدة يائية أخرى في رثاء

النبي عليه السلام ، أورد صاحب معجم

(أعلام النساء) بيتاً واحداً منها ، أما

الأبيات كلها فقد ذكرت كاملة في

(الذخائر والأعلاق) الذي نعهده أخصب

وأحفل مصادرنا في مرثي الشعراء للنبي .

وهذه القصيدة اليازية التي أوردتها الباهلي

للسيدة صفية هي من أرق ما رثي به النبي

عليه الصلاة والسلام ، ونحن موردوها هنا كما

جاءت في كتاب (الذخائر والأعلاق) :

مالعيـنـي لا تجـودان رـيا

إذ فقدنا خير البرية حيا

يوم نادى إلى الصلاة بلال

فبكينا عند النداء ملياً . .

لم أجد قبلها ولست بلاق^(١)

بعدها غصة أمرٍ عليّـا

جل يوم أصبحت فيه عليلاً

لا يرد الجواب منك إليّـا

ليت يومى يكون قبلك يومـا

أنضج القلب للحرارة كيا

خلقاً عالياً ، وديننا كريماً

وصراطاً يهـدى إليه سويـا

وسراجاً يجلو الظلام منيراً

ونبيّـا مسدداً عربيـا

حازماً ، عازماً ، حلماً ، كريماً

عائداً بالنوال ، برا ، تقياً

إن يومـا أتى عليك ليـوم

كورت شمسـه وكان جليـا

فعليك السلام منا ومن ربك (م)

بالروح بكرة ، وعشيـا

وقد أخرج الطبراني عن جماعة أنه لما قبض

النبي عليه الصلاة والسلام خرجت عمتـه (صفية)

تلمع بردائها وهي تقول :

قد كان بعدك أنباء وهنبشة

لو كنت شاهداً لم تكثر الخطب

إنا فقدناك فقد الأرض وابـلها

واختل قومك فاشهدهم فقد سغبوا

وقد روى الجاحظ هذا الخبر في كتابه

(البيان والتبيين) ج ٣ ص ٢٠٤ بتحقيق

المرحوم حسن السندوبى ذاكراً لفظه :

(هنبشة) بنون وثاء وشين معجمة ، بدلا

من (هنبشة) بنون وباء وثاء فوقية مثلثة

(١) كان المقضى أن تكون العبارة هكذا : (ولست بلاقية) لأن صاحبة الشعر مؤنثة . . . وهذا مما يلقى غللا

من الشك حول نسبة الأبيات إلى صفية بنت عبد المطلب . .

وهي الأمر الشديد. أما الهنتشة كما ذكرها
السندوني رحمه الله فلا معنى لها . .

ومن أغرب الروايات أن صاحب
(أعلام النساء) قد روى البيتين السابقين
منسوبين إلى السيدة فاطمة الزهراء بنت
النبي عليهما السلام ج ٣ ص ١٢١٣
وأضاف إليهما بيتا ثالثا ، وهو :

فليت بعذك كان الموت صادفنا
لما قضيت وحالت دونك الكتب
ويلاحظ القارئ الكريم أن بعض هذه
الأبيات البائية - بالباء التحتية الموحدة - كما
رواها صاحب (أعلام النساء) مشترك بين
السيدة فاطمة بنت محمد ، والسيدة صفية بنت
عبد المطلب ...

على أن أغرب ما في مرأى النبي عليه السلام
هو ما ذكره الباهلي الأشبيلي منسوباً إلى
(هند بنت عبد المطلب) تخاطب فاطمة
الزهراء قائلة :

أفاطم فاصبري : فلقد أصابت

مصيبتك التهام والنجودا

وأهل البر والأبحار طرا

فلم تخطيء مصيبتك وحيداً ..

ألم يك خير من ركب المطايا

وأكرمهم - إذا نسبوا - جلودا؟

وكان المجد يصبح في ذراه

سعيد الجود قد ولد السعودا

فموتى ! إن قدرت بأن تموتى
فقدت الطيب ، الرجل ، المحيذا

رسول الله ، خير الناس حقاً
فلست أرى إله أبداً نديدا . .

ومهما يكن في هذه الأبيات من رقة
أو سلاسة وحسن سبك فإنك لو بحثت في تاريخ
عصر النبوة عن شخصية نسوية تحمل اسم
(هند بنت عبد المطلب) لأعيذك البحث ،
ولن تجد لها وجوداً . . . وإذا كان ظاهر
هذا الاسم يوهم أنه لعممة من عمات النبي
عليه الصلاة والسلام ، ولأخت من أخوات
صفية بنت عبد المطلب فإن المؤرخ الإخباري
(ابن قتيبة) يذكر لنا في كتابه (المعارف)
أن بنات عبد المطلب وعمات النبي في الوقت
نفسه هن : عاتكة ، وأميمة ، والبيضاء ،
وبرة ، وصفية ، وأروى . وكذلك
يذكر المؤرخ ابن الجوزي في كتابه (صفة
الصفوة) المطبوع بحيدر أباد الدكن ج ١
ص ٥٦ .

فمن أين هذه « الهند المطلبية » التي جاء
بها الباهلي الأشبيلي ؟ ومن أين جاءت تلك
الأبيات في رثاء الرسول صلى الله عليه وسلم
التي رواها صاحب الأعلام ، أو صاحب
(الذخائر والأعلام) ونسبها إلى المزعومة :
هند بنت عبد المطلب ؟

أعلى أننا قرأنا هذه الأبيات الدالية
وأخرى غيرها في (نهاية الأرب) للزويري ،
ج ١٧ ص ٤٠٠ ، وهي فيه « لهند بنت أثاثة »

ابن عباد بن عبد المطلب ، بن عبد مناف .
ولعلها (هند بنت عبد المطلب) التي ذكرها
الباهلي الأشبيلي اختصاراً ، فأوقعنا في حيرة
من الأمر ، وحسبنا أنها عمّة النبي مباشرة
ولكنها ليست ابنة عبد المطلب ، وإنما هي
واحدة من حفلاته ونورد هنا بعض ما رواه
النويري - صاحب نهاية الأرب - من هذه المراثية
لنرى الفرق الواضح بين الروايتين ولنعجب
من حيرتنا البالغة مع رواة الشعر :

أشاب ذوائبي ، و أذاب ركني
بكائك فاطم الميت الفقيد

فأعطيت العطاء ، فلم تكدر
وأخدمت الولائد والعبيدا

وكنّت ملاذنا في كل لزب
إذا هبت شامية برودا

وإنك خير من ركب المطايا
وأكرمهم - إذا نسبوا - جديداً

رسول الله فارقنا ، وكنا
نرجى أن يكون لنا خلودا ...

أحسن الله إلى من يدلنا على وجه الصواب
في هذه الأبيات ، وفيما نقلناه قبل ذلك من
شعر في رثاء نبي هذه الأمة الكريمة : محمد
ابن عبد الله .

ويدعونا ذكر السيدة صفية عمّة الرسول
في هذه المناسبة إلى استحضار عمّة أخرى

للنبي عليه السلام هي (عاتكة بنت عبد المطلب)
فقد روى لها النويري صاحب (نهاية
الأرب) - في الجزء الثامن عشر ص ٤٠٠
مرثية في النبي عليه الصلاة والسلام تقول فيها :
يا عين جودي - ما بقيت - بعبرة

سجاً على خير البرية (أحمد)
يا عين ! فاحتفلي ، وسحّي واسمحي
فابكي على نور النبي (محمد)

أنى - لك الويلات - مثل محمد
في كل نائبة تنوب ومشهد ؟

من ذا يفك عن المغلل غله
بعد المغيب في الضريح الملحد ؟

وقد نسب صاحب (نهاية الأرب) أيضاً
مرثية في النبي قالتها عمته (أروى) بنت
عبد المطلب ، ومطاعها :

ألا يا عين ويحك ؟ أسعديني
بدمعك - ما بقيت - وطاوعيني

وأغلب ظني أن التكلف والانتحال يبدوان
على هذا الشعر ، : ؟

وقبل أن نختم هذه الدراسة الأولى في
الأدب العربي عن مرثي الشعراء للنبي عليه
السلام ، لابد من الإشارة إلى أبيات حائية
- بالحاء المهملة - ذكر السهيلي صاحب (الروض
الأنف) أن الشاعر أبا ذؤيب الهذلي بكى
بها النبي ساعة دفنه . وأبو ذؤيب - كما يقول
السهيلي - هو خويلد بن خالد ، وقيل ابن
محرث .

وندع الشاعر أبا ذؤيب نفسه يحدثنا
بعبارته، واصفا موت النبي عليه السلام ،
ودفنه قائلا : (بلغنا أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم عليل ، فاستشعرت حزنا ، وبت
بأطول ليلة لا ينجاب ديجورها ولا يطلع
نورها ؛ فظلمت أقاسى طولها . حتى
إذا كان قرب السحر أغفيت ، فهتف بي
هاتف وهو يقول : إ

خطب أجل أناخ بالإسلام

بين النخيل ، ومعقد الآطام

قبض النبي محمد . . . فعيوننا

تذرى الدموع عليه بالتسجام

قال أبو ذؤيب : فوثبت من نومي فزعا ،
فنظرت إلى السماء ، فلم أر إلا سعد الذابح^(١) ،
فتفاءلت به ذبحا يقع في العرب . وعلمت
أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قبض وهو
ميت من علته ، فركبت ناقتي ، وسرت .
فلما أصبحت طلبت شيئا أزجر به ، فعن
لى شيههم — يعني القنفذ قد قبض على صل —
يعنى الحية — فهي تلتوى عليه ، والشيههم
يقضمها حتى أكلها . . . فزجرت ذلك ،
وقلت : شيههم ، شيء مهم ، والتواء الصل
التواء الناس عن الحق على القائم بعد النبي . .
ثم أكل الشيههم إياها غلبة القائم بعده على
الأمر . فحشيت ناقتي ؛ حتى إذا كنت بالغابة
زجرت الطائر ، فأخبرني بوفاته ، ونعب

غراب سانح ، فنظر مثل ذلك ! فتعوذت
بالله من شر ما عن لى في طريقى . وقدمت
المدينة ، ولها ضجيج بالبكاء كضجيج
الحجيج إذا أهلوا بالإحرام . فقلت : مه ؟
فقالوا : قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
فجئت المسجد فوجدته خاليا ، فأتيت
رسول الله ، فأصبت بابه مرتجا ، وقيل :
هو مسجى قد خلا به أهله . فقلت : أين
الناس ؟ فقيل : في سقيفة بني ساعدة صاروا
إلى الأنصار . فجئت إلى السقيفة فأصبت
أبا بكر وعمر وأبا عبيدة بن الجراح وسالما .
وجماعة من قريش . ورأيت الأنصار
فيهم سعد بن عبادة ، وفيهم شعراؤهم :
حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وملا
منهم ، فأويت إلى قريش ، وتكلمت
الأنصار ، فأطالوا الخطاب ، وأكثروا
الصواب . وتكلم أبو بكر رضى الله عنه ،
فلله دره من رجل لا يطيل الكلام ، ويعلم
مواضع فصل الخطاب ! ! والله لقد تكلم
بكلام لا يسمعه سامع إلا انقاد له ، ومال
إليه . ثم تكلم عمر رضى الله عنه بعده دون
كلامه ! ومد يده فبايعه وبايعوه . ورجع
أبو بكر ورجعت معه . . فشهدت الصلاة
على محمد و شهدت دفنه . ثم أنشد أبو
ذؤيب يبكى النبي صلى الله عليه وسلم قائلا :

لما رأيت الناس في عسلانهم

من بين ملحود له ومضرح

(١) سعد الذابح هو الثاني والعشرون من منازل القمر ، وهما نجمان في الجدى . ومنازل القمر يسميها العرب نجوم الأخذ ، وعددها ثمانية وعشرون منزلا . ومنها : سعد السعود ، ومنزله الخامس والعشرون في الدلو والجدى . . .

متبادرين لبشر حرج بأكفهم
نص الرقاب لفقد أبيض أروح

فهنالك صرت إلى الهموم. ومن يبت
جار الهموم يبيت غير مروح

كسفت لمصرعه النجوم وبدرها
وتزعزعت آطام بطن الأبطح

وتزعزعت أجيال يثرب كلها
ونخيلها لخلول خطب مفدح !

ولقد زجرت الطير قبل وفاته
بمصابه ، وزجرت سعد الأذبح

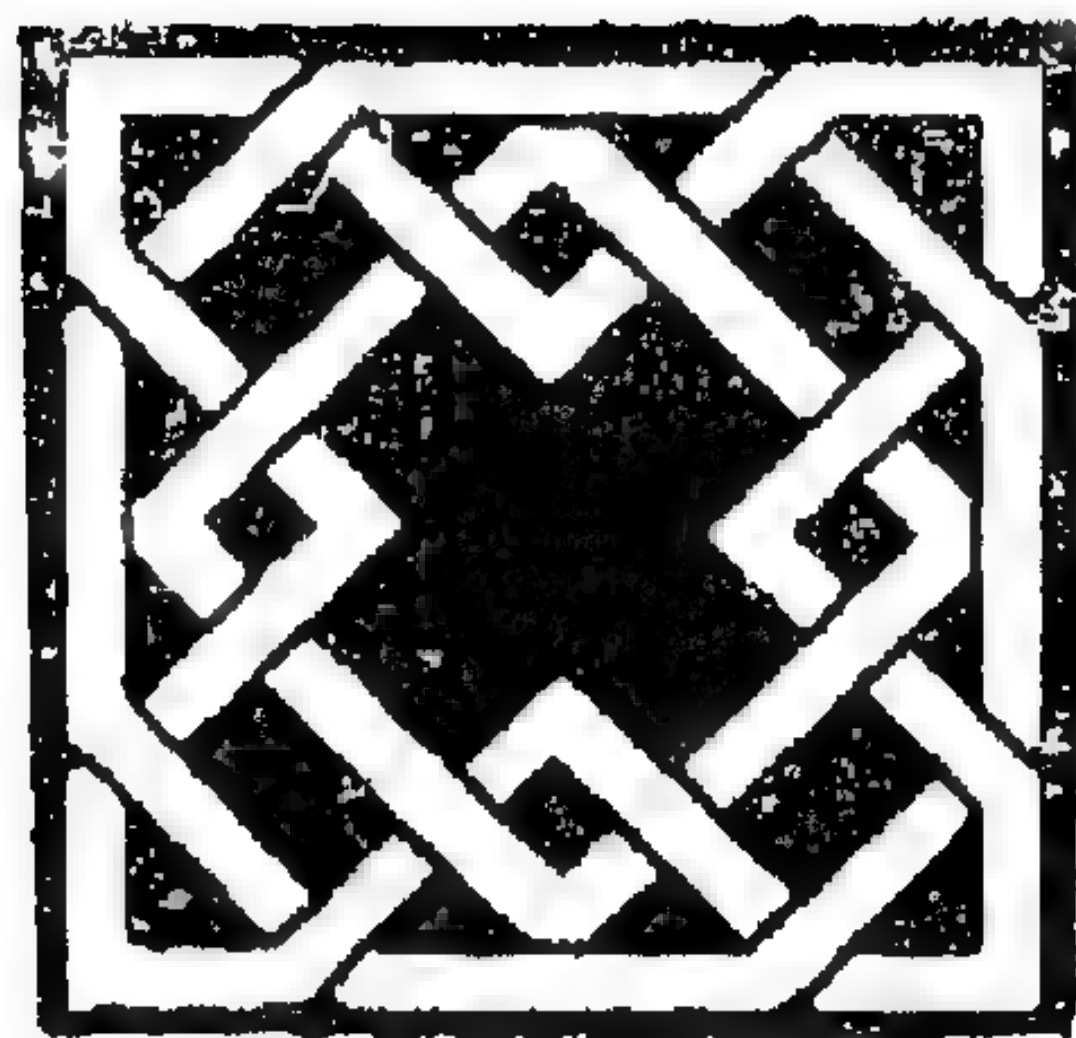
وأبو ذؤيب هذا هو صاحب العينية
المشهورة التي رثى بها أولاده الخمسة ،
وكانوا قد ماتوا جميعا في عام واحد نتيجة
إصابتهم بالطاعون ، ومطلعها :

من المنون وريبه نتوجع
والدهر ليس بمعتب من يجزع

والهذلي هذا شاعر مخضرم أدرك الجاهلية
والإسلام ، وأسلم فحسن إسلامه ، وشارك
في عدد من الغزوات ، وامتد به العمر حتى
شارك في فتح إفريقية سنة ست وعشرين
من الهجرة .

والذي يلفت النظر أن أبا الفرج
الأصفهاني صاحب كتاب الأغاني
ترجم له في الجزء السادس في بضع عشرة
صفحة ، وذكر طرفا غير قليل من أخباره
وأشعاره ، ولكنه لم يشير إلى شهوده وفاة
النبي عليه السلام وحضور دفنه ، كما لم
يشر إلى مراثيه له التي أوردتها السهيلي
صاحب (الروض الأنف) في شرح السيرة
النبوية لابن هشام كما ذكرنا قبل ذلك بسطور ،
والسهيلي - كما أراه - حجة موثوق به ،
فن أين أتى بهذه الرواية ؟ لعله اطلع عليها
في مصدر مفقود ، والعلم عند علام الغيوب .

محمد عبد الغنى حسن
عضو المجمع



من كنائس النواذر

(٣)

سيرة عبد السلام هارون

سارة:

قول الله : « واتخذ الله إبراهيم خليلاً » :
وهو الحديث رقم ٤٥٣ من الألف المختارة .
وهي سارة بنت هاران ملك حران ، كما
في شروح البخاري ؛ وكان اسمها في بادئ
الأمر « ساراي » .

جاء في سفر التكوين الأصحاح ١٧ :
« وقال الله لإبراهيم : ساراي امرأتك ،
لا تدعو اسمها ساراي ، بل اسمها سارة » .
وفي حواشي سفر التكوين أن معنى هذا
الاسم الجديد - أعني سارة - هو الرئيسة .

وقد وجدت من الشواهد على ضبط
اسمها ما سجله جرير في ديوانه ٢٤٣
والنقائص ٩٩٤ وابن سلام ٣٤٨ والطبري
١ : ٣٧٩ ومعجم البلدان في رسم (الروم) :
ويجمعنا والغر أولاد سارة

أب لانبالي بعده من تعذرا (١) ،
أبونا خليل الله والرب ربنا
رضينا بما أعطى الإله وقدرنا
ويعني بأولاد سارة أبناء ولدها إسحاق ،
ويزعم بعض الأخباريين أن الفرس من أبناء

نسمى بناتنا ، أو نناديهم أحياناً باسم «سارة»
بتشديد الراء فهل نعد هذه التسمية خطأ ؟

الأمر ذو وجهين . فإن قصدنا تسمية
حديثه لعلاقة لها بالاسم التاريخي القديم الذي
كان علماً على الزوجة الأولى لأبينا إبراهيم
عليه السلام ، والدة إسحاق ويعقوب ، عدنا
ذلك صواباً ؛ إذ هي اشتقاق عربي أصيل
من قولهم ؛ سرته تسره فهي سارة .

ولكن حينما نقرأ ذلك الاسم التاريخي في
مرجع من المراجع أو نحاول ضبطه ، أو نسمى
بناتنا بهذا الاسم قدوة أو تيمناً به فإنه يكون
من الخطأ بمكان أن نشدد الراء ، بل ننطقها
خفيفة كما هو ضبطها المنصوص عليه .

وقد وقع في بعض كتب التراث تحريف
في كتابة هذا الاسم ، في معجم لسان العرب
في مادتي (سقم ، وهجر) إذ ضبط ضبط
قلم بتشديد الراء ، والصواب تخفيفها كما ورد
في صحيح البخاري في كتاب الأنبياء في باب

(*) ألقى البحث في الجلسة الخامسة من مؤتمر الدورة الثامنة والأربعين بتاريخ ٣ من جمادى الأولى ١٤٠٢ هـ ،
الموافق ٢٧ من فبراير ١٩٨٢ م .
(١) أي تأخر وجاء من بعده .

إسحاق . وقال ياقوت عند إنشاد الشعر :
إن جريرا كان يفتخر على اليمن بالفرس
والروم ويقول : إنهم من ولد إسحاق .
وأما اليمن القحطانيون فلا يرجعون في نسبهم
إلى إبراهيم .

المد والجزر :

من المعروف أن المد والجزر ظاهرة
جغرافية طبيعية تنشأ من عدم تساوى جاذبية
كل من القمر والشمس للأرض في
أجزائها المختلفة ، وأن النصف المواجه
للقمر ينجذب ماؤه أكثر من النصف الآخر ،
وذلك لأن القمر أقرب إلى الأرض من الشمس
الشديدة البعد ، ويتأرجع المد والجزر طبقاً
لتغير مواقع الشمس والقمر من الأرض
بالتباعد أو التلاقى أو الانحراف على مدار
الشهر . ويتلاقى القمر والشمس على مستوى
واحد من الأرض — كما يحدث في أول
الشهر ومنصفه — يحدث المد الأعظم .

ولكن في نظرة بعض قدماء العرب أن
هذا ناجم من تأثير بعض الملائكة ... يذكر
ابن فارس (— ٣٩٥) في مادة (قهس)
هذا النص : « وقالوا في ذكر المد والجزر :
إن ملكاً قلد وكل بقموس البحر كلما وضع
رجله فاض ، فإذا رفعها غاص » .

فإذا ارتقمنا إلى المؤرخ الجغرافى زكريا
ابن محمد القزوينى صاحب عجائب المخلوقات
(٦٠٥ — ٦٨٢) فإننا نجد محاولة علمية
مقاربة إذ يقول في ص ١٠١ :

« وأما مد بعض البحار في وقت طلوع
القمر فزعموا أن في قعر البحر صخوراً صلبة
وأحجاراً صلبة ، وإذا أشرق القمر على
سطح ذلك البحر وصلت مطارح أشعته إلى
تلك الصخور والأحجار التى في قرارها ، ثم
انعكست من هناك متراخية ، فسخت تلك
المياه وحمت ولطفت فطلبت مكاناً أوسع
وتموجت إلى ساحلها ودفع بعضها بعضاً
وفاضت على شواطئها ، وتراجعت المياه
التي كانت تنصب إليها إلى خلف ،
فلا نزال كذلك مادام القمر مرتفعاً إلى وسط
سمائه ، فإذا أخذ ينحط سكن غليان تلك المياه ،
وبردت تلك الأجزاء وغلظت ، ورجعت
إلى قرارها ، وجرت الأنهار على عادتها » .

فقد أرجع القزوينى التأثير إلى تسخين
القمر لصخور البحار . وفاته أن تسخين الشمس
في رائعة النهار أشد وأقوى . فهذا غلط ظاهر
وليس الأمر مبنياً على التسخين والتبريد ،
ولأنما هو نظام الجاذبية الفلكية .

الأنهار المقلوبة :

جاء في تنبيه المسعودى (١٥١) عند الكلام
على نهر آلس : وتفسير آلس بالعربية :
نهر الملح . وهو نهر مقلوب يجرى مما يلي
الجنوب مستقبلاً للشمال ، كنيل مصر ومهران
السند ، ونهر أنطاكية المعروف بالأرند . وماعدا
ذلك من الأنهار الكبار فصحبها كلها من الشمال

إلى ناحية الجنوب ، لارتفاع الشمال على الجنوب وكثرة مياهه .

وهذا الحكم الخاص بالدنيا القديمة قد يصدق تمام الصديق على الدنيا الجديدة وأنهارها العظام ، فالمسيحي في أمريكا الشمالية وباراجواي وأورجواي في أمريكا الجنوبية يصبان في الجنوب ، على حين يصب نهر الأمازون في الشمال ويعد بذلك في وجهة نظره نهراً مقابلاً .

وأما تعليله بارتفاع الشمال على الجنوب فهو موضع نظر بلا ريب .

الفحم الحجري أو الصخري :

إنما عرفناه حديثاً ، عند اختلاطنا بالإنجليز والأوربيين ، ولعل أعظم مناجمه في بلدة نيوكاسل بإنجلترا . وقد عرفته العرب جاء في معجم البلدان عند ذكر إقليم أسبرة بأقصى بلاد الشاش مما وراء النهر . مانصه : وهي بلاد يخرج منها النفط والفيروزج والحديد والصفير والذهب والآثك ، أي الرصاص . وفيها جبل أسود حجارته تحترق كما يحترق الفحم يباع منه حمل بدرهم وحملان فإذا احترق اشتد بياض رماده فيستعمل في تبييض الثياب . ولا يعرف في بلدان الأرض مثل هذا . قاله الإصطخرى .

ومثل هذا النص في عجائب المخلوقات (١٢٤) .

التبان :

التبان ، كرمان : سروال صغير مقدار شبر يستر العورة المغلظة يكون للملاحين . وهو ما يعادل ما يسمى في اللغة الدخيلة « المايوه » ولفظنا العربي أجدر بالحياة منه وأولى أن تحمل العامة عليه : .

جاء في النجوم الزاهرة ١٠ : ١٦٩ أن السلطان المظفر بن الناصر قلاوون كان إذا لعب مع الأوباش يتعري ويلبس تبان جلد ويصارع معهم ويلعب بالرمح والكرة .

وكلمة الأوباش قال الأصمعي فيها : يقال بها أوباش من الناس وأوشاب من الناس وهم الضروب المتفرقون .

المراكبي :

استعمال هذا اللفظ بمعنى الملاح فقط تأباه اللغة الأصيلة لأن له مدلولاً حضارياً قديماً ، ولأن المركب لفظ يشمل كل ما يركب من فرس أو بغل أو فيل أو سفينة .

ورد في الأغاني ١٨ : ١٧٧ في ترجمة عريب المغنية : كانت عريب لعبد الله بن إسماعيل صاحب مراكب الرشيد ، وهو الذي رباها وأدبها وعلمها الغناء . ثم يقول :

حدثني من أثق به عن أحمد بن عبد الله بن إسماعيل المراكبي أن أم عريب تسمى فاطمة .

وكان هذا المراكبي متعهداً كذلك لمراكب المهدي والد هارون الرشيد من قبل . جاء في تاريخ الطبري ٨ : ١٧٠ : وذكر عبد الله بن إسماعيل صاحب المراكب قال : لما صرنا إلى ما سبذان دنوت إلى عنانه - يعني عنان فرس المهدي - فأمسكت به ومابه علة ، فوالله ما أصبح إلا ميتاً .

البهارسيا :

المرض الذي كشفه « الطبيب الألماني « بهارس » سنة ١٨٥١ .

قد عرفه العرب قديماً وعبروا عنه بالحيض . جاء في الخزائن ٤ : ٢٩٧ : « وأبو مكعت هو الذي كان يحيض في الجاهلية » . وهل يحيض الرجال ؟ !

لاريب أن هذه عبارة عن بول الدم ، وهو الظاهرة التي يتميز بها مرض البهارسيا . وقد عرف العرب أيضاً علة هذا المرض الذي تنتقل عدواه بالماء . وجدت في معجم ما استعجم ١٣٢٨ هذا النص الذي يدل على علاقة هذا المرض بالماء ، وذلك عند الكلام على غدير يقال له رواوة : « ثم يفضى إلى غدير الطفيتين ، وهو من أعذب ماء يشرب ، إلا أنه يبيل الدم » .

ومن البديهي أن يقال علمياً إن هذا الماء كان موبوءاً بجرثومة هذا المرض .

المرأة :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوصي بالنساء خيراً ، وليس فينا من لا يحفظ قوله البارع : « يا أنجشہ رفقا بالقوارير » .

فمن أروع ما جاء في الحث على حسن صحبة المرأة مارواه المقدام بن معد يكرب . أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الرجل من أهل الكتاب يتزوج المرأة وما يعلق على يدها الخير ، وما يرغب واحد عن صاحبه حتى يموتا هرما » .

قال الحربي في تفسير « ما يعلق على يدها الخير » يقول : من صغرها وقلة رفقتها . والمراد حث أصحابه على الوصية بالنساء والصبر عليهن ، فقد كان أهل الكتاب يفعلون ذلك .

وفي هذا الحديث إباحة للقدوة الصالحة مهما يكن مصدرها .

سجن الطرارات :

الطارار : فعال من الطر وهو الاختلاس . وقد كان للنساء الطرارات سجن خاص جاء في أخبار العلماء بأخبار العلماء للقفطي ص ٢٦٨ في ترجمة أبي علي بن أبي الخير الطبيب أنه كبس وعنده امرأة من الخواطيء المسلمات ، فأقر على جماعة من الخواطيء المسلمات أنهن كن يأتينه لأجل دنياه ، فخرجت الأوامر بالقبض على النساء اللواتي ذكرهن ، فقبض عليهن وأودعن سجن الطرارات . قد كان لهن سجن خاص .

التبكير بالتعليم :

كان أسلافنا يولون التعليم اهتماماً كبيراً ،
ويحملون أبناءهم عليه وهم في سن مبكرة
جداً . فمن ذلك ما روى أبو الفرج في
الأغانى ١٦ : ٣٧ عن أشجع السلمي الشاعر
قال : دخلت على محمد الأمين ، حين أجلس
بمجلس الأدب للتعليم ، وهو ابن أربع سنين
وكان يجلس فيه ساعة ثم يقوم ، فأنشدته :

ملك أبوه وأمه من نبعة

منها سراج الأمة الوهاج

شربت بمكة من ربي بطحائها

ماء النبوة ليس فيه مزاج^(١)

فأمرت له زبيدة بمائة ألف درهم .

وجاء في اختصار علوم الحديث
لابن كثير ص (١٢٠) : « وينبغي المبادرة
إلى إسماع الولدان الحديث النبوى . والعادة
المطرودة في أهل هذه الأعصار وما قبلها
بمدد متطاولة أن الصغير يكتب له حضور
إلى تمام خمس سنين من عمره ، ثم بعد ذلك
يسمى سماعاً » .

وفي الكتاب أيضاً عن أبي عمرو بن الصلاح :
« وبلغنا عن إبراهيم بن سعيد الجوهري أنه
قال : « رأيت صبيّاً ابن أربع سنين قد حمل
إلى المأمون قد قرأ القرآن ونظر في الرأى ،
غير أنه إذا جاع بكى » .

(١) يعنى النبعة .

الاعفاء من الجندية :

تختلف نظمه وقوانينه باختلاف البلاد
وأنظمتها في الوقت الحاضر .

ومن غرائب ما سجلته كتب التراث
ما أورده ياقوت في معجم البلدان عند ذكر
صقلية وقصبتها مدينة بلّرم : عن ابن حوقل
قال : « والغالب على أهل المدينة المعلمون ،
فكان في بلرم ثلاثمائة معلم فسألت عن ذلك
فقالوا : إن المعلم لا يكلف الخروج إلى
الجهاد عند صدمة العدو » .

والتاريخ هو التاريخ .

قسوة العشارين :

جاء في كتاب الموفقيات للزبير بن بكار
ص (٦٢٥) والإصابة ص (٣ : ١٢) عن
هشام بن الكلبي عن أبيه أن عمر خرج
تاجراً في الجاهلية مع نفر من قريش ، فلما
وصلوا إلى فلسطين قيل لهم : إن زنباع
ابن روح بن سلامة الجذامى يعشر من يمر
به ، للحارث بن أبي شمر . قال : فعمدنا إلى
ما معنا من الذهب فألقمناه ناقة لنا حتى
إذا مضينا نحرناها وسلم لنا ذهبنا ، فلما مررنا
على زنباع قال : فتشوههم . ففتشونا فلم
يجدوا معنا إلا شيئاً يسيراً ، فقال : اعرضوا
على إبلهم . فمرت به الناقة بعينها فقال :
انحروها . فقلت : لأى شيء ؟ قال : إن
كان في بطنها ذهب ، وإلا فلك ناقة غيرها ،
وكلّنها قال : فشقوا بطنها فسال الذهب ،

فأغلظ علينا في العشر ونال من عمر ، فقال
عمر في ذلك :

متى ألق زنباع بن روح ببليدة
لى النصف منه يقرع السن من ندم
ويعلم بأن الحى - حى ابن غالب -

مطاعين في الهيجا مضاريب في القيم
فهذا عمر - وهو من هو - ينعى على هؤلاء
العشارين جورهم في ذلك الزمان السحيق ،
ويستعلن غضبه وتوعده لهم .

الحيل الحربية :

من الحيل الحربية المعاصرة كسوة الدبابات
والسيارات والمدافع ، بله الجنود والمعدات
بأغصان الأشجار للتخفى من عيون الأعداء .

ولهذا جذر في القديم يتمثل فيما رواه
صاحب خزانة الأدب ص (٢ : ٢٩٩) في
خبر زرقاء اليمامة : أن حسان بن تبع ساق
إليها جيشاً من قبيلة طسم ، فلما كانوا على
مسيرة ثلاث ليال منها صعدت الحصن الذى
يقال له : « حصن الكلب » فنظرت إلى
ذلك الجيش وقد استتر كل رجل بشجرة
تليسياً عليها ، فقالت :

أقسم بالله لقد دب الشجر

أو حمير قد أخذت شيئاً تجر

فهذا سبق عربى قديم في الحيل الحربية عند
أسلافنا العرب .

الدبابات :

التسمية قديمة جداً ، والمضمون مختلف .
ولعل أقدم نص وردت فيه ، هو ما كان
في حصار الطائف إذ يقول المؤرخون وكتاب
السير : « دخل نفر من أصحاب رسول الله
صلى الله عليه وسلم تحت دبابة ثم زحفوا بها
إلى جدار الطائف ليخرقوه » .

والدبابة : آلة تتخذ من جلود وخشب
يدخل فيها الرجال ويقربونها من الحصن
المحاصر لينقبوه وتقيم ما يُرمون به من
فوقهم .

والتسمية الحديثة موفقة ، تعبر عن المعنى
المعاصر تعبيراً دقيقاً . وما أجدرنا أن نثريث
في التعبير عن مستحدثاتنا فإن من المقطوع
به أن نوفق أو نقارب ، إذا نقبنا في قديم
تراثنا .

البريد الصوتى :

كان ذلك في غزوة الحديبية سنة ست
من الهجرة .

جاء فى امتاع الإسماع ص (٢٧٨) : « وبلغ
أهل مكة خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم
فراعهم ذلك وتشاوروا ، ثم قدّموا عكرمة
ابن أبى جهل ، أو خالد بن الوليد على مائتى
فارس إلى كراع الغميم (بين مكة والمدينة)
واستنفروا من أطاعهم من خلفاء قريش من
بنى كنانة (كانوا قد تحالفوا تحت جبل
يقال له : « حبشى ») وأجلبت ثقيف معهم

(أى انضمت) ووضعوا العيون على الجبال ،
وهم عشرة رجال يوحى بعضهم إلى بعض
بالصوت : «فعل محمد كذا وكذا» فيردد من
بعده قوله وهكذا ، حتى ينتهى ذلك إلى
قريش .

وهذا سبق حضارى قديم ، له نظير
معاصر فى الحروب عندنا بالتخاطب بالإشارة
بالأعلام التى تطورت إلى النظام اللاسلكى
والرادارى .

مقاومة الجراد :

ظاهرة حضارية أصبحت ذات شأن كبير
فى عصرنا ، وهى الآن داخلية فى نطاق التعاون
والتنظيم الدولى . والجراد آفة خطيرة تقضى
على الزروع والثمار إن لم تقاوم مقاومة جادة
أهلك الحرت والزرع والغلات .

جاء فى تاريخ ابن الوردى فى حوادث
سنة ٧٤٨ ج ٢ : ٣٤٥ : «وفى المحرم ظهر
بين منبج والباب جراد عظيم من بزر السنة
الماضية فخرج عسكر من حلب ، وخلق
من فلاحى النواحي الحلبية نحو أربعة آلاف
نفس لقتله ودفنه ، وقامت عندهم أسواق ،
وصرفت عليهم من الرعية أموال » .

وهذا النص يظهرنا على ما كان من التعاون
المتكامل يشترك فيه الفلاحين ،
وتساق فيه التبرعات الشعبية ، وتنظم له
حملة شاملة تقام فيها الأسواق المنظمة ،
ولا ينتهى فيه الأمر إلى إبادة الجراد ، بل

يشفع بذلك بدفنه مبالغة فى الإبادة ، واحتراساً
من فقس البيض . وفى ذلك يقول ابن الوردى :

قصيد الشام جراد
سن للغلات سنا

فتصالحنا عليه
وحفرنا ودفننا

وضع الجمرة تحت الثياب :

شهدنا جداتنا وأمهاتنا فيما مضى ، وهن
يحرصن على (البخور) فى أمور شتى أعلاها
شأناً هو دفع العين وشر الحاسد فيما يزرعمن
ومنها وضع الجمرة تحت ثياب الصبيان
وحشم على معاودة الخطو فوقها إن سبغاً وإن
عشراً ؛ للتطيب أحياناً ، ولدفع العين واتقاء
شر الحسود حينئذ آخر .

ومن طريف ما روى فى كتاب الفخرى
فى الآداب السلطانية ٢٠٧ لابن الطقطقى فى
نخبة مصرع أحمد بن يوسف كاتب المأمون
قال :

وكان سبب موته أنه دخل يوماً إلى
المأمون والمأمون يتبخر ، فأخرج المأمون
الجمرة من تحته وقال : اجعلوها تحت
أحمد ، تكرامة له . فنقل أعباءه إلى
المأمون أنه قال : ما هذا البخل بالبخور هلا
أمر لى ببخور مستأنف ؟ فاغتاض المأمون لذلك
وقال : ينسبني إلى البخل وقد علم أن نفقتى
فى كل يوم ستة آلاف دينار ؟ وإنما أردت
إكرامه بما كان تحت ثيابى ... ثم دخل عليه

أحمد بن يوسف وهو يتبعخر مرة أخرى فقال
المأمون : اجعلوا تحته في مجمرة قطع عنبر ،
وضعوا عليه شيئاً يمنع البخار أن يخرج ،
ففعّلوا ذلك ؛ فصبر عليه حتى غلبه الأمر
فصاح : الموت الموت . فكشفوا عنه وقد
غشى عليه ، فانصرف إلى منزله فمكث فيه
شهوراً عتيلاً من ضيق النفس حتى مات
بهذه العلة .

الوزير والكاتب :

نلاحظ في ثنايا كتب التاريخ اضطراباً في التفرقة
بين هذين اللقبين ، والملحوظ أيضاً أنه لم
يكن في صدر الإسلام ولا في عهد الدولة
الأموية من يحمل لقب الوزير ، وكانوا كلهم
كتّاباً حتى إذا كانت أيام الدولة العباسية
وجدنا أول وزير فيها هو أبو سلمة حفص
ابن سليمان الخلال الذي كان يقال له
« وزير آل محمد » . كما كان يقال لأبي مسلم
الخراساني « أمين آل محمد » .

وفيه يقول سليمان بن المهاجر البجلي عند
مصرعه :

إن المساءة قد تسر وربما
كان السرور بما كرهت جديراً

إن الوزير وزير آل محمد
أودى فمن يشنك كان وزيراً

ويسرى نظام الوزراء ، ومعه نظام الكتاب
إلى عهد المأمون ، فقد كان له وزراء وكتاب
وكان آخر وزرائه هو محمد بن يزداد بن
سويد . يقول المسعودي في التنبيه والإشراف

٣٠٤ : « ولم يكن يسمى بين يديه أحد من
كتابه وزيراً ولا يكاتب بذلك ، فلأجل ذلك
ترك كثير من الناس أن يعد من ذكرنا في
الوزراء . ورأيت من صنف في أخبار
الوزراء والكتاب كأبي عبد الله محمد بن داود
ابن الجراح ، ومحمد بن يحيى الصولي ، ومحمد
ابن عبدوس الجهمي والمعروف بابن
الماشطة الكاتب ، منهم من عدّهم في الوزراء ،
ومنهم من لم يعدّهم للسبب الذي بيّنا .

الجاحظ وزواجه وولده

سألني ويسألني كثيرون عن أسرة الجاحظ
وهل كانت له زوجة أو ولد ؟

وقد عثرت بآخرة على نص في رسائل
الجاحظ ١ : ٢٥٤ في أثناء رسالة الجحد
والهزل التي وجهها إلى محمد بن عبد الملك
الزيات .

ويبدو أن الجاحظ كان قد تزوج في سن
عالية بعد أن كان قاعداً عن الزواج ، فنحنى
عليه ابن الزيات ما صنع من ذلك فقال
مجيباً في الرد عليه :

وما كان عليك مع كبر سنّي وضعف
ركني أن يكون لي - يعني الولد - ريحانة
أشملها ، وثمرّة أضملها ، وأن أجد إلى
الأمان به سبباً ، وإلى التلهي به سلماً .

ويقول أيضاً :

دع عنك كل شئ ، ما كان عليك أن
يكون لي ولد يحيى ذكرى ، ويحوى ميراثي

ولا أخرج من الدنيا بحسرتى ، ولا يأكله
مراء يرصدنى ، وابن عم يحسدنى ، ولا
يرتع فيه المعدلون فى زمان السوء .

وكفى بهذا النص شاهدا :

تهجين الحيوان :

كما يحدث التهجين فى النبات والفواكه
كما حدث عندنا فى مصر من إدخال أنواع
الفواكه الحمضية منذ عهد ليس بالبعيد ،
حدث مثل هذا التهجين للحيوان فى عصور
سحيقة .

إذ يذكر المسعودى تاريخ دخول الجواميس
إلى بلاد الشام ، ويقول فى التنبيه والإشراف
٣٠٧ : « وقيل إن بدء الجواميس بالثغر
الشامى وسواحل الشام من جواميس كانت
لآل المهلب ببلاد البصرة والبطائح والطفوف
فلما قتل يزيد بن المهلب نقل يزيد بن عبد
الملك بن مروان كثيرا منها إلى هذه النواحي .
وكانت خلافة يزيد بن عبد الملك ما بين
سنتى ١٠١ - ١٠٥ .

وذكر المسعودى قولا آخر فى خلافة
المعتصم ٢١٨ - ٢٢٧ أنه بعد تغلبه على الزطّ
أجلاهم وأنزلهم بلاد خانقين وجلولاء من
طريق خراسان ، وبلاد عين زربة من الثغر
الشامى ، ومن يومئذ صارت الجواميس
بالشام ولم تكن تعرف هنالك .

عض الانسان للحيوان :

أن بعض حيوان إنسانا ذلك أمر معروف

ليس فيه من وجوه الغرابة وجه ، ولكن
أن بعض إنسان عاقل حيوانا أمر تلفه
الغرابة وتحتويه الندرة . يقول الأمدى
فى المؤلف ١٨٨ فى ترجمة ملاعب الأسنة
أوس بن مالك الحرى الشاعر الفارس
وكان أوس شاعرا ، عضت اللبؤة منكبه
فعض هو بأنفها وقال :

أعض بأنفها وتعض ركنى
كلانا ، باسل بطل شجاع
فلولا أن تداركنى زهير

بنصل السيف أفنتى السباع

لفويات :

السمنة ، بكسر السين لا تعرفها اللغة
ولمّا تعرف السمن والسمنة . وفى حديث
أبى هريرة : « خير أمتى القرن الذى أنا
فيهم . ثم الذين يلونهم ، ثم يظهر فيهم قوم
يحبون السمانة ، يشهدون قبل أن يستشهدوا »

وتعرف اللغة السمنة بضم السين لكن بمعنى
الدواء الذى يتخذ للسمن ، تسمن به المرأة
أو غيرها .

المقاص :

من أنواع النقوش فى الثياب التقيص ،
وهو كما قال الخفاجى فى شفاء الغليل ١٩٥ :

نقش فى الثياب بالطول والعرض . يعنى
أن نخطوطه يقطع بعضها بعضها كما تتقاطع

قضببان القفص بالطول والعرض . وفي ذلك يقول القائل :

لم أنس قول الورق وهى حبيسة

والعيشُ منها قد أقام منغصبا

قد كنت ألبس من غصوني أخضرا

فلبست منها بعد ذاك مقفصا

يصف الحمام وقد كان طليقا بين أفنان

الشجر ، ثم عاد به الأمر إلى الأسر بين

قضببان الأقفاص .

وما أجدر هذا اللفظ « المقفص » الدقيق

الدلالة ، أن يستعمل في مقابل الكلمة

الإفرنجية « كاروه » و « كاروهات » .

ولهذا الاشتقاق نظائر في العربية ، كقولهم

المسهم : الذى فيه نقوش كالسهم ، والمرجل

الذى فيه صور المراحل جمع مرجل ،

والندر : فيه صور الدنانير ، والمضلع : الموشى

بمثل الضلوع ، والمبرج الذى فيه صور البروج

والمدرهم والمصلب ، الذى فيه كالصليب

والمفوف الذى فيه بياض وخطوط بيض

من الفُوف ، بالضم ، وهو البياض يكون

في أظفار الأحداث .

تجوهرت الأمور :

تجوهرت الأمور : وضحت وتكشفت

ولم أجد هذه الكلمة في معجم ، وكم ذا

من الألفاظ الفصيحة العربية التى لم ترصدها

المعاجم .

وجدت في «المؤتلف والمختلف» للآمدى
ص ١٩ في ترجمة أعشى عكل يقول هذا
الأعشى في هجاء بلال ونوح ابني جرير
الشاعر :

سألت الناس أى الناس شر

وأخبث إذ تجوهرت الأمور

وَأَلَامُ أَوْلَا وَأَدَقُّ فَعَلَا

فقالوا : أسرةٌ فيهم جرير

إذا سئل الورى عن كل خزى

أشار إلى بنى الخطى مشيرٌ

المتنيح :

نقروها كثيرا في الصحف في مقام النعى

لكبار رجال الدين المسيحي فنظنها حديثه

أو استعمالا معاصرا .

والكلمة قديمة جدا ترجع إلى ما قبل

سنة ٤٥٥ وهى سنة وفاة ابن بطلان . وهو

أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون ،

وكان من نصارى الكرخ . قال ابن أبي

أصيبعة ص ٣٢٨ عند كلامه على كتابه «دعوة

الاطباء» : « ونقلت من خط ابن بطلان

وهو يقول في آخرها : فرغت من نسخها

أنا مصنفها يوانيس الطبيب ، المعروف

بالمختار بن الحسن بن عبدون بدير الملك

المتنيح قسطنطين ، بظاهر القسطنطينية في آخر

أيلول من سنة تسع وخمسين وألف »

هذا قوله ، ويكون ذلك بالتاريخ الإسلامى :

من سنة خمسين وأربعمائة ، والقول

في تأصيل هذه الكلمة أمر يحتاج إلى بحث طويل .

الحقير النافع :

ليس مادة من المواد ولا مالا من الأموال أو شيئا مهما لا يؤبه له وإنما هو لقب لطبيب لا يعرف التاريخ له اسما ، كان من أهل مصر يهودى النحلة فى زمن الحاكم بأمر الله ، وكان جراحا حسن المعالجة يرتزق بصناعة مداواة الجراح فقط ، وكان فى غاية الخمول يقول ابن أبى أصيبعة ٥٤٩ : واتفق أن عرض لرجل الحاكم عقرا زمن ولم يبرأ . وكان ابن مقشر طبيب الحاكم والخطى عنده وغيره من أطباء الخاص المشار كين له يتولون علاجه ، فلا يؤثر ذلك إلا شرا فى العقر فأحضر له هذا اليهودى المذكور ، فلما رآه طرح عليه دواء يابساً فنشفه ، وشفاه فى ثلاثة أيام . فأطلق له ألف دينار ، وخلع عليه ولقبه بالحقير النافع ، وجعله من أطباء الخاص .

الطرطور :

كلمة من صميم العربية ، وأخذها الفرس والترك لفظاً وملبساً من العربية ، وكم لبس الفرس والترك من الطرايطير ، ولا سيما بعض أصحاب الطرق الصوفية من المولوية والبكتاشية ولم ترد هذه الكلمة فى المعجم الوسيط ، وهى جديرة أن تثبت فيه .

جاء فى اللسان : « والطرطور : الوغد الضعيف من الرجال ، والجمع الطرايطير وأنشد :

قد علمت يشكر من غلامها
إذا الطرايطير : اقشعرّ هامها
ورجل طرطور ، أى دقيق « طويل »
ثم يقول : والطرطور : « قلنسوة للأعراب طويلة الرأس » .

وجاء فى القاموس : « والطرطور : الدقيق الطويل ، والقلنسوة تكون كذلك والوغد الضعيف » .

أما استينجاس فى المعجم الفارسى العربى ٨١٢ فيرمز له بالحرف (A) الدال على اقتراضه من العربية ، وفسره بعين ماجاء فى اللسان ، وزاد عليه أنه يطلق أيضا على الضعيف الدقيق من معزى الجبال وتيوسها .

وقد جرت هذه الكلمة فى لغتنا المعاصرة بمعنى الرجل الذى ليس له حل ولا عقد ، والذى لا يعبأ به ولا يمكنه بين القوم . وهو مجاز صادق .

كلمات موعودة :

لعل قولهم : اللغة كائن حتى من أصدق القضايا المسلم بها . فى جميع اللغات كلمات تحيا ، وكلمات تموت ، والبقاء للأصلح .

ومن الكلمات التى وثدت فى العصور الحديثة كلمة « الجراثيم » إذ تغير مدلولها

الواسع وانحرف إلى مجرى هو غاية في الضيق ، انحرافا من الجمال إلى نهاية القبح والشناعة .

فالخرثومة في فجرها اللغوى تعبير جميل عن أصل كل شيء ومجتمعه ، والخرثومة ما اجتمع من التراب في أصول الشجر.. وفي حديث ابن الزبير لما أراد أن يهدم الكعبة ويبنيها : كانت في المسجد جراثيم يراد بذلك أنه كان فيه أماكن مرتفعة عن الأرض مجتمعة من تراب أو طين ، أى إن أرض المسجد لم تكن ميسطوية . فإذا حاولنا أن نفهم هذا النص بالمفهوم العصرى أخطأنا المعنى المراد ، وفهمنا أن الأرض كانت موبوءة بجراثيم أمراض ، إذ أصبح مفهوم هذه الكلمة في عصرنا لا يمكن أن يتعدى هذا المعنى الطبى الذى يعم البروتوزوا والفيروسات ، والفطر والبكتريا ، كما يقولون وكذلك حين نصغى إلى قول جرير في مدح عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك بن مروان :

يا آل مروان إن الله فضلكم
فضلا قديما وفي المسعاة تقديم

قوم أبوهم أبو العاصى وأورثهم
جرثومة لا تساويها الجراثيم

ولا يمكن أن تفسر هذه الجراثيم التى تعنى الأصل السامى والعرق الكريم بالمفهوم اللغوى المعاصر .

وفي الشعراء الأمويين من كان يدعى «جرثومة» عثرت على اسمه في كتاب المصنوع للعسكري ٦٤ ، وقد كان هذا الشاعر موضع إعجاب من الخليفة عبد الملك بن مروان .

ومن ذلك أيضا كلمة «التبجح» فقد أصبح مفهومها العصرى منحصرًا في الدلالة على الجرأة المستهجنة ، وسوء الأدب وسلاطة اللسان . ولكن مدلولها الأصيل هو الفرح ، والشعور براحة النفس ، والفخر بما صار إليه المرء من منزلة ، كل ذلك في نطاق الأدب والرضا ، ومنه حديث أم زرع : « وبجحنى فبجحت » ، أى فرحنى ففرحت وعظمت نفسى عندى .

في ظلال النحو :

قالوا : من موانع الصرف في الصفة أن تكون على وزن أفعل بشرط ألا يقبل موثته التاء ، وذلك نحو أحمر وأبيض وأسود وأفضل وأكبر .

وهنا ينجم سؤال : ما الحكم إذا كان الوصف على وزن يغلب وروده في الفعل وليس على وزن أفعل ، وذلك نحو أحيمر وأسيود ، وأزيرق ، مصغّر أحمر وأسود وأزرق ؟

الجواب : أن نحو أحيمر ، وأسيود ممنوعان من الصرف أيضا لغلبة ذلك الوزن في الفعل نحو قول القائل : أنا أبيض وأسيطر وأهيم .

وبناء على ذلك كان قول ابن مالك في
الألفية :

ووصف اصلي ووزن أفعلا

ممنوع تأنيث بتا كأشها

موضع اعتراض عند النحويين وقالوا :
الأرجح قول ابن مالك نفسه في متن الكافية :

ووصف اصلي ووزن أصلا

في الفعل تا أنثى به لن توصلا

ليشمل القول ما كان على وزن أفع
وكذلك ما كان على وزن يغلب وروده
في الفعل .

وعلى ذلك إن ما ورد في اللسان (سود
٢٠٩) من قوله :

«وتصغير الأسود أسيد ، وإن شئت
أسود» ، أي قارب السواد » إنما هو خطأ
ظاهر . والصواب : أسيد وأسيود ، ممنوعين
من الصرف . فهذا عصفور آخر .

الجمع بين تاء المضارعة في أول الفعل وبين نون النسوة :

قال الحريري في الدرة ، ينعي على العامة
قولهم : الحوامل تطلقن ، والحوادث تطرقن
فيغلطون فيه ، لأنه لا يجمع في هذا القبيل
بين تاء المضارعة ونون النسوة التي هي
ضمير الفاعلات ، ووجه الكلام فيه أن
يلفظ بياء المضارعة ، كما قال تعالى :
« تكاد السموات يتفطرن منه » .

هذا مما ساقه الحريري . .

وقال الخفاجي في شرحه على الدرة

ص ١٨١ : قال الزمخشري :

في هذه الآية قراءة غريبة ، وهي :
«تفطرن» بتاءين مع النون ونظيرها حرف
روى في نوادر ابن الأعرابي ، وهي
تشمعن اه . فإذا قرئ به وورد في كلام
فصحاء العرب قديما فكيف يتأتى ما ذكره
المصنف ، فهو من قصور الباع وقلة
الاطلاع .

وأقول : قراءة التاءين مع النون من
رواية يونس عن أبي عمرو في الآية
الخامسة من سورة الشورى ، كما
هو عند الزمخشري . ورواها ابن خالويه
«تفطرن» من الانفطار في شواذ سورة
الشورى من رواية يونس عن أبي عمرو
أيضا .

الظرف المستقر :

يخطئ بعض العرب حينما يقولون
ظرف لغو وظرف مستقر . ويكسرون
قاف «مستقر» والصواب فتحها . قال
الصبيان ١ : ٢٠٠ في باب الابتداء :
« وأعلم أن كلا من الظرف والجار
والحجور قسمان : لغو ومستقر بفتح
القاف » .

ثم يعلل ذلك بقوله : « وسمى اللغو
لغوا لخلوه من الضمير في المتعلق ،

والمستقر مستقرا ، أى مستقرا فيه
لاستقرار الضمير فيه.

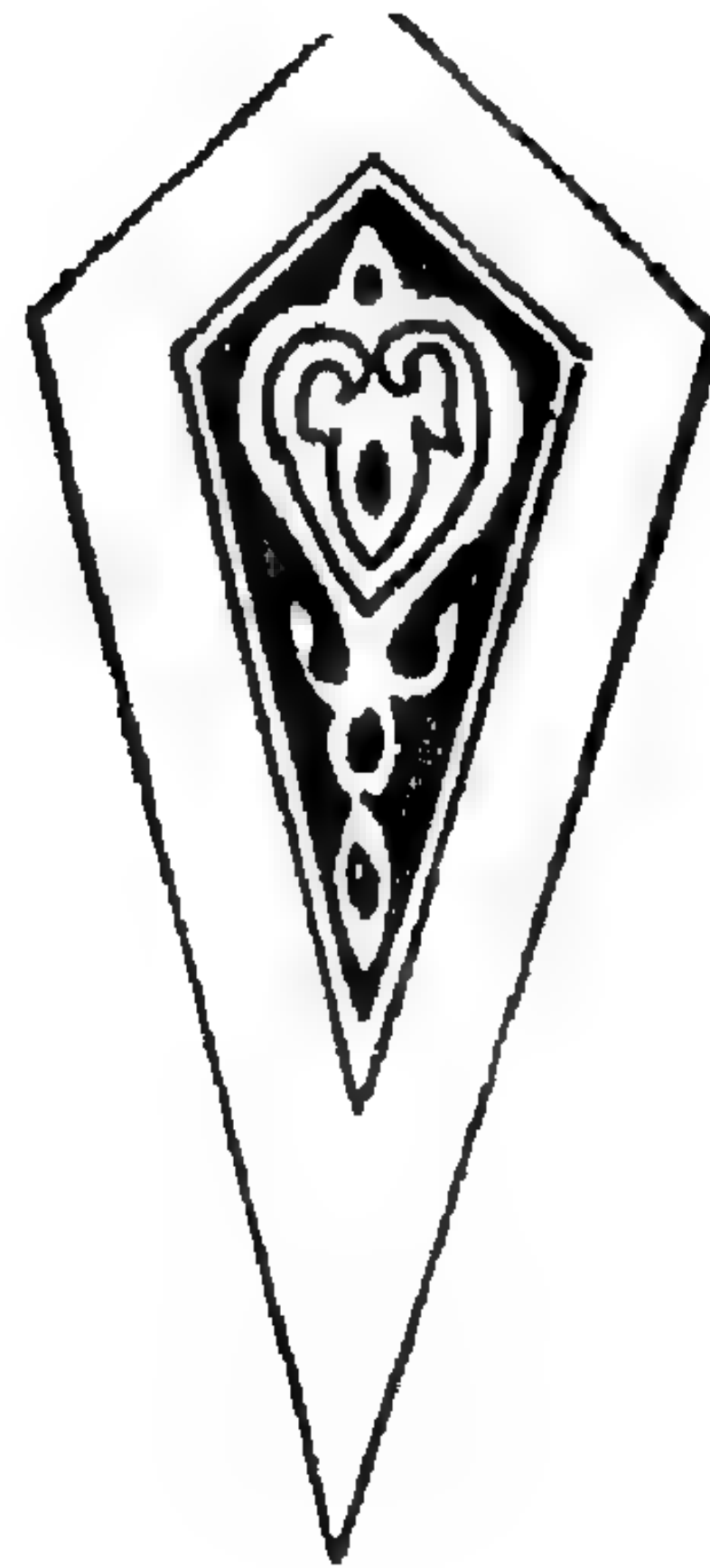
إذا عرف السبب بطل العجب :

كلمة عائرة ، أو مثل شارد ، يجرى
كثيرا على السنة المعاصرين وكأنه وليد
اليوم أو نتاج الأمس على حين نجده
يضرب بعرق أصيل فى القدم إلى نحو
تسعة قرون ماضية ، أدناها إليها ما جاء فى
كتاب « المرتجل » لابن الحشاش المتوفى
سنة ٥٦٧ وهو شرح على كتاب « الجمل »
لعبد القاهر الجرجاني . قال فى المرتجل
١٤٥ : « التعجب معنى من المعانى التى
تعرض فى النفوس ويكون مما نخفى
سببه وخرج عن نظرائه . وربما عبروا
عن هذا المعنى بعبارة أخرى هى : التعجب

يكون مما ندر من الأحكام ولم تعرف
علته . فإن أخل هذا المعنى بأحد الشرطين
بطل التعجب . ولهذا قال القائل ، وهو
قول مستفيض فى الناس : « إذا عرف
السبب بطل العجب » .

وأقول : لنى لم أجد هذا المثل فيما
لدى من كتب الأمثال ولأمر ما أحببت
أن تكون كلمتى اليوم على هذا الغرار
الذى توخيته منذ عهد ليس بالقريب ،
وهى أشقات نادرة متفرقة لأعلن أن تراثنا
يزخر بالكثير من العجب وإذا عرف
السبب بطل العجب ؟

عبد السلام محمد هارون
عضو المجمع



حياتي

للدكتور حسن إبراهيم

تدب حياة المرء من يوم خلقه
فيجهل ماذا كان في بطن أمه
فطنت لنور الشمس والصوت واللغى
عرفت ظلام الليل والمهد والدمى
وميزت أمي ثم من بعدها أبي
فطنت إلى الدنيا فزاد تساؤلي
وقد مرت الأعوام حتى ثلاثة
وأني بقلب الأم تسبر مهجتي
وكانت معي يومها بشرفة منزلي
تطلعت نحو البدر ثم سألتها
وكان سؤالاً فوق كل مداركي
وصار أبي والأم يروون قصتي
فهل زادني التفكير في العيش بسطة
ومرت سنون العلم حتى شديتي
دخلت نخضم العيش والعيش ماكر
لهوت ولكن كنت عزباء عن الهوى
وما شاقني ظي لعوب وإنمسا
وما كان غير اللهو همي وغايتي
تحمست أوزارا تعد كثيرة
إلى أن هداني الله نحو قرينتي

وثيدة خطو مثلما طلع الفجر
وأيامه الأولى وقد بزغ العمر
ونخفت هزيم الرعد ما انهمر القطر
وراحة نفسي كلما ضمني صدر
وأدركت أنني منهما الولد البكر
لأنهم أسراراً فمن عنده السر ؟
وأيقنت أن الفهم في مهجتي نزر
أليس لها في كل خاطرة خسر
عشية يوم زاد من طوله الحر
أماء واهما كيف لا يسقط البدر ؟
وكان جواباً حار في فهمه الفكر
لحظة تفكيرى وقد عمهم فخر
وهل نلت قدراً ليس يدركه الغير ؟
وسار على درب الحياة فتي غر
ففي كل ركن فيه قد كمن الغدر
فبعض الهوى حلو وأكثره مر
لقاء سفين ثم من بينها البحر
فما شفني صد وأرقني هجر
وعذري شبابي الغر لو قبل العذر
لأحيا حياة لا يدنسها هجر

(*) أقيمت القصيدة في الجلسة السادسة من مؤتمر الدورة الثامنة والأربعين بتاريخ ٤ من جادى الأول ١٤٠٢ هـ ، الموافق ٢٨ من فبراير ١٩٨٢ م .

وكان زواجي عن رضى متبادل
وعشت قريرا فالحياة رتيبة
رزقنا بأولاد رعاهم إلههم
سلكت طريق الطب والطب منك
يطالبني المرضى بما ليس في يدي
فكم من هزيل صبح من بعد رأسه
سهرت الليالي بين يأس وفرحة
ونلت قليلا في سبيل شفائهم
وما كان همي المال إن مكنتي
وإن لم أكن كندست مالا فثروتي
يظن أناس أن من زاد أجره
وما كان برء الناس يوما بسلعة
تركت وراء العلم أما مريضة
وأضيت حولا في بلاد غريبة
وكيف يطيب العيش والفكر مفعم
ركبت جناح الجو من بعد غيبة
ولما بدت أنوار مصر تحدرت
وعدت لألقى والدي زاد داؤه
بكى إذ رآني ثم للصدر ضمني
وكان جنازا مارأت مصر مثله
لقد كان إنسانا علا ببلاده
وزاد مع الأيام في النفس هاتف
ألا طف بيت الله الله خاشعا
عبرت عباب البحر أدعو ملبيا
دلفت لبيت الله والشوق عامر
وقد حل في نفسي خشوع ورعدة
وطفت ببيت الله في خطو خاشع
تعلقت بالاستار لله داعيا
توجهت للرحمن أطلب رحمة

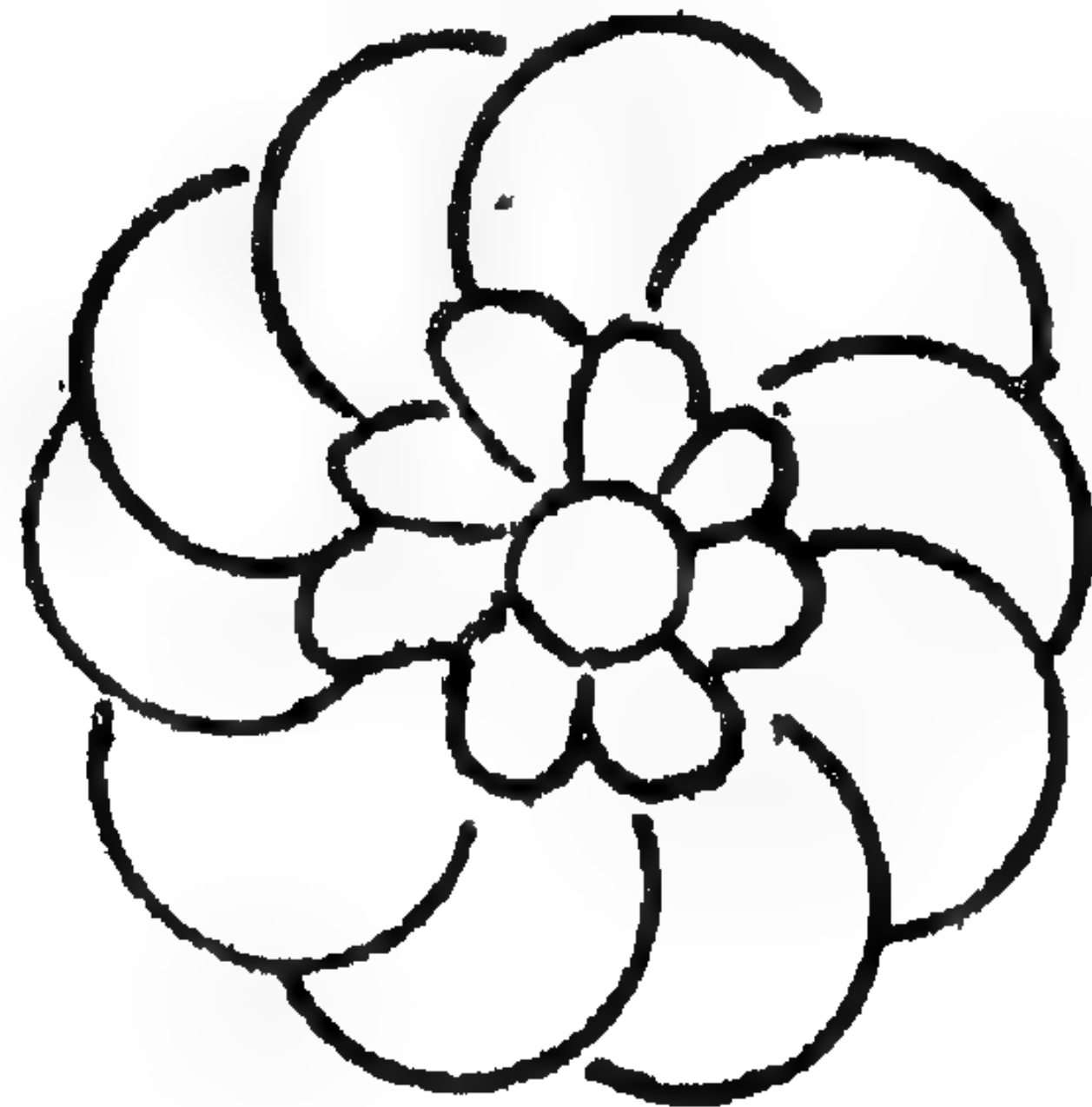
وباركنا المولى فقد وجب الشكر
ففي عملي شطر وفي منزلي شطر
فكانوا لنا أزرا إذا وهن الأزر
مسالكه صعد وموطئه وعسر
فإن لدى الشافي البقاء أو البستر
وكم ضمت الأجداد من زانه وفر
أخفف من آلام من مسه الضر
فما نال من مرضاي ضيق ولا عسر
بعلمي وإتقاني لفنى لا الأجر
رضاء ضميري إن هذا هو اليسر
تفوق علما إن هذا هو الخسر
تباع وتغلو إن هذا هو المكر
وبين أبي والقبر من دائه شبر
أحصل علما والدنا حولي القفر
بأهلي وفيما بيننا الطود والبحر
وقد زاد شوقي للحمى ووهي الصبر
دموعي لروياها ألا إنها مصر
طريح فراش لايفارقه البهر
ومن بعد شهر ضم جثمانه القبر
على منكب المرضى يشاع وهم كثر
فأعلت حياة ثم خلده الذكر
يؤرقني ليلا ويلهبه الظهر
وزر قبر من أحببت في ذلك الخير
لمهبط وحى الله قد عمى البشر
هنا حيث للأخطاء من فضله بشر
فليس بموفى الوصف شعر ولا نثر
وقبلت ذاك الركن والقلب يفر
ليغفر لي وزري وقد عظم الوزر
وما بين مخلوق وخالقه ستر

ومن كان ذا ذنب فمن ذا يجيره
وفي زمزم رويت غلة لاهث
وصليت للرحمن في صحن بيته
هنا حيث صلى أحمد لإله
أذان بلال صار يطرق مسمعى
هنا حيث ألقى أحمد بردائه
وجاء سراة القوم من كل جانب
يطير حمام البيت بالبيت طائفا
هنا مهبط الإسلام من كل جانب
يطوفون أفواجا ورائدهم هدى
محمد كم شأقتك كعبة مكة
دخلت إلى ذا البيت بالحق فاتحا
فليس من الإسلام حفظ عداوة
ومن مكة يمت والقلب مفعم
إلى قبر من ذكره نور ورحمة
صنى "إله الكون" خير معلم
وقفت أمام القبر والدمع غامر
سعى في سبيل الله والنصر دأبه
ومن دانت الدنيا له بعد شدة
ومن صارع الأهوال من أجل دعوة
وما خاف وجه الموت والموت مائل
ومن سار غيم في السماء لأجله
أيا من روى الأتباع من نبع راحه
وقفت مع الإيمان والله قاهر
جعلت سيوف الكفر بترًا عليه
وفي الروضة الفيحاء صليت خاشعا
فطر من التاريخ عقب مهجتي
أحقا أصلى حيث صلى محمد
أترك هذا النور من بعد عشوة

سوى رب هذا البيت من أمره الأمر
وشاركني فيها عحيى والشعر
هنا حيث صلى السيد الطاهر البر
وحل به إبراهيم وانفجر البشر
وتحطم أوثنان تعبدتها الكفر
ليوضع فيه أسود اللون مغبر
فحمل بالخلود وانحسم الشر
وما مسه يوما فقد خشع الطير
توافيه أفواج يضيق بها الحصر
بيت له في كل ناحية نشر
فعاد بك المولى وكللك النصر
كرما فلا ضغن يثار ولا ثأر
ولا بطش جبار تؤازره السمر
إلى موقف الدنيا تهادانى [العصر
تخلد في الأرواح مابقي الدهر
ومن فتن الدنيا وليس به سحر
وقد لاح من تحت الثرى وجهه النصر
فما عاقه حر وأقعده قر
فما مسه تيه وخايله أكبر
فما لان يوما أو تملكه الذعر
وما راعه زأر وناب ولا ظفر
يظله في القيظ وانشطر البسدر
يفيض زلالا مثلا انسكب السدر
فما نالك الكفار والحافل الحجر
وأنصل أهل الدين من دمهم حمر
وقد فاح فيها من جوانبها العطر
وعطر من الإيمان فاض به الصدر
وقدمر عصر سالف بعده عصر؟
وهل ذا سمو سوف يتبعه حدر؟

ولكنها الدنيا ورأى تحسنى
وما رمت من عيش سوى نيل راحة
فيا خاتم الرسل الكرام تحية
وعدت إلى مصر وقد عم مهجتي
وإن كانت الأفكار في النفس لا ترى
وزادت بي الأشواق من أجل عودة
نذرت إلى الرحمن نذرا لعودة
ألا إنه موت حسابك بعده
قضى الله موتا ثم إبعثا لخلقته
فيا سادرا في غيه كف واتشد
إلى وقفة يوم القيامة خاشعا
ولا عذر في غي مضى دون نوبة
وإن لدى التسواب أبواب رحمة
وإن كانت الأخطاء تعدل قطرة
ومن كان ذا نفس بكفر سقيمة
هدانا إلى نهج السبيل محمد
فيارب هل لي في رضاك مؤمل
ويارب إن أخطأت إن وسيلتي
ويارب إني ماعصيتك عامدا
ويارب إن أذنبت عدلك راجح
ويارب إني قد تحملت كارها
وإن نعيم الأرض ماض وزائل
وإنك للذكر الحكيم لحافظ
وما دام رب العرش للدين راعيا

لأكسب عيشا أو يلاحقني الفقر
فما شلني مال وأتخمني دثر
عليك سلام الله ما طلع الفجر
من الدين أنوار أضاء بها الشعر
فما جاش في نفسي سيظهره الخبر
إلى حيث تثوى في الثرى أنجم زهر
لمهبط دين الله قد وجب النذر
وليس بمغن عنه جناه ولا حذر
وما لقضاء الله دفع ولا دغر
تذكر هوان القبر إنك مضطر
أمام الذي سواك تسأل ما العذر
ولا في ضلال ليس يتبعه بر
تجيز خطايا الناس ما انصلح الأمر
فغفران غفار الذنوب هو البحر
ففي قلبه غي وفي أذنه وقصر
وقد قال ذا خير يفيد وذا نكر
وهل لي مع الأبرار برك والحشر
إليك هي التقوى وممتلك الغفر
ولكن جهلي والشباب هما الشر
وتأمل غفران للذنب هو الدخسر
من الكره ألوانا وآلني الغدر
وما خالده إلا النقاوة والطهر
فصن أمة الإسلام بقي الدهر
فللدين مد ليس يتبعه جزر



تجربتي في إحياء التراث

د. سنان عبد السلام هارون

ليس

لإحياء التراث أمرٌ آخِديشاً، بل هو عملٌ طبيعيٌ قامت به

الأجيال القديمة علم، امتداد الدهر وعلى صور شتى، من نشر للكتب، أو تلخيص لها أو نقل أو تعليق، فكم قدر أينما من كتب قديمة خلفها أصحابها فقام النساخون والوراقون بإحيائها وإذاعتها أعلى نطاق واسع. فالمقرئ في الخطوط ٢ : ٢٥٣ - ٢٥٥ يذكر أنه كان في خزانة العزيز بالله الفاطمي ٣٠ نسخة من كتاب العين و ١٠٠ نسخة من جبهة ابن دريد. كما يذكر أنه كان في خزانة الفاطميين ١٠٠٠ نسخة من تاريخ الطبري.

ويروي ابن النديم في الفهرست ٣٦٩ في ترجمته ليحيى بن عدي المنطقي النصراني أنه كان ينسخ كتب التفسير والكلام، ويروي عنه أيضاً أنه قال : نسخت بخطي نسختين من التفسير للطبري وحملتهما إلى ملوك الأطراف وقد كتبت من كتب المتكلمين ما لا يحصى، ومن طريف ما يروي عن أحد النحاة، وهو يحيى بن محمد الأرزي ما ذكره ياقوت

٢٠ : ٣٤ - ٣٥ والسيوطي في البغية ٤١٦ في شأنه : أنه كان يخرج في وقت العصر إلى سوق الكتب ببغداد، فلا يقوم من مجلسه حتى يكتب الفصيح لثعلب ويبيعه بنصف دينار، ويشترى نبيلاً ولحمًا وفاكهة، ولا يبيت حتى ينفق ما معه.

هذا جانب من جوانب إحياء التراث قديماً، وهو جانب النشاط في تكثير الأعداد بالكتابة والنسخ. وهناك جانب آخر يتمثل في شرح ذلك التراث. ونحن نجد أن حماسة أبي تمام المتوفى سنة ٢٣١ قد تناولها بالشرح أكثر من عالم وأديب، فشرحها أبو بكر الصولي، والإمام المرزوقي، وابن جني، والآمدي، والتبريزي، وأبو هلال العسكري، وابن سيده، والشنتمري وغيرهم ممن أحصى عددهم صاحب كشف الظنون واحدًا وعشرين شارحاً. وذكروا أن أول شارح لها هو أبو ريش أحمد بن إبراهيم الشيباني المتوفى سنة ٣٣٩.

وكتاب سيبويه المتوفى سنة ١٨٠ شرحه أوقام بخدمة أكثر من ٥٥ عالماً منهم

(*) ألقى البحث في الجلسة الثامنة من مؤتمر الدورة الثامنة ولأربعين بتاريخ ٧ من جمادى الأولى ١٤٠٢ هـ،

الموافق ٢ من مارس ١٩٨٢ م.

السيرافي ، والرماني ، والزمخشري ، وابن
الحاجب ، والشلوبين ، وابن الباذش .

ومقامات الحريري المتوفى سنة ٥١٦
تولى شرحها كثيرون منهم الخوارزمي ،
والمطرزي ، والعكبري ، والشريشي الذي
له ثلاث شروح عليها : كبير ، وأوسط ،
وصغير . وكتاب إحياء علوم الدين لأبي
حامد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ على ضخامة
هذا الكتاب واتساعه شرحه الزبيدي صاحب
تاج العروس . وطبع ذلك الشرح بفاس
سنة ١٣٠٢ في ١٣ جزءاً ثم طبع بالميدانية
في سنة ١٣١١ في ١٠ أجزاء . وقام أخوه
أحمد بن محمد الغزالي باختصاره ، واختصره
كذلك أبو العباس الموصلي المتوفى سنة ٦٢٢
اختصارين ، كما اختصره السيوطي . وآخر
اختصار له إلى اليوم ما نشره عبد السلام
هارون باسم تهذيب إحياء علوم الدين .

أما إحياء التراث في هذه العهود الحديثة
فقد لبس ثوباً جديداً يمتاز بالنشاط السريع
الذي يتمثل في إنتاج المطبعة الحديثة فهي
كانت عاملاً فعالاً في نشر التراث الفكري
على نطاق واسع وعلى صور شتى ودرجات
مختلفة من الصحة والتوثيق ومراحل متدرجة
من الدقة والعناية حتى وصلت إلى ما يشبه
القمة في عصرنا الحاضر .

وكان لإخواننا المستشرقين جهد بارع
في هذه الزاوية وسبق لا يمكن إنكاره .
فهم كانوا من أساتذة الجيل الحاضر في

الطريقة العلمية التي جروا عليها المستشرقين
بلا ريب بجهود أسلافنا الأقدمين في رواية
كتب الحديث واللغة والشعر والأدب
والتاريخ في دقة وأمانة ونظام بارع .

وقد نبغ من بين المستشرقين علماء أمناء
قاموا بنشر عيون ثمينة من التراث العربي
في أمانة علمية دقيقة اقتبسوها من أسلافنا
مقرونة بعناية خاصة بالفهارس الفنية . وهذا
أيضاً كان شأن جمهور أسلافنا . فكتب
الرجال عندنا تنال ترتيباً فهرسياً ممتازاً
مقروناً بالإحالات الدكية ، كما أن مقابلة
المخطوطات ومقارنتها ميزة إعرابية سباقة
عرفها أبائنا الأولون .

ولقد كانت فكرة إحياء التراث العربي
والنشاط فيه فكرة قومية قبل أن تكون
فكرة علمية فإن طغيان الثقافة الأوروبية
والنفوذ التركي وضغطه كاد أن يأخذ بمخنيق
العرب في بلادهم في القرنين الماضيين ،
فأراد العرب أن يخرجوا إلى متنفس يحسون
فيه بكيانهم المستمد من كيان أسلافهم ، في
الوقت الذي ألفوا فيه الغرباء من الأوروبيين
يتسابقون وينبشون كنوز الثقافة العربية .

فانطلق العرب في مصر وسائر البلاد
العربية والإسلامية بدافع من القومية أفراداً
وجماعات ، يولون هذا الأمر ما يستحقه من
عناية .

ومن ذلك المنطلق المتدفق النابع من الفكرة
القومية وجدتني أسعى وأرحب بالدخول في

هذا الميدان ، مع تهيب وحذر شديد . وأول كتاب أقمحت نفسي فيه إقحاماً ، وبدايته بشيء من التحقيق هو كتاب متن الغاية والتقريب لأبي شجاع الذي نشرته سنة ١٩٢٥ وكنت طالباً بالصف الثالث من القسم الأول الابتدائي بالمعاهد الدينية . وقد مررت فيه بتجربة الدقة في ضبط النصوص .

وخضت بعده تجربة أخرى غمرني فيها العالم الكبير المغفور له محب الدين الخطيب فقد كنت أنردد على مكتبته السلفية ، وألتقي بالعلامتين أحمد تيمور باشا وأحمد زكي باشا وقد آنس محب الدين مني بعض الكفاية فعهد إلى بالاشتراك معه في تحقيق كتاب «أدب الكاتب» لابن قتيبة الذي قمت فيه بالعبء الأكبر . وكان ذلك تجربة مشجعة لي على الاندماج في هذا التيار المقدس .

وكانت المدرسة الأولى في جدية التحقيق مني أن يكل إلى محب الدين الخطيب تنسيق التحقيق لخزانة الأدب للبغدادى في طبعها الأولى الحديثة حينما كنت طالباً بتجهيزية دار العلوم حيث أتممت بعدها الدراسة في دار العلوم العليا ، وقد أتممت تحقيق أربعة أجزاء من الخزانة بالمشاركة مع العلامة تيمور باشا الذي كان له بعض تحقیقات معدودة ، والعلامة عبد العزيز الميمنى الذى كانت تحقیقاته تمتاز بتخريج الأمثال الواردة في الخزانة ، ونظرات معدودة أيضاً في التحقيق .

وقد عقد هذا العمل صلة بينى وبين المخطوطات ودراسها وتعرف خطوطها والخصائص الكتابية لها .

أما المدرسة الجامعة لي فكانت في نطاق كتاب الحيوان للجاحظ ، الذى بذلت له أقصى جهدى في زمان الشباب ، وفتحت فيه النوافذ لتأمل ملابسات التحقيق وتجاربه المثيرة التي أستطيع أن أرسم بعض زواياها ، وأن أصور أعماقها التي دفعني الخوض فيها إلى أن أبني كتابي المتواضع «تحقيق النصوص ونشرها» وهو لا يزال بحمد الله نبراساً — إن صح هذا التعبير — لكل من يريد أن يدخل في غمار هذا الفن الشريف ، لم يزاحمه كتاب آخر .

فأول ما واجهني في هذا المجال قضية تعدد المخطوطات للكتاب الواحد ، وبأيتها يأخذ المحقق ، وكيف يرتب منازلها ؟ وكيف يستخدمها عندما تتعدد .

وقد اقتضاني وجود سبع مخطوطات لكتاب الحيوان أن أعقد المقارنة بينها نسخة بعد نسخة فكنت أقيد على جوانب الأصل الذى سيقدم إلى المطبعة ما تقتضيه هذه المقارنة من خلاف بالزيادة أو النقص أو اختلاف الوجوه .

فظفرت من ذلك كله بأننى استطعت أن أرجع البصر في هذا الكتاب قبل طبعه سبع مرات ، فكأننى حفظت الكتاب حفظاً ووعيته ووعياً .

ووجدت أن هذا الكتاب كما يقال بتعبير
عصرنا موسوعة متعددة الجوانب في الثقافة
العربية .

اثنيتين من أصول الحيوان هذه العبارة عند
الكلام على العقرب ، وهي :

« كنت بعجت بطن عقرب إذ كنت
بمصر فوجدت فيه أكثر من سبعين عقارب
صغار كل واحدة نحو أرزة . حرره أبو بكر
السروكي » .

ومن الواضح الجلي أن هذا الأسلوب
ليس للجاحظ ، والجاحظ أيضاً لم يدخل
مصر ولا اقتحم أبوابها . وعبارة « حرره
أبو بكر السروكي » هذا الرجل المجهول ،
شاهد بأن العبارة مقحمة على الكتاب إقحاماً .

وأمر آخر خطير وصارخ لفت نظري
في أثناء تحقيق الحيوان وغيره ، وهو
ما لم نيت به كتب التراث من بعض
التحريفات في نصوص القرآن الكريم .
فكثيراً ما لا يحفل الناظر في كتب التراث
بوجوب الشك في تلك النصوص ، ثم هو
كذلك يرى في دخيلة نفسه أن هؤلاء العلماء
الإعلام لا يشبتون هذه النصوص إلا بعد حرص
وتثبت . لذلك كان من المؤسف أن أعثر على
تحريفات مزعجة في هذا الكتاب لم أملك
إلا أن أردّها إلى نصابها الصحيح .

وجدت في الجزء الرابع في جميع النسخ
بما فيها الطبعة الأولى في ص ٧ : « فلما أتوا
على وادي النمل » وهي : « حتى إذا أتوا
على وادي النمل » .

وفي الحق أن دار العلوم كانت تزودنا
بكثير من وجوه هذه الثقافة . فعلى هذا
الأساس كنت أدفع نفسي إلى الاستزادة
من تلك الوجوه حينما أجد النص الذي أمانى
يحتاج إلى مزيد من الدراسة في تلك الوجوه
منه في اللغة والشعر والنقد والقرآن والحديث
والتفسير والفقه وعلم الكلام ، والطب القديم
والبلدانيات والتاريخ والسير ، إلخ . وقد
لحأت فيما لحأت إلى معاجم اللغة الفارسية
والعبرية وإلى كتاب في الطب يخ لمؤلف بغدادى
قديم تاريخ تأليفه سنة ٦٢٣ لا توجد منه نسخة
بدار الكتب المصرية ، وقد أسعدنى بالأمس
أن أتمكن من إهداء صورة منه إلى مكتبة
مجمعنا الموقر .

وعلمت من ذلك أن المتصدي لإحياء
كتب التراث لا بد أن يكون على صلة وثيقة
بمادة هذه الأصول وغيرها ، وهذه هي العدة
الأولى للمجاهدين في إحياء التراث .

وشئ آخر ظفرت به وتعلمته من تحقيق
كتاب الحيوان هو أن المخطوطات قد يقيم
في أثناء سطورها ما هو دخيل عليها ، فيحتاج
المحقق إلى شيء من الفطنة ليخلص المخطوطة
من هذا الزيف الذى خالطها .

ومن عجب أنى وجدت في نسختين

وفي ص ١٥٩ : « على أن لا أقول على الله إلا الحق فأرسل معي بنى إسرائيل » . وهي « على أن لا أقول على الله إلا الحق قد جثتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بنى إسرائيل » .

وفي ص ١٦٠ في جميع النسخ أيضا بعد «ولى مدبرا ولم يعقب» «ياموسى أقبل ولا تخف إنك من الأمنين» وهي «ياموسى لا تخف إني لا أخاف لدى المرسلون» .

وفي الجزء الخامس ص ٣٢ : « إني مبتليكم بنهر » وهي « إن الله مبتليكم بنهر » .

وفي ص ٣٩ : « هو الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا » . والوجه إسقاط « هو » .

وفي ص ١٣٧ : « وأنهار من ماء غير آسن » إنما هي : « فيها أنهار من ماء غير آسن » . وفي ص ٥٤٤ في بعض النسخ : « فلما جاء أمرنا وفار التنور » ، وفي بعضها ؛ « ولما جاء أمرنا وفار التنور » ، وكلاهما تحريف في تحريف . وإنما هي « فإذا جاء أمرنا وفار التنور » إلى غير ذلك من التحريفات التى هي كالشعر فى العجين يحتاج المحقق إلى استلاله فى حذر ورفق بعد مراجعة القرآن الكريم ، ومختلف كتب التفسير والقراءات ، ولا سيما الشاذ منها .

لذا آمنت بضرورة تخريج آيات القرآن الكريم ، ودعوت إلى ذلك فى حتمية صادقة

كما دعوت إلى ضرورة الاهتمام بوضع الفهارس للآيات القرآنية الكريمة .

وكان من نتيجة اليقظة لهذه الظاهرة والتجربة المثيرة فيها أن أحافظ على هذا المبدأ فى مختلف كتب التراث التى نفضت عنها غبارها . ومنها : . .

ما جاء فى كتاب «الحوارى» للجاحظ فى مجموعة داماد : « ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا » وهي : « كان فاحشة وساء سبيلا » فقط وهي الآية ٣٢ من الإسراء التبتت بالآية ٢٢ من النساء : « ولا تنكحوا ما نكح آبائكم من النساء إنه كان فاحشة ... الآية » .

وما عثرت عليه فى مخطوطات تهذيب اللغة للأزهري من التصحيح القرآنى ما جاء فى مادة (وقى) : « ما لكم من الله من واق » هي « ما لهم من الله من واق » . وفى مادة (فوق) : « ما ينظرون إلا صيحة ماها من فواق » . وهي : « وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ماها من فواق » ١٥ من سورة ص» وهي آية فريدة فى القرآن ومع ذلك ورد فيها تحريفان اثنان .

وفى مخطوطات سيديويه العشر ونسخه المطبوعة فى ثلاث طبعات ببولاق وباريس والهند وكذا فى شرح السيرافى : « والذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، والحافظين فروعهم والحافظات » وصوابها : « والحافظين

فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات » في الآية ٣٥ من سورة الأحزاب .

وفي الأصل المخطوط لمقاييس اللغة لابن فارس في مادة (نكب) : « وهم عن الصراط لنا كبون » وإنما هي : « وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لنا كبون » . وهي الآية ٧٤ من سورة المؤمنين .

وفي خزانة الأدب ٢ : ٢٠ في نسخته المطبوعة ببولاق ومخطوطة الشنقيطي هذه الآية : « وما لهم به من علم إلا اتباع الظن » وإنما هي « ما لهم به من علم إلا اتباع الظن » بطرح الواو ، وهي الآية ١٥٧ من سورة النساء وأما المسبوقة بالواو فهي الآية ٢٨ من سورة النجم ونصها : « وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن » .

وفي الخزانة ٣ : ٦٠٥ في النسختين : « فامسحوا برءوسكم وأرجلكم » ، وإنما هي « وامسحوا » .

وفي توضيح ابن هشام ٢ : ١٥٣ في بعض النسخ : « أن اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه » ، وإنما هي « فانبعثت » . وقد نبه على ذلك الشيخ خالد الأزهرى ، التبتت بآية الاستسقاء في البقرة « وإذا استسقى موسى لقومه فقلنا ... الآية » .

إلى كثير من تلك التخريفات التي لا يفتن لها إلا حافظ حريص على نصوص الكتاب العزيز .

وقد كشفت في أثناء دراستي لكتب الحديث أنه قد وقع مثل هذا التحريف قديماً بصورة محدودة جداً . عثرت على هذا النص في كتاب اختصار علوم الحديث لابن كثير الدمشقي ص ١٦٢ - ١٦٣ ، وهو : « وعن القاضي عياض أن الذي استمر عليه عمل أكثر الأشياخ أن ينقلوا الرواية كما وصلت إليهم ولا يغيروها في كتبهم حتى في أحرف من القرآن استمرت الرواية فيها على خلاف التلاوة ، ومن غير أن يجيء ذلك في الشواذ ، كما وقع في الصحيحين والموطأ ، ولكن أهل المعرفة منهم يذهبون على ذلك عند السماع وفي الحواشي » .

ولعل ما ذكرت من إهمال التحقيق القرآني أضحى وأشنع مزلق من مزلق الخطأ التي تدعو إلى حرص المحقق وأمانته .

وشبهة أخرى اعترتني في النصوص القرآنية : أن كثيراً من المؤلفين القدماء كانوا يستشهدون بالنص القرآني تاركين لبعض الحروف أو الكلمات المتصدرة للنص ، كالواو ، والفاء ، وثم ، وإن أو قل أو ما أشبه ذلك من الحروف والكلم نحو « وقل جاء الحق » فيقتصر المقتبس على « قل جاء الحق » أو على « جاء الحق » . وقد أوقعني هذا في حيرة شديدة ، هل من الأمانة أن أزيد الواو أو الكلمة التي قد ينحيل للباحث أنها قد سقطت من صدر الآية ؟ .

فيبادر إلى التغيير ليثبت مكان النص الصحيح ما خاله هو الصواب .

ومن أمثلة ذلك ما وجدته في مقدمة معجم تهذيب اللغة للأزهري الذي يذكر فيها أن أبا عمرو الشيباني اسمه إسحاق بن مرار الشيباني ، مع إجماع كتاب التراجم على أنه ابن مرار بكسر الميم ، وبإلراء الثانية في آخره . فحلتني نفسي أن أصححه بمرار ثم تراجعته وتريثت ، لأنني أعلم أن نسخة الأصل دقيقة جداً وحينما رجعت إلى ترجمته في إنباه الرواة ١ : ٢٢٥-٢٢٦ وجدت القفطي يقول في أثنائها : « وأما أبو منصور الأزهري الهروي رحمه الله فإنه ذكر في مقدمة كتابه في اللغة الذي سماه التهذيب أسماء جماعة من علماء العربية منهم أبو عمرو الشيباني عفا الله عنه ، فأخطأ في اسم أبيه وأورده مصحفاً فقال « مراد » وهو خطأ كبير من مثله ، ورئي ذلك بخطه في مقدمة الكتاب . أخبرني ياقوت - الكلام للقفطي - واسمه ياقوت الرومي مولى عسكر الحموي قال : شاهدت بمرور نسخة من الكتاب بخط الأزهري عند بني السمعاني وفيها مراد » .

أقول ، بعد هذا كله : إنني لم أعد أن أثبت النص على خطئه كما ورد بخط الأزهري ولم أستحل تغييره ؛ لأن هذا النص ملك للمؤلف ولا أملك بعد ذلك إلا أن أنبه على الصواب في حاشية الكتاب .

وبعد لأي واستقصاء وجدت الفتوى عند الإمام الشافعي في فتاوى ^{بإسمائيل بن عمار} مع الفتاوى ٦٤٣ : « يحل لهم الطيبات » وهي « ويحل لهم الطيبات » والفقرة ٩٧٤ « قاتلوا المشركين كافة » هي « وقاتلوا المشركين كافة » والفقرة ٩٧٥ : « اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » هي « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » .

ووجدت تلك الإجازة أيضاً بصورة أوسع في تفسير مقاتل المسمى بالأشباه والنظائر مخطوطة مكتبة أحمد الثالث في أكثر من اثني عشر موضعاً من التفسير .

وقد نهيت تلميذي الدكتور عبد الله شحاتة عن مناقشتي لرسالته على خطأ تصرفه في هذا الوجه من الاقتباس ومع هذا التحذير ألفيته بعد تصفحي لهذا الكتاب بعد قيامه على طبعه قله غير النص الأصيل بالزيادة . وبذلك وقعت في الكتاب تلك التشويهاً ، إلى كثير مما قام به من تكملة بعض الآيات في صلب النص التي يعدها ضمير التحقيق عدواناً على الكتاب وعلى مؤلف الكتاب .

أنقل بعد ذلك إلى بعض مزالق التحقيق ، وهو السرعة أو التسرع في الحكم على صحة النص بعامل الإلف ، فقد يألف المحقق صورة معينة لعلم من الأعلام أو لقب من الألقاب ، فيخيل إليه أن ما خالف تلك الصورة الراسخة في ذهنه هو الخطأ بعينه ،

وأخرى وقائى الله شرها ،^٢ إذ وجدت ابن إسحاق فى السيرة ٣٢٩ يلقب أسماء بنت أبى بكر الصديق بذات النطاق ، وعهدى وعهد الناس بها أنها « ذات النطاقين » فهمت ولم أفعل أن أجعلها ذات النطاقين ، ولكنى لم ألث أن وجدت ابن هشام يعقب على ذلك بقوله : « وسمعت غير واحد من أهل العلم يقول ذات النطاقين . وتفسيره أنها لما أرادت أن تعلق السفرة شقت نطاقها بائنتين ، فعلقت السفرة بواحد وانتطقت بالآخر » . فلم يبدل ابن هشام ذات النطاق أمانة منه وحفاظاً على النص مع شهرة اللقب الثانى الذى ورد فيه حديث : « أبدلك الله بنطاقك هذا نطاقين فى الجنة » .

فى قراءة المخطوطات :

تراثنا الثقافى العربى ، وهو أضخم أنواع التراث الإنسانى وأعظمها وصل إلينا مكتوباً مصوراً فى صور شتى من الخطوط ، ولكل صورة من تلك الصور فروع وفروع للفرع فى شكل الخط وفى رسم الكلمات الذى يسمى اليوم بقواعد الإملاء . ومعنى هذا أن القارئ والدارس فى كتب التراث محتاج إلى خبرة واسعة فى تلك الخطوط والضبوط ، لكنى يصل إلى صواب القراءة .

وتحتفظ خزائن الكتب ببعض صور الخط الكوفى القديم فى بدء تطوره ، كما تحتفظ الخط المشرقى الحميل الواضح ، والخط الأندلسى المشتق من الخط المشرقى

والخط الأوربى معاً . ويمتاز هذا الخط بشيوع الاستدارات والتقليل من الزوايا ، وتداخل الكلمات وإطالة أواخر الحروف . وقد اكتسب الخط الأندلسى بالمغرب حياة جديدة وجمالاً جديداً ولكنه لم يلبث أن اضمحل وصار كما يقول ابن خلدون : « مائلاً إلى الرداءة بعيداً عن الجودة » . ويفهم من مقدمته أن ما سماه المتأخرون بالخط المغربى إنما هو الحالة التى صار إليها الخط الأندلسى الحميل .

ويشترك الخط المغربى مع الأندلسى فى قاعدة نقط الفاء والقاف ، إذ يكتب كل منهما برسم القاف منقوطة بنقطة واحدة من أعلى ، ورسم الفاء بنقطة واحدة أيضاً ، ولكن من الأسفل .

وحروف الهجاء يختلف ترتيبها بين المشاركة والمغاربة كما هو معروف . وقد وجدت فى تطوافى الطويل أن قراءة الخطوط الأندلسية والمغربية تحتاج إلى كثير من التمرس والاعتياد ، إذ ضل كثير من المحققين المعاصرين سبيلهم إلى القراءة الصحيحة فى هذا الضرب من الخطوط .

الأبناء الأدعياء :

إن الاستعانة بالمراجع التى يقتضيتها تحقيق المخطوطات أمر حتمى ، ولسنا بحاجة إلى الخوض فى تعيين هذه المراجع فقد أصبحت المناهج العلمية الحديثة كفيلة بذلك ، كما أن لكل باحث طريقته الخاصة فى تعيين هذه

المراجع والاعتماد عليها ، والقاسم المشترك الأعظم كما يقولون هو مختلف ضروب المعاجم اللغوية وكتب وسائل الضبط النحوى والإملأى .

لكنى أريد أن أنوه بما كشفته من بعض الموسوعات القديمة التى تضم فى أحشائها كتباً كاملة أو قريبة من الكاملة . وهى بلاريب نوع من أصول النص خطير . وقد لقبت تلك الأصول فى كتابى بأنها الأبناء الأدعياء ، لأنها أصول قديمة منقولة فى أثناء أصول أخرى فتنتسب بالبنوة إلى أمهاتها .

وحينما نشرت وقعة صفين لنصر بن مزاحم لم أجد إلا النسخة المطبوعة بالحجر فى إيران التى فقد أصلها المخطوط . وكنت فى قراءتى لشرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ألمح بين الفينة والأخرى نصوصاً طويلة مقتبسة من كتاب وقعة صفين ، ففكرت فى أن أتعقب تلك النصوص فى مختلف صفحات الكتاب فى أجزاءه العشرين وأمكننى فى قرابة شهر كامل وبعون من الله أن استخرج نسخة كاملة من هذا الكتاب لا ينقصها إلا نحو عشرين صفحة من نحو ٣٥٠ صفحة . وقد بينت هذه المقارنة بالأرقام فى مقدمتى لوقعة صفين كما عثرت على جمهور كبير من كتاب « المغازى » للواقدى يبلغ نحو : ثلثائة صفحة .

ومن يتعقب خزانة الأدب للبغدادى ، أو عيون الأخبار لابن قتيبة ، أو الأشباه والنظائر

للسيوطى يجد مثيلاً لهذا الضرب من الأبناء الأدعياء .

تصحيح نسبة الكتب الى مؤلفيها :

إن تحقيق نسبة الكتاب إلى مؤلف يقتضى حذراً شديداً وإلماماً صادقاً . وقد كان من المعروف المتداول أن مؤلف كتاب « مجالس العلماء » هو أبو مسلم كاتب ابن حنزابة ، أو بتعبير مختصر كاتب ابن حنزابة كما هو مسجل فى فهرس دار الكتب المصرية .

وأبو مسلم هذا هو محمد بن أحمد بن على الكاتب ، وأما ابن حنزابة فهو أبو الفضل جعفر بن الفضل بن جعفر ، وزير بنى الإخشيد بمصر مدة إمارة كافور . وقد اتضح لى أن ذكر هذا الاسم على الصفحة الأولى من الكتاب ، وبخط حديث مخالف لخط الأصل ، مجلبة للشبهة ومدعاة للتحقيق .

وبسلسلة من التحقيقات الصارمة فى نصوص الكتاب ومجالسه ، وفى أسناده المماثلة تماماً لأسناد أمالى الزجاجى قطعت باليقين وبأدلة سبعة لا يحتمل واحد منها خطأ ، أن مؤلف هذا الكتاب هو أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجى صاحب الأمالى وأن كاتب ابن حنزابة هذا ما هو إلا أحد نسخ الكتاب . وقد أوضحت هذا الأمر بأسانيده فى مقدمة هذه المجالس .

ومرت بى تجربة أخرى فى كتاب ظننت أنه من كتب الحافظ ، وهو بدار الكتب

المصرية أيضاً برقم ٢٣٤٥ أدب . وقد كنت في إحدى لقاءاتي بالمغفور له أحمد زكي باشا قد بشرني بأنه قد استحضر للدار الكتب المصرية من تركيا صيداً ثميناً هو كتاب « تنبيه الملوك والمكايد » للجاحظ . وقد علقت تلك البشري بذهني قبل أن أفكر في نشر مكتبة الجاحظ وإحيائها . وحينما صار الأمر جدياً ونظرت نظرة الفاحص فيه وجدت هذه النسبة زيفاً من الزيوف وباطلاً من الأباطيل . وبحسبك أن تجد في أحد أبوابه : (باب نكت من مكايد كافور الإخشيدي) ، و (باب مكيمة توزون بالمتقي بالله) . فما عدا مما بدا ؟ كافور الإخشيدي كان يحيا بين سنتي ٢٩٢ ، ٣٧٥ والمتقي بالله ، وهو الخليفة العباسي إبراهيم بن المقتدر كان يحيا بين سنتي ٢٩٧ ، ٣٥٧ . وهذا كله تاريخ يجاوز وفاة الجاحظ بعشرات السنين ، إذ كانت وفاة الجاحظ سنة ٢٥٥ وأعجب من ذلك أسلوب الجاحظ ، إذ جاء في صدر مقدمته : الحمد لله الذي افتتح بالحمد كتاباً ، وفتح للعبء إذا وافى إليه باباً ، قسم بين خلية فطوروا أطواراً وتحزبوا أحزاباً ، وأنفس فيهم سهمه وأمضى فيهم حكمه وجعل لكل شيء أسباباً ، فهم دائرون في دائرة إرادته لا يستطيعون عنها انقلاباً . داهشون في بدائع حكمته ومشيتته وإرادته ، يعز من يشاء ويرزق من يشاء » .

وليس هذا الأسلوب بحاجة إلى التعليق .

كما أن الكتاب ليس بحاجة إلى أن أسهب في نفي نسبته إلى أبي عثمان الجاحظ .

عوامل التصحيف والتحريف :

وجدت في رحلتي أن عوامل التصحيف والتحريف لكثير من الكلمات تكاد تخضع لعوامل محدودة من الممكن إجمالها فيما يلي :

العامل الأول : هو نقط الحروف ، وعدد النقط ومواضع النقط .

مثال ذلك : اجتزاز المودة ، أي اجتلابها صحفت إلى احتراز المودة سقطت نقطة الجيم وزيدت نقطة على الراء .

النمور والبيور : جمع نمر ووبر صحفت إلى الثمور والبيور زيدت نقطة على النمور من أعلى ونقطة إلى الباء من أسفل .

دانية من بطن الدماغ : حرفت إلى ذاتية زيدت نقطة على الدال وأخرى على النون

العامل الثاني : أسنان حروف الكلمات

مثال ذلك شبيه به تصير إلى تنبيه به نقصت أسنان الشين فصارت إلى ما ترى .

على طرف الثام تصير : على ظرف الشام ، زيد سنان على سن الشام فصارت الشام .

والعامل الثالث : التصاق الحروف أو انفصالها .

مثال ذلك حاق الحرص ، أى شدته
تحرف إلى نخلق الحرص بالتصاق الألف
بالقاف فتصير لاما .

والعامل الرابع : التباس الراء بالواو
والواو بالراء ، وهى ظاهرة واسعة النطاق.

النجوم والرجوم تصير : النجوم والوجوم
المرت : الأرض الجرداء تصير : الموت ،
أو الموت يصير إلى المرت . وهذا كله
نخاضع لكتابة الراء مع التضيخيم أو لكتابة
الواو مع ترقيق رأسها فتصير كأنها الراء .

والعامل الخامس : التباس اللام بالكاف
أو الدال .

شوك القتاد : تصير : سول القتال بتضيخيم
الدال ، لم يتحول : لم يتحرك .

والعامل السادس : التباس الكاف
بالعين والعكس : الكلاب على البقر وجدتها :
كل البقر بعامل تضيخيم العين وانبساط
أولها إلى أعلى مع إهمال سن الياء وضموره .

ولقد كانت معرفة هذه العوامل معينة
لى على حل ألغاز كثير من التحريفات
والتصحيفات . وقد أودعتها كتابى تحقيق
النصوص .

تجربة الفهارس :

كان من أول مالفت أنظار الأدباء
فى جيلنا القديم هو فهرس كتاب الأغانى
الذى صنعه المستشرق الإيطالى إغناطيوس

جويدى وترجمه إلى العربية محمد مسعود
المحرر بجريدة المؤيد .

وظهرت من بعده فهارس الكتب التى
حققها أحمد زكى باشا ومحققو دار الكتب
المصرية .

وقد تنوعت ضروب الفهارس لكتب
التراث وكان لى فيها نصيب وافر واستحداث
أنواع كثيرة منها ، اقتضتها ضروب الكتب
اللى قمت ببيعها ، ولعل أصعب تجربة
مررت بها هى تجربة صنع فهارس ،
أنساب العرب لابن حزم ، وهو أوسع
كتاب أخرجته المطابع فى علم الأنساب .
وقد هالى ما رأيت من كثرة الأعلام
اللى سردها ابن حزم فى كتابه ، فهو
لا يكاد يفوته ذكر بطن من بطون العرب
وفصائلها ، وحينما يتعرض للمذكر خاليفة
أموى أو عباسى أو أندلسى يقوم بسرد
أبناء ذلك الخليفة فردا فردا . وقد يكون
للخليفة الواحد أربعون ولدا أو خمسون
أو ستون ومعنى هذا أن يكون للخليفة
الواحد أربعون سبطا أو خمسون أو ستون
بحسب عدد أولاده . وفى هذا إسراف
كبير فى غير طائل .

وقد وفقنى الله بعد طویل من التفكير
أن أشير إلى الموضع الذى سردت فيه
هذه الأعلام سردا بوضعه بين قوسين
تميزا له وإشارة إلى أسماء الأولاد .

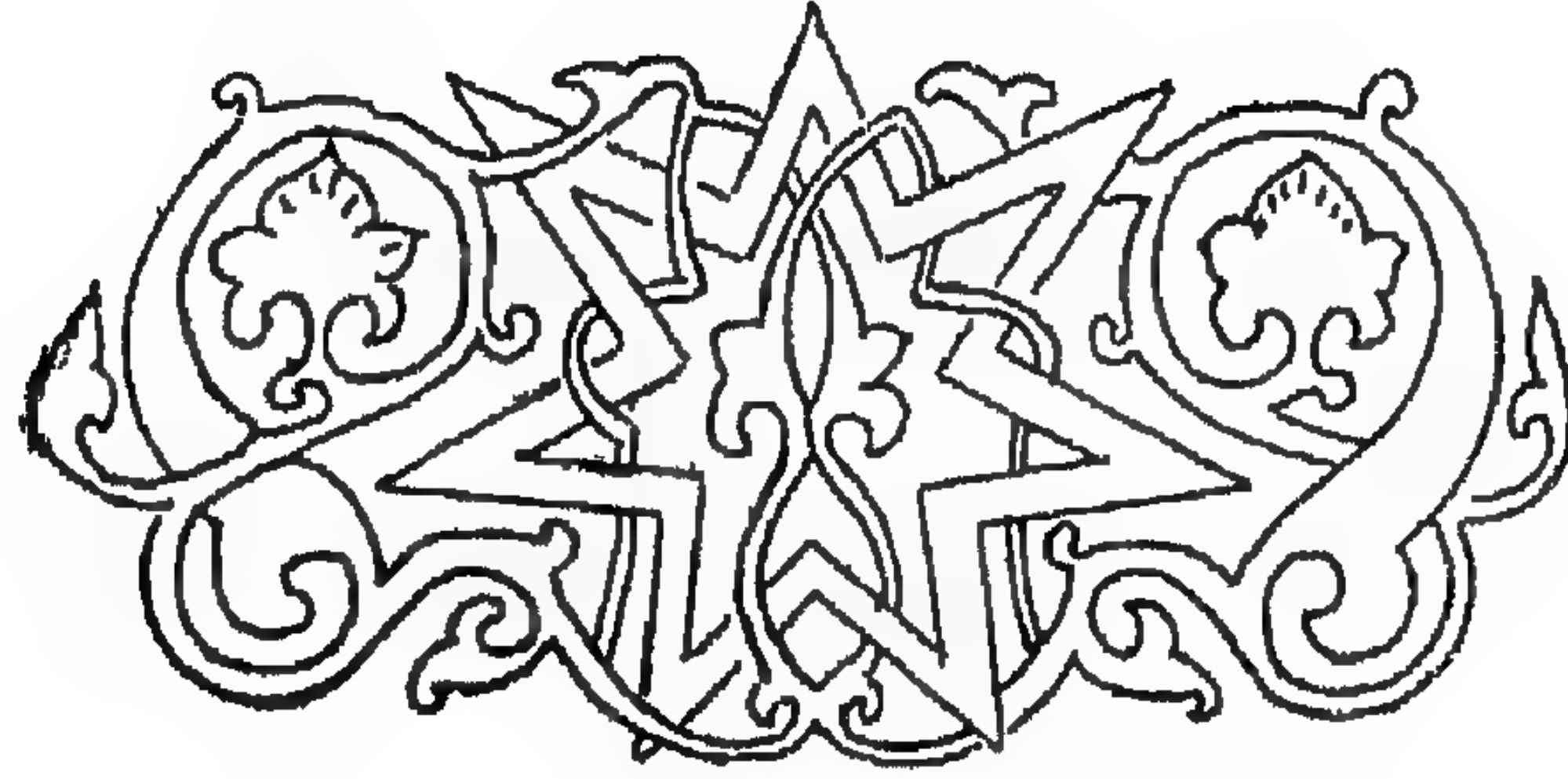
الكتاب وحجمه في غير ما إشراف
أو تقصير .

هذه تجربتي في أثناء نصف قرن من
الزمان بذلت فيه ولم أبخل ، وصبرت
ولم أجزع ، لم أستعن غير الله ، ولم ألتجأ
إلى سواه ، بيده الخير وهو على كل شيء
قدير ٥

عبد السلام محمد هارون
عضو المجمع

فاذا انفرد أحدهم ، فيما قبل أو بعد ، بخبر
أوحادته خصصته بالذكر بالإشارة إلى الصفحة
التي ذكر فيها الخبر أو الحادثة ، وبذلك
اختصرت فهرس الأعلام إلى نحو الربع
وصارت نسبة الفهارس الاثني عشر
إلى صلب الكتاب ما يعادل نسبة الخمسة
والثلاثين إلى المائة .

ومعنى هذا كله أن صنع الفهارس
يحتاج إلى دقة ودراسة تتناسب مع موضوع



عود إلى ابن سينا

للدكتور حسن إبراهيم

في

مؤتمر العام الماضي تكلمت

عن ابن سينا، وكان عنوان

حديثي «ابن سينا أين أخطأ وأين أصاب» وبعد أن أعدت قراءة ما كتبت عدة مرات شعرت أنني كنت قاسيا على الرجل فقد عاش ابن سينا في زمن غير زماننا، ولم تكن لديه أية إمكانيات معملية تجريبية وفي وقت تمت فيه ترجمة الفلسفة اليونانية وتم هضمها وأصبحت تسيطر على فكر كثير من علماء العرب؛ ولذلك رأيت أن أكون أكثر إنصافاً في حديثي في هذا المؤتمر .

يقول ابن سينا في كتابه الضخم «القانون» «ولما لم يكن الغذاء شبيها بالمغتذى بالفعل خلقت القوة المغيرة لتغيير الأغذية إلى مشابهة المغذيات بل إلى كونها غذاء بالفعل وبالحقيقة وخلق لذلك آلات ومجاري هي للجذب والدفع والإمساك والهضم» وتعليقي على هذا الكلام الرائع هو أن ابن سينا سبق عصره عدة قرون بما قال، والواقع

أنه كلام «معجز» إذا قيس بالعصر الذي عاش فيه، والعملية التي يصفها نسميها الآن التمثيل الغذائي assimilation أي تحويل الغذاء من مواد غريبة من نبات وحيوان إلى مركبات شبيهة بتركيب جسم الإنسان حتى ينتفع بها في عمليتي بناء الجسم والحصول على الطاقة اللازمة . أعتقد أن هذا الكلام كان فيه نوع من الإلهام .

ويقول ابن سينا «وبول المشايخ أشد رقة وبياضا ويعرض لهم الغلظ المذكور ندرة وإذا كان بولهم شديد الغلظ كانوا بعرض حدوث الحصاة فيهم» وهذا أيضا كلام جميل ودقيق فإن كثيرا من المتقدمين في السن تضعف كليتهم من تصليب الشرايين فتفقد قدرتها على تركيز البول فيكون البول أشد رقة وبياضا كما قال تماما أما غلظ البول وعلاقته بتكون الحصى فهذا أمر معترف به، وأهم سبب لغلظ البول قلة تناول الماء وهذا يفسر ارتفاع نسبة الإصابة بالحصاة ارتفاعا ملحوظا فيما

(*) ألقى البحث في الجلسة الثامنة من مؤتمر الدورة الثامنة والأربعين بتاريخ ٧ من جادى الأول ١٤٠٢ هـ ،

الموافق ٢ من مارس ١٩٨٢ م .

يعرف بالحزام الجاف وهو المنطقة الصحراوية الشاسعة الممتدة من المحيط الأطلسي عبر شمال إفريقيا والصحراء الكبرى حتى حدود باكستان ، وهي منطقة تقل فيها المياه عامة ، بل إن إحصائي المسالك البولوية في عصرنا هذا بعد أن يستخرج الحصة من المريض ينصح به بالإكثار من شرب الماء حتى لا تتكرر .

يقول ابن سينا : « واعلم أن في فم المثانة عضلة واحدة مستعرضة الليف على فمها ومنفعتها حبس البول إلى وقت الإرادة فإذا أريدت الإراقة استرخت عن تقبضها فضغط عضل البطن على المثانة وانزرق البول بمعونة من الدافعة . » هذا كلام بالغ الجمال والدقة ، ولو أنه في حاجة إلى تعديل بسيط فوصف العضلة التي تحيط بفم المثانة رائع ولكن الأروع أنه فهم أن التبول لا يبدأ بانقباض عضلة المثانة كما يظن الناس بل يبدأ باسترخائها ليدخل البول إلى المبال الخلفي ، وتبدأ عملية التبول . وطبنا في عصرنا هذا يقل نفس الشيء أما التعديل البسيط فهو أولا : أن العضلة الدافعة أو القابضة للمثانة هي التي تتقلص وتكمل عملية التبول ولا يستعين الشخص سوى بشد عضل البطن أثناء التبول ولا تنقبض عضلات البطن إلا في حالة وجود سد في المبال إذ أن شد عضل البطن يزيد الضغط على المثانة . وثانيا : خلال العشرين سنة الأخيرة عرفنا أن

عضلة عنق المثانة تنتشر شعاعيا من فتحة المبال الداخلية وأن التبول يبدأ بتقلص هذه العضلة لا بالاسترخاء ؛ إذ أن انقباضها يؤدي إلى فتح المبال من الداخل ولكن لنذكر أن هذا التقلص أو عملية الاسترخاء يعطيان نفس النتيجة وهي فتح المبال .

يقول ابن سينا « لما كان معظم تدبير حفظ الصحة هو أن يرتاض ثم تدبير الغذاء وجب أن نبدأ بالكلام في الرياضة فنقول : الرياضة هي حركة إرادية تضطر إلى التنفس العظيم المتواتر والموفق لاستعمالها على جهة اعتدالها في وقتها به غناء عن كل علاج تقتضيه الأمراض المادية والأمراض المزاجية » ثم قسم أنواع الرياضة إلى ما هو قليل وما هو كثير ثم الشديد والضعيف والسريع والبطيء والحديث والمترخ وتكلم كثيرا عن أنواع الرياضة من كل نوع ثم قال « وقت الترويح في الرياضة يجب أن يكون البدن نقيا ويكون الطعام الأمسي قد انهضم في المعدة والكبد والعروق وحضر وقت غذاء آخر ويدل على ذلك نضج البول بالقوام واللون » . وأرى أن تعريف ابن سينا للرياضة جميل جدا ولا نستطيع أن نضيف شيئا إلى كلامه اليوم أما إصراره على خلو المعدة من الطعام وقت الرياضة فهذا صحيح أيضا لأن أية رياضة عنيفة

تجرى بعد تناول الطعام مباشرة تؤدي إلى التخممة. ومن يمارس الرياضة العنيفة يتناول قليلا من المواد السكرية قبل اللعب لتعطيها الطاقة اللازمة، كذلك قليلا من الماء ويترك الوجبة الرئيسية إلى ما بعد الانتهاء من رياضته .

ويقول ابن سينا في حفظ الأطراف من ضرر البرد : « وإذا صارت الرِّجُل مثلا أو اليد لا تحس بالبرد من غير أن يخف البرد ومن غير أن يزيد في وقايته بتدبير جديد فاعلم أن الحس في طريق البطلان وأن البرد عمل فيه وأما إذا عمل البرد في العضو فأما الحار الغريزي الذي كان فيه وعرضه للعفونة فربما احتيج أن يفعل في بابه ما قيل في باب القروح ونخصوصا الأكلة الخبيثة ، وأما إذا أضر به البرد ولم يعفن بعد بل هو في سبيله فالأصوب أن يوضع الطرف في ماء الثلج » وهذا وصف « رائع » لتأثير البرد الشديد على الأطراف وكلنا نعلم أن كثيرا من رواد القطبين الشمالي والجنوبي فقدوا بعض أصابعهم أو أنوفهم وفي هذا الوصف تمييز بين الحالة التي يمكن شفاؤها والحالة التي لا أمل فيها لحدوث الغرغرينة حيث يجب البتر ولكن أروع ما في هذا الوصف علاج الحالات القابلة للشفاء ، فإن أول خاطر يأتي للإنسان هو أن يوضع الطرف المصاب في ماء دافئ وهذا إذا عمل ما يؤدي

حتمًا إلى حدوث الغرغرينة لأن زيادة الحرارة في الطرف تزيد الأيض فيه دون تدفق الكمية اللازمة من الدم إلى الطرف فيموت وفي طبنا الحديث نعلم أن تسخين هذه الحالات يجب أن يكون بطيئاً جداً وبالتدرج حتى تتسع الأوعية المتقلصة شيئاً فشيئاً فيبدأ بتدليك الجزء المصاب بالثلج حتى تصل حرارته إلى الصففر ثم في ماء أقل برودة وهكذا حتى تعود الدورة الدموية فكيف عرف ابن سينا أن الطرف يجب أن يوضع في ماء الثلج وهذا ضد المنطق ؟ هل كان ذلك إلهاما ؟

ويقول ابن سينا « الصلب خلق ليكون مَبْنًى لحملة عظام البدن مثل الخشبة التي تهيأ في نجر السفينة أولا ثم يركز فيها ويربط بها سائر الخشب وليكون لقوام الإنسان استقلال وقوام وتمكن من الحركات إلى الجهات ولذلك خلق الصلب فقرات منتظمة لاعظاما واحدا ولا عظاما كثيرة المقدار وجعلت المفاصل بين الفقرات لاسلسلة توهن القوام ولا موثقة فتمنع الانعطاف » أظن لو طلب إلى أحد علماء التشريح في عصرنا الحاضر أن يصف وظيفة الصلب والسرفي ميكانيكية تركيبه لما استطاع أن يقول كلاما خيرا مما ذكره ابن سينا .

ويقول ابن سينا أيضا : « الصلب مخلوق لمنافع أربع ؛ أحدها ليكون مسلكا للنخاع

المحتاج إليه لبقاء الحيوان .. إن الأعصاب لو نبتت من الدماغ لاحتيج أن يكون الرأس أعظم مما هو عليه بكثير ولثقل على البدن حمله وأيضا لاحتاجت العصبية إلى قطع مسافة بعيدة حتى تبلغ أقاصى الأطراف فكانت متعرضة للآفات والانقطاع وكان طولها يوهن قوتها في جذب الأعضاء الثقيلة إلى مبادئها.

أما من ناحية حماية الصلب للنخاع اللازم للحياة فابن سينا محق تماما ، أما باقى الكلام ففيه تفكير جميل ولكنه خطأ إذ أن جميع الأعصاب المحركة للجسم من الرأس حتى أخمص القدم تخرج من المخ إلا أنها لا تقطع كل هذه المسافة بل إنها من خلال مشابكة فى النخاع أو الحبل الشوكى كما نسميه اليوم تخرج أعصاب جديدة لتكمل باقى المسافة وهذا بالطبع كان لا يمكن معرفته قبل استعمال المجهر وتتبع مسيرة الأعصاب تحت المجهر لسنوات عدة ولا يحدث الحبل الشوكى أية حركة إرادية فى الإنسان ، ولكنه مسار للحركات الانعكاسية السريعة فإذا مست اليد شيئا ساختا مثلا أو وطأت القدم ما يسبب ونخزا فإن الذراع أو الرجل تتحرك فى الحال لتبعد اليد أو القدم عن مصدر الأذى قبل أن يدرك المخ ما حدث ، وهذه الأقواس الانعكاسية الموجودة فى الحبل الشوكى لاتمثل إلا جزءا بسيطا جدا من الجهاز العصبى المركزى وهى لحماية الجسم .

وقال ابن سينا فى الطعام : « وتقدير الطعام هو بحسب العادة والقوة وأن يكون مقداره فى الصحيح القوة المقدار الذى إذا تناوله لم يثقل ولم يمدد الشراسيف ولم ينفخ ولم يقرقر ولم يطف ولم يعرض غنى ولا شهوة كلبية ولا سقوط ولا بلادة ذهن . ولا أرق ولم يجد طعمه فى الحشاء بعد زمان وكل ما وجد طعمه مدة أطول فهو أردأ وقد يدل على أن الطعام معتدل أن لا ينتج منه عظم نبض مع صغر نفس فإنه إنما يعرض بسبب مزاحمة المعدة للحجاب » هذا كلام جيد فى اختيار الطعام الصالح والاعتدال فيه ، كما يتعرض تعرضا صحيحا لأسباب أعراض التخمّة من سرعة فى النبض وضيق فى التنفس . وأود أن أختم تحديتى بملاحظة عما قاله فى الدماغ وهو فى رأى كلام معجز بالنسبة للعصر الذى عاش فيه يقول ابن سينا ما معناه : إنه مركز الأفعال الحسية والأفعال السياسية مثل التذكر والتفكير وقوة الوهم والحسد) والأفعال الحركية وإدراك الطعم من حرافة وملوحة ومرارة ، ويستدل منه على أحوال الدماغ وهناك أشياء غير عادية مثل طول الحزن والوحوش والمالنخوليا والصرع ومانيا ومن الضحك بلا سبب على حرق أو رعونة وتخيل ما ليس له وجود من خارج مثل الدوى أو ضرب المطارق أو صوت الطبول أو كشكشة أوراق الشجر أو خفيف

الرياح وهو مركز البصر والسمع والشم
واللمس أما إذا حدث عَمى بالعين فهو
نتج على الأغلب من سبب في العين
وإذا كانت العين سليمة فيكون مرجعه
الدماغ أما بالنسبة للذوق واللمس فقد
يجريان هذا الجرى إلا أن تغييرهما عن
الجرى الطبيعي يدل على فساد خاص في
الأنهاء القريبة وفي الأقل على مشاركة

الدماغ. خصوصا مثل ما إذا كان عاما
كخدر جميع البدن كذلك المزاج والكدر
والخيال كذلك الفالج وأن منشأه الدماغ .
إلخ، فهل تصدقون أن هذا الكلام كتب منذ
ألف سنة ؟

أيها السادة لا أريد أن أطيل عليكم
وأكتفي بهذا وشكرا .

حسن على إبراهيم
عضو المجمع



المنشئ

بين نفسه وسأعريته

للدكتور محمد مهدي علام

س

القضايا المقررة التي لا تحتل
الجلد الآن أن أسلوب

الكاتب ينم عن شخصيته وعن نفسيته . ذلك أن
الأسلوب الأدبي قلما يقتصر على التعبير عن فكرة
تعبير محدود ادقيقا لا يزيد عنها ولا ينقص . بحيث
لا يختلف القراء أو السامعون في فهم مقصوده
أى اختلاف . إن هذه الدقة في التعبير ، التي
يكون اللفظ فيها قياس المعنى ، كالثوب
المفصل المحكم لا توجد عادة إلا في الأسلوب
العلمي البحث الذي تخصصت ألفاظه بمعان
لا تتفاوت ، وليس لألفاظه طبيعة التفاعل
بعضها مع بعض تفاعلا يلقي عليها أضواء
وظلالا .

إن الأسلوب العلمي ، كالمعادلات
الرياضية ، تحتفظ بقيمتها سواء قدمت
بعض الحدود التي فيها أو أخرتها ، فقيمة
(س) أو (ص) في المعادلة الجبرية
الواحدة تظل محتفظة بمدلولها الرياضي ،
ولا كذلك الألفاظ في الأسلوب الأدبي ،
فإن وضعها من الحملة تقديم أو تأخير ،
أو بجانب لفظ دون لفظ ، يؤثر في المعنى

تأثيرا يلحظه كل ذى ذوق أدبي ، كالألوان
لا قيمة لها في لوحة إلا بتجاورها وامتزاجها .

كل هذا واضح مقرر من وجهة نظر
القارئ المتلقى ، الذي يستشف من العبارة
التي أمامه هدف كاتبها منها . ولكن الذي
أريد أن أصل إليه لأقدم به للدراسي
هذه ، هو أن الحالة النفسية التي يكون
فيها الكاتب تؤثر في كل من فكرته وأسلوبه .
وما أظن أن هناك صعوبة في إدراك أن
نفسية الكاتب تؤثر في أفكاره ، فنحن
نترقب عادة من الكاتب المغضب أن يقول
شيئا يدل على غضبه ، ومن الشاعر المثار
أن يعبر عن ثورته ، ومن الحب الوهان
أن يفيض رقة ووجدانا ، ولكن هناك
أمرا أخفى من هذا ، هو أن الكاتب إذا
أراد - أو أريد له - أن يتكلم عن حالة
لا تلائم ما يشعر به في قرارة نفسه ،
لم يكن ثمة بد من أن يظهر ذلك في أسلوبه
لدى العين الناقدة .

ويختلف الكتاب والشعراء في مدى
نجاحهم في إخفاء مشاعرهم الكامنة حينما

(*) ألقى البحث في الجلسة التاسعة من مؤتمر الدورة الثامنة والأربعين في ٧ من جمادى الأولى ١٤٠٢ هـ ، الموافق

يعرضون لأمر تختلف مع تلك المشاعر
ومن أقدر الناس على إخفاء هذه الكوامن
النفسية «أبو الطيب المتنبي» ، الذي كان
يضطر في بعض الأحيان إلى إظهار
الرضا وهو غاضب ، إلى المدح وفي
نفسه أن يهجو ، إلى الاعتذار وفي اعتقاده
أنه يجب أن يعتذر إليه . وليس من شأني
هنا أن أفصل في أن «المتنبي» كان أو لم يكن
على حق في أن يكون غاضبا وإن أظهر
الرضا . وإنما الذي يعنيني أن يكون معتقدا
ذلك في قرارة نفسه بحق أو بغير حق ،
وأن أحاول أن أبين أثر هذه المشاعر
في أسلوبه الذي تظاهر فيه بغير ما استقر
في نفسه .

وللمتنبي في هذا الصدد مقدرة نادرة
حقا ، أعانته عليها شاعرية ممتازة ، وعبقورية
فذة ، حتى إن كثيرا منا يمر بما يقول هذا
الشاعر العملاق في مثل هذه المناسبات
دون أن يتنبه إلى خفايا نفسه .

فنحن نعلم قصته مع الأمير «سيف الدولة» ،
الذي كان يغدق عليه العطايا نظير قصيدتين
أو ثلاث قصائد في السنة . ومع ذلك
كان «المتنبي» — وهو الذي كان يرى أن
غواده من الملوك وإن كان لسانه يرى
من الشعراء — يحتجز نفسه ، ويبطئ
بمدائح سيف الدولة ، وكان هذا يشق
على الأمير ، فيحضر من الشعراء من
كانوا من غير شك دون «المتنبي» منزلة

وكان هؤلاء يتعرضون لأبي الطيب بما
لا يحب ، وكان أبو الطيب لا يعبا
بذلك .

ويزيد ذلك في ضجر «سيف الدولة» ،
ويتأذى «أبو الطيب» في الإغضاء عن الأمير
وعن المتشاعرين الذين غرؤوا بدمه ،
ويستمر الأمير في التحريض على أبي الطيب ،
وبعد مدة قضاها الأمير والمتنبي فيما يسمى
بلغة العصر الحديث «حرب الأعصاب»
أو «الحرب الباردة» تقدم أبو الطيب
للأمير بقصيدته المشهورة التي تسمى تارة
عتابا ، وتسمى مرة اعتذارا ، وتعتبر
أحيانا مدحا . وكل الذي يعنيني الآن هو
أن ندرك أن «المتنبي» كان غاضبا ،
ولكنه كان مضطرا لمدح سيف الدولة
وترضيته ، وقد أعلن عن سخطه في
عبارات واضحة صريحة ، على حين
أعلن عن رضاه في عبارات مثقلة بالهموم ،
محملة بالغضب .

فلننظر في هذه القصيدة قبل البدء في
دراستها ، وأنا أعلم أنها من أسبق شعر
«المتنبي» إلى قارئيه ، ولكنني أود أن نستعيد
فكرتها العامة التي احتفظت بها ألف سنة ،
قبل أن أعرض لها بالتحليل .

قال المتنبي :

واحترَّ قلباهُ من قلبه شَبِيبُ
ومن بجسمي وحالي عنده سَقَمُ !

مالى أكرم حبا قد برى جسدى
وتدعى حب سيف الدولة الأعمى !
إن كان يجمعنا حب ليغترته
فليت أنا بقدر الحب نقسم !

* * *

قد زرتهُ وسيوف الهند مغمدة ،
وقد نظرت إليه والسيوف دم ،
فكان أحسن خلق الله كلهم ،
وكان أحسن ما فى الأحسن الشيم .

* * *

فوت العدو الذى يسميته ظفر ،
فى طيه أسف ، فى طيه نعم :
قد ناب عنك شديد الخوف ، واصطنعت
لك المهابة مالا تصنع البهيم ؛
ألزمت نفسك شيئا ليس يلزمها :
أن لا يسواريهم أرض ولا علم .

أكلما رمت جيشا فانشى هربا
تصرفت بك فى آثاره الهيم ؟
عليك هزمهم فى كل معترك ،
وما عليك بهم عار إذا انهزموا :

أما ترى ظفرا حلوا سوى ظفر
تصافحت فيه بيض الهند والاسم ؟

* * *

يا أعدى الناس إلا فى معاملتى ،
فيك الخصام ، وأنت الخصم والحكم !

أعيدها نظرات منك صادقة :
أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم ؛
وما انتفاع أنى الدنيا بناظره
إذا استوت عنده الأنوار والظلم ؟

* * *

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى ،
وأسمعت كلماتى من به صمم ؛
أنام ملء جفونى عن شواردها ،
ويسهر الخلق جراًها ويختصم ؛
وجاهل مدته فى جهله ضحكى ،
حتى أتته يد قراسة وفهم :
إذا نظرت نيوب الليث بارزة
فلا تظنن أن الليث يبتسم ؛
ومهجة مهجتي من هم صاحبها ،
أدركتها بجواد ظهره حرّم ؛
رجلاه فى الركض رجل ، واليدان يد ،
وفعله ما تريد الكف والقدم ؛
ومرهف سرت بين الجحفلين به
حتى ضربت وموج الموت يلتطم ؛
فالحيل والليل والبيداء تعرفنى ،
والسيف والرمح والقرطاس والقلم ؛
صحبت فى الفلوات الوحش منفردا ،
حتى تعجب منى القور والأكرم ؛

* * *

يامن يعز علينا أن نفارقهم ،
وجدائنا كل شىء بعدكم عدم ،

ما كان أخلقنا منكم بتكرمة ،
لو أن أمركم من أمرنا أمم !

إن كان سرركم ما قال حاسدنا
فما بلحرج إذا أرضاكم ألم .

وبيننا - لو رعيتم ذاك - معرفة ،
إن المعارف في أهل النهى ذمم ؛

كم تطلبون لنا عيبا فيسعجزكم !
ويكره الله ما تأتون والكرم :

ما أبعد العيب والنقصان عن شرفي !
أنا الثريا ، وذان الشيب والهرم ؛

ليت الغمام الذي عندي صواعقه
يزيلهن إلى من عنده الدِّيم !

أرى النوى تقتضيني كل مرحلة
لا تستقل بها الوخادة الرُّسم ؛

لئن تركن ضميرا عن ميامينا
ليحدثن لمن ودعتهم ندم ؛

إذا ترحلت عن قوم ، وقد قدروا
ألا تفارقهم ، فالراحلون هم .

* * *

شر البلاد بلاد لا صديق بها ،
وشر ما يكسب الإنسان ما يصم ؛

وشر ما قنصته راحتي قنص
شهب البزاة سواء فيه والرتختم .

بأى لفظ تقول الشعر زعينة
تجوز عندك ، لا عُرْب ولا عجم !

* * *

هذا عتابك ، إلا أنه مقية
قد ضمن الدر ، إلا أنه كلم .

ولنقف قليلا عند هذه القصيدة : لقد
جأ الشاعر بالشكوى المريرة من أول
بيت ، بل من أول كلمة ، فهي استغاثة
صارخة :

وأحر قلباه من قلبه شيم ،
ومن بجسمى وحالى عنده سقم !

وهو لا يتردد في وصف عاطفته
وعاطفة سيف الدولة ، ولا يترفق في اختيار
الالفاظ لهذا الوصف ، فقلبه مفعم بالحرارة
وقلب سيف الدولة خامد بالشيم والبرود .

ثم ينم على نفسه في البيت الثاني فيعجب ،
أو يتظاهر بأذه يعجب ، من أذه يكتّم
حبه لسيف الدولة ، يتكلف ذلك تكلفا ،
مع أن ذلك الحب قد برى جسده ، في
حين أن حساده من المتشاعرين الذين
يقربهم سيف الدولة يدعون حبه
ويتظاهرون به :

مالى أكتّم حبا قد برى جسدى
وتدعى حبّ سيف الدولة الأمم ؟
فإذا كان هناك اشتراك بينه وبينهم
في حب الأمير ، فليت الأمير يقسم عطفه
وهباته بينه وبينهم ، على قدر ما يمكنه كل
منهم له من الحب :

إن كان يجمعنا حب لغرته
فليت أنا بقدر الحب نقسم !

وبعد أن يتنفس الشاعر شكواه في هذه الأبيات الصارخة ، يشعر أن لسيف الدولة حقا في مدحه ، وأن سبب القطيعة التي يشكو منها المتنبي هو انقطاع مدحه عن الأمير ، فتسعه شاعريته القادرة ، وينتقل انتقالا سريعا إلى استرضاء وليه ؛ ولكنه انتقال لا يخلو من مفاجأة ، فليس له تمهيد ، وتكاد تنعدم الصلة بينه وبين ما سبقه من الشكوى المريرة .

أية علاقة بين شكواه من برود قلب الأمير عنه ، وبين شكواه من الحب الزائف الذي يتقرب به المتشاعرون للأمير ؛ بين شكواه من ظلم الأمير له في عدم منحه ما يقابل حبه وإخلاصه له — أية علاقة بين هذا كله — وبين قوله عقب ذلك :

قد زرتة وسيوف الهند مغمدة ،

وقد نظرت إليه والسيوف دم ،

فكان أحسن خلق الله كلهم ،

وكان أحسن ما في الأحسن الشيم

الحق أن المتنبي كان يعاني هنا صراعا نفسيا شديدا ، بين غضبه من سيف الدولة ، وشعوره بأن عليه أن يمدحه ويترضاه ، ولهذا انتقل هذا الانتقال المفاجيء ، المفاجيء بمقاييس منطق الفكر ، ولكنه انتقال طبيعي بمقاييس منطق النفس ، المنطق «السيكولوجي» الذي لا يخضع للمقدمات والنتائج ، بل يبيع المتناقضات ، ويعيش وسط التقلبات التي تخضع للرغبات المتضاربة في نفوسنا :

فقد انتقل المتنبي هذا الانتقال المفاجيء خضوعا لموقف تمليه الظروف التي تتعارض مع ما يجيش في نفسه من الألم . بل إن هذا الانتقال المفاجيء هو التمهيد الحقيقي لما أماته لباقة المتنبي عليه في استرضاء سيف الدولة ، استرضاء مؤقتا ، بمدحه له بين عاصفتي غضب يسميهما كثير من قراء المتنبي عتابا ، أو اعتذارا . أولاهما تلك التي استهل بها القصيدة ، والأخرى يثيرها وشيكها عندما يعتقد أنه أدى ما يجب عليه نحو سيف الدولة ، فيصرخ مرة أخرى بقوله :

يا أعدل الناس إلا في معاملتي ،

فيك الخصام ، وأنت الخصم والحكم !

أجل ، لقد وجد المتنبي تمهيدا عاما ينتقل به من شكوى سيف الدولة ، إلى مدحه فقال : إنه قد زاره في حالتي السلم والحرب ، فكان أحسن الناس جميعا . وكان أحسن ما فيه شيمه وأخلاقه : وهو معنى عام ، بل عادي لا يرتفع إلى مستوى المتنبي ، ولكنه كان ضروريا ، كان مركبا صعبا اضطرت المتنبي إلى ركوبه : كان قنطرة عبر عليها من شكواه إلى ما يصح أن نسميه مدحا خاصا تظهر فيه إشاعرية الشاعر أو تتبين فيه صفات الأمير ، وهو ما نخصص له ستة الأبيات التالية التي ظهرت فيها الشاعرية بصورة رائعة جميلة :

فَوْتُ العدو الذي يممته ظفر ،

في طيه أسف ، في طيه نعم :

قد ناب عنك شديده الخوف ، واصطنعت
لك المهابة ما لا تصنع البهائم ؛
ألزمت نفسك شيئا ليس يلزمها ؛
أن لا يواريهم أرض ولا علم .
أكلما رمت جيشا فانشى هربا
تصرفت بك في آثاره الهمم ؟
عليك هزمهم في كل معترك ،
وما عليك بهم عار إذا انهزموا :
أما ترى ظفرا حلوا سوى ظفر
تصافحت فيه بيض الهند واللمم ؟
ولئن اعترفنا للمتنبى هنا بمقدرة
تصويرية فائقة ، إنه لا يفوتنا أن نسجل
أنه لم يبتدع فكرة جديدة ، وإن كان
قد ابتدع صورة جديدة . بل هو لم يمدح
سيف الدولة إلا بما مدحه به في غير هذا
الموقف . ألم نقل إنه لم يكن راضيا تمام
الرضا عن سيف الدولة ؟ فهو لذلك يعاني
قدرا من الصعوبة التي يعانيها من يحمل
نفسه على القول حملا ، فيعود إلى
ما اختزنه عقله من الأفكار ليخرجه في
صورة قديمة أو جديدة .

والدليل على ما نقوله هو هذه القوالب
التعبيرية التي صاغ فيها المتنبى هذه الدفعة
من المديح ، فهي قوالب التعبير عن التقريع
والتأنيب التي يصوغ فيها الغاضب في
العادة ما يريد أن يقوله من اللوم والنقد :
ألزمت نفسك شيئا ليس يلزمها :
أن لا يواريهم أرض ولا علم .

أكلما رمت جيشا فانشى هربا
تصرفت بك في آثاره الهمم ؟
عليك هزمهم في كل معترك ،
وما عليك بهم عار إذا انهزموا :
أما ترى ظفرا حلوا سوى ظفر
تصافحت فيه بيض الهند واللمم ؟
هذه صيغ من يشير بأصبعه إلى من
أقى أمرا يلام عليه ، وإن كانت محتويات
هذه الصيغ قد تضمنت مدحا وإطراء .
لقد كان أبو الطيب خاضعا لعاطفتين
متناقضتين : إحداهما تملئ عليه فكرة
المدح لترضية أميره ، والأخرى خفية في
نفسه تجيش بغضبه عليه . ولقد أنقذته شاعريته
البارعة بما قال من المدح ، ولكن عقله
الباطن تحكم في قوالب الصياغة لهذا المدح ،
فجاءت كما نرى قوالب النقد والتأنيب ،
وإن ملئت بالمدح والثناء .
وما مثله في هذا إلا كمثل الشاعر الذي
قال لأmirه يستجديه :

أذكر حاجتي ، أم قد كفاني
حياؤك ؟ إن شيمتك الحياء .

إن هذا الشاعر تختلج في نفسه فكرة
طلب العطاء من ممدوحه . ولكن الحياء
يغلبه . ولترك ما قاله مؤقتا ، لننظر فيما
نترقب أن يقوله مثله .
إننا نفهم أن يقول :

أذكر حاجتي ؟ أم قد كفاني
حيائي ، إن شيمتي الحياء .

لأن هذا يكون أصدق تعبير عن حالته النفسية .

ولقد نفهم أنه يقول :

أذكر حاجتي ، أم قد كفاني سخاؤك ؟ إن شيمتك السخاء .

لأن هذا يكون تعبيراً صادقاً عن أمل الشاعر في أن كرم ممدوحه يعفيه من مذلة السؤال .

ولكن الشاعر لم يقل هذا ولا ذاك ، لم يقل :

أذكر حاجتي ، أم قد كفاني سخاؤك ؟ إن شيمتك السخاء .

لأن شعوره بالحياء والحجل كان مسيطراً عليه ، ويأبى إلا أن يجد منفذاً إلى التعبير عن نفسه .

ولكنه لم يقل كذلك :

أذكر حاجتي ، أم قد كفاني حيائي ؟ إن شيمتي الحياء .

لأن هذا يبعد به عن مدح وليه ، ويركز الأضواء على نفسه ، وهنا تبرز قوة العقل الباطن بقوة الشاعرية ، فيحول الحياء والحجل الذي يشعر به هو ، إلى صفة يمدح بها أميره ، مع أن الموقف لا يقتضيها ، ولكن هكذا صهرت شاعرية الشاعر هذه الصفة التي يشعر بها ، فأخرجتها صفة مدح لممدوحه :

أذكر حاجتي ، أم قد كفاني حياؤك ؟ إن شيمتك الحياء .

هذا شبيه بالمسلك الذي فرض نفسه على أبي الطيب ، حينما وصف سيف الدولة بالشجاعة في تلك العبارات التي تم صيغها وقوالها التعبيرية عن اللوم والتأنيب .

ولنسق دليلاً آخر على ما نقول : دليلاً نأتى به من شعر أبي الطيب نفسه .

فقد مدح سيف الدولة في ظروف أسعد من هذه التي كان فيها وهو ينشئ هذه القصيدة ، ومدحه بنفس المعاني التي تناوها في المقطوعة التي حللناها الآن . فإذا قال له ؟ قال يذكر نهوضه إلى ثغر الحدّث لما بلغه أن الروم أحاطت به :

ما مضوا لم يقاتلوك ، ولكن (م)
القتال الذي كفاك القتالا :

والذي قطع الرقاب من الضّر
ب بكفّيك قطع الآمالا ؛

والثبات الذي أجادوا قديما
علم الثابتين ذا الإجمالا .

نزلوا في مصارع عرفوها ،
يندبون الأعمام والأخوالا :

تحمل الريح بينهم شَعَرها
م ، وتُدرى عليهم الأوصالا ،

تنذر الجسم أن يقيم لديها ،
وتُريه لكل عضو مثالا .

أبصروا الطعن في القلوب ديراكا ،
قبل أن يبصروا الرماح نحيالا ؛

وإذا حاولت طعانتك خيل
أبصرت أذرع القنا أميالا ؛

بسط الرعب في اليمين يمينا
فتولوا ، وفي الشمال شمالا

يَسْنَفُضُ الرَّوْعُ أَيْدِيَا لَيْسَ تَدْرِي
أَسِيوفا حَمَلَنَ أُمَ أَغْلَالَا ؛

ووجوها أخافها منك وجه
تركت حسنها له والجمال

والعيان الحلبيُّ يحدث للظنّ (م)
زوالا وللمراد انتقالا ؛

وإذا ما خلا الجبان بأرض
طلب الطعن وحده والنزالا ؛

هاتان صورتان متشابهتان في وصف
سيف الدولة بالشجاعة ، وبأن بأسه يسبق
جيوشه فيلقى الرعب في قلوب أعدائه ،
ولكننا لا يمكن أن نمر بنا الصورتان من

غير أن نلاحظ ما بينهما من فرق في
الأسلوب التعبيري الذي ينم عن الحالة
النفسية التي كانت تمتلك الشاعر في كل
منهما . ففي إحداهما احتشاد ومهارة فنية ،

وفي الأخرى تدفق وانسياب وتلقائية . في
إحداهما صراع خفي بين المعنى واللفظ ،

فصلت فيه عبقرية المتنبي بملء صيغ اللوم
بجميل المدح ، فكان كمن يضطر إلى تقديم
طعام أو شراب لمن في نفسه غضب منه ،

فيقدم كريم الشراب ولذيذ الطعام : لافي
كثوس شفيفة وصحاف فاخرة ، بل في
كيزان من الصفيح ، وآنية من النحاس ؛
لكأن المتنبي قال لسيف الدولة : المعنى
لك واللفظ لي . بل إنه قال له ذلك فعلا
ذات مرة :

إن هذا الشعر في الشعر ملك ،
سار فهو الشمس ، والدنيا فلك :

عدل الرحمن فيه بيننا ،
فقضى باللفظ لي ، والحمد لك ،

أما الصورة الأخرى فإنها تناسب
مسترسلة ، في عبارات متدفقة ، تصدر
عن نفس مؤمنة بما تقول ، لا تحتجز
شيئا ، ولا تستتر وراء عبارة أو صيغة
أو قالب من قوالب التعبير . إن من
الواضح الحلبي أن المتنبي هنا يقول لسيف
الدولة : لك المعنى واللفظ كلاهما ، لا
أحتجز لنفسى شيئا منهما .

ولنعد إلى قصيدتنا لنرى أن الشاعر قد
أقحم مضطرا تلك الصورة التي مدح بها
سيف الدولة بين صرخته بالشكوى ،
كأنها فترة استجمام بين الصرختين ،
أو لعلها — كما قلنا من قبل — ستر لموقفه
من وليه الذي كان يتعطش لسماع
مدحه . سمعنا صرخته الأولى في مستهل
القصيدة ، أما صرخته الثانية فهي التي
يلحق بها ما قاله في سيف الدولة مدحا ،

حتى إنه يكاد أن يمحو بها أثر ذلك المدح :

يا أعدل الناس ، إلا في معاملتي ،

فيك انصام ، وأنت الخصم والحكم !

ونحن لا ننخدع بسحر التعبير في هذا البيت ، فأبو الطيب لا يصف سيف الدولة بالعدل ، كما يبدو للوهلة الأولى من ظاهر اللفظ ، بل هو يصفه بالظلم ، وإن قال له :

« يا أعدل الناس » ، فما المقياس الطبيعي التلقائي الذي يقيس به المتنبي عدل سيف الدولة ؟ بل ما المقياس الطبيعي التلقائي الذي يقيس به إنسان عدل إنسان آخر ؟ إن ذلك يكون في العادة بالحكم على معاملته له هو ، فإن ظلمه فهو ظلم ، أو بالأحرى ، إن اعتقد أنه ظلمه سماه ظالما ، وإن اعتقد أنه أنصفه سماه عادلا . فإذا قال المتنبي لسيف الدولة في الحقيقة ؟ لقد قال له يا أظلم الناس ، لأنك خصم وحكم ، ولم ترتفع في قضائك فوق مستوى الخصومة . ولكن شاعرية المتنبي ، وشعوره بجلال مقام سيف الدولة — في هذه اللحظة على الأقل — حوّل هذا التعبير إلى تعبير يشعر بالمدح ، أو على الأصح يخفف من أثر هذا الهجاء :

يا أعدل الناس ، إلا في معاملتي ،

فيك انصام ، وأنت الخصم والحكم !

ويؤيد هذا ما تابع به أبو الطيب هذه الشكوى ، إذ يقول :

أعيدها نظرات منك صادقة

أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم ؛

فهل قصد شاعرنا هنا أن يقرر حقيقة

أنه ينزه سيف الدولة عن خطأ الحكم ،

وأن يثبت له صدق النظر في التفرقة بين

الشحم والورم ؟ هل ما جاء بعد هذا

البيت يرجح هذا الظن ؟

وما انتفاع أخى الدنيا بناظره

إذا استوت عنده الأنوار والظلم ؟

فإذا لم يكن هذا الإيجاء الأليم كافيا في

إثبات ما نقوله ، فلنستمع إلى ما جاء

بعده من الأبيات التي يتبع فيها الشاعر

شكواه من الأمير ، بشكواه من خصومه

وحساده الذين يقربهم سيف الدولة ،

فيلتفت إليهم المتنبي التفاتة غاضبة ، ويصب

عليهم احتقاره صبا ، في عشرة أبيات

تفيض زهوا وكبرياء وصلفا ؛ فما يترك

مكرمة من المكارم إلا أضفاها على نفسه ،

غير عابئ بأنه في مجلس وليه ، وبأن

الموقف موقف استرضاء واعتذار ،

لاموقف زهو وفخار: فهو خير من تسعى

به قدم ، وهو الذي ينظر الأعشى إلى

أدبه ، ويسمع الأصم كلماته ، وهو

صاحب الشوارد التي ينام عنها ، يملأ

جنونه الكرى ، على حين يسهر الخلق

من أجلها ويختصم ، وهو الحليم الساخر

من خصمه الجاهل الذي يظن حلمه ضعفا

حتى ينقض عليه فيبطش به ، وهو

الفارس المغوار الذى يمتطى صهوة جواد
ظهره حرم على غيره ، وأمره بين يديه
يطيعه كما يشاء ، وهو الكمى الذى يسير
بين الجحفلين بحسامه المرفف يشق لحج
الموت المتلاطمة ، وهو المعتد بنفسه ،
المعول على شجاعته ، يجتاز القلاوات
وحده ، حتى لتعجب منه سهولها وجبالها ،
ثم هو آخر الأمر : صاحب الخيل ،
ونخيدن الليل ، وأنيس الصحراء ، وابن
الضراب والطعان ، ورب القرطاس والقلم :

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى ،
وأسمعت كلماتى من به صمم ؛
أنام ميلء جفونى عن شواردها ،
ويسهر الخلق جترأها ويختصم .

وجاهل مدته فى جهله ضحكى ،
حتى أتته يد فراسة وفم ؛

إذا نظرت نيوب الليث بارزة
فلا تظنن أن الليث يبتسم .

ومهجة مهجتي من هم صاحبها ،
أدركتها بجواد ظهره حرم ،

رجلاه فى الركض رجل ، واليدان يد ،
وفعله ما تريد الكف والقدم ؛

ومرهف سرت بين الجحفلين به
حتى ضربت وموج الموت يلتطم .

فالحيل والليل والبيداء تعرفنى ،
والسيف والرمح والقرطاس والقلم ؛

صحبته فى القلاوات الوحش منفردا ،
حتى تعجب منى القور والأكم
وبعد أن أراح الشاعر نفسه ما كانت
تحمله من أعباء كبريائه ، وتنفس غضبه
فى ثورة نسي فيها سيف الدولة ، وشغل
فيها بنفسه ، عاد إلى سيف الدولة ليستعطفه
فى الظاهر ، ولكنه يؤنبه فى الواقع : لقد
استودع ما بقى من القصيدة ، وهو أربعة
عشر بيتا ، عبارات من العتب ، ترق
تارة ، وتقسو غالبا ، وتلوح بالفرقة حينما ،
وتهدد بالقطيعة أحيانا ، حتى إذا ما قال
كل ما يريد ، ختمه ببيت أراد أن يمحو
بنصفه الأول ما خلفه صائفه فى نفس سيف
الدولة ، ولكنه ثبت بنصفه الثانى ذلك
الصلف نفسه :

هذا عتابك ، إلا أنه مقة ،
قد ضمن الدر ، إلا أنه كلام

لقد بدأ هذه الدفعة من العتاب بيت
يفيض رقة ، ويتدفق عذوبة ، حتى ليكاد
المرء يعتقد أن أبا الطيب قد تاب إلى رشده ،
وأنه شعر بسوء أثر ما نطق به لسانه عن
نفسه ، فيقول بلغة العاتب ، بل بلغة
التائب : إن فراقه لسيف الدولة يعز عليه ،
وإن كل شيء بعده عدم لا يغنى عنه :

يامن يعز علينا أن نفارقهم ،
وجداننا كل شيء بعدكم عدم .

غير أنه يبدو أن المتنبي قد تجاوزت به
ألفاظه هدفه ، فكان عليه أن يفسد تلك .

الركة ، وأن يُمرّ تلك العذوبة ، فيعقب
على ذلك بأبيات تنعكس فيها حالة نفسية
مضطربة ، متذبذبة بين استرضاء سيف
الدولة وإغضابه في غير ترفق . فيبدأ
بعتاب مشوب بالاعتزاز بالنفس إذ يقول :

ما كان أخلقنا منكم بتكرمة
لو أن أمركم من أمرنا أمم !

ثم يتأوه استسلام هو أدنى إلى الفناء
في الحب حين يرق رقة الأصدقاء الأصفياء ،
ويذل ذل المحبين المتيمين ، إذ يقول :

إن كان سرّكم ما قال حاسدنا
فما لخرح إذا أرضاكم ألم

ولكنه - كعادته - يخشى أن تغلبه
رقة (أو ما تكلفه من الرقة) فينتقل
سريعا إلى اللوم يلصح به تلميحاً ، ويعرض
فيه بسيف الدولة تعريضا :

وبيننا - لو رعيتم ذاك - معرفة ،
إن المعارف في أهل النهى ذمم .

وهنا يشعر أبو الطيب بأنه يتنفس عاطفة
هي أقرب إلى نفسه ، وينطق بما هو أصدق
في تصوير شعوره ، فيندفع في التعبير عن
كوامن نفسه ، وينتقل من التلميح إلى
التصريح ومن التعريض إلى التقرير
البعيظ :

كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم !
ويكره الله ما تأتون والكرم .

ويطمئن المتنبي إلى كبريائه ، ويطمع
في المزيد من غلوائه ، كالمنازل الذي يرى
الدم يسيل من خصمه ، فيستشرى ولا
يأبه أن يقتل بعد أن جرح ، فيرسل بالقضية
العامة تؤيد الدعوى الخاصة :

ما أبعد العيب والنقصان عن شرفي
أنا الثريا ، وذان الشيب والهرم .

وكأنما أراد أبو الطيب أن يلين جانبه
قليلا ، ليخفف من شدة ما قال ، ولكنه
هنا يهوي مستخزيا ، فيسأل مستجلدا ،
ويرزح تحت عبء الحسد ، فتظهر النفاسة
على لسانه ، فينطق في بيت واحد بما
يجمع بين مدح سيف الدولة بأنه الغمام
الحواد ، وذمّه بأنه الظالم الذي لا يعدل
في توزيع عطاياه ، وينفّس على منافسيه
فيتمنى لهم صواعق هذا الغمام ، ويذل
بالاستجداء والسؤال ، ويضعف بالتمنى
لما يجود به الغمام من الحيا الهطال :

ليت الغمام الذي عندي صواعقه
يزيلهن إلى من عنده الدّيسم !

ويستخزي مرة أخرى ، محاولا ستر
استخزائه في ثوب من التهديد ، ولكنه
ثوب شفاف لا يستر ما تحته من ضعف
وتهافت إخال المتنبي قد أصيب بهما فجأة
وقد أوشك أن يختم قصيدته ، لفرط
ما نطق به مما أغضب أميره . إنه لم يزد
على أن يقول :

إن البعد عنكم - ذلك البعد الذي يهدد

به - يكلفني أن أقطع مراحل لا تقوى
على قطعها الإبل السريعة الشديدة .

أفريد المتنبي أن يعلن أنه سيهجر سيف الدولة
على الرغم مما سيكلفه ذلك من بُعد الشقة
ووعورة الطريق؟ أم يريد أن يتراجع عن
غطرسته ، فيذكر سيف الدولة بأن هجره
له - هجر المتنبي لسيف الدولة - ليس
قريب المزال ، وأن الفرصة متاحة للأمير
لاسترضائه واستبقائه؟ أرجح الرأيين عندي
أنه في هذه المرحلة من القصيدة : على الأقل
كان أميل إلى الأخذ بأسباب الصلح
لو أن سيف الدولة تقدم له بالخطوة الأولى .
فهو لذلك يرسل طلائع الهدنة ، ورسول
الصلح في البيت التالي :

أرى الذوى تقتضيني كل مرحلة
لا تستقل بها الوخادة الرسم .

ثم يبدو في صورة المهادد ، ولكنه تهديد
أدنى إلى التحريض والإغراء حين يقول :

لئن تركن ضميراً عن مياميننا
لنيسجدن لمن ودعهم ندم .

وإننا لنلمس ذلك الرفق في التهديد
في ذكر سيف الدولة بما سيحدث له
من ندم إذا فارقه أبو الطيب . إن الزاهد
الغاضب لا يقف ليقول : هيا استبقوني
قبل أن تفوت الفرصة فتصبحوا على ما فعلتم
نادمين .

ثم لتدبر الرفق واللين اللذين يشعان

فجأة في لفظ «لمن ودعهم» . ولو أن المتنبي
كان جادا في رغبة الفراق ساعتئذ لما
ترفق باستعمال هذا اللفظ ، وقد كان له
عنه مندوحة في مثل «لمن فارقتهم» أو «غادرتهم» .
فإن أردنا ما هو أدل على ذلك الرفق وأوضح
في استجلاء شعور أبي الطيب في هذه اللحظة
التي تخاذل فيها ، فلنستمع للبيت التالي :

إذا ترحلت عن قوم ، وقد قدروا
ألا تفارقهم ، فالراحلون هم .

وأشهد أن هذا من أصدق ما قاله
الشعراء ، وإنه ليشف عما تنطوى عليه
نفس الشاعر في هذه الآونة من رغبة
قوية في أن يستبقيه سيف الدولة ، غير
أنه - كعادته - ينقلب وشيكاً ، ويغضب
سريعا ، ويكاد ينقم من نفسه ما فرط
منها من الملاينة ، فيأبى إلا أن يعود إلى
الحفوة في التعبير فيعلن :

شرُّ البلاد بلاد لا صديق بها ،
وشر ما يكسب الإنسان ما يصم .

وتعود إليه صورة حساده ، ويؤلمه
تسويته بهم ، وكأنما يريد أن يملأ شروط
الصلح على سيف الدولة إن هو أراد
استبقائه : وهي ألا يسوى بينه وبين سقط
المتاع ، من زعائن الشعراء ، فيقول :
وشر ما قنصته راحتي قنص
شهب البزاة سواء فيه والرخم

بأي لفظ تقول الشعر زعينة
تجوز عندك ، لا عُرْب ولا عجم ؟

ثم يحاول — كما قلنا من قبل — أن يصلح ما أفسده ، فيسمى كل ما تقدم ، من لين وضعف ، ولوم وتقريع ، عتابا بل مِقَّةً ومحبة ، غير ناس نفسه وقدره ، فيصف ذلك العتاب بأنه كلام قد ضُمنَّ الدرر :

هذا عتابك ، إلا أنه مِقَّةٌ

قد ضُمنَّ الدرر ، إلا أنه كَلِمٌ

كأن مجرد هذه التسمية يغير من طبيعة ما ساقه في هذه القصيدة !

والحق أن المتنبي لم يكن في موقف اعتذار أو عتاب ، ولا في موقف مدح ، بل لم يكن في موقف فخر خالص ، وإنما كان خاضعا لمجموعة معقدة من الوجدانات تعتوره في وقت واحد أو لحظات سريعة متلاحقة . مما أخرج لنا هذا المزيج العجيب في هذه القصيدة التي ظلت أكثر من ألف سنة وهي تثير إعجاب القارئ ، وقل من تلمس ما وراء شاعريتها البارعة من نفسية مضطربة متوثبة .

ولكى يتجلى لنا مبلغ صدق ما نقول يكنى أن نضاهي هذا العتاب المعقد بعتاب آخر للمتنبي ، قاله لسيف الدولة كذلك ولكنه كان في حالة نفسية تختلف عن حالته السابقة :

ألا ما لسيف الدولة اليوم عاتبا ؟

فداه الورى أمضى السيوف مضاربا .

وما لي إذا ما اشتقت أبصرت دونه

تَنَائِفَ لا أَشتاقها وسباسبها !

وقد كان يُدنى مجلسي من سمائه
أحادث فيها بدرها والكواكبا .

حَنَائِيكَ مَسْثُولاً ، ولبيك داعيا ،

وحسبي موهوبا ، وحسبك واهبا !

أهذا جزاء الصديق إن كنت صادقا ؟

أهذا جزاء الكاذب إن كنت كاذبا ؟

وإن كان ذنبي كلَّ ذنب فإنه

محال للذنب كل المحو من جاء تائبا .

إن في هذا أدبا رفيعا ، ورقة لا

تشوبها الكبرياء ، وتواضعا لا يبدو الصلف

من خروق قناعه : هنا نجد المتنبي عاتبا كما

نفهم العتب ، لا يسنفس على وليه المكارم

يقاسمه إياها ، أو يدعيها كلها لنفسه ؛

ولا يضمن عليه بالمنزلة اللائقة به . بل

يقف منه حيث يشعر كل إنسان بأنه

مخطيء تائب ، وبأنه يتطلع إلى صفحته

ورفع منزلته مما انحدرت إليه .

فسيف الدولة هنا عاتب ، لا متجن

ولا ظالم لا يرجى عدله ؛ وسيف الدولة

هنا يشاق المتنبي لقاءه بدلا من أن يكون

زاهدا في مصاحبته ، والتنايف والفلوات

التي تترأى للمتنبي هنا تترأى له بينه

وبين سيف الدولة الذي يجعلها فاصلة

بينهما ، ويشاق المتنبي اجتيازها ليصل

إليه ، وليست المفاوز التي كان يراها المتنبي

موصلة لحصم سيف الدولة (كافور) ،

يهدد باجتيازها ليفارقه ويخلص من صحبته ؛

وسيف الدولة هنا بدر في سمائه ، وحوله

كواكب يتطلع المتنبي إلى الصعود إليهم
ليحدثهم ، وليس المتنبي هنا هو الثريا
التي لا يناها شيب العيب ولا هرم النقصان ؛
وليس سيف الدولة وندماؤه هنا هم أولئك
الذين كان يجمعهم المتنبي في غير استحياء
ولا تجميل حين يقول :

سيعلم الجمع من ضم مجلسنا

بأننى خير من تسعى به قدم .

وسيف الدولة هنا يُسترحم ويلبى ،
ويُشكر واهبا ، لا يُعنف متعنتا ، باحثا
عن عيب للمتنبي ، متعقبا لطفواته ، مخفقا
في العثور عليها ؛ والمتنبي هنا خاضع
معترف تائب ، فحسبه — مهما يكن ذنبه —
أن يأتى تائبا ، وليس متسخطا متمكلا
يعجب من أن سيف الدولة لم يقاسمه
عواطفه ، ولم يبادلّه احترامه ، فيجأر
من قلب شتم لقلب نابض بالحب ، وينادى
بحقه في التكريم من لم يكن أمره من أمره
أما ، ويصرخ بالشكوى من لم يرع المعارف
في أهل النهى .

ألا إن هناك فرقا عظيما بين ما يمكن
أن نلخص به عتابه الأول في قوله :

شر البلاد بلاد لا صديق بها ،

وشر ما يكسب الإنسان ما يصم .

وما يمكن أن نلخص به عتابه الثانى في قوله :

وإن كان ذنبى كلّ ذنب فإنه

محا الذنب كلّ الحو من جاء تائبا .

ثم لننظر في عتاب آخر قاله المتنبي
لسيف الدولة كذلك ، على إثر تأخره
عنه في مدحه ، وظنه أنه كان عاتبا ،
ولكن المتنبي لم يكن هنا حانقا ، كما كان
حانقا في عتابه الأول ، ولهذا جاء عتابه هنا
سهلا سمحا ، خاليا من السب ، أليق
بمقام العتب :

بأدننى ابتسام منك تحيا القرائح ،

وتقوى من الجسم الضعيف الجوارح ،

ومن ذا الذى يقضى حقوقك كلها ؟

ومن ذا الذى يرضى سوى من تسامح ؟

وقد تقبل العذر الخفى تكرّما ،

فما بال عذرى واقفا وهو واضح !

وإن محالا — إذ بك العيش — أن أرى

وجسمك معتل وجسمى صالح ،

وما كان تتركى الشعر إلا لأنه

تُقصر عن وصف الأمير المدايح .

ألسنا نشعر برقة تناسب في هذه الأبيات

انسيابا ، وتلطف في التعبير ، بل لطف

كريم لم ينزل إلى حضيض الملق ، ولكنه

لم يتشبث بالخطورة ؟ فأبو الطيب هنا

لا يتقاضى سيف الدولة المساواة التى يطلبها

الند من الند حين يقول له :

وبيننا — لو رعيتم ذاك — معرفة*

إن المعارف في أهل النهى ذمّم .

ولكنه يقنع بفضل عطفه ، ويرضى

منه بأدننى ابتسام :

بأدننى ابتسام منك تحيا القرائح ،

وتقوى من الجسم الضعيف الجوارح .

وهو لا يرى لنفسه حقوقا لدى سيف
الدولة يقرّعه على عدم أدائها ، ويتممه بأنه
ينتقصها ليمنعها من لا يستحقونها ،
كما قال له قبلا :

إن كان يجمعنا حب لغرته
فليت أننا بقدر الحب نقاسم !

وهو هنا لا يعرض به بأنه خصم
وحكم ، وبأنه خصم خصيم ، وحكم
ظلم ، كما قال له فيما سبق :

يا أعدل الناس إلا في معاملتي .
فيلك الخصام ، وأنت الخصم والحكم .

وهو هنا لا يصارحه بأن ظلمه حول
غيث سحابه إلى خصومه ، وأنزل به
هو صواعقه ، كما صارحه بذلك حين
قال له :

ليت الغمام الذى عندى صواعقه
يزيلهن إلى من عنده الدّيم !

ولنما يرى هنا أن سيف الدولة هو
صاحب الحقوق عليه ، وأنه (أى المتنبى)
لا يستطيع أن ينهض بأداء كل تلك الحقوق
وأنه لا سبيل لتأدية جميع هذه الحقوق ،
إلا إذا تسامح الأمير فى بعض حقوقه :

ومن ذا الذى يقضى حقوقك كلها
ومن ذا الذى يُرضى سوى من تسامح ؟

وليس سيف الدولة هنا عيّا باحثا
عن النقائص ، يطلب لأبى الطيب عيّا
فيعجزه ذلك ، بل هو سمح يقبل العذر

الحنى ، فأجدر به أن يقبل عذر أبى
الطيب وهو واضح جلى :
وقد تقبل العذر الحنى تكرّماً ،
فما بال عذرى واقفا وهو واضح !

وليس سيف الدولة شخصا يتلمس
أبو الطيب مفارقتة ، ولو اقتضاه هذا
البعد كل مرحلة لا تستقلّ بها الوخّادة
الرّثم ؛ وليست دولته شر البلاد لأنه
لا صديق له بها ؛ وإنما هو شخص لا
يستطيع المتنبى أن يعيش إلا به ، بل إن
من المحال ألا يتأثر بما يتأثر به من ألم :
وإنّ محالا - إذ بك العيش - أن أرى
وجسمك معتلّ وجسمى صالح .

وليس فتور المتنبى عن مدح سيف
الدولة راجعا إلى أن شعره أسمى من أن
يتقدم به إلى من يحسب الشحم فيمن شحمه
ورم ، ومن لا ينتفع بناظره ، فتستوى
عنده الأنوار والظلم ، ومن لا يفرق بين
شعر الزعانف الذين ليسوا عربا ولا عجماء
وشعر الأستاذ الذى يقول الكلم فيضمّنه
الدر ، وإنما يرجع ترك المتنبى لمدح
سيف الدولة هنا إلى أن المدائح تقصر عن
مدحه :

وما كان تركى الشعر إلا لأنه
تقصر عن مدح الأمير المدائح !

وكان ترك الشعر مأساة مكررة ،
يغضب لها سيف الدولة ، ويُرّضى بها
المتنبى كبريائه ، ثم تنهى بقصيدة

قد تكون كما رأينا هنا عتبا ، وقد
تكون مأساة أشد من ترك الشعر ،
وقد تكون مزيجا من العتب والفخر ،
ولننظر الآن في قصيدة أخرى اعتذر
فيها المتنبي لسيف الدولة اعتذارا جمع
بين رقة الاعتذار وعزة النفس .

فقد تأخر مدح أبي الطيب عن سيف
الدولة — كالعادة — فعاتبه مدة ، ثم
لقيه في الميدان ، فأرى منه المتنبي انحرافا
عنه ، وأنكر المتنبي تقصير سيف الدولة فيما
كان عوده من الإقبال عليه ، والسلام عليه ،
فعاد إلى منزله وكتب له قصيدته التي مطلعها :
أرى ذلك القرب صار ازورارا ،
وصار طويل السلام اختصارا .

وهو عتب رقيق يزداد رفقا ولينا في
البيتين التاليين :

تركتني اليوم في خجلة ،
أموت مِرارا وأحيا مرارا ،
أسارقك اللحظ مستحييا ،
وأزجر في الخيل مَهْرِي سِرارا

لكن ينقلب في البيت التالي إلى عزة ،
ولكنها عزة كريمة تلفتها براعة المتنبي
في شاعرية لبقة تكاد تسترها لأنه يقول :
إنما يعتذر المحرم ، فإذا اعتذرت إليك من
غير جرم كان اعتذارى في احتياج إلى
اعتذار ، لأنه لا سبب له ولا مسوغ :
وأعلم أني إذا ما اعتذرت

إليك أراد اعتذارى اعتذارا .

وهو يعلن أن الحفوة وتأخره عن مدحه
لم يكن أمرا اختاره المتنبي ، وإنما هو
اضطرار سيق إليه ، ويؤكد ذلك بأنه
لو كان تأخره عنه اختيارا لكان ذلك
كفرا بأيادي سيف الدولة الباهرة .

كفرتُ مكارمك الباهرا

تِ إن كان ذلك مني اختيارا ،

ثم تلتاب المتنبي نوبة الفخر ، تنازع
شعوره الحجل والميل إلى الاعتذار ، فتخرج
لنا عبقريته من كل ذلك مزيجا عجيبا ،
نخاله أرضى سيف الدولة ، ولا نشك في أنه
أرضى المتنبي :

ولكن حَمَمِي الشَّعْرَ ، إلا القلي

ل ، هَمَّ حَمِي النوم إلا غرارا .

ونبحث عن مصدر ذلك الهم الذي
حجب النوم ، إلا قليله ، عن عيون
المتنبي ، كما حجب الشعر ، إلا قليله ،
عن آذان سيف الدولة ، فلا نعثر عليه
إلا في لفظ غامض ، يستتر وراءه المتنبي :
فهو أولا يذني عن نفسه أنه سبب ذلك الهم :
وما أنا أسقمتُ جسمي به ،

ولا أنا أضربت في القلب نارا

ثم ينتقل بعد هذا التمهيد إلى إلصاق
التهمة بالدهر المسكين ، الذي ينبغي أن يكون
دائما كبش الفداء مع كل شاكٍ لا يستطيع
(أولا يريد) أن يحدد بالدقة مصدر آلامه :

فلا تُلْزِمَنِي ذنوب الزمان ،

إلى أساء ، وإيائى ضارا .

وكأنما شعر المتنبي عندئذ أنه أبرأ نفسه
من كل ما عليه من دين المسؤولية ، فتشجع
ولم أذبال الحجل التي كان يتعثر فيها منذ
قليل ، وانتقل من الاعتذار إلى الفخر ،
فأخذ يذكر سيف الدولة بأياديه البيضاء
عليه - أيادى أبي الطيب البيضاء على سيف
الدولة - نعم ، أما أيادى سيف الدولة
على المتنبي فقد انقضت ذكرها في أول
القصيدة ، عندما كان يرزح تحت عبء
الحجل ، ويحاول التنصل من الذنب فيقول :
كفرتُ مكارمك الباهرا

تِ إن كان ذلك مني اختيارا ،
أما الآن فلم يبق له إلا أن يذكر له
فضله عليه ، كأنما يريد أن يقول له :
حسبك ما قلتُ فيك من القصائد السائرات
التي لا تقف عند حدود الأقطار ، بل
تثب الجبال وتخوض البحار :

وعندى لك الشُّرْدُ السائرا
تُ لا يختصن من الأرض دارا :
قوافٍ إذا سِرْنَ عن مِقْوَلِي
وتَبَّنَ الجبال وخضن البحارا .

ويزداد المتنبي زهوا وإعجابا بنفسه ،
فيسمح للسانه أن يقول ما هو أقرب إلى
المن- والأذى منه إلى الترضية والإطراء :

ولي فيك ما لم يَقُلْ قائل
وما لم يَسِيرَ قمرٌ حيث سارا .

ولكنه يشعر بأنه نسي في كل ذلك سيف
الدولة ، وأنه شغل نفسه ، وشغل سيف

الدولة ، بالشناء على شعره ، وإطراء
مواهبه ، فيلتفت إليه التفاتة مفاجئة ،
لا تجد لها صلة بما قبلها من الأبيات ،
ولكنها الصلة الخفية التي لا يشرحها إلا محاولة
الوقوف على ما كان يجري في نفس أبي الطيب
من الانفعالات المتضاربة المتلاحقة :

فلو خُلِقَ الناسُ من دَهرهم
لكانوا الظلام ، وكنت النهارا ،

أية علاقة بين ما كان يتكلم عنه أبو الطيب
من وصف قصائده الشُّرْدُ الجوّالة في
آفاق الأرض ، التي لم يقل مثلها قائل ، وبين
أن سيف الدولة كالنهار وسط ظلام الناس ؟

لكأنه يريد أن يقول له : إن كنت
تريد برهانا جديدا على مقدرتي على مدحك
بشرط ألا تنسى ما أسجله عليك من فضل
مديحي السابق فها كه في بيتين اثنين ،
يتلوهما بيتان آخران ، يقاسم فيهما أبو الطيب
سيف الدولة ما تضمناه من مدح ، أما
البيتان الأولان فهما :

فلو خُلِقَ الناسُ من دهرهم
لكانوا الظلام ، وكنت النهارا ،

أشدُّهم في الندى هِزَّةً
وأبعدهم في عدوِّ مُغارا .

وأما البيتان الآخران فهما :

سما بك كَهْمِي فوق الهموم
فلست أعدّ يسارا - يسارا ؛

ومن كنت بحرا له يا عليّ (م)
لم يقبل الدرّ إلا كبارا .

وكما كان أبو الطيب يُدِلُّ على سيف
الدولة ، فينقطع عنه شعره ، كان يفعل
ذلك مع غيره ممن اتصل بهم من الأمراء
والحكام قبله وبعده .

فقد عاتبه مرة الأمير أبو محمد الحسن
ابن عبيد الله بن طُغْج على تركه مدحه ،
فاعتذر له في سماحة ولباقة تشبهان ما رأيناه
في القصيدة التي انتهينا من تحليلها ، إذ
قال له :

تَرَكَ مدحيك كالهجاء لنفسى ،
وقليلٌ لك المديح الكثير ؛
غير أنى تركت مُقْتَضِبَ الشعر (م)
لأمر مثلى به معذور ؛

وسجايك مادحاتك ، لالفظى ، (م)
وَجُودٌ على كلامى يُغَيِّرُ
فَسَقَى الله من أحب بكفِّيك (م)
وأسقاك أهلاً الأمير

أما السماحة فتتجلى في الاعتراف بأن
انقطاعه عن مديح أميره بمثابة هجائه
لنفسه ، وأنه لا يستكثر عليه شعره ، بل
إن كثير المديح قليل بالنسبة له :

ترك مدحيك كالهجاء لنفسى ،
وقليل لك المديح الكثير .

وأما اللباقة فتتشكل بشكليين ، كلاهما
أصيل عند المتنبي : أحدهما اللباقة الشعرية ،
التي تنطقه بالفكرة التي تصرف المرء عن
شكواه ، بما فيها من براعة تكاد تصل
إلى حد السفسطة ، ولكن تصونها الصورة

الباهرة ، في العبارة المعبرة ، فهو
يقول له :

إنه (أى الأمير) فى غنى عن مدحه ،
لأن سجايه هى التى تتولى مدحه ، لا
ألفاظ المتنبي ، وكذلك جوده الذى يتضاءل
أمامه شعره :

وسجايك مادحاتك ، لالفظى ، (م)
وَجُودٌ على كلامى يُغَيِّرُ

بالضبط كما قال لسيف الدولة
ليصرفه عن شكواه من تقصيره فى إنشاد
شعره :

وما كان تركيبي الشعر إلا لأنه
تقصير عن وصف الأمير المذائح

أما الشكل الثانى الذى تتشكل به لباقة
فهو ما أسميه لباقة الغموض الذى يستتر
وراء المتنبي فى الاعتذار عن تأخر مدائحه ،
فهو لا يصرح بالسبب الحقيقى الذى حجزه
عن مدح وليه ، ولعله كان على حق فى الاتجاه
إلى هذا الغموض ، فربما كان إعلان السبب
الحقيقى عذراً أقبح من الذنب ، ولذلك
يكتفى المتنبي بأن يقول : إننى تركت الشعر
لعذر يقبل من مثلى :

غير أنى تركت مقْتَضِبَ الشعر (م)
لأمر مثلى به معذور

ونبحث عن ذلك الأمر ، فلا نجد له
صدى يتردد . كأنما يكفى أن يعان المتنبي
أنه يعذر نفسه فيعذره الناس ، لقد قال
مثل ذلك لسيف الدولة ، حينما أعلن أن

عذره ، واضح ، ولم يزد على ذلك إلا
تعجبه من أن سيف الدولة لم يقبله على الرغم
من وضوحه :

وقد تقبل العذر الخفي تكررًا

فما بال عذري واقفا وهو واضح؟

كما سبق أن قال في قصيدة أخرى :
إنه لم يكن مختارا في تأخره عن مدح سيف
الدولة ، وإنما اضطر إلى ذلك اضطرارا ،
وهو لا يذكر سبب ذلك الاضطرار
إلا في عبارة غامضة كذلك ، هي أنه
كان لديه همّ حمى الشعر إلا القليل ، كما
حمى النوم إلا غرارا :

كفرت مكارمك الباهرا

ت إن كان ذلك مني اختيارا

ولكن حمى الشعر إلا القلي

لهم حمى النوم إلا غرارا

ولعل أرق عتاب نطق به أبو الطيب
هو تلك الأبيات التي قالها حين غضب عليه
أبو العشائر ، على إثر سماعه لقصيدته التي
بدأنا هذه المقالة بتحليلها :

* واحر قلباه ممن قلبه شيم ! *

وكان حاضرا مجلس سيف الدولة ،
فتأذى بتعريض المتنبي ببعض بني حمدان ،
أبناء عم سيف الدولة ، فأرسل أبو العشائر
بعض غلمانه ليوقعوا به ، فلاحقوه بظاهر
حلب ليلا ، فرماه أحدهم سهم قائلا :
نخذله ، وأنا غلام أبي العشائر . فقال
المتنبي :

ومنتسب عذري إلى من أحبه ،
وللنبل حولي من يديه حفيف ؛
فهيج من شوقي ، وما من مذلة

حننت ، ولكن الكريم ألوف ؛
وكل وداد لا يدوم على الأذى ،

دوام ودادي للحسين ، [ضعيف
فإن يكن الفعل الذي ساء واحدا

فأفعاله اللأئي سررن ألوف
ونفسي له ؛ نفسي الفداء لنفسه ،

ولكن بعض المالكين عنيف ؛
فإن كان ينبغي قتلها يك قاتلا
بكفيه ، فالقتل الشريف شريف .

فهنا يرق رقة الأصدقاء الأوفياء الذين
لا يغيرهم غدر ، ولا يحد من شوقهم
خوف الظهور بالمذلة ، فإن الكريم ألوف .
وهو يعلن أن الود الذي لا يدوم على الأذى
كدوام وداده لأبي العشائر ود ضعيف .

وهو لا يريد أن ينسيه غضبه — لفعل
مسيء واحد — ألوف الأفعال السارة التي
سبقته ، ثم هو يعلن أن نفسه ملك لأبي العشائر ،
وإن كان بعض المالكين عنيفا . وهو تقريع
لا نستطيع أن نعترض عليه ، بل هو أرق
صورة لتقريع في مثل هذا المقام . فإذا
كان أبو العشائر ينبغي قتله فليقتله بيده ،
لا بيد غلمانه ، فقتل الشريف شريف .
وبعد فقد أكون قد قسوت على المتنبي
ولكن هذا ما وسعني جهدي من الرأي
فإن أكن قد وفقت فيه فالحمد لله ، وإن
أكن قد تجاوزت الصواب فمعدرة لشاعرنا
أبي الطيب .

محمد مهدي علام
نائب رئيس مجمع اللغة العربية

بين القرآن والنحو

د. سنان علي النجدي ناصف

دعا

مجمع اللغة العربية في
مؤتمر العام الماضي إلى

محاضرة عامة يلقيها الأستاذ شوقي ضيف
عن « تيسير النحو » ، وقد نحف لشهود
المحاضرة والاستماع لها جمهرة من العلماء ،
وعنى جمع منهم بالتعليق عليها ، فكان
مما علق به عليها دعوة إلى نحو يستمد أحكامه
من القرآن الكريم .

وما من دعوة إلى عمل يقوم على أساس
من القرآن ، أو يأخذ منه بسبب ، أو يكون
منه على حرف إلا قوبل بالترحاب وحسن
القبول ، تيمنا بالقرآن ، وتساميا إليه في
أفقه الأعلى .

ولعل ما يزيد هنا من الارتياح لهذه
الدعوة أن النحو في جفائه وعبوسه حقيق
أن يفيد من القرآن في سماحته وإشراق
ديباجته ، فإذا هو ألين جانبا وأخف محملا ،
ومهما يكن من أمر فإن الدعوة إلى نحو
آخر يؤخذ من القرآن حرية أن تظفر
بخطها المقدور من الحفاوة والجلد لأنها دعوة

إلى جليل من الأمر ، فكان النحو بين علوم
العربية مكانه الرفيع لا يتسامى غيره إليه .
ولعل إذ أقبل عليها فأدرسها ، وأرى رأيا
فيها أن أكون أدبت لها واجبا ، وشاركت
في العمل لها بنصيب .

والنحو الذي تعنيه هذه الدعوة هو
— بلا مراعاة — نحو للعربية كلها لا نحو للقرآن
من بينها ، لأن النحو المستمد منه سيقوم
مقامه منها ، ويغنى غناؤه فيها . أما نحو
القرآن فإنما هو للقرآن وحده والقرآن
نص فيها وليس بها كلها في اتساع آفاقها
وتعدد فنونها .

والنحو حين كان يسترفد اللغة إبان نشأته
لإقامة القواعد وتقرير الأحكام لم يكن
يقتصر في هذا على نوع منها ولا فن من
فنونها ، ولكنه يستوعبها طلبا واقتضاء ،
سواء عليه جلد القول وهزله ، وشريفه
ورذله . وهو — لا محالة — وجد من كل أولئك
حاجته ، عند اللغة . أليست هي ترجمان

(*) تلا البحث الدكتور مهدي علام في الجلسة العاشرة من مؤتمر الدورة الثامنة والأربعين نيابة عن المرحوم لأستاذ
علي النجدي ناصف في ٨ من جمادى الأولى ١٤٠٢ هـ ، الموافق ٣ من مارس ١٩٨٢ م .

الحياة ومرآتها بكل ما يضطرب فيها من
شئون ؟

وتحتوى اللغة فيما تحتوى على ضروب
من الأساليب كثيرة ، لها فى صنع النحو وإقامة
بنيتها عمل غير منكور ، بفضل ما أودعت
من حقائق ضفلى ، لها ذكر فى أبواب شتى
من النحو لهذا يحرص النحاة عليها ويحتفون
بها ، يعرضونها فى كتبهم ليديروا عليها
بحوثا ويتخذوا منها شواهد وحججاً .

وقد اخترت بعضها من أكثرها شيوعاً
ثم رحمت أفقدها لها نظائر فى القرآن الكريم
فلم أعثر لها على أثر فيه . وهذه هى : أسلوب
المنادى الشبيه بالمضاف ، وأسلوب الاستثناء
بغير إلا وغير ، وأسلوب التنازع الذى
أعمل فيه العامل الأول ، وأسلوب الاشتغال
الذى يقع فيه المشغول عنه بعد أداة مختصة
بالدخول على الفعل ، وأسلوب حذف خبر
المبتدأ حين تغنى عنه حال لا تصالح أن تكون
خبراً له .

وكنت أود لو أتيح لى أن أعرض هذه
الأساليب ومع كل أسلوب شواهد المتعددة
من نظم القول ومنثوره ، لكن منع من ذلك
اتقاء الإسهاب وما يعقب من ملال .

وليس للقرآن قراءة واحدة يقرأ بها ولكنه
يقرأ بقراءات كثيرة ومتنوعة ، ولم يكن

بد من كثرتها وتنوعها ، لأن القرآن إنما
أنزل فى أمة كانت قبائل شتى ، ولكل
قبيلة لهجتها الخاصة ولم يكن الرسول - صلوات
الله عليه - يلتزم القراءة باللهجة واحدة
لئلا يشق على أصحاب اللهجات الأخرى .
وتابعه على ذلك أصحابه والتابعون ، ثم
أخذ عنهم قراء ثقات مأمونون ، يتعلمون
ويعلمون . ومضى الأمر على هذا النحو
كلما مضت منهم طائفة خلفتها أخرى ، تحمل
الرسالة ، وتؤدى الأمانة على مر الزمان .

ويتنوع الخلاف فى القراءات تنوعاً
كثيراً ، فخلاف فى حركات الإعراب
كالذى فى قوله تعالى : (من يضل الله فلا
هادى له ، ويذرهم فى طغيانهم يعمهون)^(١) .
قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر : (وذرهم)
بالتون والرفع ، وقرأ أبو عمرو : (ويذرهم)
بالياء والرفع ، وقرأ حمزة والكسائى :
(ويذرهم) بالياء والجزم .

وخلاف فى بنية الكلمة وحركاتها كالذى
فى قوله تعالى : (وأخذنا الذين ظلموا
بعذاب بئس بما كانوا يفسقون)^(٢)
فقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة الكسائى
(بئس) على وزن فاعيل ، وقرأ نافع (بئس)
بكسر الباء من غير همز ، وروى عن نافع
(بئس) ، بفتح الباء من غير همز على وزن
فَعَلَّ ، وقرأ ابن عامر (بئس) على وزن

(١) سورة الأعراف : ١٨٦ والقراء السبعة : ٢٩٨

(٢) سورة الأعراف ١٦٥ ، والقراء السبعة : ٢٩٦

فِيَعْمَلُ مع الهمز ، وقرأ عاصم (بَيْتُتْس) على وزن فيعمل .

وهناك خلاف في الهمز بالتسهيل والتحقيق وبنقل الحركة وإقرارها . وخلاف في الياءات في أواخر الكلمات ، إثباتا وحذفا وتسكيناً وتحريكاً ، إلى ضروب أخرى في الوصل والسكت والإدغام والفك . وهكذا ولا يعلم إلا الله هل يمكن أن يستجيب القرآن مع هذا الخلاف لنحو جديد ؟ ومعلوم أن تخالف الأصول يفضي إلى خلاف في الفروع .

ولا يحدث الخلاف في حركات الإعراب تغييراً في معنى اللفظ المقروء ولا الألفاظ التي لها به صلة من صلوات نظم الأسلوب فهذا قول الله — سبحانه — يصف مكر الذين ظلموا أنفسهم ، ويضرب قدرة مكرهم على إزالة الجبال مثلاً لتفاقمه ، فيقول : (ومكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال) (١) .

قرأ الكسائي قوله : (لتزول) بفتح اللام الأولى ورفع الثانية ، فتكون (إن) هي المخففة من الثقيلة ، واللام الأولى هي الفارقة بينها وبين النافية . والمعنى على إثبات شدة مكر القوم . وقرأ سائر القراء (لتزول) بكسر اللام الأولى ، ونصب الثانية فتكون (إن) هي النافية في أسلوب الجحود ، مثلها كمثل (ما) في ذلك ، وتزول منصوب بأن مضمرة بعد اللام . والمراد بالجبال هنا آيات

الله وشرائعه . والمعنى أن مكر القوم — وإن كان قادراً على إزالة الجبال — عاجز عن إزالة آيات الله وشرائعه . لأنها أرسخ من الجبال رسوخاً وأشد تمكناً (٢) ، فليس ثمة خلاف إذن في معنى الآية في القراءتين .

وربما أثار الخلاف في حركات الإعراب خلافاً بين أئمة النحو ، لا في الإعراب وحده ولكن في الحكم الذي يستند إليه أيضاً ، كالخلاف في قراءة كلمة (الأرحام) من قول الله عز وجل : (واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام) (٣) ، قرأها حمزة بالجر عطفاً على الضمير في (به) من غير أن يعيد معها حرف الجر وهو حكم يميزه الكوفيون ، ويعارضه البصريون في ملحمة حامية من الخلاف بين المدرستين .

وفي القرآن كذلك آيات مشكلة الإعراب ولم يفت قدامى النحاة أن ينظروا فيها على نور من النحو المأثور ، فهتدوا فيها إلى آراء رضوا عنها ، واطمأنوا إليها ومن هذه الآيات قول الله تعالى : (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) (٤) فرفع (الصابئون) وهو في موقع معطوف على منصوب مشكل ، وقد ذهبوا فيه إلى أنه مبتدأ حذف خبره ، وقدر تأخيرها عن اسم (إن) وخبرها ، كأنه قيل : إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى (حكمهم كذا . . .) (الصابئون) كذلك .

(١) سورة إبراهيم : ٤٦

(٢) الكشاف : ١ : ٥٠٩

(٣) سورة النساء : ١

(٤) سورة المائدة : ٦٩ ، والكشاف : ١ : ٢٦٧

ومنها قوله تعالى (رب لولا أخرجتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين)^(١) فعطف أكن بالخزم على « فأصدق » بالنصب مشكل كذلك ، فجعل العطف على محل فأصدق مع تقدير ستقوط الفاء ، كأنه قال : إن أخرجتني أصدق وأكن وربما سبق إلى الخاطر أن من الممكن تقليل الخلاف في قراءة القرآن إذا نحن إقتصرنا في تلاوته على القراءات السبع ، وهي ما هي بين القراءات ، قوة سند وصحة لغة لرسم المصحف . وقد ألف ابن مجاهد فيها كتابا جليلا وقد حققه الأستاذ الدكتور شوقي ضيف ، فأحسن تحقيقه وأصبح الاعتماد عليه في القراءات السبع أمرا ميسورا .

ونحن إذ نرجع إلى هذا الكتاب نستلهمه الرأي نرى الخلاف فيه بين السبعة كثيرا متشعبا يمنع القرآن أن يستجيب لوضع نحو منه . بل إنني لا أبالغ إذا قلت : إن وضع النحو من القرآن في قراءة واحدة ، سبعة أو غير سبعة أمر غير ميسور أيضا ، فكثيرا ما يخالف القارئ نفسه في القراءة ، فيقرأ في موضع أو مواضع بقراءة ، ثم يقرأ بغيرها في موضع أو مواضع أخرى .

فهذه آية (كن فيكون) مثلا ، لقد ذكرت في القرآن إحدى عشرة مرة ، فقرأها ابن عامر بنصب (فيكون) ست مرات ، وقرأها بالرفع

في الخمس الباقية^(٢) بل ربما وقع الخلاف في قراءة لفظ واحد في سورة واحدة فنافع وابن كثير يقرآن لفظ (الداعي) بغير ياء في قوله سبحانه : (يوم يدع الداع) في الآية السادسة من سورة القمر ، ويقرآنها بياء في قوله : (مهطعين إلى الداع)^(٣) في الآية الثامنة في السورة نفسها ، ذلك لأن القراءة سنة متبعة ، تؤخذ رواية وسماعا ، لا قياسا وتطبيقا .

إننا حين تمنينا على الله أن يجعل لنا من القرآن نحواً لم نطلب الأمر من مأتاه الأصيل لأن القرآن ليس كتاب لغة ، ولكنه دستور حياة ونبراس هداية . وقد مضت سنة الله في خلائقه أن يأخذها بقانون التخصص ، كل فيما هو ميسر له ، فجعل لكل نصيبا من تكاليف الحياة ، هو فيه أصيل ، وبه موكل ، وله مهياً .

وأما عمل قد يصلح له ، ويشارك به مما ليس من همه - فهو منه نافلة ، يحفظها ويثاب عليها .

فلندع القرآن الكريم إذن بمكانه من الأفق الأعلى ، بين الطهر والإجلال والتقديس ، ولنعد إلى النحو ، لانعيه ونستعدى عليه فقد فعلنا من ذلك كثيرا ، وأبلىنا فيه بلاء الحد والوفاء ، ولكن نعود إليه لنجعل

(١) سورة المنافقون : ١١ (٢) انخاف فضلاء البشر : ٨٩

(٣) كتاب السبعة : ٦١٧

من حفاوتنا به وجهادنا فيه حفاوة بلغة الثقافة
وجهاداً فيما تزخر به من كنوز المعرفة الكريمة
في ماضيها الغابر وحاضرها الماثل .

فلنجمع لها أمرنا إذن ، ولنقبل عليها نبعتها
من مرقدتها ناضرة ندية ، وننشرها في الناس
دانية الثمار ، ميسرة الأسباب ، لا نبخل
بها على أحد من أبنائها ، ولا ننسى في هذه
العزمة المباركة إن شاء الله أن ثمة آفتين
ملعونتين تتربصان بها ، ولا أرى بعيداً - إن
غفلنا عنهما أو قصرنا في القضاء عليهما - أن
تفسدا علينا أمرنا ، وأن تجعلنا جهادنا
فيه عملاً ضائعاً وعبثاً فارغاً .

وأعنى بالآفتين « الأمية والعامية » - أعاننا
الله عليهما - فالأمية سمة التخلف ، ومبادة
الجهالة وعار الأمم . والعامية وباء شره
مستطير ، ومصاب الثقافة منه عظيم . فعلينا
بهما نستنقذ الحياة الفاضلة من وبأيهيما ،
غير وآنين ولا مقصرين .

لقد صبرنا على العامية طويلاً ، وسكتنا
عنها كراماً ، فنمت وازدهرت وراحت
تزاحم الفصحى ، وتنازعها القول في كل مقام
للکلام فيه مجال ، حتى أصبحت لغة التدريس
والمحاضرة ، ولغة الإعلام والتوجيه ، ولغة
السياسة والأدب ، بها تكون الخطابة في الشؤون
العامة والمطالب الكبرى لا يكاد يعدل عنها
إلى الفصحى الخالصة إلا نادراً .

ولقد نخيل إلى حُماة العامية ونصرائها
أنهم قادرون على إعلاء شأنها ونفي الشين

عنها إذا هم بدلوا بأسماء بعض معالمها
أسماء من بعض معالم الفصحى ، فسموا الزجل
شعراً ، والزجل شاعراً ، كأن الأسماء في رأيهم
تعمل عمل أصحابها في كل ما يرغبون منها
أن تكون .

وهذه المنظومة - التي يسمونها النشيد القومي -
قد حلت في غفلة الزمن محل نشيد كريم
فهو تنشد في المحافل والمناسبات ذات الشأن
برغم ما يعيبها من عامية ، وتحريف ،
واضطراب في الوزن .

وقد تقدمت في مؤتمر العام الماضي أوصى
بها أن تعرض على شاعر من شعرائنا المكرمين
ليقوم عوجها وينقي معايها إذا كان حتماً
أن نبقى عليها ، لا نبغى بها بدلاً من الأناشيد
التي نظمها بعض شعرائنا المقدّمين ، مثل
نشيد شوقي ، أو الراجحي ، أو العقاد .

غير أن العامية حمتها ، وأبت إلا أن تظل
على حالها خلقاً سقيماً ، ولم لا ؟ أليست هي لغة
العلية وأصحاب الجاه ، لا يمتنع عليها مطلب
ولا يُتمسّ في حماها مستجير ؟

أما بعد ، فإني أعتقد أن الله تعالى إذ يرضى
عن مسعانا للثقافة ، وإذ يقدر له أن يوتى
ثمره المرجى ، نشرّاً للثقافة ، وتمكيناً لها ،
نكون يومئذ بمطلع عصر مزهر ، تفتح
فيه القلوب وتهذب الأذواق ، وترقّ المشاعر
وتذب الألسنة . ويومئذ تخفّ مثونة النحو
ويصبح في القليل الصالح منه كفاية وغناء .

على النجدي ناصف
عضو المجمع

التراف للنفوس وكلمة "حتى"

عندنا وعند غيرنا

للككتور عمر فروخ

أحب

أن أبدأ هذا البحث
بدءاً خفيفاً في ظاهره .

حينما أبدأ ، في أول العام المدرسي ،
درس « تاريخ العلوم عند العرب » في الصف
الأعلى من كلية الآداب وفي الصف الأعلى
من المرحلة الثانوية - أبدأ بالجملة التالية :
ليس هنالك علم عربي وعلم غير عربي .
هنالك علم واحد ، وهنالك فلسفة واحدة :
علم وفلسفة إنسانيان ؛ ولكننا نحن نقول :
علم يوناني وفلسفة يونانية لذلك العلم ولهذه
الفلسفة المدونين بلغة يونانية .

إن فيثاغورس اليوناني (ت ٥٠٣ ق . م)
يقول عن نفسه ؛ إنه أخذ كتاب توصية
من التورانس (الحاكم المستبد) في جزيرة
ساموس إلى فرعون أحمرسو الخامس
(٥٧٠ - ٥٢٦ ق . م) حتى يستطيع
أن يدخل إلى الهيكل ويتعلم من الكهنة
المصريين . ثم إن الشكل الهندسي المشهور
باسم « نظرية فيثاغورس » ، ولفظه : « إن
مساحة المربع المنصوب على وتر المثلث القائم

الزاوية مساو لمجموع مساحتي المربعين المنصوبين
على الضلعين الباقيين من ذلك المثلث » ، إنما
هو نظرية آشورية أقدم من فيثاغورس ،
وكانت تعرف عند الآشوريين باسم نظرية
السلم . إن السلم المستند إلى جدار يمثل وتر
المثلث القائم الزاوية . ثم إن الجدار الذي
يستند إليه السلم وسطح الأرض الذي يقوم
عليه ذلك السلم يلتقيان عند قاعدة الجدار
على زاوية نقرتها زاوية قائمة .

وكذلك إذا أنا وصلت في علوم التعاليم
أو العلوم العددية (وهي التي تسمى عندنا
الرياضيات ، وفي مصر تدعى الرياض)
ثم انتهيت إلى الكلام على الغناء أو الموسيقى
قلت أيضاً : ليس هنالك موسيقى
عربية ثم موسيقى أجنبية عن العرب . هنالك
موسيقى فحسب ، إنك إذا شددت وترًا على
لوح من خشب رقيق ثم نقرته وأنت
في مدينة بيروت مثلاً ، وبعدئذ حملت
هذا الوتر المشدود على ذلك اللوح إلى
الصين ونقرته هنالك كما كنت قد نقرته

(*) ألقى البحث في الجلسة العاشرة من مؤتمر الدورة الثامنة والأربعين في ٨ من جادى الأولى ١٤٠٢ هـ ، الموافق

٣ من مارس ١٩٨٢ م

في مدينة بيروت ، فهل يختلف نغمه ذلك من نغمه في مدينة بيروت ؟

والقول الصواب : إن هنالك أنغاما ألفها العرب فسميت أنغاما وألحانا عربية ، بينما ألف الهنود أنغاما وألحانا أخرى ناشئة من نقر الوتر الواحد فسميت ألحانا هندية . وليس هذا القول قولي أنا ، بل هو قول قد ورد في رسائل إخوان الصفا . أما المثل الذي أريد أنأ أن أقدمه فهو : أن جماعات من العرب أنفسهم قد أصبحوا يألّفون ألحانا كانت تسمى أجنبية من فرنسية وإنكليزية وأميركية وزنجية ، ثم أخذوا يرقصون عليها أو يطربون لها طربا أكثر مما كانوا يطربون لألحان قالوا عنها من قبل إنها عربية ، وقد أحب موسيقار مشهور أن يفتخر فذكر - أو ذكر قوم عنه - أنه «يطعم» أغانيه بألحان يونانية . غير أن هذه الألحان التي سموها يونانية لا يمكن أن تلاثم الأغاني العربية إنما هي في الأكثر ، وفي حالها الراهنة ، قد تحدرت من ألحان تركية تحدرت هي بدورها من ألحان فارسية متأثرة بالغناء العربي الإسلامي .

ثم أراني أكاد أقول : ليس هنالك لغة عربية ولغة غير عربية . هنالك لغة واحدة مرت في كل أمة في ثلاثة أطوار من الطور الأول الطبيعي المنطقي والقائم على الحركات والأصوات إلى الطور الثاني الاجتماعي الذي أخذ فيه كل قوم يجعلون لتلك الحركات

ولتلك الأصوات الأولى معاني لم تكن لها في الطور الأول . ثم يأتي الطور الثالث الغنائي أو الموسيقي حينما يحاول الناس أن يغلبوا سهولة اللفظ أو عذوبته على القاعدة الجازمة ، إذا كان في تلك القاعدة الجازمة شيء من الجفاف أو من العسر أو التنافر في اللفظ .

وفيما يلي عدد من الأمثلة على غاية من الإيجاز :

١ - من الطور الأول الطبيعي المنطقي :

لا يزال كثير من الناس إذا التقوا بأناس آخرين - وكان بعضهم لا يعرف لغة بعضهم الآخر - حاولوا أن يتفاهموا بعدد من الحركات (كما يتفاهم الحرس فيما بينهم فيقصون أخبارا وحكايات أو يعالجون أمور السياسة بطريقة تدعو الناس القادرين على النطق إلى شيء كثير من العجب) . وكذلك لا يزال عندنا جميعا بقايا من تلك الأصوات في طورها القديم يتفاهم بها الصغار والكبار ، كأصوات الزجر والحض والاستحسان والاستهجان وما إلى ذلك . وأحب هنا أن أذكر من لغة الصغار صوت «نن» أو «ننى» بمعنى الطعام . ولفظ «نان» (بألف مفخمة) يدل على الخبز في اللغة الفارسية .

٢ - من الطور الثاني الاجتماعي :

حينما يطالع أحدنا شيئا من اللغات الشمالية في أوروبة (كالدانمركية والأسوجية والنرويجية) وهي لغات لم تفرق إلا

في مطلع القرن العشرين للميلاد -
يجد أنها لا تكاد تفرق إلا في أشياء
يسيرة من صيغ الكلمات ثم في كثرة
الإعراب في بعضها أو قلتها في بعضها
الآخر - أما السبب الأساسي في افتراقها؛ فإنما
جاء من العنصر الاجتماعي الذي جعل
للصوت الواحد فيها من قبل أوجه مختلفة
من الأداء عند التلفظ بها .

ويجدر بالعرب أن يشكروا الله تعالى على
أن عندهم « لاما » للتعريف واحدة تدخل
على الاسم المذكور وعلى الاسم المؤنث في
الإفراد وفي الجمع . ومع ذلك فإن نفرا
مننا لا يستطيعون . أحيانا أن يفرقوا بين اللام
القمرية واللام الشمسية . أما إذا نحن أتينا إلى
اللغة الآيسلندية - تلك الجزيرة المتطرفة في
الشمال الغربي من قارة أوروبا - فإن أداة
التعريف وحدها تحتاج عندهم إلى كتاب
كامل .

في اللغة الإنكليزية أداة واحدة للتعريف
في صورة هجائها ، ولكن لها لفظين : لفظا
إذا هي سبقت اسما يبدأ بحرف صحيح ثم
لفظاً آخر إذا هي سبقت اسما يبدأ بحرف علة .
وفي اللغة الفرنسية ثلاث أدوات للتعريف :
واحدة تدخل على الاسم المذكور المفرد
وثانية تدخل على الاسم المؤنث المفرد وثالثة
تدخل على الاسم إذا كان جمعا . ثم تكثر
مشاكل لام التعريف في اللغة الفرنسية إذا
هي دخلت على اسم يبدأ بحرف علة أو بالهاء .
ولكلمة عظم (مفرد عظام) في اللغة الفرنسية

مشكلة قائمة بنفسها ؛ كيف نلفظها إذا سبقتها
أداة تنكير أو أداة تعريف ثم كانت هي
مفردا أو جمعا .

وفي الإيطالية نحو عشرة أشكال لأداة
التعريف لا أخوض الآن في أوجه الاختلاف
بينها .

أما إذا نحن وصلنا إلى أداة التعريف في
اللغة الألمانية فحدث عن الأرض والبحر والجو
ولاحرج . إن أداة التعريف في اللغة الألمانية
تتقلب في صور كثيرة لتلائم الاسم الذي
يأتي بعدها في أحواله المختلفة إذا كان مذكرا
أو مؤنثا أو مفردا أو إذا كان جمعا . ونعود
إلى هذا الاسم نفسه لنراه من حيث إعرابه :
في حالة الرفع أو النصب أو الجر أو الإضافة ،
ففي اللغة العربية إعراب واحد للاسم
المجرور ولل اسم المضاف إليه ، أما في الألمانية
فللجر علامة وللإضافة علامة أخرى . ثم
تبدو في ذلك كله مشكلتان أخريان : إن
حركة الجر في الاسم المؤنث المجرور غير
الحركة التي تظهر على الاسم المذكر المجرور
ثم تختلف أواخر الكلمات (في تلك الأحوال
المختلفة من الإعراب والتصريف) عند
التنكير وعند التعريف . وأنا لا أريد أن أطيل
عليكم حتى أستوفي الكلام على ثمان وأربعين
حالة للام التعريف في اللغة الألمانية . ومع ذلك فإن
الطفل الألماني لا يشكو من النحو في لغته .
كما يشكو اليوم نفر من كبارنا من النحو
العربي . ولقد أخذ نفر من العرب - مع

الأسف الشديد — يجرون الأسماء الخمسة
أو بعض الأسماء الخمسة ، مجرى واحداً في
الإعراب . ونحن نشكر الله على أنهم لم يعرفوا
الاسم السادس .

وفي هذا الطور الثاني الاجتماعي افرقت
معاني الكلمات باختلاف مواطن المتكلمين
فأصبح لكل لفظ عند كل قوم معنى مستقل
إن لفظة « بور » العربية الدالة على الأرض
غير المزروعة تدل في اللغة الهولندية على
« الفلاح » (بتشديد اللام) وكذلك لفظة « نور »
التي تدل في اللغة العربية على الضوء والضياء
واللمعان تدل في اللغة الألمانية على الاكتفاء
ويقابلها في العربية كلمة « فقط » وفي
الألمانية لفظ هو شبابت (بترقيق الفتحة
على الشين وتسكين الياء والتاء : spät)
ومعناه « التأخر » يدل في اللغة الألبانية (بالباء
مكان الميم) على الاستعجال (طلب السرعة
من الآخرين) .

واللفظ « تير » يدل في الإنكليزية
على « الدمع » وفي الألمانية على « الحيوان » وفي
الفرنسية على « إطلاق النار » وعلى « الجذب »
وعلى غير ذلك ، « والريم » في اللغة العربية
هو الغزال الأبيض والمحبوب الجميل ، كما
قال شوقي :

ريم على القاع بين البان والعلم

أحلت سفك دمي في الأشهر الحرم

أما في الفرنسية فإن كلمة « ريم » معناها

« القافية » (في الشعر) والاستشهاد على هذا

الباب من اللفظ الواحد في اللغات المختلفة
شرحه يطول .

غير أنني أحب أن أورد هنا اختلاف
المفسرين في موقفهم من عدد من الكلمات
وردت في القرآن الكريم ، أعربية هي أم
غير عربية ، مثل : درهم ، دينار ، قنطار
عليون ، كرسى ، جهنم . إن نفرًا من المفسرين
جمعوا بين المذهبين فقالوا : هي كلمات
غير عربية في الأصل ، ولكن لما جرت على
اللسان العربي في صيغ عربية أصبحت عربية
كالكلمات العربية الأصيلة سواء بسواء .

٣ - من الطور الثالث الفئائي أو الموسيقى :

ولما استقرت اللغة على قواعدها المنطقية
الطبيعية (في طورها الأول) ثم على المعاني
الاجتماعية للكلمات (في طورها الثاني) —
وهذا ما نسميه « مجازا » ، كإطلاق لفظ
« الشمس » مثلاً على المرأة الجميلة ، وهو
في المعجم اسم للجرم السماوي المنير الذي
نراه من أرضنا نهاراً — وجد العرب في
لغتهم العربية ، كما وجد آخرون في لغاتهم
أن عدداً من القواعد المنطقية يفقد اللغة
شيئاً من السهولة في اللفظ ومن العذوبة
عند التكلم ، فليجأوا إلى قوانين الغناء أو
قواعد الموسيقى يطبقونها على كلامهم ثم
يخالفون في ذلك منطق العقول في سبيل جمال
الألفاظ .

إن الإيطاليين يحبون تضعيف الحروف

فهم يقولون مثلاً : فتوريا مكان فيكتوريا

ويقولون فتورا (مكان فكتور factur

الفرنسية) ، ونحن نقول في هذه الكلمة في اللغة العربية : « فاتورة » وأحسب أن الكاف لا تأتي قبل التاء في كلمة إيطالية بينما عدد من اللغات كالفرنسية والإنكليزية والأسبانية يتقبل توالي هذين الحرفين بالرضا .

وعندنا ، نحن العرب ، في الصرف والنحو أبواب عناوينها : الإدغام والإعلال والإبدال والممنوع من الصرف ثم نصب جمع المؤنث السالم بالكسرة بدل الفتحة . ومن الحق أن تجمع هذه الأحوال كلها في باب واحد يسمى « باب الموسيقى في اللغة » .

نحن نقول ، مثلاً : ضَرَبَ يضرب وعرض يعرض ونزل ينزل وقصد يقصد . ولقد كان من الحق أن نقول : رَمَى يرمى — كما يقول الأحباش — ولكننا اخترنا أن نقول : رمى يرمى . ثم نحن نعترف أو نقر على أنفسنا بأن عملنا هذا الذي هو « إعفاء الياء من الحركة الخاصة بها » إنما هو لاستثقال الضمة والكسرة خاصة على الياء . نحن نقول مثلاً : لن يَرِمَى ، ولكننا لا نقول : رَمَى . وكذلك نقول : لم يستحي ، ولا نقول لم يَرِمَى كيلا نجتمع في هذه الكلمة ياء وسكونا (أى مدأً ووقفاً أو حركة قصيرة على حركة طويلة كما يقول نفر من الدارسين باللغات الأجنبية) كل هذا لا تفسير له منطقياً إلا أن نقول إن العرب يستسهلون ذلك .

وأريد أن آتي هنا بمثلين على ذلك من القرآن الكريم :

أولاً — إن كلمة « أشياء » ممنوعة من الصرف . واختلف علماء النحو في تعاليل

ذلك المنع من الصرف في « أشياء » اختلافاً كبيراً ، ثم لم يأتوا في جدالهم الطويل بكلام مقنع .

إن هذه الكلمة^٢ « أشياء » وردت في القرآن الكريم مفردة غير مضافة مرة واحدة في قوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا ، لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم . . » (٥ : ١٠٤ سورة المائدة) ، ورأى أن هذه الكلمة منعت هنا من الصرف للموسيقى فقط . ولو أننا صرفناها في هذا الموضع لوجب أن نقول : « ... عن أشياء إن ... » فتتوالى في هذا التعبير القصير ثلاث نونات ساكنة . وهذا يسمى في علم التجويد « الأناة » (كما كانوا يقولون لنا ونحن صغار) ، وهذا مكروه في القراءة .

وأصبح منع كلمة أشياء في هذا الموضع من القرآن الكريم قاعدة أو إضافة على القاعدة في الأصح ، فقال المقنع الكندي (وهو شاعر إسلامي متقدم ، قبل أيام عبد الملك بن مروان قبل سنة ٦٥ للهجرة — ٦٨٥ للميلاد) :

يعاتبني في الدين قومي ، وإنما
ديُونِي في أشياء تُكسبهم حملاً
ثانياً — تبدأ سورة « الشمس » من القرآن الكريم (ذات الرقم ٩١ في المصحف) بقواه تعالى (بعد البسملة) :

« والشمس وضحاها — والقمر إذا تلاها
والنهار إذا جلاها . . » (إلى قوله تعالى :

ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها
قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها
كذبت ثمود بطغواها . . . »

ولو أن الآيات الثلاث الأخيرة ، وردت
في النسق التالي :

قد أفلح من زكاها . أوقد خاب من
دساها . كذبت ثمود بطغواها .

لاختلف السجع ثم جاءت أربع عشرة
آية على قافية مؤسسة (يسبق على رويها - على
الهاء في تلك القافية - ألف) وآية واحدة في
ذلك غير مؤسسة . فأبدلت السين الثانية
في كلمة « دَسَسَها » ألفاً للتخفيف ، كما
قالوا ، أى مجازاة للقوافي الباقية ، أى
للموسيقى .

ونأتى الآن إلى « كلمة حتى » .

منذ حين جرى ، في إحدى جلسات
هذا المجمع ، بحث في تركيب شاع استعماله
على أقلام نفر من المعاصرين لنا وتقع
فيه كلمة « حتى » وقوعا عنده نفر منا
غريباً في الاستعمال الفصيح . وذلك
مثل قولهم : جاء القوم حتى كبارهم ،
ومن متابعة النظر في هذا الاستعمال
في عدد من الكتب الحديثة وفي الصحف
ندرك أن هذا الاستعمال ، في تركيبه
الحاضر ، والذي عنده نفر منا غريباً
ونحاطثاً ، إنما جاء من النقل (أى من الترجمة)
عن اللغة الإنكليزية لكلمة « even » ومن
الغريب فعلاً أن تكون اللفظة الإنكليزية « even »
واللفظة العربية « حتى » تتقاربان في أمور
كثيرة . فلنبداً بالكلام على اللفظة الإنكليزية :

من الغريب حقاً أن يكون علماء اللغة
الإنكليزية قد وقفوا من كلمة « even »
موقفاً شبيهاً جداً بموقف الحريصين منا
على صفاء اللغة العربية من كلمة « حتى »
فقد جاء في معجم أوكسفورد الكبير
(٣ : ٣٣٣ - ٣٣٦) نحو ثلاث صفحات
ونصف صفحة من القطع الكبير وبالحرف
الدقيق ، وكان ما فيها مايلي :

كثُر ورود هذه اللفظة في الكتب الحديثة
وفي تعابير بعيدة عن الاستعمال القديم
المألوف ، وهو استعمال يشبه وجهها من
وجوه استعمال كلمة même في اللغة الفرنسية .
هذا التعبير (الإنكليزي) الحديث يحمل
معنى هو « ذكر حالة متطرفة من حكم عام » ،
كقولنا مثلاً :

« فلان يجادل حتى في الحقائق البادية
للعيان » .

هذا التعبير (الإنكليزي) ليس موجوداً
في اللغات التيوتونية ، أى في اللغات الألمانية
والهولندية والدنمركية وأخواتها . إن اللفظ
نفسه موجود في اللغة الألمانية ، ولكنه
يستعمل استعمالاً فصيحاً وفي غير المعنى
المقصود من الاستعمال الحديث في اللغة
الإنكليزية . ففي الألمانية والهولندية تستعمل
اللفظة « eben » اسماً وصفة للدلالة على
الاستواء (كاستواء صفحة الجدار ، مثلاً)
كما تستعمل ظرفاً بمعنى « الآن » أو « حديثاً »
(في الوقت الحاضر) .

واعترض علماء اللغة من الإنكليز على هذه اللفظة « even » أنها تستعمل في الكتب الحديثة على أنها « حرف ابتداء » .

أما الذي دعاني إلى عقد هذا الفصل — مع مقدمته الطويلة — فيما يتعلق بترائنا اللغوي أو بالتراث اللغوي عامة ، أننا نجد نقرأ من الكتاب المعاصرين لنا يستعملون لفظة « حتى » حرف جر أو حرف نصب (أو حرف جر ينتصب الفعل المضارع بعده بأن مضمرة) ثم يستعملونه أيضاً « حرف ابتداء » على غرار ما يرد عليه هذا الحرف في اللغة الإنكليزية .

* * *

ولعل علماء اللغة من الإنكليز لم يكونوا على حق حينما قالوا : إن هذا الاستعمال لكلمة « even » حديث عندهم ، فلقد ورد هذا التعبير عند شكسبير (في مطلع حياة اللغة الإنكليزية ستمائة وأربعاً وعشرين مرة ، وكان فيها أمثلة كثيرة تشبه الاستعمال الحديث لتلك الكلمة عندهم . ثم إننا نجد هذا الاستعمال نفسه اثنتي عشرة مرة في الترجمة الإنكليزية للتوراة والإنجيل) .

ولا أرى فائدة من إيراد الحمل الإنكليزية هنا . ولكن من المفيد أن نعلم أن هذه الكلمة الإنكليزية المقابلة لكلمة « حتى » (في استعمالها المتأخر عن القرآن الكريم عندنا) يمكن أن يحل محلها عندهم : مع أن — لو أن — ولا سيما .

* * *

ونعود إلى كلمة « حتى » عندنا .

هذه الكلمة كانت محيرة للفراء يحيى ابن زياد (ت ٢٠٧ هـ) شيخ النحاة الكوفيين حتى قال — أو روى عنه أنه قال — : أموت وفي نفسي شيء من « حتى » .

ولفظ « حتى » عربي يقابله في السريانية « عدامو » ، وتكون عند السريان ، كما تكون عندنا أيضاً ، حرف عطف وحرف جر .

(أ) فإذا كانت حرف عطف (لاسم على اسم ، لا لفعل على فعل ولا بحملة على جملة) وجب أن يكون بعضها جزءاً مما قبلها ، نحو : « مات الناس حتى الأنبياء » (لأن الأنبياء جزء من الناس) .

(ب) أما إذا كانت « حتى » حرف جر وجب أن يكون للدلالة على الانتهاء إلى غاية . فلا يجوز مثلاً أن يقال : « سرت الليل إلى نصفه » (لأن نصفه داخل في الليل الذي ذكرت أنك سرتة) . ولكنك تقول : سرت الليل إلى الفجر (لأن الليل ينتهي بطولوع الفجر) .

أما في اللغة العربية فإن استعمال « حتى » أوسع مدى .

كلمة حتى في العصر المتوالية :

في الجاهلية :

لقد مرت ببصري على المعلقة السبع
(كما جمعها الزوزني) وعلى ديوان بشر
ابن أبي خازم (بتحقيق عزة حسن - ونشر
وزارة الثقافة والإرشاد القومي في دمشق)
وعلى ديوان عروة بن الورد (بتحقيق
عبد المعين المالوحي - ونشر وزارة الثقافة
والإرشاد القومي ، دمشق) وعلى ديوان
الأعشى (بشرح محمد محمد حسين - المكتب
الشرقي للنشر والتوزيع ، بيروت ١٣٨٨ هـ -
عام ١٩٦٨ م) . ويجدر بمن يريد التوسع
في هذا الموضوع أن يرجع إلى ما تبقى من
الشعر الجاهلي في غير هذه الكتب التي
ذكرتها هنا .

* تأتي « حتى » في الشعر الجاهلي حرف
جر بمعنى « إلى أن » :

- فن ذلك أنها تدخل على الفعل الماضي
مطلقاً ، فقد قال امرؤ القيس في معلقته :

ففاضت دموع العين منى صباية

على النحر حتى بل دمعى محملى

وقال بشر بن أبي خازم (ديوانه ١٨٤) :

ولقد نخبطن بنى تميم نخبطة

.....

حتى سقيناهم بكأس مرة

مكروهة حسواتها كالعالم

- كما تأتي مقيدة بالحرف « إذا » على

أنه أداة شرط ، وعليه قول زهير في معلقته :

رعواظهم حتى إذا تم أوردوا

غماراً تفرى بالسلاح وبالدم

ويبدو أن دخول « حتى » على « إذا »

الشرطية كثير ، فقد وردت مراراً في معلقة

لبيد ، من ذلك مثلاً ، قوله :

حتى إذا سلخا جملادى ستة

جزأ فطال صيامه وصيامها

ومثل ذلك قول الأعشى (ديوانه ٦٧) :

حتى إذ لمع الدليل بثوبه

سقيت وصب رواتها أشواها

- وكذلك تدخل حتى على الفعل الماضي

المقيد بإذا الشرطية التي تليها « ما » الزمانية ،

كقول الأعشى (الديوان ٢٩١) :

ركدت عليه يومها

شمس بحر شهابها

حتى إذا ما أوقدت

فالجمر مثل تراها

كلفت عانسة أمو

ناً في نشاط هبابها

وتدخل « حتى » على الفعل المضارع

فينتصب بعدها بحرف النصب المضمرة « أن » .

قال عمرو بن كلثوم في معلقته :

ورثنا الجهد قد علمت معد

نطاعن دونه حتى يبيننا

وقال عروة بن الورد (الديوان ٣٠) :
وإن جارتى أَلَوْتُ رِيَّاحَ بَيْتِهَا
تغاسفت حتى يستر البيتَ جِسانِبُهُ
وكذلك قال بشر بن أبي خازم (الديوان
ص ٥٧) يخاطب ناقته :

لما تخالجت الأهواء قلت لها :

حق عليك دُؤُوبُ اللَّيْلِ والسَّهْمُ
حتى تزورى بنى بدر فإنهم
شُمَّ العرَّانين لا سود ولا جُعْدُ
وقال الأعشى فى الغزل (الديوان
ص ١٧٥ - ١٧٧) :
لو أسندت مَيْتًا إلى نحرها

عاش ولم ينقل إلى قابر
حتى يقول الناس ، مما رأوا :
يا عجبًا للميت الناشر
* وتدخل « حتى » على الحرف المشبه
بالفعل « كأن » . قال بشر بن أبي خازم :
تغالى نبتُهُ واعتمَّ حتى
كأن منابت العَلَّجان شامٌ

وقال الأعشى (الديوان ٤٠٩) :

تدلت عليه الشمس حتى كأنها
من الحر ترمى بالسكينة قُورُها

* وكذلك تكون « حتى » حرف جر
فتدخل على الاسم الظاهر فتجره . قال عروة
ابن الورد (الديوان ١٠٢) :

لكل أناس سَيِّدٌ يعرفونه
وسَيِّدنا حتى المات ربيع
فى القرآن الكريم خاصة :
وردت كلمة « حتى » فى القرآن الكريم
نحو مائة وأربعين مرة :

— وردت خمس عشرة مرة قبل الفعل
الماضى مطلقاً ، نحو : « . . . وقلِّبوا لك
الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله »
(٩ : ٤٨) ؛ « ولقد كذبت رسل من
قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى
أتاهم نصرنا . . . » (٦ : ٣٤) ؛ « فقال :
إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى
توارت بالحجاب » (٣٨ : ٨٢) .

— وجاءت أربعين مرة قبل « إذا »
(الشرطية) الداخلة على الفعل الماضى المثبت
نحو : « . . . فما زلت فى شك مما جاءكم به
حتى إذا هلك قلتم : لن يبعث الله من بعده
رسولا . . . » (٤٠ : ٣٤) ، « ولا تنفع
الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ، حتى إذا فزَّع
عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم . . . »
(٢٣ : ٣٤) ؛ « ويوم يحشر أعداء الله إلى
النار فهم يوزعون . حتى إذا ما جاءوها
شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم
بما كانوا يعملون » (٤١ : ١٩ - ٢٠) .

— ووردت « حتى » ثلاثاً وسبعين مرة
قبل الفعل المضارع المثبت فانتصب الفعل
المضارع بعدها بحرف النصب المضمَر « أن »
نحو : « فلا تقعد معهم حتى يخوضوا فى

حديث غيره « (٤ : ١٤٠) ؛ « . . . حتى
يبلغ الكتاب أجله » (٢ : ٢٣٥) ، « إن
الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »
(١٣ : ١١) .

— ووردت مرتين في لفظ واحد ،
وجاءت قبل « كان » التامة في الزمن المضارع
المنفي ، وذلك في قوله تعالى : « وقاتلوهم
حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله »
(٢ : ١٩٢ و ٨ : ٣٩) .

— وكذلك جاءت حتى حرف جر قبل
اسم هو « حين » (ست مرات) ، نحو :
« فتول عنهم حتى حين » (٣٧ : ١٧٤ و ١٧٨)
و (مرة واحدة) في قوله تعالى : « سلام
هي حتى مطلع الفجر » (٩٧ : ٥) .

في الصدر الأول (أيام الخلفاء الراشدين) :
مررت ببصرى على الدواوين التسالية :
مجموع أشعار الهذليين (الجزء الثاني ،
نشره يوسف هل ليبزج عام ١٩٣٣) :
ديوان حميد بن ثور (صنعه عبد العزيز
الميمنى — القاهرة ، مطبعة دار الكتب
عام ١٣٧١ هـ — ١٩٥١ م) ؛ شعر الخطيئة
(تحقيق عيسى سابا — بيروت ، مطبعة
صادر عام ١٩٥١ م) ، شرح ديوان كعب
ابن زهير (القاهرة ، الدار القومية للطباعة
والنشر عام ١٣٨٥ هـ — ١٩٦٥ م) ،
ديوان عمرو بن معدى كرب (صنعه هاشم
الطعان — وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد) ،
ديوان حسان بن ثابت (تحقيق سيد حنفى

حسنيين — القاهرة الهيئة العامة للكتاب
عام ١٩٧٤ م) ؛ شرح ديوان الخنساء
(بيروت ، دار مكتبة الحياة) .

تكون « حتى » حرف جر يدل على الانتهاء
إلى غاية (أى بمعنى : إلى أن) . وتدخل
« حتى » بهذا المعنى على الفعل الماضى مطلقاً ،
وعلى الفعل الماضى المؤكد بالحرف « قد » ،
وعلى الفعل الماضى المسبوق بالأداة الشرطية
« إذا » الداخلة على فعل ماض أو على اسم ،
وعلى الفعل الماضى المسبوق بالأداة الشرطية
« إذا » وبالأداة الزمانية « ما » معاً ، قبل
فعل ماض أو قبل اسم متمكن أو قبل صيغة
من الصيغ أو قبل ظرف . وتدخل
« حتى » أيضاً على الفعل المضارع المثبت
أو المنفى فينتصب هذا الفعل بالحرف المضمر
« أن » . وتدخل أيضاً على « كاد » من
أفعال الشروع . وتأتى أيضاً قبل « كأن » .
وكذلك تأتى « حتى » حرف ابتداء (وهذا
هو المقصود الأول من هذا البحث) .

وفيما يلي شواهد مفردة على الأوجه التي
ذكرت :

— قالت الخنساء (الديوان ٥١) :

فبت ساهرة للنجم أرقبُه
حتى أتى دون غَوْرِ النجم أَسْتارُ

— وقال حميد بن ثور (الديوان ٩٥) :

لقد ركبت العصا حتى قدأوجعتنى

مما ركبت العصا ظهري وأظفاري

— وقال عمرو بن معديكرب في صفة الحرب (الديوان ١٥٦) :

الحرب أول ما تكون فتية
تسمى بيزتها لكل جهول
حتى إذا حتميت وشبّ ضرامها
عادت عجوزاً غير ذات خليل
— قال الخطيئة (شعر الخطيئة ١١٤) :

كأنني ساورتني يوم أسألهما
عود من الرقش ماتصغى لراقبها
حتى إذا ما انجلت عني قعدت على
حرف تهالك في بيد تقاسيها
— وقال الخطيئة أيضاً (ص ١٥٦) :

وكأن رحلى فوق أحقب قارح
بالشيّطين تهاقته التعشير
حتى إذا ما الصبح شقّ عموده
وعلاه أسطع لا يرد منير
أوفى على عمة الكتيب
.....

— وقال أبو خراش الهذلي (مجموع أشعار الهذليين ٢ : ٧٤) :

أقاتل حتى لا أرى لي مقاتلاً
وأنجو إذا ما خفت بعض المهالك
— وقال احسان بن ثابت (الديوان ص ١٢٣) :

يُغشون حتى ما تهرّ كلابهم
لا يسألون عن السواد المقبل
— وقال حميد بن ثور (الديوان ٩٤) :

ليت الشباب عليك الدهر مرتجعاً
حتى تعود كثيراً أم صبار

— وقال حسان بن ثابت (الديوان ص ١٠٩) يصف مقتولا في إحدى المعارك وملق أَرْضاً :

ومجدل لا يستجيب الدعوة
حتى تزول شوامخ الأعلام.

— وقال حسان بن ثابت أيضاً (الديوان ص ٢٩٦) :

(يا) خالة لك بين قدس وآرة
تحت البشام ورُفغها لم يغسل
تسمى وترقص حول «شيء» حمارها
حتى يكاد يمسها أو يفعل

— وقال كعب بن زهير (الديوان ص ١٤٦) :

طليح من التسعاء حتى كأنه
حديث يحكى أسارتها سلام

* وتكون « حتى » أيضاً حرف جر يدخل على الاسم المتمكن ، أو قبل الاسم إذا كان ظرفاً .

— قال حسان بن ثابت (الديوان ص ٢١٥ - ٢١٦) في مديح عثمان بن عفان وأهل الشام :

وقد رضيت بأهل الشام زافرة
وبالأمير وبالإخوان إخوانا

إني لمنهم ، وإن غابوا وإن شهدوا
حتى المات وما سميت حسّانا

— وقال حميد بن ثور (الديوان ١١٧) :

فقلت : امكئ حتى يسار ، لو اننا
نتحجج . فقالت لي : أعام وقابل ؟

— وقال المتنخل الهذلي (مجموعة أشعار
الهذليين ٢ : ٨٣) :

فالتط بالسرقة شؤبوبة
والرعد حتى برق الأحول

** وكذلك جاءت حتى حرف ابتداء
عند الخطيئة (ت ٥٩ هـ - ٦٧٨ م) .
والخطيئة شاعر مخضرم كان في الجاهلية ثم
أدرك الإسلام وأسلم وعاش بعد ذلك مدة
طويلة . وإذا كانت وفاة الخطيئة في السنة
التاسعة والخمسين للهجرة فلا يجوز أن يكون
قد عاش في الجاهلية طويلاً ولا أن يكون
قد قال في الجاهلية شعراً كثيراً . والبيت
التالي أقدم ما مر بي في هذا المعنى (شعر
الخطيئة ص ١٠٣) :

تركت المياه من تميم بلاقعا
بما قد ترى منها حلولا كراكرا
وحتي سليم قد أبدت شريدهم
ومن قبل ما قتلت بالأمس عامرا

في العصر الأموي :

لم أجد ضرورة لاستعراض عدد كبير
من الدواوين الأموية للاستشهاد على الأوجه
المختلفة التي ترد فيها « حتى » . إننا نستطيع
أن نقول : إن « حتى » ترد في الشعر الأموي

في جميع الوجوه التي جاءت فيها في شعر
صدر الإسلام الأول . ويبدو بوضوح أن
أصحاب القواميس قد تنبهوا إلى هذا الوجه
الذي عقدت أنا هذا الفصل من أجله . ومع
ذلك فقد مررت ببصري على ديوان جميل
ابن معمر وديوان عمر بن أبي ربيعة .

جاء في « تاج العروس » (الكويت
٤ : ٤٨٧ - ٤٨٨) :

« حتى » حرف من حروف الجر (مثل) :
« إلى » ، ومعناه « للغاية » . وهو حرف
يخفض . . . (أي) يجر . وقد تكون حرف
ابتداء . وفي « الصحاح » : وقد تكون حرف
ابتداء يستأنف بها الكلام بعدها ، كما قال
(جرير) :

فما زالت القتلى تمج دماءها
بدجلة حتى ماء دجلة أشكل

وهو قول جرير يهجو الأخطل
(ت ٩٠ هـ) ويذكر إيقاع الحجاف
بقومه . . . وفي « المغني » : والثالث من
وجوه « حتى » أن تكون حرف ابتداء ، أي
حرفاً تبدأ بعده الجملة ، أي تستأنف ،
فتدخل على الجملة الاسمية . . . كقول
الفرزدق :

فواعجبا ، حتى كليب تسبني
كأن أباه نهل ومجاشع
غير أن البيت الذي وقعت أنا عليه للخطيئة
أقدم من بيت جرير بجيل من الدهر على

الأقل ، وهو — من هذه الناحية — أجل قيمة في تاريخ تطور الكلام .

وهناك شاهد آخر في شعر عمر ابن أبي ربيعة (ت ٩٥ هـ) يمكن أن يكون أقدم من بيتي جرير والفرزدق ، ولكنه ليس أقدم من بيت الخطيئة ، هو : (شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة المخزومي ، ص ١٥٤ - ١٥٥) :

ولقد عصيت ذوى القرابة فيكم
طراً وأهل الود والصهر
حتى مة اللهم إذا اجتمعوا :

أُجِنْتُ أم ذا داخل السحر؟
واستعمال « حتى » في هذا البيت يشبهه تماماً الاستعمال الإنكليزي المستغرب عندهم لكلمة « even » (أى إخراج حكم جزئى من حكم عام) ، فبعد أن ذكر عمر بن أبي ربيعة أنه خالف أهل قرابته (من جهة أبيه) وأهل الود (الأصدقاء) والصهر (أقاربه من جهة أمه) ، قال : « حتى مة اللهم » (أى القليل من فعلهم ، بالإضافة إلى ما كان قد ذكره من قبل) .

ولعمر بن أبي ربيعة بيت آخر (شرح ديوان عمر ... ص ٤٠٠) هو :

ولو أقسمت لا يكلمنى حتى
تُحمّر نوح بعيشه ما عصاكا

وبعد : من أين جاء هذا الاستعمال المخالف للمألوف من القاعدة العامة ، ثم كان عند

الإنكليز — فيما بعد — يشبه ما عند العرب من قبل ؟ ليس من المعقول أن يكون العرب قد أخذوا ذلك عن الإنكليز (قبل أن يكون في الدنيا لغة إنكليزية) . وكذلك لم يكن من الممكن أن يكون الإنكليز قد عرفوا ما عند العرب من هذا الاستعمال الجانبي لكلمة بجانبية .

ولكن يبدو أن هذا الاستعمال عندنا قد تسرب إلى اللغة العربية الفصيحة بالطريقة التى تسرب بها مثله إلى اللغة الإنكليزية ، والى يمكن أن يتسرب أمثاله إلى كل لغة . ومعنى ذلك أن فى كل لغة فصيحة عدداً من التراكيب الشائعة فى اللفظ تفرض نفسها على اللغة الناشئة ولا نجد نحن لها فى قواعد اللغة تفسيراً واضحاً . هنالك بقايا يسمونها فى الفرنسية « غاليّة » (بتشديد اللام والياء معاً : (gallicisme) ، أى صيغاً وتراكيب من لغة تستعمل فى لغة أخرى استعمالاً جانبياً ، أى مخالفاً لقواعد اللغة التى انتقلت تلك الصيغ والتراكيب إليها . ويحسن بنا أن نسمى نحن هذه الظاهرة فى لغتنا « الظاهرة الأعرابية » لأن التسمية « ساميات » تسمية خاطئة ولا دلالة صحيحة لها .

من هذه « الإعرابيات » عندنا : « اللهم » و « ليس من مبر مصيام فى مسفر » .

إن كلمة « اللهم » بجانبية لكلمة « الله » فى التهجئة . فالشدة فى الكلمة الأولى على اللام الأولى ، وأما اللام الثانية فهى للرسم

وليس لها قيمة هجائية . ولفظ الكلمة « اللهم » . وأما الكلمة الثانية « الله » ، فالشدة فيها على اللام الثانية . وأما اللام الأولى فيختلف فيها صانعو الفهارس . إن نفرأ من هؤلاء يجعلون اللام الأولى للتعريف فيأتى الاسم عبد الله عندهم بعد عبد الكريم . وهناك من يجعل كلمة الله « لفظاً واحداً » فيأتى اسم عبد الله عندهم قبل اسم عبد الباسط ونرجع إلى كلمة « اللهم » . إنها وردت في القرآن الكريم خمس مرات ثم هي في هذه المرات الخمس « منادى » ، ولكن لا تسبقها أداة نداء .

وبالرجوع إلى المعجم الكبير (١ : ٤٤٤ - ٤٤٥) نراه يذكر أن نفرأ من النحاة قالوا في تعليل امتناع أداة النداء قبل لفظ « اللهم » راجع إلى أن الميم تنوب عن أداة النداء . ولكن المعجم الوسيط لا يذكر ذلك في مطلع باب « الميم » .

وفي المعجم الكبير أيضاً أن « اللهم » قد دخلت عليها أداة النداء « يا » في شعر أبي خراش الهذلي . ثم إن هذه اللفظة قد وردت في صيغة ثانية هي « لاهم » ، وهذا يردنا إلى ما سبق إليه قولي من وجوب الشدة على اللام الأولى أو على اللام الثانية .

ولكلمة « اللهم » استعمال آخر يرد في وجهين : أحدهما قبل أداة الاستثناء ، نحو : « هذا القول صحيح ، اللهم إلا إذا كان فلان قد أخبرني الخبر ناقصاً » ، وأعتقد أن هذا الاستعمال صناعي جداً . أما الوجه الثاني ، قبل أداة الجواب ، نحو : « اللهم

نعم ، اللهم لا » فتدل - كما يقول المعجم الكبير - على « تيقن المحيب » . غير أنى أرى رأياً آخر هو أن « اللهم » هنا هي « المنادى » التابع للأصل العام . وأنا أفهم التعبير : « اللهم نعم » على أنه اكتفاء من قولنا : « اللهم ، اشهد أن هذا الإيجاب (نعم) » .

وبالرجوع إلى رسالتى « صورة الإسلام في الشعر العربى من الهجرة إلى وفاة عمر ابن الخطاب » (ليبرغ عام ١٩٣٧ م) نرى أن هذه الكلمة قد وردت في بيت شعر واحد بروايتين (ص ١٣) :

* اللهم لاعيش لاعيش الآخرة
فاغفرن للأنصار والمهاجرة
* لاهم إن العيش عيش الآخرة
فاغفرن للأنصار والمهاجرة
وكذلك يقول عمرو بن سليم الخزاعى :
* اللهم إني ناشدُ محمداً *

ولكن هذا البيت يروى في صيغة ثانية « يا رب ، إني ناشدُ محمداً » . هذا بالإضافة إلى أن هذا « اللفظ » ورد (بحسب دراستى السابقة) في السنوات الأربع الأولى من الهجرة وعند شعراء من المدينة .

وشئ آخر :

إن البيت الذى يورده المعجم الكبير لأبى خراش الهذلي :

* إني إذا ما حدث ألتا *
* دعوت يا اللهم ، يا اللهم *

أصله (مجموعة أشعار الهذليين ٢ : ٧٨) :

إني إذا ما لَمَمْتُ الْمَا

دعوت : يا للهم ، يا للهم

لا هم ، هذا رابع إن تمّا

أتمه الله ، وقد أتمّا

إن تغفر ، اللهم ، تغفر جمّا

وأى عبد لك ما المّا

غير أن هذه الأشطر منحوّلة لأبي خراش (راجع ص ٧٥) . غير أننى لا أعرف إذا كانت هي لغير أبي خراش ثم نسبت إليه ، أو أنها منحوّلة بمعنى أنها قيلت فيما بعد ثم نسبت إلى أبي خراش . ويلفت النظر أن هذه ستة أشطر ورد فيها اسم الجلالة خمس مرات في أربع صيغ : يا للهم - لا هم - الله - اللهم . ولعل في ذلك شيئاً من الصناعة النحوية .

في العصر العباسي وما بعده :

ثم كثر استعمال « حتى » حرف ابتداء ، وقد اتفق أن مررت أنا بعدد من الشواهد ، ولكنى لم أستعرض ديواناً معيناً ولا مجموع شعر معيناً . وقد لاحظت أن هذا الاستعمال كان في الشعر الأندلسي أكثر منه في الشعر المشرقي ، أو هكذا يخيّل إلى . وسأورد فيما يلي عدداً من الشواهد لإيراد أعاماً بلا تعليق . إن استنفاد الشواهد ضرورى قبل التعليق عليها فعسى أن يأتى من يجعل ذلك موضوع دراسة ذات منهج معلوم .

أما الشواهد التى هى بين يدي الآن فهى التى تلى :

— قال أبو نواس ، وهو شاعر مشرقى ،
فى الحمار الذى أخذ منه فى شرب الخمر جميع
ثيابه . (ريمته بالكسر من رام يريم :
ترك ، فارق) :

فـاريمته حتى أتى دون ما حوت

يمنى ، حتى ريطى وحـذائى

— وقال الطغرائى (وهو أيضاً مشرقى) :

بـخيلن حتى بإهداء السلام لنا

والبخل فيهن محسوب من الكرم

والأبيات الثلاثة التالية من الشعر الأندلسي

— قال ابن فرج الحياى :

.....

وأستحلى به حتى كروبي

— وقال محمد بن مسعود بن أبي الحصال

(الذخيرة ، بيروت ٣ : ٧٩٤) :

تقدح الأيام حتى

فى المودات القديمة

— وقال أحمد بن جعفر :

طرب ثنى حتى الحماد ترنحاً

وأفاض من دمع السحاب أعينا

أرجو أن أكون قد كشفت فى هذه

العجالة عن جانب من التراث اللغوى العام

الذى لا يخص لغة دون لغة ، بل هو عام

فى اللغات كلها .

عمر فروخ

عضو المجمع من لبنان

أصالة ومعاصرة بتان

للككتور محمد عزيز الحبابي

المبحث

الذي اختاره مجمعا
المقرر في هذه الدورة ،

هو « تراثنا اللغوي » . ما اطلعت عليه
حتى تبادرت إلى ذهني عن طريق تداعي
المعاني ، بعض المفاهيم على رأسها :
كنز ، وأصالة ، واستلاب لغوي ،
واغتراب . وبالطبع ، في عملية
تداعي المعاني يجر كل مفهوم معه معارضه
فمثلا عندما برز في الذهن مفهوم « أصالة »
تبعه مقابله « معاصرة » .

وبما أن الوقت لن يسمح بتناول مجموع
تلك المفاهيم سنكتفي بأقل ما يمكن منها .

عندما نقرأ العبارة (تراثنا اللغوي) ،
نستنتج أننا أغنياء لغويا لكن ، إلى أي
حد نستفيد من ذلك الثراء ؟ ألسنا كالحائض
الحالس فوق كنز وهو يجهل ما تحته ؟
أو كما يقول شاعر عربي :

ومن العجائب ، والعجائب جملة

قرب الحبيب وما إليه وصول

كالعير في البيداء يقتلها الظما

والماء فوق ظهورها محمول

إننا نعي قيمة تراثنا اللغوي ، ولكن
استثماره دون حاجات الساعة الملحة .
فإذا كنا قد عربنا التعليم ، أو قل مرافق
التعليم ، فإن الحياة البيئية والمعاملات
اليومية - أي الحياة المجتمعية - ما زالت
خاضعة للدارجات . فخطاباتنا عامة
لا علمية . من هنا يجب أن نبدأ . وقد
بدأنا ولكن متى النهاية ؟

تلك مشكلة من مشاكلنا الكبرى ، وإن
مجامعنا اللغوية تصارعها . أما المشكلة
الثانية ، وهي أعم من الأولى وأعوص
فهى الموقف من الأصالة والمعاصرة .
لقد استبدت هذه المشكلة باهتمام أكثرية
المثقفين العرب ، ولها ستعرض هذه
الصفحات .

يرى البعض أن التاريخ يفرض علينا
أن نختار إما المعاصرة ، وإما الأصالة .
تلك « إيمية » مخرجة ومحيرة بلا
مبرر .

(*) ألقى البحث في الجلسة العاشرة من مؤتمر الدورة الثامنة والأربعين في ٨ من جادى الأولى ١٤٠٢ هـ ، الموافق

٣ من مارس ١٩٨٢ م .

١ - لكل عصر عصريوه :

لا اعتراض على استعمال « عصرى » وصفا لمن أحسن اندماجه فى القرن العشرين لكن من التجنى على اللغة وعلى الواقع أن نصف بعصرى من يتقن - فحسب - رقصة « السوينغ » و « بوب ميوزيك » . ويعرف آخر « موضبة » فى الأناقة أو من يكثر من استعمال « حرمان » و « استلاب » و « إيديولوجيا » و « دياليكتيك » ، و « كبح » وألفاظ أخرى لها سحر « الموضبة » .

إن لفظ « عصرى » مشتق من عصر ، فالعصرى من ينسب لعصر . وبما أن كل الناس عاشوا أو يعيشون فى عصر ، فكلنا « عصريون » .

وضع | بعض المجددين فى مقابل « عصرى » - زيادة على « رجعى » - لفظ « ماضوى » من « ماضوية » ، وهى عندهم ، اتخاذ الماضى مرجعا ، على حساب العصر ، فكما أن الجميع عصريون (فأبونواس - مثلا - عصرى بالنسبة لعصر بنى العباس ومعاصر لهارون الرشيد . .) ، كذلك ماضوى لأن لكل شخص ماضيا ، عليه يتأسس شخصه (=شخصياته) ، وبه تحدد كينونته ويتم تشخيصها . إن الماضى حضارة وثقافة ، أى تراث مشترك ، وذاكرة جماعية ، ومن هنا فهو « أصيل » فى الشخصية .

وبما أن التواصل من أبعاد الذات العميقة « الإنسان حيوان مائى بالطبع » ، فكلنا

« معاصرون » بالطبع ، معاصرة مع جميع من يحيون وإيانا نفس العصر ، وكلنا معاصرون لمن تجمعنا بهم ثقافة أو تراث ، لأن لنا ذاكرة شخصية وذاكرة جماعية . عاصر أبونواس هارون الرشيد وزبيدة ، وكان يحفظ المعلقة ، ويعرف الكثير عن أصحابها ، أكثر أحيانا مما يعرفه عمن عاشوا معه فى البلاط العباسى ، وحفظ أبونواس القرآن واطلع على تاريخ الفترة التى تفصل وقته عن بداية الإسلام . ذاك هو أفقه الذهنى والثقافى ومنظاره على التاريخ الذى يمارسه وعلى التاريخ الذى يملأ ذاكرته وتخيلته ويثرى تفكيره .

فنحن جميعا إذن عصريون ورجعيون ماضويون ، فى نفس الآن ، وبالتساوى ، وسيتبقى هذا التخريج مقولة محتملة الصحة إلى أن تحدد مفاهيم « معاصرة » و « ماضوية » « رجعية » تحديدات أخرى .

* * *

قام كثير من الكتاب العرب بتحديد « معاصرة » ، لكنهم وقعوا فى تناقضات ، حتى المفكر الكبير زكى نجيب محمود لم ينبج من ذلك .

فمنهم من يدعى - باسم التقديمية ضرورة - الاستغناء عن التراث العربى الإسلامى لأنه عائق فى سبيل التفتح والرقى . فلا بد من تنظيف ذهننا الحاضر من بقايا ما علق به من ماضى الأجداد ، ومن بين ذلك

اللسان العربى لكونه ميتا ولا يقدر على مسابقة
صيرورة التاريخ . فعلى مثل هؤلاء المصلحين
ينطبق المثل العربى « أراد تطبيقه فأعماه »

وهناك طائفة أخرى تقدم لنا الغرب ،
بكل ماله من مزايا ومساوى كنموذج
أوحد يجب أن نندمج فيه كي ننجو ولا
نجاة عن غير ذلك الطريق .

بنى الغرب ثقافته المعاصرة على أصالته ،
فى حين يظهر أن أولئك المصلحين العرب
يريدون منا أن نقفز من لا شىء إلى حضارة
القرن العشرين ، أو على الأصح ،
إلى ميادين انتصار الليبرالية فى القرن
العشرين ، متجاهلين التجارب والتيارات
الفكرية والتطبيقية الأخرى . إن الوقفة
العربية الإسلامية مطالبة — فى الواقع —
بأن تحتك بكل التيارات المعاصرة
فـ « تعرب » وتصهر فى ذاتيتها وفى « أصالتها » ،
ما هو حرى بأن يعينها فى الكفاح ضد التخلف .

فهل الغرب كله محاسن ؟

يفترض بعض مثقفينا أن المعاصرة
تقتضى من العرب — قبل كل شىء —
أن يضحوا بتراثهم ليتم الاغتراب على
أكمل حال .

فما مقدار الربح فى هذه المقايضة ؟
إن محاكاة العرب للغرب استلاب ، ومحاكاته
وحده يضاعف هذا الاستلاب . على أن
هناك مستوى ثالث للاستلاب ، وهو

الأفطع : أن نقلد غربا متحركا أبدا ،
وبحركاته ينمى باطراد المسافة التى تفصلنا
عنه ، دون أن نحافظ على ارضية ومعالم !
إنه التيه فى متاهة ، فنحن إذن ، لسنا
مستلبين من لدن التراث العربى الإسلامى
— كما يدعون — بل من قبل صورة وهمية
عن الغرب ، تهيشنا أكثر فأكثر ، فنزداد
انفصالا عن مكوناتنا الأصيلة والأصلية .

فعلاوة على هذا الاستلاب الحازونى
— شكلا وكيفا — نسجل أن الصورة الوهمية
عن غرب وهمى ترعرعت نموذجيتها فى
عقلنا الواعى وعقلنا اللا واعى . إنها
صورة اتزع بإصرار إلى توقيف
حركات الغرب ومزجه بعالم « الأنا » .
وبقدر ما ينفصل الأنا العربى عن جذوره
الأصيلة يغمدو قابلا لكل تشكيل ولكل
تكييف يمارس عليه ، مع وعى منه وبدون
وعى ما دام قد أمسى ، لا هو ذاته
ولا غيرها . ينساق المستلب إلى أن يحيا
فى زمان ليس عمليا — زمانا واقعيا — ، أو على
الأصح ليس زمانه . اندفاعا مع التعود على
الفردية ، يود لو يفرض نمطه من الحياة على
مجموع البشر . إذن : نتواجد فى عالمين ،
عالم التغير والتجديد ، وعالم التماثل
(١ = ١) الفـاقـد للحركة لا نهاره
الدائم أمام تصورات خياله عن الغرب .

* * *

إن الغرب نفسه يتغير باطراد في
صيرورة متصاعدة . فلا غرابة أن يعتمد
الغرب على تراثه الخاص عساه يحافظ
على معالم ثابتة في هويته ، ويفتح على
ما يجري خارج مناطقه دون تخوف من
الدوبان ،

* * *

لن يوصلنا إلى المعاصرة تجديد يرفض
الأصالة إطلاقاً لا بد من التوفيق بين
الأصالة والمعاصرة ، لأنه يجعل بين قوسين
التاريخ العربي الإسلامي ، في حين يدعونا
إلى الانفتاح على معاصرة مبنية على أصالة
من نوع آخر ، على ليبرالية ترتكز على
تاريخ الغرب يقينا ، إن هذا الاتجاه يجر
إلى استلاب مضاعف : حرمان من التواصل
مع التراث القومي العربي الإسلامي . وتقليد
عشوائي لتاريخ أجنبي .

إذا كانت المعاصرة انتفاضة ضد التقليد
والحمود يستحيل ألا يباركها كل مثقف
واع ، أما إذا اعتبرت انتفاضة على ركام
الأصالة (الهوية الثقافية والأخلاقية ، أي
ما يُكرّس ويكيّف الشخصية الحالية) فلن
يرغب أحد في الانسلاخ عن ذاتيته ليرتمي ،
بلا قاعدة ، في أحضان الغير ويزكي
الافتقار إلى التكنولوجيا المعاصرة والزعائمة
الغربية . علينا أن نقاوم المفاهيم الخرافية والمباحث
الضبابية التهرجية التي سيجنّا فيها على يد

الاستعمار وما نزال سجناءها ، فالمقاومة
في الواجهتين ، تجعلنا « تقديمين » بالفعل
لأنها مقاومة تفرض مثلاً أعلى تعمل على
تحقيقه . إن التطور والعقلنة والموضوعية
تؤلف البديل العملي للخرافية .

فقابلية « معاصرة » بـ « أصالة » مرفوضة . لم
يرو التاريخ أن أمة بلا أصالة استطاعت
أن تتعصر ، فبعض المنظرين العرب لا ينازعون
في هذا ، لكنهم يطلقون معنى خاصاً على
معاصرة : فالعصرى غربى ، كما أن العربى
ماضوى لأنه فقد قدرته على التكيف
مع التغيرات فأمسى غربياً في العصر .
فلنفرض الآن أن الهدف هو أن نجعل
منا نسخة طبق الأصل للغرب ، إذن
فلننسلخ انسلخاً كلياً عن شخصيتنا ونخلع
على ذواتنا لباس الموت المحنط . أنكون
بذلك وفقنا في الحصول على بديل لأوضاع
التخلف ؟

هذا النوع من الإصلاح والتقدمية لن
يُلقى بالشعوب العربية إلا في مغامرة
الغربة والتلف ، لأن التطور والتقدم
لا يتحصّلان بطلاء برّاق لامع تبرق به
عظام وهى رميم ،

* * *

بحسب التنميط الذى اعتمده
صاحب « ثقافتنا في مواجهة العصر »^(١) ،
إن الذهنية العربية مختلفة عن الذهنية التى

تجعل القرار الإنساني غير مسبوق بمعيار ؛
إن وجهة النظر العربية :

« تفترض أسبقية المعيار الذى يقاس
به القرار فى صوابه أو خطئه ... إلخ » ، بعد
إقرار هذه الخاصية العجيبة ، يتساءل المؤلف :

« هل يمكن التوفيق بين أن يكون
الإنسان عربيا يحمل هذه الواجهة من النظر
وأن يكون فى الوقت نفسه معاصرا يتطور
مع الزمان وتغيراته السريعة ؟ » .

بصدد هذا السؤال ، يمكن إبداء بعض
الملاحظات :

— كل الذين يزعمون أنه من الممكن أن
تدخل أمة المعاصرة ولو بلا أصالة يضربون
المثل بالولايات المتحدة . بيد أنهم يتغافلون
عن أن الأمريكيين الشماليين ورثوا
أصالة أوروبية حملوها معهم فى موجات
استيطانية متوالية ؛ فاختلط هذا الإرث الضخم
الكثيف بما كان عليه السكان الأصليون
فالأمة الأمريكية الشمالية مزيج ثقافات
اندجت وزواج بين أجناس مختلفة أتت
من القارات الخمس ، حقاقتل القادمون الكثير
من الأهالى الأصليين ، لكن الحرب نفسها
احتكاكات حضرية رغم كل سلبياتها .

يستخلص مما تقدم معارضة بين « الإنسان
العربي » وهو على ما يظهر شبيه بالبدائي
لأن ذهنيته ذهنية خاصة (ترفض الحرية
والمسؤولية والسببية) وبين الذهنية المنطقية
العلمية القابلة للتجدد ؛ أى العقل القابل لأن
يكون : « معاصرا يتطور مع الزمان
وتغيراته السريعة » .

ماذا ادعى المستعمرون عندما استولوا
على أراضينا ؟

ألم يؤكدوا ، فى الأثنولوجيات الخاصة
بالعالم الثالث أن الذهنية ذهنتان : الأولى
تتحرك فى مرحلة ما قبل المنطق وفى طور
السير نحو اكتساب المنطق (بفضل الاحتكاك
بالاستعمار) والثانية ذهنية المنطق والإدراك
العلمى الخالى من الخرافة والسحر ؟

فعلى حسب تلك النظرية يحيا العربي
بذهنية لاعقلانية تؤمن بـ « قانون المشاركة » (١)
وتعوم فى ثقافة درويشية تقوم على الأدعية
والكلمات السحرية فيقضى أصحابها
أوقاتهم فى فك ما فيها من غرابة ونموض
ورموز .

فالمفكرون الذين يلحون على أن
للذهنية العربية بنيات خاصة تتميزها عن
بقية الأقوام البشرية إنما يبررون — عن

(١) أى مايسيه لى — برول : participation التى يمتاز بها الدهن — ما قبل المنطق .

غير قصد الأثنولوجيات المصنوعة بعون الاستعمار
ولصالحه ، ضد الشعوب الضعيفة .

* * *

الأصالة مجموع أنماط الانفعال والتفاعل ،
بها نسمو عندما نسمو ، وعلى حسابها
يكون سقوطنا عندما ننحط . فهي إطار
الوجدان والضمير في ترابطهما بفردية
كل فرد وبالفردية المجتمعية . إنها نسق
عام تنتظم فيه وبه حركية العلاقات
الجماعية .

فالتقدمية الحق أو المعاصرة الحق ،
لا تقصد خلاص الشعوب من ذواتها ،
بل ما تقصده هو أن تتحرر الشعوب
١٤ يصيبها من انحرافات عن صواب ذاتيتها .
إن وجدان الشعوب وذهنياتها معرضان
على الدوام لانحرافات تزحف من كل ميدان
فتتوقع الثقافة وتتفسخ الأصالة ثم تنغلق .

٢ - الباب المفلق :

نعود إلى تساؤل زكي نجيب محمود :
« هل يمكن التوفيق بين أن يكون
الإنسان عربيا (....) وأن يكون في
الوقت نفسه معاصرا يتطور . . . ؟ »
الجواب ، بالطبع ، هو : « لا يمكن » إذا
تصورنا أن المفكر العربي الإسلامي على الشكل
الخاص الذي يتصوره عليه صاحب « ثقافتنا في
مواجهة العصر » ، أي إذا افترضنا أن
بين الأصالة العربية الإسلامية والمعاصرة
حساسية مفرطة وتناقضا عميقا .

فما الذي يبيح هنا هذا الافتراض ؟
هل « العربي » نوع يتميز عن بقية
أنواع البشر ؟ وكيف نبرر تقابل « أصالة »
و « معاصرة » ؟

الأصالة العربية الإسلامية تراث امتزجت
فيه ذهنيات ، وتخاصب فيه سلوك أجيال
بتجارب إنسانية . إنه سمد ذاكرتنا الجماعية ،
وفي نفس الآن ، القاعدة التي يقوم عليها
شعورنا بالانتساب إلى ما نحن ، وعليه نركز
الوثبات نحو ما نريد أن نصير .

فن الشعوب من فقد الأصالة لضحالتها
أو لتفريط في الحفاظ عليها ، فبات مشلولا
لا يقدر على المشي ، ومنها من أعمته أصالته
حتى لم يعد له إلا نصف حقله البصري ،
أي لا يبصر كل ما يتجدد حوله ، فيعجز
عن الإسهام في التطور ، ولا يعرف
معنى للمعاصرة ، لكن جميع تلك الشعوب
مضطرة بدافع غريزة البقاء (البقاء في
التاريخ لا في هامشه) إلى أن تحاول
السير ولو بتعثر ، إلى الأمام ، وأن
تفتح البصر على مسيرة التاريخ الحالية ،
رغم المنظار الناقص . فالشعوب التي لا تقوم
بتلك المحاولات تعرض نفسها للانعدام .
إن الأصالة تمنح الشعوب طاقات وسمدا ،
وأما المعاصرة فتوجهها لتحقيق تحققا سويا
وجهة تاريخية غدية تختفي معها العاهات .

فما بالنا بمن فقد البصر كله والرجلين
معا ولا يحاول التغلب على العاهات ؟

٣ - تأصيل المعاصرة :

يجب أن توضع كذلك الأصالة والمعاصرة بالنسبة لما يرجى منهما ، داخل مجموع الفعاليات الحياتية . إن الأصالة ليست كل التراث ، بل ما تأصل في ذهنية الشعوب وسلوكها ، أو ما هو قابل لأن يستثمر في حياتها حالياً . فالشعوب التي لا تستأنس بتراثها عند بناء مستقبل ترتضيه ، طبقاً للنماذج المعاصرة التي اختارتها ، شعوب مبتورة من حاسة التاريخ ومن الثقة بالنفس فكثير من المثقفين العرب مستلبون عمودياً (قطيعة مع التراث العربي الإسلامي) وأفقياً (لأن تلك القطيعة تفصلهم عن الجماهير العربية والإسلامية) . فهم ضحية الانبهار بالغرب - كحاضر وكتراث - فمن المنظرين العرب للتجديد من يتأملون غالباً بالإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية وهم يتكلمون عن الأصالة العربية الإسلامية أو عن تعصير مجتمعاتهم .

إن التآني الذي نريد أن يربط الأصالة بالمعاصرة جانب من جوانب الثقافة في معنى تلاحق ثقافتين أو أكثر قديمة (تراث) مع حديثة (معاصرة) ؛ فمثلاً إذا تلاقحت الثقافة العربية الإسلامية مع ثقافات غربية حصل تلاحم ثقافي ينتج عنه نمط حي جديد ينسجم وأوضاعنا . فإلى أي حد تجوز مقابلة « أصالة » لدى أمة أو فرد ما ، بـ « خصوصية » ، فإذا كانت الأصالة حقاً « تلتفت إلى الماضي » ، فلماذا يعاب عليها تركزها في التاريخ ؟ أيتصور وجود أمة أو فرد بلا تاريخ ؟

ذلك هو الحال المتوقع لكل شعب متخلف (أي لا يتطور / يجهل المعاصرة ، كجل الثالثين) ، وفي نفس الوقت ، يجب إليه بعض منظرية أن يتجاوز - أصالته / تراثه ، بالعدول عنه والانغمار في الغرب وفي أصالة الغرب ! . . .

إن المكان الملائم لهذا الحيوان النادر العجيب هو حديقة الحيوانات بين الأصناف التي انقرضت أو التي يخشى انقراضها .

هكذا لا يخلو مفهوم « أصالة » و « معاصرة » من ارتباك . فلأمندوحة من أن يطالبنا بالتحديد اللازم كي لا يبقيا في مهب الريح . فعندما نقول « أصالة » يجب أن نحدد بالنسبة لأي زمان ولأي فترة من الزمان : هل الأصالة هي ما أقرته السلطة أو ما أقره المؤرخون (على علاقتهم في الرحلات والحولات والحكايات الخرافية) أو الفقهاء المقلدون (الذين يدعون أن باب الاجتهاد قد أغلق) ؟

أم أن الأصالة هي ما جرت به الأعراف والعادات . . . ؟

أم هي الفلكلور ؟

و « المعاصرة » أهي ما عليه أمريكا الشمالية أم اليابان أم أوروبا وأية أوروبا : الشمالية أم الغربية ؟

وفي غرب أوروبا أيكون النموذج هو البريطانية العظمى أم البرتغال ؟

سؤال آخر :

هل « الخصوصية » تنفصل عن التاريخ؟
كيف يجوز وصفها بأنها « متطورة »
وهي منفصلة عن التاريخ؟ أليس التاريخ
بنية التطور؟

تؤكد الأثر بلوجيا الحديثة أن « التراكم »^(١)
عملية ضرورية لنشوء الحضارات ونموها
تمثل كل حضارة في فترة ما مجموع العناصر
المادية والمعنوية التي تجمعت لدى الأجيال
الحاضرة ، بعد أن ورثتها عن الأجيال
السابقة ، في تتابع الأزمان ، وأضافت
إليها خبرات وعطاءات جديدة ، والعطاء
الجديد إنما هو إضافات عناصر «عصرية»
حية (حيوية) للتطور منها يتكون تراث الأمة أي
تركات العصور السالفة (الماضي ، الأصالة
الخاصيات القومية ، التاريخ ، . . .) .

* * *

أما بخصوص ما يدعيه « ع . العروى » من
« تحجر الأصالة » ، فيجب أن نفرق بين
تاريخ انقرض بانعدام الأمة أو الفرد -
ويعي المتحدث أنه كذلك قد انتهى -
وبين « تاريخ أصيل » أي ما زال يجري
في عروق الأمة ويحدد رؤاها وسلوكها
(جزئيا أو كليا) ، فتتطور به وتطوره :

إن الأصالة التي يتعرض لها «العروى»
هي الأصالة العربية الإسلامية . كلنا نعرف

أن العروبة والإسلام في صيرورة تحتد
في قطاعات وتقل أو تجمد في أخرى ،
بحسب مستويات الثقافة ، هنا أو هناك
وبحسب توتر حياتها الداخلية وقدرتها
على التواصل مع التيارات الخارجية .

فليست الأصالة تجمدا محضا ، كما
أن المعاصرة ليست تجمدا محضا . فالحمود
يصيب حتى التجديد ، في بعض الحالات
ولو لفترة (عوائد وأعراف غابت ،
ثم طفت على ساحة التاريخ) ويصيب
« الموضات » فتضمحل إلى الأبد ، بعد
أن يتحمس لها الناس ويجعلون منها شعارا
ورمزا للمعاصرة .

إن النظرة الأحادية تجر إلى الوثوقية ،
على أن النظرة الازدواجية ، هي أيضا
لا تخلو من خطر . فعندما يعطى زكي
نجيب محمود نظرية عن الأصالة مرة بيضاء
ناصعة ومرة سوداء حالكة ، لا يجد لدعم
ذلك إلا أمثلة اختيرت اعتباطا تجره
إلى بعض التناقضات . فهو يدعي أن الخلفاء
لم يكونوا يتمتعون بحرية في أعمالهم ، بينما
نراهم في كتابه نفسه ، يستبدون بالحكم ،
أي يتمتعون بحرية مطلقة مع حرمان
الرعية منها .

ولماذا لا يرى زكي نجيب محمود
في العصر العباسي إلا الطوائف الكلامية؟

(١) accumulation = عملية تجمع بها تنشأ الحضارات وتنمو . فكل حضارة تمثل - في فترة ما - مجموع العناصر
المادية والمعنوية التي تجمعت لدى الأجيال الحاضرة ، بعد أن ورثتها عن الأجيال السابقة وأضافت إليها خبرات وعطاءات .

أين الغذاء والآداب ومجسّس النظرف
والمكاهة والأندية العلمية والمعارك الفلسفية
والفقهية . ومراكز الترجمة ؟

أين المحرّعات والمكتشفات ؟

إن كل ثقافة تعرف تناقضات . صفحات
مشرقة وأخرى مخزية . فمثلاً ، في القرن العشرين
تواجهت إنسية ماركسية محررة ومتفتحة
عنى التقدم مع ماركسية كاسحة طوطمية
تعطل الفكر المعاصر وسبائينية سفاكة للدماء
ومعادية للحريات . كما تواجهت بأمريكا
شمالية (رغم ثقلها فى الاكتشاف والاختراع)
سادية مكارثية مقبلة . أما ألمانيا النازية
فقد ساد فيها فكر جبار مبدع فى خضم
من العنصرية والوحشية .

لا وىب أن بالفكر — حتى الأكثر
عقلانية — قابلية لمرج أدلة عقلية بأدلة
« وجدانية » . فغالباً ما ينطلق المكافحون
انتصاراً للمعاصرة من افتراض أن الغرب
وثقافة الغرب قد استقر تقديرهما فى الوجدان
العالمى وأنهما المصلحان لكل رقى ولكل
إنقاذ من التخلف . وبما أن هذا
الموقف قبل لا يستتاجى أو استقرائى .
جاء بلا دعامة عظمية ، إنه مجرد انبهار .
هذا أولاً . وثانياً : على أى أساس يريد
خصوم الأصالة أن نبني تفكيرنا وآمالنا ؟

تتعلّى مركزية الغرب ، فى الوقت الذى
يسادى كثير من مفكره بالبحث عن ركائز
جديدة وبإعادة النظر فى مكوناته النظرية
والأخلاقية والتكنولوجية ؟

أناخذ عن الغرب ما يمارى فيه هو
نفسه ، أو ما هو فى طريق البحث عنه
وما يصادفه ؟

علينا أن نقتنع بنسبية الحضارات . حتى
غربية منها فالإيمان بمركزية الحضارة الغربية
ستلاب يعمى الرؤية عن الواقع والإمكانات
ويسد آفاق المستقبل . نعم إن الاقتباس
من الغرب واعتبار حضارته معطيات
تاريخية إنسانية شئ ضرورى .

الثقافات القومية كلها نسبية . فلا
صدارة مشروعة ولا مركزية دائمة لهذه
أولئك ، وفى كل الميادين وعلى مستوى
النموذج سوى فى (عالم المثال) (١) . فالجائز
والمعقول هو تبادل الخبرات والاحتكاك
الثقافى والاقتباس ، أما التبنى والنسخ
الناعم فلا يحصل عنه إلا المسخ الناعم .

ولنتأمل هذا المثال : زكى نجيب محمود
يكتب بالعربية ، بفن وإتقان ، كعيون
كتابنا الاتباعيين الكبار . وتشعر كتاباته
بأنه متعمق فى التراث العربى الإسلامى
كما تشعر بأنها لحت بعناصر غربية
تلحياً مستساغاً مما يعطى لأسلوبه فى

(١) فى كتابنا من المتعلق إلى المنهج عشرون حديثاً عن الحضارة الإنسانية والثقافات القومية ، القاهرة ،
الأنجلو المصرية .

الكتابة وفي التفكير 'طابعا' لا معا خاصا ،
 هذا ما لا تحس به فيما ينشره كتاب من
 جيله لم يتشاقفوا . فلو كان زكى نجيب
 محمود أحدي الثقافة (إما عربية إسلامية ،
 أو عربية محضة) لما أعطى ما أعطى ،
 أو على المستوى الذي نعرفه ونعتر به فالإمسية
 (إما المعاصرة وإما الأصالة) لن تمدنا أبدا
 بأمثال زكى نجيب محمود . إنها فقر ثقافي
 فاقع اللون يجعل من (إمسية) ، بهذا المعنى ،
 معادلة لـ « إمسية » . هذا يذكرنا بما صرح
 به الحسن الثاني في حديث مع الإذاعة
 والتلفزة الفرنسية (أواخر نوفمبر ١٩٧٦)
 « إن الأمي هو الذي لا يعرف إلا لغة
 واحدة » .

ونأخذ « لغة » هنا بمعنى لسان وثقافة ،
 وبالتالي ذهنية أحادية .

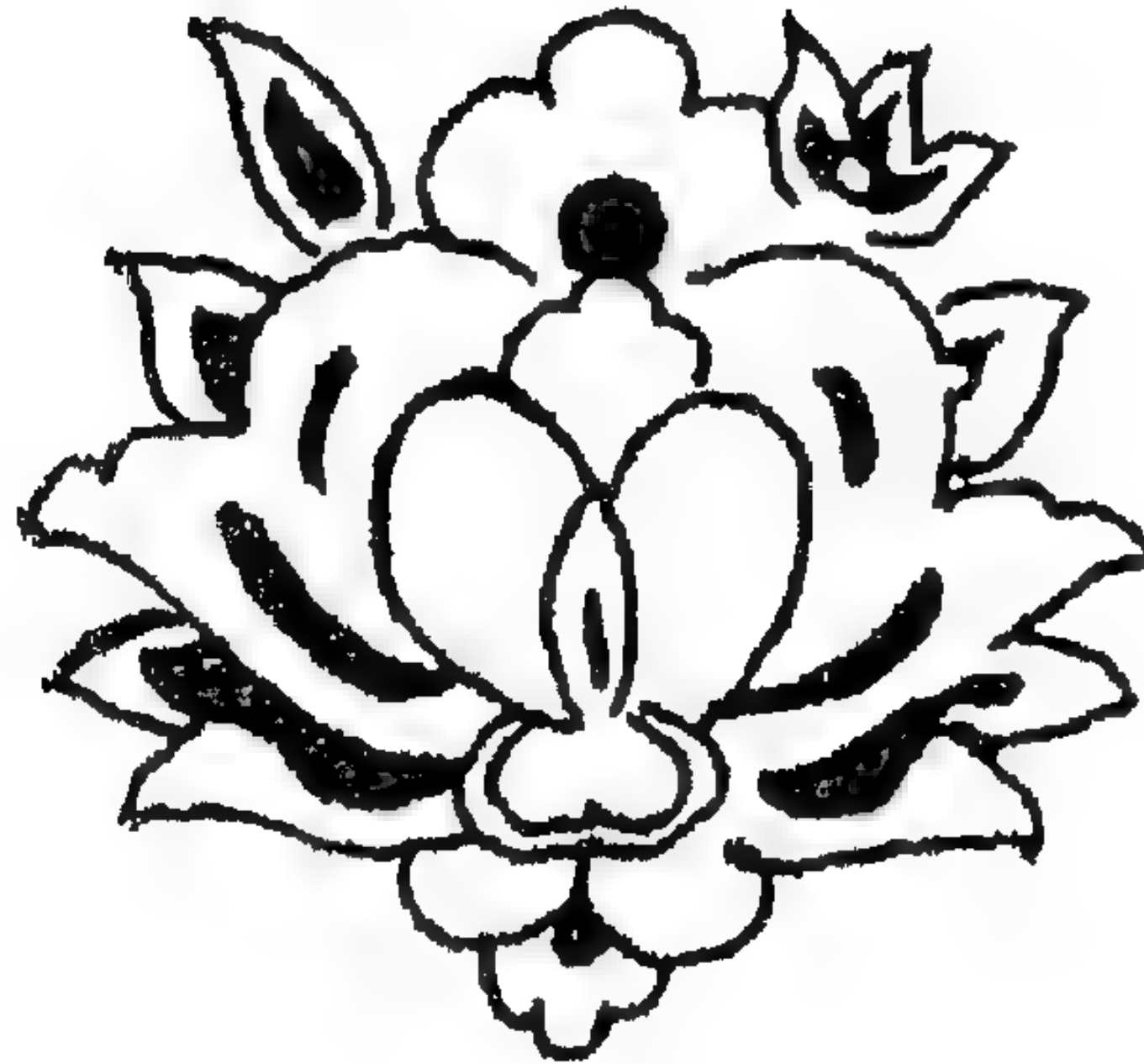
افواجبنا أن نقتبس من الغرب ما ننمى
 إبه ما عندنا ، بحسب الحاجات دون أن
 نتغرب باسم المعاصرة . فلا فائدة في أن

نبدأ 'من' حيث بدأ الغرب تاريخه لنصل
 إلى الليبرالية ، طبقا لنصيحة عبد الله
 العروي ، كما لا فائدة في أن نجعل من
 الغرب [الغاية والنموذج والوسيلة وهو
 يتجدد 'يوميًا' . إن الغربيين أنفسهم
 يحاربون انحرافات فكرية وسلوكية تسود
 حاليا مجتمعاتهم .

فلا استعداد للالتحاق بالمعاصرة عند
 من لا أصالة له ، لأنه بلا جذور إن
 الأصالة وفاء بالعهد نحو التاريخ القومي ،
 ما دام لهذا التاريخ قدرة على إضاءة
 الحال والإسهام في خلق المستقبل . فدراسة
 تاريخ الأمة ليست هي الحفر على دفائن
 المقابر ، بل بناء يتجدد . التراث الحي
 هو الذاكرة الجماعية التي يستوحى منها
 الشعب قيمه .

النتيجة العامة لمجموع ما سبق هي :
 وجوب تأصيل المعاصرة . وتعمير الأصالة/
 تكييفها داخل الصراع ضد التخلف .

محمد عزيز الجبالي
 عضو المجمع
 المراسل من المغرب



جولة مع تراثنا اللغوي

وبعض من مخطوطه

للمستاذ محمد عبد الغنى حسن

قلنا (تراثنا اللغوي)

فقد يعنى ذلك

إِذَا

تلك الثروة اللغوية اللفظية التي وصلت إلينا عن طريق المعجمات اللغوية اللفظية التي انتهت إلينا ، بدءا من كتاب (العين) للخليل ابن أحمد ت سنة ١٨٠ هـ ، ومرورا بكتاب البارع لأبي علي القالي ت ٣٥٦ هـ ، فالتهذيب للأزهري ت سنة ٣٧٠ هـ ، فالمحكم لابن سيده ت سنة ٤٥٨ هـ ، فالجمهرة لابن دريد ت سنة ٣٢١ هـ ، فالمحمل لابن فارس ت ٣٩٥ هـ ، فالصحيح للجوهري ت في حدود ٤٠٠ هـ ، فالتكملة والذيل والصلة ، والعباب للصاغاني ت ٣٥٠ هـ ، فلسان العرب لابن منظور الأفریقی المصری ت ٧١١ هـ ، فالقاموس المحيط للفيروزابادی ت ٨١٧ هـ . فتاج العروس للزبيدي ت ١٢٠٥ هـ ، فالمعيار لميرزا محمد علي الشيرازي ت بعد ١٢٧٣ هـ ، فأقرب الموارد للشرطوني ت سنة ١٩١٢ م . فالبيستان للشيخ عبد الله البستاني ت ١٩٣٠ م ، وانتهاء بالمعجمين الوسيط والوجيز لمجمع اللغة العربية القاهري ، فالمعجم الكبير الذي

تعمل لحنته في جمع مادته وإعداده ، وندعو الله أن يبارك في أعمارنا جميعا لنراه ، أو يراه أبنائنا وحفدتنا في جزئه الأخير .

نعم ! فقد يعنى (التراث اللغوي) كل هذه المعجمات وأشباهاها من عشرات المصنفات المعجمية اللغوية التي لم نذكرها ، ولا أظن المجال يتسع لذكرها هنا . ولكن في الحق أنه كانت هناك قبل حركة تدوين اللغة عن طريق « المعجمات اللفظية » حركة أخرى قام بها الرواة منذ بداية القرن الثاني الهجري لرواية أخبار العرب وأشعارهم وعلومهم ومأثور أقوالهم وخطبهم . فكان ذلك بداية لجمع اللغة العربية بمأثوراتها المختلفة في الشعر والنثر على السواء .

والحق أن حركة الرواية والجمع هذه تعد الباكورة الأولى للرصيد اللغوي الضخم الذي ظل ينتقل إلينا متضخما ، بدءا من العين والجمهرة والصحيح ، حتى بلغ تلك الحصيلة الهائلة التي رصدتها بالتدوين معجمات ضخمة انصبت في (لسان العرب) أولا ، و (في القاموس المحيط) ثانيا ، وفي

(*) ألقى البحث في الجلسة الحادية عشرة من مؤتمر الدورة الثامنة والأربعين في ١٠ من جمادى الأولى ١٤٠٢ هـ ،

الموافق ٦ من مارس ١٩٨٢ م .

(تاج العروس) بعد ذلك . ومن الإنصاف أن نعد (الرواة) من جماعة اللغويين الذين حفظوا لنا التراث اللغوي ، بل الحق أنهم يأتون على قمة اللغويين ، لأنهم هم الذين هياؤا لهم مادة عظيمة للتدوين اللفظي في المعجمات . وما هذه المجموعات الصغيرة التي يشتمل كل منها على ألفاظ موضوع بعينه إلا النواة الأولى للتصنيف اللغوي المتخصص الموضوع ، لا على أساس أحرف معينة كحروف الحلق ، أو على أساس ترتيب حروف الكلمة من بدايتها أو من نهايتها ، بل على أساس موضوعي معنوي بحث . فقد ألف الأصمعي ت ٢١٤ هـ رسائل أو مجموعات صغيرة في موضوعات مختلفة كانت لها تلك الرسائل شبه معجمات موضوعية . وهل ننسى من كتب الأصمعي في هذا الباب : كتاب الخيل ، وكتاب الشاء ، وكتاب الإبل ، وكتاب النخل والكرم ؟ وله في هذا المجال بضعة عشر كتابا طبعت في بيروت أو في فيينا منذ قرن من الزمان . فكتاب النخل — مثلا — ليس في موضوع زراعته ومواسمه وعلاج أمراضه ، ولكنه يمد القارئ برصيد لغوي في أسماء النخل وصغاره وأجزائه من علق وسعف ، وكرب ، وكرانيف ، وطلع ، وجمار وغيرها . وكذلك بقية هذه الكتب ، تتصل بالآلفاظ موضوعاتها ، ولا تتصل بدراسة الموضوعات ذاتها . وتعد بداية الأصمعي ونظرائه من

الرواة الأولين في مثل هذه الرسائل اللغوية بداية تصنيف المعجمات الموضوعية التي مازالت تنمو وتتطور ، وتتضخم ، حتى بلغت كتاب (التلخيص في أسماء الأشياء) لأبي هلال العسكري المطبوع في دمشق بعناية مجمع الشام شقيق مجمعا ، وانتهت إلى كتاب (المخصص) لابن سيده ، ويعد أضخم وأوسع معجم للمعاني والموضوعات . وقد رزق (المخصص) حظا غير قليل حين هذبه اثنان من خيار سلفنا في دار العلوم ، وكان أحدهما عضوا بمجمعنا هذا ، وأسمياه (الإفصاح) فوفقا في التلخيص والتهذيب ، وزادا على ابن سيده بالمراجعة والمقابلة والتحقيق . وفرق ما بين المعجمات اللغوية ومعجمات المعاني والموضوعات ، كالمخصص والإفصاح — أننا في الأولى نبحث عن معنى لفظة موجودة تحتاج إلى شرح غريبها ، أما في الثانية فنحن نبحث عن لفظ حين يحضرنا معنى مراد .

ويتصل بموضوع تراثنا اللغوي — وإن كان لا يدخل في باب المعجمات اللغوية — كتب (النوادر) في اللغة . وتشتمل على ما ندر استعماله من الألفاظ ودلالاتها . وعند صاحب (اللسان) أن نوادر الكلام هي ما شذو وخرج من الجمهور ، وقد وضع اللغويون قاعدة في معنى النادر ، وتقنين مرتبته في الفصاحة . وعبر عن ذلك ابن هشام بقوله : (اعلم أنهم يستعملون : غالبا ، وكثيرا ، ونادرا ، وقليلًا ، ومطردا ، ومهما يكن من خلاف بين رجال

اللغة على تحديد معنى « النادر » فإن كتب (النوادر) كثيرة أوفت على الخمسين كتابا ابتداء من أبي عمرو بن العلاء ، ت ١٥٤ هـ ومرورا بالكسائي ت ١٨٩ هـ، وابن الأعرابي ت ٢٣١ هـ ، وابن جني ت ٣٩٢ هـ ، والقالي صاحب الأمالي ت ٣٥٦ هـ ، وانتهاء بصاعد الأندلسي ت ٤١٠ هـ، وقد رزق كتاب النوادر لأبي مسحل حظا عظيما حين أصدره مجمع دمشق في جزئين كبيرين بتحقيق الدكتور عزة حسن .

واتجه في الوقت نفسه جماعة من اللغويين الرواة إلى تحديد (الفروق) الدقيقة بين معاني الألفاظ ، مع اختلاف الألفاظ تبعا لاختلاف المعاني الواردة على شيء واحد ، كالفرق بين البشرية والأدمة في جلد الإنسان ، فالبشرة لظاهر الجلد . والأدمة لباطنه ، والفرق بين الوفرة واللمة ، فالوفرة الشعرة إلى شحمة الأذن ، فإذا ألت بالمنكب فهي لمة ، والفرق في الضروغ ، فالثدي للمرأة ، والضرع لكل ذات ظلف ، والخلف لكل ذات خف ، والطبي للسباع وذوات الحافر . وكان الأصمعي من أقدم المصنفين في كتب الفروق ، وكتابه مطبوع بالنمسا . ثم جاء ابن قتيبة ت ٢٧٦ هـ فأودع كتابه (أدب الكاتب) أبوابا في الفروق ، كالفرق في خلق الإنسان ، وفي الأفواه وفي ريش الجناح ، وفي قوائم الحيوان ، وفي الأصوات وغيرها . وجاء أبو هلال العسكري

فصنف كتابه (الفروق اللغوية) ويقع في ثلاثين بابا .

وقيض الله للغة جماعة من الحفظة والحزنة ، فقيدوا شوارد الألفاظ والتعبيرات في مصنفات لا تدخل في باب المعجمات ، حتى يجعلوها سهلة التناول والتداول ، خدمة للأدباء ، والكتاب والشعراء ، ولينقلوها إلى مجال الاستعمال في الكتابة والخطابة ، بتبويبها وفقا للمعاني السائرة ، والأمور الدائرة ، مع إصابة اللفظ للمعنى حتى يكون على قدره لا يخطئه بزيادة أو نقصان . كقولهم في معنى (البراء): أفاق من الغشى ، وصح من العلة ، وصحا من السكر ، واندمل من الجرح ، وكقولهم في ضروب المشي : الرجل يسعى ، والصبي يدرج ، والشيخ يدلف ، والفرس يجرى ، والغراب يحجل ، والحية تنساب ، والعقرب تدب . كالذي فعله الثعالبي ت ٤٢٩ هـ في كتابه (فقه اللغة وسر العربية) . وقريب من هذا الغرض ما صنعه عبد الرحمن بن عيسى الهمداني ت ٣٢٦ هـ ، فقد لاحظ أن كتاب عصره لا يستطيعون تغيير معنى بغير لفظة لضيق وسعهم ، وفقر محصلهم ، فصنف كتاب (الألفاظ الكتابية) ليمد المنشئين والمترسلين بفيض من المترادف والمتوارد في جمل وجيزة تسعف الطالب بما يريده من اللفظ بأيسر

طريق، وأدنى لمح، مع غض النظر عن الفروق الدقيقة بين المترادفات : كقوله (شفيت صدر فلان من عدوه ، وبردت غليله ونقعت غلته وشفيت حرقة ، وأوريت حرته) وكقوله في " باب مصالحة الزمان ، ومهادنة الأيام (سامح لهم الدهر ، وتغافل عنهم الزمادان ، وسالمهم الأيام ، وساعدتهم الأعوام ، وهادنتهم صروف الزمان ، وعدلت عنهم الليالي ، وتنكبتهم ، وتعديتهم ، وتخطتهم)

وجاء اللغوى الشيخ إبراهيم اليازجى من أهل زماننا هذا ، فأعجبه كتاب الهمداني ، ووافقته طريقته ، فزاد عليه ، ووسع فيه . وكثر في أبوابه ، حتى استوى له من ذلك كتاب كبير في جزئين ، أسماه (نجعة الرائد ، وشرعة الوارد) وقد لقي من الرواج والإقبال عليه ما أكد حاجة الكتاب في ذلك الزمان ، إلى فيض من الإنشاء والبيان .

ولفت النظر عند بعض علمائنا وحفظة تراثنا اللغوى القدامى ورود كثرة كثرة من الألفاظ العربية التى تقع على الشئ وضده ، والحق أن وقوع (الأضداد) فى اللغة شئ حير الباحثين ، وذهبوا فى تعليله مذاهب شتى . ولكنهم عدوه فى الواقع اللغوى . واتخذ الشعوبيون من هذه الظاهرة فى اللغة سببا للزراية على العرب ورميهم بنقصان الحكمة وقلة البلاغة ، والميل إلى الالتباس والتلبيس فى الكلام .

ولكن هذه الأحكام الجائرة على وقوع التضاد فى لغة الضاد لم تمنع اللغويين من تصنيف كتب فيه ، تكون ثروة قيمة فى تراثنا اللغوى . وبدأ التأليف فى (الأضداد) منذ بداية القرن الثالث الهجرى على يد (قطرب) ت ٢٠٦ هـ ، وتبعه جماعة على رأسهم الأصمعى ، والنوزى ت ٢٣٣ هـ ، وابن السكيت ت ٢٤٤ هـ وأبو حاتم السجستاني ت ٢٥٥ هـ وابن الأنبارى ت ٣٢٨ هـ ، وأبو الطيب عبد الواحد اللغوى ت ٣٥١ هـ ، وآخرهم الصاغاني ٦٥٠ هـ ، وهو صاحب (التكملة والذيل والصلة) التى نشرها مجمعنا القاهرى فى ستة أجزاء كبار على يد جماعة من محققينا الأفاضل .

وقد تأتى (الأضداد) فى المعجمات اللغوية العامة ، كالجمهرة ، والصحيح ، واللسان والقاموس المحيط ، فيكتب المعنيان المتضادان ويذكر بعدهما كلمة : « ضد » . ولكن أفراد هذه الأضداد يكتب مستقلة قائمة بذاتها هو شئ فيه مزيد اهتمام وتخصيص . وإذا كان اللغويون قد رتبوا الأضداد فى كتبهم الخاصة وفقا للمعاني والموضوعات ، فإن بعض من صنفوا فى الأضداد رتبوا كتبهم على حروف المعجم ترتيبا هجائيا . وكان أول من اتبع هذه الطريقة المعجمية المنظمة أبو الطيب عبد الواحد الحلبي اللغوى فى كتابه المشهور : (الأضداد فى كلام العرب) ، وإن كان لم يلتزمها التزاما

دقيقا في الكتاب كله . ولعل مثالا واحدا صغيرا من أمثلة أضداد عبد الواحد يوضح لنا طريقته في النقل عن سبقوه من علماء اللغة . قال في أول باب التاء : (قال أبو حاتم : التبيع الذي يتبع المرأة حيث كانت ، يتعشقه . والمرأة المتبوعة أيضا تبيع . وفي القرآن العظيم : « ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا » . قال : أظنه : فاعلا . والله أعلم . وقال « قطرب » : التبيع المتبع والتبيع المتبع . وقال التوزي : التبيع التابع ، والتبيع المتبوع) .

ومن موضوعات التراث اللغوي التي لا تدخل في المعجمات اللغوية ، ولكنها تدخل في اختلاف المعاني باختلاف أبنية الكلام ، موضوعات اختلاف أبنية الألفاظ واختلاف المعاني تبعاً لذلك . وقد أفردت لها كتب مستقلة محررة في كلام مرسل ، أو في أراجيز تحصرها وتضبط بناءها ، كالذي فعله ابن مالك النحوي ت ٦٧٢ هـ في كتابه المسمى (الأعلام ، بمثلث الكلام) ، وهو كله أرجوزة لغوية . ومن قوله في تثليث الجيم ، من لفظة (جراء) :

شبيبة الجارية (الجراء)

لكن جروا جمعه (جراء)

وفائق في المرأة (الجراء)

ألق بالعجيب والعجاب

ومن قوله في تثليث الجيم من لفظة (جرة) :

واحدة من الجرار (جرة)

وكل ذي كرش له انساب (جرة)

ومن مصائد الأطباء (الجرة)

يعني بها قوم ذوو اكتساب

ويجربنا الحديث عن مثلث الكلام في تراثنا اللغوي إلى الحديث عن نوعي المثني الجارين على الحقيقة والتغليب . فذلك موضوع لغوي مفيد طريف أفرد له المحبّي - صاحب خلاصة الأثر والمتوفى سنة ١١١١ هـ - كتابا لغويا بجليلا أسماه : (جنى الجنتين ، في تمييز نوعي المثنيين) ، وراعى في هذا الجمع بين التثنية على الحقيقة والتثنية على التغليب ، لكمال الارتباط بين الاثنين ، وإن كانا - في الأكثر - يعدان من المتباينين . ومن كلامه في المثني على الحقيقة (الأنخبشان : الغائط والبول . يقال : نخبث الشيء ، نخبثا ، ونخبأته بخلاف طاب في المعنيين . قال : شيء نخبث أي نجس أو كرهه الطعم والرائحة . هذا هو الأصل ، ثم استعمل في كل حرام ، وفي القاموس : الأنخبشان : البخر والسهر ، أو السهر والضجر أيضا . وفي لسان العرب عن : الأنخبشان : القيء والسلاح^(١) .

ومن كلام المحبّي في المثني على التغليب :

(الباكران : الصبح والمساء ، غلب الصبح

(١) السلاح بضم السين : السليح والنحو الرقيق .

لأنه هو الباكر في الحقيقة، والأبوان :
 الأب والأم . والقمران : الشمس والقمر ،
 غالب لفظ القمر لخفته بالتذكير ، وإن كان
 الشمس أنور ، وهي أصل لنور القمر) .

ومن التعليقات والتعقيبات اللطيفة التي
 صادفتنا في هذا الكتاب بخط العلامة اللغوي
 أحمد تيمور باشا ما كتبه بيده تعقبيا على
 كلمة « الأنخبثان » التي سبق ذكرها :
 (قلت : والأنخبثان : القلب واللسان من
 الإنسان . حكى أن لقمان كان أول نجابته
 أن أعطاه سيده شاة وقال له : اذبحها
 واثني بأطيب ما فيها ، فأتاه منها بالقلب
 واللسان . ثم أعطاه شاة أخرى وقال له :
 اذبحها واثني بأخبث ما فيها ، فأتاه أيضا
 بالقلب واللسان . فسأله سيده عن ذلك
 فقال له : إنه لا أطيب منهما إذا طاب
 الجسد ، ولا أخبث منهما إذا خبث) .

وقد أثرى بعض حفظة تراثنا اللغوي
 خزانة هذا التراث العظيم بكتب وضعوها في
 (الأمثال) قيدوا بها شوارد اللغة ، لاعتن طريق
 معجمات لغوية للألفاظ ، ولكن عن طريق
 رصد الأمثال العربية ، وتبويبها وترتيبها
 بواحد من طرق الترتيب المحتملة ، كالترتيب
 وفقا لأوائل الكلمات وحروف الهجاء ،
 أو الترتيب على حسب أبواب المعاني والموضوعات .
 وقد اتبع (الميداني) ت ٥١٨ هـ طريقة
 الترتيب على حروف الهجاء ، على حين اتبع
 الإمام الحافظ أبو عبيد القاسم بن سلام

ت ٢٢٤ هـ طريقة تبويب الأمثال على الأبواب
 التي جعلها سبعين ومائتي باب على سبعين
 ومائتي معنى من المعاني الدائرة بين الناس ،
 وأدخل في كل باب ما يمكن أن يندرج تحته
 من الأمثال ، فاستوى له من ذلك ستة
 وثمانون وثلاثمائة وألف مثل ، فسر غريب
 ألفاظها وجلا غامض أسماؤها ، وشرحها
 شرحا واضحا لا خفاء فيه . ولم يكن الإمام
 القاسم بن سلام السابق إلى الجمع اللغوي
 لأمثال العرب ، فقد سبقه إلى ذلك أربعة
 من رجال اللغة ، هم الأصمعي وأبو زيد
 الأنصاري ت ٢١٥ هـ ، وأبو عبيدة معمر
 ابن المنثري ت ٢٠٩ هـ ، والمفضل صاحب
 المفضليات ت ١٦٨ هـ ، فأفاد منهم ،
 ونقل عنهم أكثر ما جاء في كتبهم من الأمثال ،
 كما أفاد من لغويين لم يولفوا في أمثال العرب ،
 كالقراء ، والكسائي ، وأبي عمرو الشيباني ، وابن
 الكلبي ، ويحيى بن المبارك المتوفى سنة
 ٢٠٢ هـ وغيرهم .

بقي أن نقول إن جماعة من قدماء اللغويين
 ومحدثيهم قد بذلوا جهدهم في صيانة تراثنا
 اللغوي بتنقيته وتخليته عما طرأ عليه من
 لحن وأوهام وأخطاء . وهذا الجهد السليبي
 غير الإيجابي هو عمل مقدر مشكور ، وسعى
 موفق مبرور ، فلولا هؤلاء الراصدون
 للحن العوام وأخطاء الاستعمال لفشا اللحن
 في لغتنا الشريفة فشوا عظما .

ومن السابقين في هذا المجال : الكسائي
 ت ١٨٩ هـ ، وابن السكيت ت ٢٢٤ هـ في

كتابه (إصلاح المنطق) ، وأبو حنيفة الدينوري
ت ٢٩٠ هـ في كتابه (لحن العامة) ، وابن
نحالويه ت ٣٧٠ هـ في كتابه المشهور :
(ليس في كلام العرب) ، والزبيدي ت
٣٧٩ هـ - في كتابه (لحن العوام) ،
وأبو هلال العسكري ت ٣٩٥ هـ في كتابه
(لحن الخاصة) ، والحريري صاحب كتاب
المقامات في (درة الغواص) ، وابن
الجوزي ت ٥٩٧ هـ في (تقويم اللسان)
والخفاجي ت ١٠٦٩ هـ في كتابه (شفاء
الغليل) ، وابن كمال باشا ٩٤٠ هـ في
كتابه (التنبيه على غلط الحامل والنبيه) ،
ومن المحدثين الذين ألفوا في هذا الميدان : الشيخ
إبراهيم اليازجي في (لغة الجرائد) ، وأسعد
داغر في (تذكرة الكاتب) ، ومحمد العدناني
في (معجم الأخطاء الشائعة) .

سادتي ، زملائي ! تحقيقا للمثل العربي
القاتل : رب ضارة نافعة ، فإن عدم الفهم
لمعاني ألفاظ اللغة ، وكثرة وقوع اللحن
حتى من لا يتصور وقوع اللحن منهم هو
الذي دعا إلى الاهتمام بالتأليف في كتب
اللحن وإصلاح المنطق أولا ثم المعجمات بعد
ذلك . والشر قد ينتج الخير . . . ولعل من
طريف حكايات اللحن ما وقع من « أحمد بن
عمار » صاحب الأمر في خلافة المعتصم
العباسي ، وكان المعتصم أميا ، على غير
ماكان عليه أخواه الأمين والمأمون ، فورد
على الخليفة كتاب من أحد الولاة وفيه

هذه العبارة : (ومطرنا مطرا كثر عنه
الكلاء) ، فقال المعتصم لابن عمار : ما الكلاء ؟
فقال : لا أدري ، فقال المعتصم : إنا لله
وإنا إليه راجعون خليفة أمي ؟ وكاتب أمي !
وكانت هذه الحادثة سببا في عزل ابن عمار ،
وتولية محمد بن عبد الملك الزيات مكانه . . .

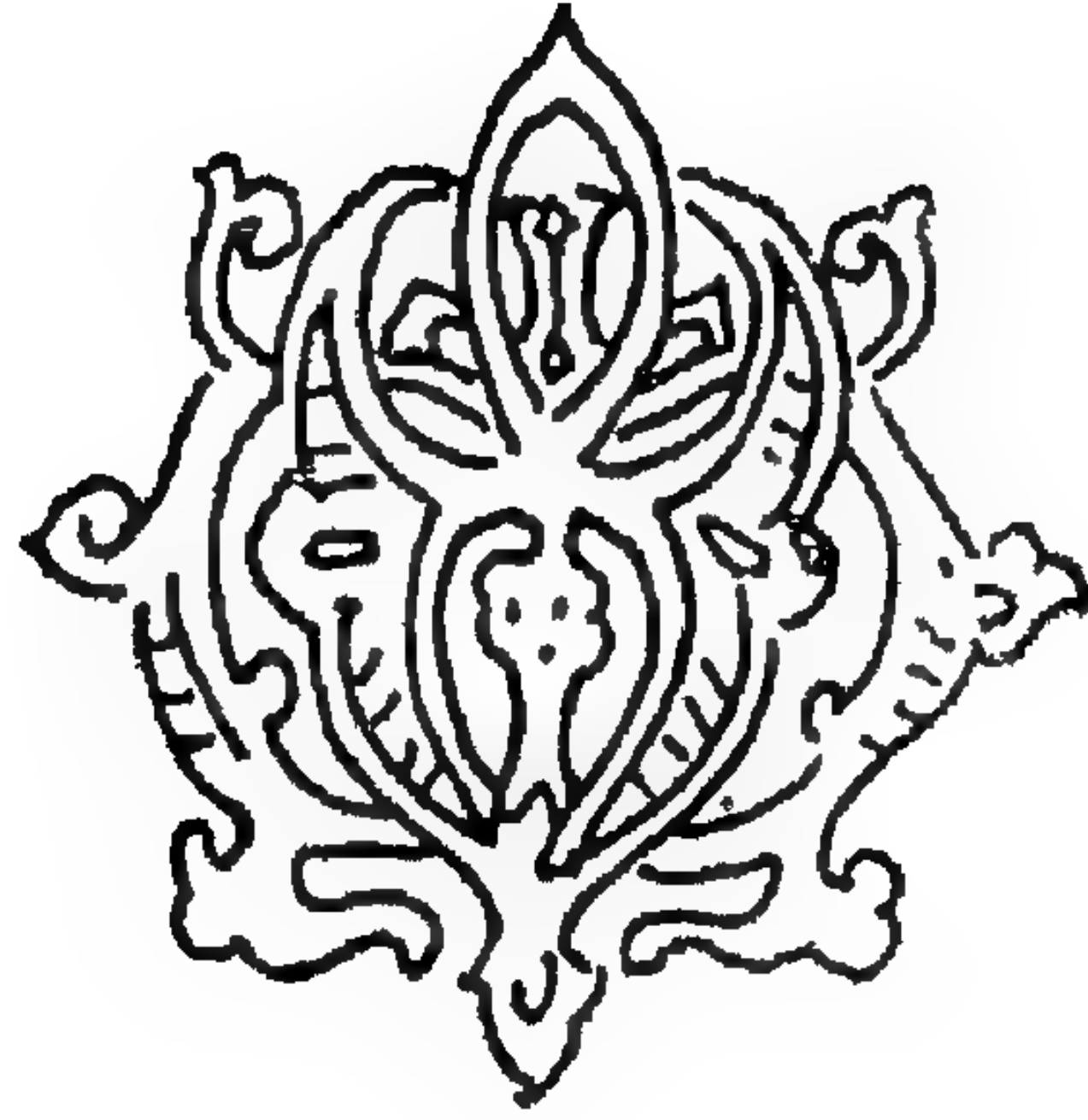
ومن الطريف أيضا أنه كان يقوم دائما
الأنخذ والرد والشد والجذب بين أصحاب
ذلك اللون الأخير من كتب التصحيح
اللغوي أو التخطي اللغوي على السواء ،
لتعصب كل واحد لرأيه ، واعتداده
بنفسه .

فقد رأينا (الشهاب الخفاجي) في
القديم يرد بكتابه (شرح درة الغواص)
على الحريري ويخالفه في كثير مما قاله أو
أنكره ، بل قد يصوب له في لغة متعالية .
كما رأينا في الحديث اللغوي (أمين ظاهر
خير الله) يرد على الأب أنستاس ماري
الكرملي - العضو السابق بمجمعنا القاهري
هذا - في كتاب قائم بذاته عنوانه :
(علم الأب الكرملي ، أو المحجة البيضاء ، في
صحة نعت الجموع بفعلاء) فيقسم عليه ،
ويسخر منه بمثل قوله في أحد مواطن الكتاب :
(مامن عالم معاصر للأب الكرملي إلا صوب
الكرملي إلى صدره سهامه ، وأصلت فوق
رأسه حسامه . ويالها من سهام لا تصيب مرمي
وأعجب به من حسام من الأسرب - يعني
معدن الرصاص - يتكسر في يد الجبار !)

ليس الوقعة من شأني ، فإن عرضت
أعرضت عنها بوجه بالحياء ندي
إني أضنُّ بعرضي أن يلم به
غيري ، فهل أتولى خرقه بيدي؟
وهكذا يكون العلم مع الأخلاق

محمد عبد الغني حسن
عضو مجمع اللغة العربية

وحين كثرت هذه المشاحنات والمشادات
اللغوية القاسية بين المشتغلين باللغة العربية
في عصرنا الحديث ، أصاب وابلها بعض
الأفاضل من أمثال الشيخ إبراهيم اليازجي
الغفيف اللسان ، الذي انسحب منها ظافرا
بكرامته ، فائثا من الغنيمة بالانسحاب ،
قائلا في أدب كريم ، ونخلق عظيم :



نقد الشعر عند صاحب المثل السائر

للككتور عبد السلام الطيب

أما دل

في هذه الكلمة القصيرة
أن أعرض أهم ما تناوله
صاحب المثل السائر في من القضايا المتعلقة
بنقد الشعر :

أول هذه القضايا ، ضرورة معرفة
النحو والصرف واللغة . وهذه القضية
بحولية لا تحتاج إلى كبير تفصيل .

ثانياً : مسألة العمق الشعري الذي لا يتوصل
إليه بشرح المعاني ومعرفة وجوه الإعراب ،
ولكن لابد مع ذلك من التغلغل إلى ما اشتمل
عليه الشعر من أسرار الفصاحة والبلاغة .
قال في أوائل مقدمته : ومن ها هنا غلط
مفسرو الأشعار في اقتصارهم على شرح
المعنى وما فيها من الكلمات اللغوية وتبين
مواضع الإعراب منها دون شرح ما تضمنته
من أسرار الفصاحة والبلاغة ا . ه . ص ٤
من المثل السائر ، طبع بولاق سنة ١٢٨٣ هـ .
أحسب أن ابن الأثير أراد بقوله : « غلط
مفسرو الأشعار » أن هذا هو الغالب على
أساليبهم ، ولا يخفى أن مفسري الأشعار قد
كان مما يهمهم أمر الفصاحة والبلاغة كما

كان يهمهم أمر النحو واللغة . وقد كان
اختلافهم في تفسير الألفاظ وظواهر المعاني
في كثير من الأحوال فرعا من تناولهم
لجوانب الفصاحة والبلاغة ، من ذلك مثلا
ما أخذوه على امرئ القيس حيث قال :

إذا ما الثريا في السماء تعرضت

تعرض أثناء الوشاح المفصل
فقالوا إن الثريا لا تعرض . وأورد أبو العباس
المبرد هذا البيت في باب التشبيه يستشهد
به على حسنه .

والذي يوقف عنده من كلام ابن الأثير
فطنته إلى أن ظاهر المعنى واللفظ في الأشعار
إنما يمثل جانبا من كلها ودلالاتها . وأسرار
الفصاحة والبلاغة هي التي يكمن فيها
جوهر الدلالة الشعرية . على أن ابن الأثير
قد نبه في أول شروعه في المقدمة أن أسرار
الفصاحة والبلاغة نفسها مدارها على الذوق
السليم . وأن بيان مواضع الفصاحة والبلاغة
مما يستعين به الذوق السليم ويعين على تنميته .
قال : « واعلم أيها الناظر في كتابي أن مدار علم
البيان على حاكم الذوق السليم الذي هو أنفع
من ذوق التعليم ، وهذا الكتاب — وإن كان

(*) ألقى البحث في الجلسة الحادية عشرة من مؤتمر الدورة الثامنة والأربعين ، في ١٠ من جادى الأولى ١٤٠٢ هـ
الموافق ٦ من مارس ١٩٨٢ م .

فيما يليه إليك أستاذاً وإذا سألت عما ينتفع به في فنه قيل لك هذا — فإن الدربة والإدمان أجدي عليك نفعا ، ! وأهدى بصرا وسمعا ، وهما يريانك الخبر عيانا ، ويجعلان عسرك من القول إمكاناً ، وكل مجارحة منك قلباً ولساناً ، فخذ من هذا الكتاب ما أعطاك ، واستنبط بإدمانك ما أخطاك ، وما مثلي فيما مهدته لك من هذه الطريق إلا كمن طبع سيفاً ووضعته في يمينك لتقاتل به ، وليس عليه أن يخلق لك قلباً ، فإن حمل النصال ، غير مباشرة القتال .

ولنما يبلغ الإنسان غايته
ما كل ماشية بالرحل شمالا هـ
(ص ٣ من المثل السائر) .

ثالثاً : مسألة الابتداء والسرقة والأخذ في الشعر . ومع أن النقاد الأولين قد فصلوا في هذا الباب كل التفصيل ، يوشك ابن الأثير أن يكون قد انفرد من بينهم بالفطنة إلى فرق ما يكون ابتداءً حقاً وما يكون سرقة وما يكون من باب توارد الخواطر أو الأخذ المألوف .

وقد تعرض ابن الأثير في أول كتابه لضرورة معرفة كلام العرب القدماء والاطلاع على أخبار أيامهم ووقائعهم ونبه على أهمية الاطلاع على الأشعار لأن ذلك يعين على الابتكار . قال : (ص ١٨) وأما النوع الرابع وهو

الاطلاع على كلام المتقدمين من المنظوم والمنثور فإن في ذلك فوائد جمة لأنه يعلم منه أغراض الناس ونتائج أفكارهم ، ويعرف به مقاصد كل فريق منهم ، وإلى أين ترامت به صنعتهم في ذلك ، فإن هذه الأشياء مما تشحذ القريحة ، وتذكى الفطنة ، وإذا كان صاحب هذه الصناعة عارفاً بها تصير المعاني التي ذكرت وتعب في استخراجها كالشئ الملقى بين يديه يأخذ منه ما أراد ويترك ما أراد ، وأيضاً فإنه إذا كان مطلعاً على المعاني المسبوق إليها قد ينقدح له من بينها معنى غريب لم يسبق إليه . ومن المعلوم أن خواطر الناس وإن كانت متفاوتة في الجودة والرداءة فإن بعضها لا يكون عالياً على بعض أو منحطاً عنه إلا بشيء يسير ، وكثيراً ما تتساوى القرائح والأفكار في الإتيان بالمعاني ، حتى إن بعض الناس قد يأتي بمعنى موضوع بلفظ ثم يأتي الآخر بعده بذلك المعنى واللفظ بعينهما من غير علم منه بما جاء به الأول وهذا الذي يسميه أرباب هذه الصناعة وقوع الحافر على الحافر ا . هـ .

هنا يكاد ابن الأثير يلتقي مع بعض مدارسنا المعاصرة في أن اتساع الثقافة وبروز ذلك في صناعة الشعر مما يعين على جعل المعاني أعمق ، بالذي نضيفه إليها من عنصر الرمز المأخوذ من ضروب الإشارة ، والاقتباس . وتأمل قول ابن الأثير « فإن في ذلك فوائد جمة » ثم عده من هذه الفوائد

فقال : « لأنه يعلم أغراض الناس ونتائج أفكارهم ومقاصد كل فريق منهم وإلى أين ترامت صنعة من ذلك فإن هذه الأشياء مما تشحذ القريحة... إلى آخر ما قاله » ، فعرفة المقاصد التي بشحذ بها الذهن داخلة في صميم الرمز . وقد تعلم خبر المعري إذ ذكروا أنه دافع في مجلس الشريف—وكان هذا قد طعن في المتنبي—عن المتنبي باستحسان لاميته : « لك يا منازل في القلوب منازل » ففطن الشريف إلى أنه عني قوله :

وإذا أتت مذمتي من ناقص

فهى الشهادة لى بأنى كامل

فأمر بسحبه وإخراجه من مجلسه فيما زعموا فانظر كيف صارت كلمات الغزل :

لك يا منازل في القلوب منازل

أقفرت أنت وهن منك أو اهل

فمع الفطنة والتأمل رمزاً للطعن والتجريح والنقص والكمال

وكان هذا الجانب من بروز سعة الاطلاع والنظر في كلام الأولين والرمز به هو الذى جعل ابن الأثير يقدم أبا تمام . على أن ابن الأثير رحمه الله كان ذا لباقة وحسن تأت في طريقة عرض ما يعرضه على قارئيه ، فقد استهل مقدمة كلامه بمدح الآمدى مدحا يظن به أنه سيتبع مذهبه اتباعا . وتقديمه أبا تمام بخلاف صريح كما ترى . ثم مع تقديمه أبا تمام

تنضح أسطاره بتفضيل أبي الطيب والميل ميلا شديدا إليه ، وربما صرح بذلك تصريحاً في أكثر من موضع .

على أن ظاهر كلام ابن الأثير هذا ، وهو في مقدمته التي بين فيها أصول مذهبه ، ربما استنتجنا منه أنه ينكر السرقة وهى مما ألح عليه نقاد العرب إلحاحا ، وعن قدمائهم أخذوه ، وقد فطن ابن الأثير إلى هذا الجانب ، ففصل الحديث وأتقنه في الباب الذى جعله للسرقات وقد وعد في مقدمته به حيث قال : « وسياقى لذلك باب مفرد في آخر كتابنا هذا إن شاء الله تعالى » ا . هـ ص ١٨ .

قال : (ص ٦ - ٤٦٨) « واعلم أن الفائدة من هذا النوع (يعنى السرقات الشعرية ومعرفتها) أنك تعلم أين تضع يدك في أخذ المعاني إذ لا يستغنى الآخر عن الاستعارة من الأول . لكن لا ينبغي لك أن تعجل في سبك اللفظ على المعنى المسروق فتنادى على نفسك بالسرقة ، فكثيرا ما رأينا من عجل في ذلك فعثر ، وتعالى فيه البديهة فعقر ، والأصل المعتمد عليه في هذا الباب التورية والاختفاء ، بحيث يكون ذلك أخفى من سفاد الغراب وأظرف من عنقاء مغرب في الإغراب . وقد ذهب طائفة من العلماء إلى أنه ليس لقائل أن يقول : إن لأحد من المتأخرين معنى مبتدعا ، فإن أول الشعر قديم منذ نطق باللغة العربية ، وإنه لم يبق معنى من المعاني إلا وقد طرق مرارا .

وهذا القول وإن دخل في حيز
الإمكان إلا أنه لا يلتفت إليه لأن
الشعر من الأمور المتناقلة ، والذي نقلته
الأخبار وتواردت عليه أن العرب كانت
تنظم المقاطيع من الأبيات فيما يعن لها
من الحاجات ، ولم يزل الحال على هذه الصورة
إلى عهد امرئ القيس وهو قبل الإسلام
بمئة سنة زائداً فناقصاً ، فقصد القصائد ،
وهو أول من قصد ، ولو لم يكن له
معنى اختص به سوى أنه أول من قصد
القصائد لكان في ذلك كفاية وأى فضيلة
أكبر من هذه الفضيلة . ثم تتابع المقصدون
واختير من القصائد تلك السبع التي علقت
على البيت ، وانفتح للشعراء هذا الباب في
التقصيد وكثرت المعاني المقولة بسببه ،
ولم يزل الأمر ينمى ويزيد ويؤتى بالمعاني
الغريبة ، واستمر ذلك إلى عهد الدولة العباسية
وما بعدها إلى الدولة الحمدانية ، فعظم
الشعر وكثرت أساليبه ، وتشعبت طرقه
وكان ختامه على الثلاثة المتأخرين ، وهم
أبو تمام حبيب بن أوس وأبو عبادة الوليد
بن عبيد البحر وأبو الطيب المتنبي ، فإذا
قليل إن المعاني المبتدعة سبق إليها ولم يبق
معنى مبتدع عورض ذلك بما ذكرته ،
والصحيح أن باب الابتداع للمعاني مفتوح
إلى يوم القيامة ، ومن الذي يحجر على الخواطر
وهي قاذفة بما لا نهاية له ، إلا أن من
المعاني ما يتساوى الشعراء فيه ولا يطلق
عليه اسم الابتداع لأول قبل آخر ، لأن

الخواطر تأتي به من غير حاجة إلى اتباع
الآخر الأول كقولهم في الغزل :

عفت الديار وما عفت
آثارهن من القلوب

وكقولهم «إن الطيف يجود بما يبخل به
صاحبه ، وإن الواشي لو علم بمزار
الطيف لساءه» ، وكقولهم في المديح : إن
عطاءه كالبحر وكالسحاب وإنه لا يمنع
عطاء اليوم عطاء غد ، وأنه يجود ابتداء
من غير مسألة وأشباه ذلك ، وكقولهم
في المراثي : إن هذا الرزء أوصل حادث ،
وإنه استوى فيه الأبعد والأقرب ،
وإن الذاهب لم يكن واحدا وإنما كان قبيلة ،
وإن بعد هذا الذاهب لا يعد للمنية ذنب .
وأشباه ذلك ، وكذلك يجري الأمر في
غير ما أشرت إليه من معان ظاهرة تتوارد
الخواطر عليها من غير كلفة ، وتستوى
في إيرادها ، ومثل ذلك لا يطلق على الآخر
فيه اسم السرقة من الأول ، وإنما يطلق
اسم السرقة في معنى مخصوص كقول
أبي تمام :

لا تنكروا ضربى له من دونه
مثلا شرودا في الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره
مثلا من المشكاة والنبراس

فإن هنا معنى مخصوص ابتدعه أبو تمام ،
وكان لا ابتداعه سبب ، والحكاية فيه
مشهورة ، وهى أنه لما أنشد أحمد بن المعتصم

قصيدته السيئنة التي مطلعها « ما في وقوفك
ساعة من باس » انتهى إلى قوله :

إقدام عمرو في سماحة حاتم
في حلم أحنف في ذكاء إياس
فقال الحكيم الكندي : أى فخر في
تشبيه ابن أمير المؤمنين بأجلاف العرب ؟
فأطرق أبو تمام ثم أنشد هذين البيتين
معتذراً عن تشبيه إياه بعمرو وحاتم وإياس ،
وهذا معنى يشهد به الحال أنه ابتدعه ، فمن
أتى من بعد بهذا المعنى أو بجزء منه فإنه
يكون سارقاً له ، و كذلك ورد قول
أبي الطيب المتنبي في عضد الدولة وولديه :

وأنت الشمس تبهر كل عين
فكيف وقد بدت معها اثنتان

فعاشا عيشة القمرين يُحَيِّيًا
بضوءهما ولا يتحاسدان

ولا ملكا سوى ملك الأعادى
ولا ورثا سوى من يقتلان

وكان ابنا عدو كاثراه
له ياءى حروف أنيسيان

وهذا معنى لأبي الطيب . وهو الذى
ابتدعه ، أى أن زيادة أولاد عدوك كزيادة
التصغير فإنها زيادة نقص ، وما ينبغى أن
يقال إن ابن الرومى ابتدع هذا المعنى
الذى هو :

يشكى الحب ويلقى الدهر شاكية
كالقوس تصمى الرمايا وهى مرنان

فإن علماء البيان يزعمون أن هذا المعنى
مبتدع لابن الرومى وليس كذلك ولكنه
مأخوذ من المثل المضروب ، وهو قولهم :
يلدغ ويصمى ويضرب ذلك لمن يبتدىء
بالأذى ثم يشكو ، وإنما ابن الرومى قد
ابتدع معانى أخر غير ما ذكرته ، وليس
الغرض أن يوثق على جميع ما جاء به هو
ولا غيره من المعانى المبتدعة ، بل الغرض
أن يبين المبتدع من غيره ، والذى عنده
في السرقات أنه متى أورد الآخر شيئاً
من ألفاظ الأول في معنى من المعانى ولو
لفظة واحدة فإن ذلك من أدل الدليل على
سرقته اهـ .

أكثر الأمثلة التى ضربها ابن الأثير
لما يتساوى فيه الشعراء من المعانى غير
جيدة ، إذ هى مأخوذة من أشعار وأقاويل
مأثورة بأعيانها كقول النابغة :

فما الفرات إذا جاشت غواربه
ترعى أواذيه العبرين بالزبد
يوماً بأجود منه سيب نافلة
ولا يحول عطاء اليوم دون غد
وكقول الآخر يرثى قيس بن عاصم المنقرى :

عليك سلام الله قيس بن عاصم
ورحمته ما شاء أن يترحمها

وما كان قيس هلكه هلك واحد
ولكنه بنيان قوم تهلما
غير أن الغرض الذى رعى إليه واضح ،
وهو أن من المعانى ما يكثر دورانه

فلا يصير به سابق أحق من لاحق ،
وتمثيله بقولهم في المديح «إن عطاءه كالبحر
وكالسحاب» أدخل في باب المتبذل والمنقول
منه في هذا الباب . والبيت الذي تمثل به
أول الأمر :

عفت الديار وما عفت

آثارهن من القلوب

أدل على مراده ، وكان أجدر به
لو تحرى له نظائر ، وجل من لا يزل .
هذا وقد نبه على أمور من الأهمية بمكان
كبير ، منها أن الشكل موضع يقع فيه
الابتداع . وقد زعم أن امرأ القيس لو لم
يكن له إلا أنه قصيد القصيد ففتح
بذلك لمن بعده بابا لكان ذلك له كافيا
في فضيلة السبق . وقد يؤخذ على ابن
الأثير نسبة اختراع شكل القصيدة إلى
امرئ القيس والمشهور أن السابق في هذا
المضمار هو المهلهل ، وامرؤ القيس جود
هلهلة خاله وأحكمها . ولعل ابن الأثير
عنى هذا . وليس بخارج مما قدمناه من
أنه لإحسان وإبداع في باب الشكل .

ومنها الظرافة البلاغية كتعليل أبي تمام
الذي ساقه مثلا ، وكتشبيه أبي الطيب للزيادة
الناقصة بياض «أنيسيان» في التصغير ، وليس
قول ابن الرومي :

يشكى المحب ويلقى الدهر شاكية .

كالقوس تصمى الرمايا وهي مرنان

ببعيد من مداهما في باب الظرافة
البلاغية والذي أنكره عليه ابن الأثير مردود
لأن المعنى الذي قصد إليه ابن الرومي
هو الذي في عجز بيته لا في صدره ،
ومحل البراعة والظرافة البلاغية فيه أن العيون ،
وهي التي تقتل بالعشق ، يشبهها الشعراء
بالسهم ، وقديما وصف الشعراء القوس
بأنها إذا رمى بها الرامي أرنت كأنها
ثكلي ، قال الشماخ :

إذا أنبض الرامون عنها ترنمت

ترنم ثكلي هيبتها الحناثر

فأقل ما ينعت به ابن الرومي أنه كشف
هذا المعنى ، وذلك له في باب البيان فضل
بلا ريب . والخلاصة من كلام ابن الأثير ،
وهي التي عليها المعول أنه بعد أن جعل
الشكل مما يتناوله الاختراع ، جعل الصياغة
— إذ الظرافة البلاغية إنما هي داخلة في
حيز تفاصيل الصياغة — مما يتناوله الاختراع
ثم نبه على أن السرقة إنما تقع في الصياغات
وبهذا يكون وفقى الجواب عن مسألة
إنكار السرقة التي عسى أن تستنتج من
أوائل كلامه .

وقد فصل الحديث في السرقة وبوبه .
وقد ضمن أول بحثه في موضوع الابتداع
وصفا عاما للسرقة أنها موراة خفية ،
أنحى من سقاء الغراب كما زعم ، ولعل
هذا التشبيه أن يقع من أذواقنا موقعا
نابيا الآن ، ولا يخفى أنه أخذ نعت السرقة

بالتورية من أبيات أبي تمام في داليته
الوافرية يمدح أحمد بن أبي دواد ، وهي
مما يدخل في صميم النقد :

إليك بعثت أبكار المعاني
يليه سائق عجل وحادي

جوائز عن ذنابي القوم حيرى
هوادي للجمام وللهرادي

شداد الأمر سائلة النواحي
من الإقواء فيها والسناد

منزهة عن السرقة المورى
مكرمة عن المعنى المحاد

لها في الهاجس القدح المعلى
وفي نظم القوافي والعماد

والعماد أى عماد الشعر إن جعلته مفردا
وإن جعلته جمعا فهو جمع لعمود الشعر
فمن أبي تمام أخذ الأمدى هذه العبارة
المنسوبة إليه وهي أقدم منه ومن أبي
تمام على الأرجح في ما حكى الجاحظ عن
خالد بن صفوان أنه قال : « عمود الجمال »
يعنى الصفات التى بها يتم الجمال ويكمل .
والله تعالى أعلم .

وقد ترى أنه ختم كلمته عن الاختراع
برأيه أن السرقات إنما تقع في مجاله وهو
مجال الصياغات ، ثم أخذ في تبين
السرقات فجعلها خمسة أقسام ، النسخ
والسلخ والمسوخ وأخذ المعنى مع الزيادة
عليه وعكس المعنى إلى ضده . وقد جاء ابن

الأثير في هذا الباب الأخير الذى عقده للسرقات
بأشياء تعد من روائعه حقا ، مثل حديثه
عن الشعراء الثلاثة : أبي تمام والبحترى
وأبي الطيب ، فقال عن أبي تمام : « أما
أبو تمام فإنه رب معان وصيقل ألباب وأذهان
فمن حفظ شعر الرجل وكشف عن غامضه
وراض فكره برائضه أطاعته أعنة الكلام
وكان قوله في البلاغة ما قالت حذام »
(ص ٤٧٠) ، وقال عن أبي الطيب :
« أراد أن يسلك مسلك أبي تمام فقصرت
عنه خطاه ، ولم يعطيه الشعر من قياده
ما أعطاه ، لكنه حظى في شعره بالحكم
والأمثال ، واختص بالإبداع في وصف
مواقف القتال وعلى الحقيقة فإنه خاتم
الشعراء ومهما وصف به فهو فوق الوصف
وفوق الإطراء » وآخر كلامه هنا ينقص
أوله ، وكأنه كان أميل إلى تقديم أبي
الطيب على أبي تمام ثم مع ذلك مضطربا
فيه مترددا (ص ٤٧٠ - ٤٧١) ، وقال
عن البحتري : « وأما أبو عبادة فإنه
أحسن سبك اللفظ على المعنى المراد أن
يشعر فغنى ولقد حاز طرفي الرقة والحزالة
على الإطلاق فيينا يكون في شظف نجد
إذ تشبث بريف العراق » (ص ٤٧٠)
وكان قول ابن الأثير : « أراد أن يشعر
فغنى » تمكين منه للبحتري في الشاعرية
بدليل قوله : « وسئل أبو الطيب عنه
وعن أبي تمام وعن نفسه فقال : « أنا
وأبو تمام حكيمان والشاعر البحتري » . ولعمري

إنه أنصف في حكمه ، وأعرب بقوله
هذا عن متانة علمه ، فإن أبا عبادة أتى
في شعره بالمعنى المقدود من الصخرة
الصماء في اللفظ المصوغ من سلاسة الماء
فأدرك بذلك بعد المرام ، مع قربه إلى
الافهام ، وما أقول إلا أنه أتى في معانيه
بأنحلاط الغالية ورقى في ديباجة لفظه
إلى الدرجة العالية « ا هـ . ص (٤٧٠-٤٧١)
والغناء قوى العلاقة بالشعر ، وفي كتاب
سيبويه أن الشعر إنما وضع للغناء والترنم ،
على أنه لا يستبعد ، إن صححت هذه
الرواية من أبي الطيب ، أن يكون قد قصد
إلى تفضيل نفسه وحبيب على أبي عبادة
لاقتراح الشعر بالحكمة وفي الحديث : « إن من
الشعر لحكمة » ، وعسى أن تكون هذه
الرواية ما افتعل على أبي الطيب لتثبيت
تهمة دعوى النبوة عليه ، للمعروف من
اقتراح الحكمة بالنبوة ، قال تعالى :
« ولوطا آتيناه حكماً وعلماً » (الأنبياء
٧٤) وقال تعالى في خبر المسيح عليه
السلام : « ولقد علمتك الكتاب والحكمة
والتوراة والإنجيل » (المائدة ١١٠) :
وقال تعالى في خبر سيدنا يحيى عليه
السلام : « وآتيناه الحكم صبياً » (مريم
١٢) وفي خبر لقمان : « ولقد آتينا
لقمان الحكمة » (لقمان ، ١٢٢) .

ونظر ابن الأثير في قوله : فأدرك بذلك
بعد المرام مع قربه إلى الأفهام ، إلى
قول البحتري في ابن الزيات :

لَتَفَنَّنْتَ في الكتابة حتى
عطَّلَ الناس فن عبد الحميد

من معان لو ضمنها القوافي
هَجَّنت شعر جرول ولبيد

حزن مستعمل الكلام اختياراً
وتجنَّب ظلمة التعقيد

وركن اللفظ القريب فأد
ركن به غاية المراد البعيد

وأبيات البحتري هذه هي أيضا ما
يدخل في صميم النقد ، وللشعراء سبق
ودقة في أبواب كثيرة من النقد ما ينبغي
أن يتنبه إليه الباحثون في هذا الباب ،
هذا ويؤخذ على ابن الأثير في معالجته
للسرقات أنه أغفل المبدأ الذي بنى عليه
كينونتها وأجاب به على مفكرى وجودها
بحجة أن المعاني متساوية مشتركة فلم
يسلم له إلا باب قسمته الأول وهو النسخ
وقد أدخل بعضه فيما وسمه باسم وقع
الحافر على الحافر (ص ٤٧٢) واستشهد
بقول امرئ القيس :

وقوفاً بها صحبي على مطيهم
يقولون لا تهلك أسي وتجمل

وقول طرفة :

وقوفاً بها صحبي على مطيهم
يقولون لا تهلك أسي وتجمد

ويجوز أن يكون قول امرئ القيس
قد اشتهر وسار فما أراد طرفة إلا تضمينه

وتحسين صناعته بذلك التضمين : ويجوز
أن يكون قولهم :

وقوفاً بها صحبي ...

ما صار من طريقة كلامهم ، يأخذ
به شاعرهم ، ويغير من لفظه بحسب
ما يتطلبه وزنه ورويه ، ويكون على
هذا غير داخل حقاً في الذي سماه هو
النسخ ، لأن هذا من السرقات ، وقد
فرض في السرقات الخفاء والتورية ، ولعله
لو كان قد جعل ما استشهد به من حديث
أبي نواس في باب النسخ لكان ذلك
أصوب ، وهو قوله (ص ٤٧٣) :
« وما كنت أستحسنه من شعر أبي نواس
قوله من قصيدته التي أولها :

دع عنك لومي فإن اللوم لغراء :

دارت على فتية ذل الزمان لهم
فما يصيبهم إلا بما شاعوا

وهذا من عالي الشعر ثم وقفت في كتاب
الأغاني لأبي الفرج على هذا البيت في
أصوات معبد وهو :

لهني على فتية ذل الزمان لهم
فما أصابهم إلا بما شاعوا » ا . هـ

على أنه يجوز أن يكون أبونواس قد
أراد التضمين ، وهو من أسلوبه وكان
واسع الحفظ ، ولعل ابن الأثير قد
أراد نحواً من هذا المعنى حيث علق
على ما تقدم بعد البيت الذي هو من أصوات

معبد بقوله : « وما أعلم كيف هذا » ولا
ريب يجري مجرى التضمين في النسخ
قول أبي تمام :

محاسن أصناف المغنين حجة
وما قصبات السبق إلا لمعبد
لأن هذا كان قولاً سائراً .

وقد وقع ابن الأثير في الذي نبه على
تجنب الأخذ به ، حيث تتبع تشابه
المعاني وبني عليه سائر الأصناف التي
جعلها للسرقات ، ولو قد كان عوّل
على الصياغة لكان مذهبه أسلم ، والعجب
له كيف غفل عن هذا ، ولا ريب أنه
كان يعلم أن البحري اتهم أبانواس في بيته :

ولم أدر من هم غير ما شهدت به
بشرقي ساباط الديار البسابس

بالأخذ من الهذلي في قوله :

ولم أدر من ألقى عليه رداءه
ولكنه قد سلّ عن ماجد مخض

لأن حذو الكلام واحد —

وعلى هذا يقاس أخذ أبي نواس من
الأعشى حيث قال :

وداوني بالتي كانت هي الداء

فإنه ولدها من : وكأس تداويت منها

بها .

والتشابه هاهنا في الصياغة أدل من كل

شيء .

على أن ابن الأثير ، في تتبعه لتشابه المعاني ، قد وفق إلى موازنات رفيعة داخلية حقا في حيز ما قدمه من أصل الصياغة والشكل والخفاء والتورية ، ولعل أجود ذلك جميعه الموازنة التي عقدها بين صفة البحترى لأسد الفتح بن خاقان وصفة أبي الطيب لأسد بدر بن عمار ، وقد خلص فيها إلى تفضيل أبي الطيب ، ولو قد سار على مذهبه في النقد لفضل البحترى لالتزامه بنعت المبارزة ، إذ أبو الطيب اهتم بالأسد ولا ريب أن أبا الطيب أشعر شعرا هاهنا وإن كان البحترى أصنف ديباجة ومن عجب الأمر أن ابن الأثير قد فضل أبا الطيب أيضا على أبي تمام في الموازنة التي عقدها بين رثاء هذا لولدين صغيرين ورثاء ذاك لطفل صغير . قال : (ص ٤٨٧) « وأبو تمام وإن كان أشعر عندي من أبي الطيب فإن أبا الطيب أشعر منه في هذا الموضع » ، وليس في هذه المقالة لأبي تمام وناصرية عزاء ؛ إذ قد أعطى الحائزة لأبي الطيب كما ترى . وكأن ابن الأثير ما فضل جريرا وصاحبيه على شعراء الجاهلية إلا ليخلص إلى الذي خلص إليه من تفضيل الثلاثة الذين جعلهم لات الشعر وعزاه ومنااته عليهم ثم يجعل أبا الطيب خاتم الشعراء أجمعين ، وما أكثر المواضع التي قطع بتقديمه فيها على غيره بلا تردد ، كقوله مثلا (ص ٣١١) : « وسأذكر الموضع الذي حذف منه الفعل وجوابه لتعلق الأبيات بعضها ببعض وهي من محاسن ما يؤتى به في معنى الوداع ولم يأت لغيره ،

مثلها إلخ » . وقال بعد أن أثنى على أبي الطيب الثناء الحسن في تلخيصه : (ص ٤٢٠) والشعراء متفاوتون في هذا الباب وقد يقصر أعنه الشاعر المفاق المشهور بالإجادة في إيراد الألفاظ واختيار المعاني كالبحترى فإن مكانه في الشعر لا يجهل ، وشعره هو السهل الممتنع الذي تراه كالشمس قريبا ضوءها بعيدا مكانها وكالقناة لنا مسها خشنا سنانها ، وهو على الحقيقة قينة الشعراء في الإطراب ، وعنقاؤهم في الإغراب ، ومع هذا لم يوفق في التخلص من الغزل إلى المديح إلخ » .

وكأنه قد كان من معاصري ابن الأثير الذين كان يعابهم عصبية فيهم عن أبي الطيب انحراف وبهم ميل إلى تقديم صاحبيه عليه الأول فالثاني ، وكان هو على خلاف رأيهم في القول بتقديم أبي الطيب وهذا جلي من كثرة استشهاده بشعره وإطرائه له ، فأسر هذا القول وأظهر أنه على مذهبهم مداراة لهم أو مجاملة كقوله قبل أن يقطع بتفضيل أبي الطيب في رثائه الطفل الصغير على أبي تمام وقد مهد بأنه يرى ذلك (ص ٤٨٧) : « أكبر هذا القول جماعة من المقلدين الذين يقفون مع شبهة الزمان وقدمه لامع فضيلة القول وتقدمه » . وكأنه يوهم بهذا أن أصحاب هذه المقالة غير الذين هم موضع مجاملته ومداراته ، فتأمل . هذا وما يؤخذ على ابن الأثير أيضا تنبيهه على ضرورة الحفظ ، لأن ذلك

يعين على جودة النقد وتمييز مواضع الاختلاس والسرقة وما إلى ذلك ، ثم هو قد حدث بعد ذلك على الاقتصار على الشعراء الثلاثة ومن بعد على ثلاثة العهد الأموي وقليل من شأن فحول الجاهلية - ويوشك القارئ له أن يخلص إلى أنه لم يكن حقاً عظيم المحصول من معرفة شعر القدماء ، ولولا ما نعلم من أن طريقة الدرس ومنهجه على ذلك الزمان كانت تأخذ الطالب بمعرفة الأصول كفضليات الضبي وحماسة الطائي ، ودواوين الأولين ، لكننا صَغَوْنَا إلى القول بهذا الرأي ، ولعل الفتنة بأبي الطيب هي التي دفعته إلى ما قطع به من تفضيل جرير وأصحابه على امرئ القيس وأصحابه ثم تفضيل ثلاثة العصر العباسي عليهم جميعاً والله تعالى أعلم .

هذا والمسألة الرابعة التي اهتم بها ابن الأثير وهي من كبريات مسائل نقد الشعر مسألة لغة الشعر والنظم في مقابلة لغة النثر . وقد تعرض ابن الأثير لهذا الباب في معرض حديثه عن الوحشي من الكلام . وقد فتح باب الحديث بزعم منه جازم أن من الألفاظ قباحاً يعرف قبحها بالضرورة وحساناً كذلك . ولا شك أن ابن الأثير قد صدر في رأيه هذا عن طبيعة الضعف واللين التي كانت غالبة على عصره . وقد توفي رحمه الله سنة ٦٣٧ هـ أي قبل نحو من عشرين سنة من سقوط بغداد في أيدي

البتار وقد ذكر المؤرخون أن جيش الخلافة كان أفره خيلاً وأثقل دروعاً وأكثر سلاحاً من جيش هولاء المدججون إلا قليلاً أمام رماة البتار الحفاف العدة والعتاد .

وقد أنكر على « تأبط شراً » قوله ، وهو من أبيات ديوان الحماسة :

يظل بمومة ويمسى بغيرها

جحيشا ويعرورى ظهورالمهالك

قال (ص ٩٨) : « فإن لفظة جحيش من الألفاظ المنكرة القبيحة وبالله العجب ، ليس أنها بمعنى فريد ، وفريد لفظة حسنة رائقة ، ولو وضعت في هذا البيت موضع جحيش لما اختل شيء من وزنه ، فتأبط شراً ملوم من وجهين في هذا الموضع ، أحدهما : أنه استعمل القبيح والآخر : أنه كانت له مندوحة عن استعماله فلم يعدل عنها » . ١ . وهذا من أخطاء ابن الأثير التي مردها إلى ما سبقت الإشارة إليه من غلبة نوع من الانحلال واللين على طبائع أهل عصره وأذواقهم . ولو قد وضعنا كلمة فريد هاهنا موضع جحيش لنبت كل النبو . وذلك أن في قوله : « جحيشا » حيوية وتصويراً ، إذ قد نظر في اختيار هذه الكلمة إلى المعهود في الأشعار وفي البيئة الجاهلية البدوية ؛ من

نعت الحمار الوحشى بالحذر والغيرة والانفراد
منصلاً بآتته فى القفار ، يتقدمها يرباً أمامها
المراقب ، أو يتعقبها وهو يسوقها السوق
المفرط الشديد . وقد نعت رؤبة الحمار
الوحشى فى أرجوزته القافية :

* وقاتم الأعماق خاوى المخترق *

ولما أراد مدح أبى مسلم صاحب الدولة
ببعض الرجز ، أعرض عن ذلك وطلب
منه أن ينشده القافية ، فلما صار فيها إلى
قوله :

* إذا تتلاهن تصالصال الصعق *

* معتزم التعجيل ملاح الملق *

* يرمى الجلاميد بجلمود مدق *

قال له أبو مسلم : « أنا ذلك الجلمود
المدق » .

ومما يقوى معنى الحيوية الذى فى قوله :
جمحيشاً ويعرورى ظهور المهالك .

أن الشاعر احتفظ بمعنى الحمار الوحشى
فى سائر البيت ، فجعل المهالك بمنزلة
الرواحل ، وجعل جمحيشه هذا يعروريا
أى يركب عليها عريا بلا سروج ، وجعل
لها ظهوراً كما ترى ، وقد نقل صورته من
الحمى الوحشى النفور المنفرد الكثير
التلف ، إلى الباسل البئيس الذى يشب على
ظهور المهالك يمتطيها عريا بلا سروج ،
فجعل المهالك بمنزلة الأتن التى يحدوها
الحمار الوحشى ، ويقدر عليها وهو يتتلاها

« يرمى الجلاميد بجلمود مدق » . وقوله :
« يظل بموماه ويمسى بغيرها » مأخوذ
أخذاً من صورة وحوش الصحراء .

وقد كان أبو تمام ناقداً نافذ البصر فى
الشعر لا يتقيد فى تمييز جيده من رديئه
بما كان هو عليه من مذهب النظم . وقد اختار
أبيات تأبط شراً هذه واحتفظ بجمحيشها ولم
يغيره إلى فريد . وليس الأمر هنا إصابة
ظاهر رنة الوزن ، ولكن أن يصيب الشاعر
جوهر المعنى فى الصورة والحيوية والإيقاع
جميعاً .

ثم بعد أن ذكر كلمات تجرى عنده مجرى
« جمحيش » فى القبح قال : (ص ٩٩)
« والعرب إذن لاتلام على استعمال الغريب
الحسن من الألفاظ ، وإنما تلام على الغريب
القبيح . وأما الحضري فإنه يلام على استعمال
القسمين معاً وهو فى أحدهما أشد ملامة
من الآخر ، على أن هذا الموضع يحتاج إلى
قيد آخر ، وذلك شئ استخرجته أنا دون
غيرى » كان رحمه الله كثير
التزكية لنفسه ، وقد جرّ هذا عليه كثرة
الاستشهاد فى باب النثر بأمثلة من إنشائه
لو خلا كتابه منها كان أفضل له قال :
وذلك شئ استخرجته أنا دون غيرى فإنى
وجدت الغريب الحسن يسوغ استعماله فى
الشعر ولا يسوغ فى الخطب والمكاتبات
وهذا ينكره من يسمعه حتى ينتهى إلى
ما أوردته من الأمثلة إلى آخر ما قاله .

فقد جعل هاهنا للشعر طبيعة قبول أو طبيعة استعداد وتهيؤ لقبول الغريب الذي سماه حسنا دون النثر ، وما مثل به في هذا الباب لفظ شرنبثة في قول الفرزدق ،

شرنبثة شمطاء من يرتقى بها
يشبه ولو بين الخماسي والطفل

وقول البهتري « مشمخرة » في السينية :

مشمخرة تعلو له شرفات
رفعت في رؤوس رضوى وقدس

قال (ص ٩٩) : « فإن لفظة مشمخرة لا يحسن استعمالها في الخطب والمكاتبات ولا بأس بها هاهنا في الشعر وقد وردت في خطب الشيخ الخطيب ابن نباتة كقوله في خطبة يذكر أهوال القيامة فقال : « اقمطر وبالحا واشمخر نكالحا فما طابت ولا ساغت » . . . ولا يخفى أن هذا من ابن الأثير اقتيال بلا حجة ، إذ لا يخفى أن قول ابن نباتة « اقمطر » أخذه من قوله تعالى : « يوما عبوسا قمطريرا » واشمخر ملائمة لاقمطر في الجرس وصورة هول المعنى ،

هذا وإنما رتب ابن الأثير قضية الفصل بين أساليب الشعر والنثر ، وإن كان قد جاء بذلك متقدما على أصل جاء به من بعد حيث فرق بين حال الألفاظ وهي مفردة وحالها وهي مركبة وذلك قوله : (ص ١١٤) « وأما إذا صارت مركبة فإن لتركيبها حكما آخر ، وذلك أنه يحدث عنه في فوائده

التأليفات والامتزاجات ما يخيل للسامع أن هذه الألفاظ ليست تلك التي كانت مفردة . » ولعمري لو كان ابن الأثير تملك بهذا الأصل وأضرب عما افترضه من القبح الأصيل والحسن الأصيل في الكلمات لكان أجود وأصح ، وعليه يستقيم ما صور به ألفاظ أبي تمام (ص ١٠٦) « كأنها رجال قد ركبوا خيولهم ، واستلأموا سلاحهم ، وتأهبوا للطراد » وألفاظ البهتري حيث قال (ص ١٠٦) « وترى ألفاظ البهتري كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات وقد تحلين بأصناف الحلى » إذ هي إنما استفادت هذه الصور في خياله من أساليب تأليفها ، وأحسب أن ابن الأثير قد أخذ تمثيله هاهنا من بعض ما جاء به ابن رشيق في هذا الباب ، على تقدير التسليم أن كتاب العمدة كان معروفاً بالمشرق ، وليس ذلك ببعيد ، لقوة ما كان يصله الحج وبُعْد هيمم العلماء في تحصيل الإجازات والأسانيد بين أطراف بلاد الإسلام .

وقد فرّع ابن الأثير من قضيته التي قال بها من قبح الألفاظ وحسنها ثم أثر التراكيب وضروب التأليف على ذلك ، فصلا في السجع . وكان يميل إليه ويرى أنه أعلى درجات نظام الكلام المنتثر . وقد اشترط فيه شروطا كاد يقترب به فيها من الشعر ، إذ ألزم صاحب السجع أن يجتنب البرد والغثاء وعرف البرد والغثاء « أن صاحبها يصرف نظره إلى السجع

نفسه من غير نظر إلى مفردات الألفاظ المسجوعة وما يشترط لها من الحسن ولا إلى تركيبها وما يشترط له من الحسن وهو في الذرى يأتي به من الألفاظ المسجوعة كمن ينقش أثواباً من الكرسف أو ينظم عقداً من الخزف الملون ، ثم إنه اشترط مع هذا مراعاة المعنى وهذا يستفاد ضمناً من سابقة اشتراطه ألا يصرف النظر إلى السجع من غير نظر إلى مفردات الألفاظ إلخ (راجع ١١٦ - ١١٧) .

وقد احتج ابن الأثير لتفضيل السجع بأسلوب القرآن ، وغفل عن أن أسلوب القرآن ليس بزخرفة من نقش أثواب كرسف أو نظم عقد من خزف ملون ، ولكنه شديد الأسر ، فيحل الإيقاع ، وقد أنكر ابن الباقلائي أنه سجع أو من المسجوع جملة واحدة .

هذا والمسألة الخامسة ، وستختتم بها هذه الكلمة الموجزة إن شاء الله تعالى ، من أهم المسائل ، ولا سيما قضية مضمونها بالنسبة إلى نقدنا المعاصر وضروب أشعارنا المعاصرة وشتى المشكلات المتصلة أو المتعلقة بها ، وهي مسألة الإطالة في الشعر . قال ، وهو في آخر كتابه (ص ٥٠٣) : « إن الشاعر إذا أراد أن يشرح أموراً متعددة ذوات معان مختلفة في شعره واحتاج إلى إطالة ، بأن ينظم مثنى بيت أو ثلاثية أو أكثر من ذلك ، فإنه لا يجيد في الجميع ولا في الكثير منه ، بل يجيد في جزء قليل ،

والكثير من ذلك ردى غير مرضى ، والكاتب لا يوثق من ذلك بل يطيل في الكتاب الواحد إطالة واسعة تبلغ عشر طبقات من القراطيس أو أكثر ، وتكون مشتملة على ثلاثمائة سطر أو أربعمئة أو خمسمئة وهو مجيد في ذلك كله وهذا لا نزاع فيه لأننا رأيناه وسمعناه وقلناه ، وعلى هذا فإني وجدت العجم يفضلون العرب في هذه النكتة المشار إليها ، فإن شاعرهم يذكر كتاباً مصنفاً من أوله إلى آخره شعراً وهو شرح قصص وأحوال ، ويكون مع ذلك في غاية الفصاحة والبلاغة في لغة القوم كما فعل «الفردوسي» في نظم الكتاب المعروف بشاه نامه ، وهو ستون ألف بيت من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس وهو قرآن القوم وقد أجمع فصحاءهم على أنه ليس في لغتهم أفصح منه ، وهذا لا يوجد في اللغة العربية على اتساعها وتشعب فنونها وعلى أن لغة العجم بالنسبة إليها كقطرة من بحر » . ا هـ

القضية التي شرع بها وهي أن الإطالة يكون معها الإسفاف قائمة مسلم بها في جميع أودية البيان ، النظم والنثر والخطب والمشافهات والرسائل وهلم جرا . والفرق بين الشعر وغير الشعر خاصة في هذا الباب فرق درجة «كَمْ» ودرجة «كَيْفٍ» . وأحسب أن ابن الأثير تأثر ههنا بمقدمة المرزوقي لشرحه كتاب «الحماسة» فقد تعرض فيها لفضل الكاتب على الشاعر . وقطع ابن الأثير بأن الكاتب مما تتأني له الجودة مع

الإطالة ، وتزكيتها نفسه في مضمهر ذلك ،
غير مسلم به ؛ وكان أصوب لونه
على ضيق مجال الشعر العربي على النحو الذى
نبه به ابن المعتز حيث قال :

إن ذا الشعر فيه ضيق مجال

ليس كل الكلام ماشاء قالاً

يكتفى فيه بالإشارة والوح

ى ويحتال قائلوه احتيالا

وقد قال البهترى :

والشعر لمح تكفى إشارته

وليس بالنثر طولت خطبه

وكون الشعر لمحاً ، فرق « كيف » بينه
وبين النثر ، وكونه صناعة ذات أوزان
وقواف وإيقاع يحدث فرقاً في « السكم » .

وتبقى بعد مسألة أسلوب العرب وأسلوب
العجم في هذا الباب . وسيجع العربية لو
وقع في لغة من لغات العجم لعدّ شعراً
فها هنا اختلاف بين العربية وغيرها في
نفس صناعة الشعر يجب لفت النظر إليه .
ومن العجب أن ابن الأثير شبه « شاه نامه » في
باب الفصاحة عند الفرس بالقرآن في باب
الفصاحة عند العرب ، وهو يعلم أن القرآن
في العربية ليس بشعر ، وليس المبيّعد له عن
الشعر أنه ليس بموزون مقفى فحسب . ولكن
يبعده عن الشعر في المكان الأول أنه لا تفاوت
فيه ولا اختلاف وأن الناسخ والمنسوخ فيه
مرتبان على التدرج في التشريع والتخفيف
وفي الشعر التفاوت والاختلاف ؛ لأنه يصدر

عن انفعالات قلوب البشر ، وقلوب البشر
تتقلب ، يغضب الشاعر فيهجو وينشرح
صدره فيمدح وقس على ذلك ، قال تعالى :
« أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند
غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » .

ومع أن صناعة العجم شعراً تمكنهم
من الإطالة فيه ، لا يسلم مع ذلك شاعرهم من
الهبوط والإسفاف في مواضع ، حتى
إنما تسند إليه الفصاحة والتبريز من أجل
مواضع الإجابة التي يصيبها ، فيكون نعت
منظومته كلها بالجوذة وبالفصاحة من باب
التغليب وإطلاق الجزء على الكل . وهذا .
المعنى قد فطن له الناقد الإنجليزي كلردج ،
وعلله في فصل له مشهور متداول من كتابه
« بيوغرافيا ليتها رايأى الترجمة الأدبية »
وهو كتاب متعدد الموضوعات فيه مذكرات
واستطراد بعد استطراد ، ونحوض في أنواع
من الأقاويل تكون أحياناً غير مرتبطات ببعض
ونظرات في النقد ثاقبة . وقد كان ممن يقول
بأن للشعر لغة غير لغة النثر ، واحتج بأن لغة
الكتابة في النثر غير لغة المحادثة وذلك لما يقع
فيها من أناة الصنعة ، وهذا عنصر أقوى في
الشعر والفصل المشهور الذى تعرض فيه
لمسألة ما يعتري النظم بالضرورة من عنصر
اللاشعر هو الرابع عشر في أول المجلد
الثانى من طبعة لندن (١٩٠٧ م) لكتابه
المشار إليه آنفاً ، وقد فرق فيه بين المنظومة
والشعر بحجة أن الشعر إبداع مصدره في
الخيال ، والإبداع نادر بالضرورة والمنظومة

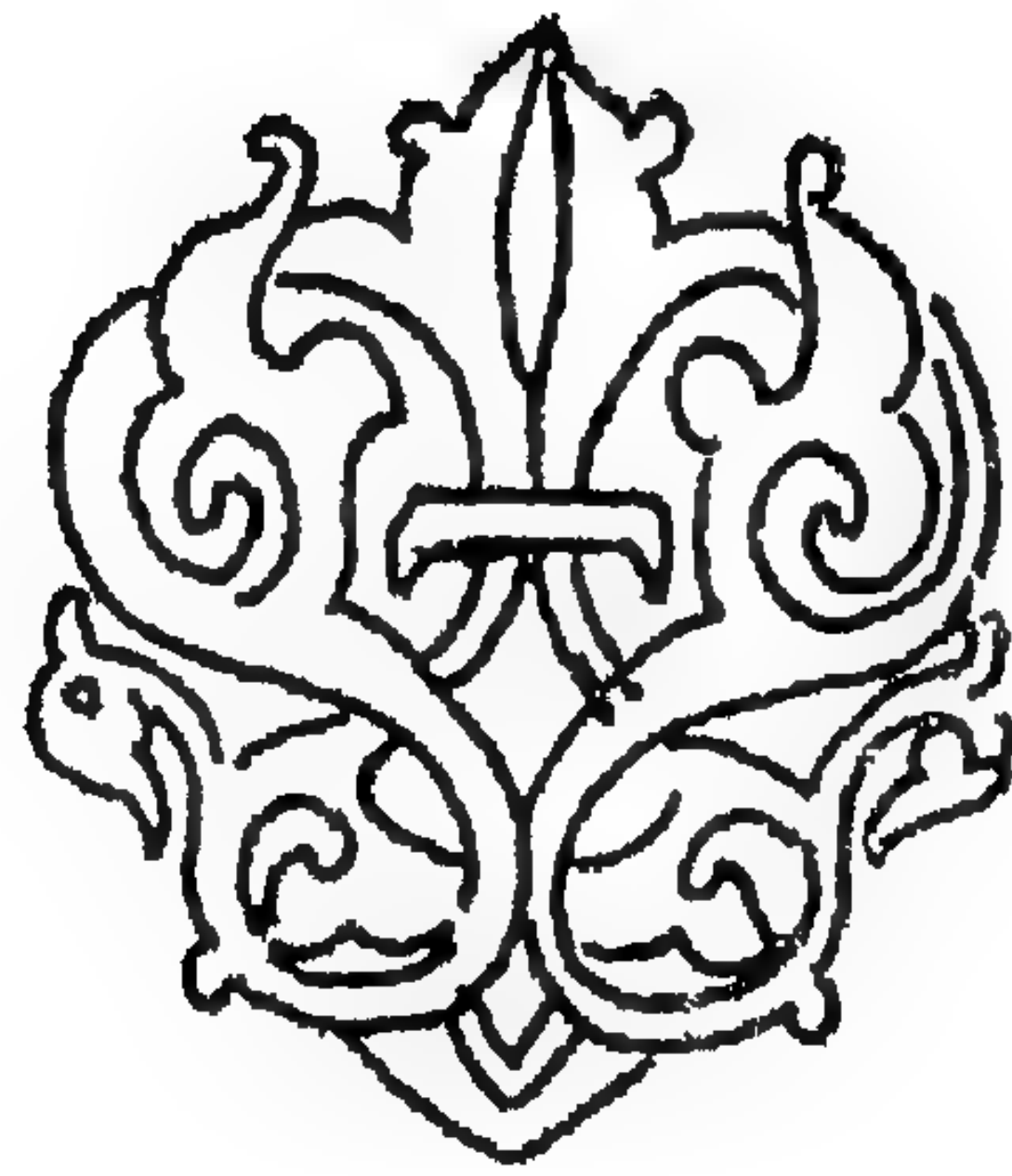
لا يمكن أن تكون كلها إبداعاً . والحجة التي لجأ إليها كلردج فلسفية دينية السخ يمكن رد أصولها إلى كلام أبي بكر بن الباقلاني في إعجاز القرآن . وإذا صرفنا النظر عن الجانب الديني اللاهوتي في كلام كلردج (راجع كتابه المجلد ١ ص ٢٠٢) فإن خلاصته أن المنظومات الطوال يدخلها الضعف واللاشعر . وعلى هذا تسقط الحجة التي تنظر إلى مطولات النظم الأعجمي بنوع من الافتتان .

ورحم الله نصر الله بن الأثير . فإن أقل ما يشي عليه به في كتابه «المثل السائر» سلاسة أسلوبه ووضوح الفكرة عنده . وقد كان مثله الأعلى في صناعات النثر والنظم أن يكون

الشعر ساخنا ولهذا نجد ميله إلى المتبني ظاهراً ، وأن يكون النثر مسيطراً فيه المعنى على اللفظ مع العناية بهذا وحسن اختياره ، وطريقة مجعه وتدقيقه في شتى أبواب كتابه تشهد بالتزامه بهذا المثل الأعلى الذي ارتضاه وأما تركيته نفسه فلعل الرجل قد كان له خصوم يعارضهم والله أعلم ، هذا وعسى أن نكون وفيناه في هذه الكلمة الموجزة بعض حقه . ونحتم بما ختم به رحمه الله كتابه من الصلاة على النبي وعلى آله وصحبه والتسليم تسليماً كثيراً ، والحمد لله سبحانه وتعالى في المبدأ والختام .

عبد الله الطيب

عضو المجمع من السودان



(*) طبع كتاب Biographai literana سنة ١٨١٧ م ثم كانت طبعته الأولى بعد ذلك سنة ١٩٠٧ والفصول النقدية الهامة المفيدة التي يرجع إليها فيه هي ١٣ ، ١٤ ، ١٨ وتكثر الإشارة إلى هذه الفصول في كتب النقاد الانجليز ونقول ، على طريقة ابن الأثير ، قد رجونا إليها وإلى كثير مما كتبوا والله المستعان .

من طرق القرآن الكريم

لدكتور تمام حسان

القرآن

لا تنقض عجايبه سواء

من حيث الله كل

أو المضمون ، والقرآن نص معجز سواء

من حيث الشكل أو المضمون . ولقد تصدى

العلماء قديما وحديثا للكشف عن ذخائر

القرآن وفوائد جواهره ومعارج تفوقه فجاءوا

من ذلك بالكثير ولكنهم تركوا من ذلك

أكثر من الكثير ينتظر من الغواصين طول

الأنفاس ومن الكشافين قوة الأنواء ومن

الباحثين نفوذ البصيرة . ولم يعد البحث عن

دور الكتاب الكريم وقفا على العرب ولا على

المسلمين فلقد نرى في أيامنا هذه ونسمع

المنصفين من الغربيين يكشفون عن صدق

المضمون القرآني في أمور تعتبر من دقائق العلم

الحديث وآخر من تصدى لذلك منهم الباحث

الفرنسي وريس بوكاي الذي أشاد بما راعه

من التطابق بين مضمون النص القرآني وبين

الثابت من حقائق العلم الحديث سواء في علم

الأجنة أو في الفلك أو في غيرهما من العلوم .

وأما من حيث الشكل فقد علمنا أن القرآن

تحدى العرب أن يأتوا بسورة من مثله وأن

يدعوا من استطاعوا من دون الله فلم تستطع

روائع الخطباء ولا سجع الكهان ولا شياطين

الشعر أن تدنو من القرآن لا بسبب الصرفة

كما زعم بعض المعتزلة (فنحن نعلم أن بعض

الناس حاول أن يأتي بمثل القرآن) ولكن

بسبب امتناع النص القرآني نفسه على من

يحاول محاكاة وتقليده . ولقد نشأت العلوم

اللغوية في التراث العربي في رحاب القرآن

وللاعانة على حسن فهمه ولكنها بنت ملاحظاتها

على كلام العرب ولم تجر استقراءها على القرآن

نفسه ، فلما اكتملت في أيدي العلماء حقائق

تلك العلوم وقواعدها عرضوها على النص

القرآني فانسجمت مع بعضه وقصرت دون

بلوغ البعض الآخر وظل القرآن فوق

النحو وفوق البلاغة وفوق غيرهما من علوم

العربية وإن أعانت هذه العلوم على فهمه .

ظل القرآن فوق هذه العلوم يتحدى قواعدها

وحقائقها كما تحدى الفصحاء من مقاولي

العرب من قبل فأصبح التحدي القرآني

منتصرا في مجالي النظرية والتطبيق على سواء .

ومن المعروف أن السياق اللغوي يعتمد

في فهمه على الخضوع لأنماط تركيبية معينة

ومن هنا جاءت الكلم أنواعا لكل منها موقع خاص في الكلام ولكل موقع إعراب يناسبه ولكل كلمة اختصاص بما يدخل عليها أو امتناع على ما يتنافى معها ولا بد لأجزاء الجملة من روابط تربط بعضها ببعض وهلم جرا . فلا يجوز أن تأتي الكلم متجاوزة كيفما لها التجاوز فيقال مثلا (على جلس الكرسي الرجل) إذ لا بد من إخضاع توالى الكلمات لشروط النمط التركيبي فيقال : « جلس الرجل على الكرسي » . والمعروف أن لكل لغة انسانية مجموعة من الأنماط قلت أو كثرت وترتبط الافادة بهذه الأنماط فإذا عرفنا أن نمط الجملة هو « الوضع » الذي تكون عليه من حيث الشروط النحوية التركيبية المتقدم ذكرها أدركنا ما يقصده النحاة من قولهم : « الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع » أى المفيد بحكم النمط المحدد نحويًا .

والقرآن فوق هذه الأنماط يعلو عليها ويتحداهما ويصل إلى المعنى فيبلغ غاية الإفادة ولو بدون « الوضع » ولأمر ما قال القراء : « القراءة سنة متبعة » وقصدوا بذلك أنها لا يجوز إخضاعها « للوضع » النحوى بما يشتمل عليه من قواعد وقيود وشروط . ولعل هذا يعد جانباً هاماً من جوانب الإعجاز القرآنى أفاض القدماء في شرحه ولكنهم لم يهتدوا إلى عدّه في وجوه الإعجاز . وسنحاول فيما يلى أن نلقى بنصيبنا من الضوء على بعض الطرق التى انفرد بها القرآن فى صياغة الجملة العربية

دون التزام منه « بالوضع » النمطى الذى اشترطه النحاة للوصول إلى الإفادة ، كما نحاول كذلك أن نأتى بظواهر أسلوبية معينة تتجاوز العلاقات النحوية إلى الوسائل البلاغية وأرجو أن نتمكن عند النظر فى هذه الطرق وتلك الظواهر من رؤية كيفية امتياز الشكل القرآنى بميزاته الخاصة وسيكون كلامنا عن البنية والتركيب والأسلوب

أولا - البنية :

الكلمة العربية من حيث بنيتها قسمان : تركيبية ومعجمية . فأما التركيبية فإنها تتناقض مع التعريف الذى وصفه النحاة للكلمة إذ قالوا « الكلمة ما دل على معنى مفرد » ولأن الكلمة التركيبية - كما يدل اسمها - لا معنى لها إلا فى السياق . فإذا دلّت « فى » على الظرفية فقد عبرت عن علاقة بين كلمتين فى السياق إحداهما ظرف رة أخرى مظروف . وإذا عبرت الواو عن العطف فمعناها هو العلاقة بين المعطوف عليه والمعطوف ، ومعنى « إلا » علاقة بين المستثنى منه والمستثنى ومعنى « إن » الشرطية علاقة ما بين الشرط والجواب ومن الكلمات التركيبية الحروف والضمائر والموصولات والإشارات وجوامد الظروف الخ ، وواضح أن هذه المعانى هى وظائف وليست من قبيل المعانى المفردة . لأن المعانى المفردة هى معانى الكلمة المعجمية إذ يدل لفظ « قلم » مثلا على شىء مادى وليس على وظيفة نحوية . وللقرآن طريقة خاصة فى التصرف فى بنية هذين

النوعين من الكلمات إما بالقلب أو التعديل أو الزيادة أو الحذف أو الفصل أو إهدار الاختصاص ونحو ذلك . وفيما يلي شواهد على هذه الطريقة :

(أ) القلب :

قال تعالى : « ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم » والمعروف أن قواعد النحو تضع الضمير بين « ها » التنبيه واسم الإشارة فتقول : هأنذا وها أنت ذا وهأنتم أولاء . وفي نص القرآن ذاته « هأنتم أولاء تحبونهم » وكذلك « هأنتم أولاء جادلتم فيما لكم به علم » ولكن التركيب الأول حدث فيه قلب للرتبة فتقدم الضمير على « ها » التنبيه فاصطقت « ها » باسم الإشارة أولاء .

(ب) التعديل :

قد يعتمد القرآن على تعديل صورة الكلمة فيضع بكه في مكان مكة وميكاك بدل ميكائيل وسينين لسيناء والياسين لإلياس وكبار لكبير وعجاب لعجيب ويهدى ليهدى ويخصمون ليختصمون وكذاب - لتكذيب وهلم جرا . وقد يكون بعض ذلك لمراعاة الفاصلة ولكن بعضه الآخر لا تفسير له إلا أن القرآن فوق اللغة .

ثانيا - التركيب :

وفيه الزيادة والحذف والفصل والاختصاص ونحوها :

فحوى القول بالزيادة أن النحويين

حين حددوا معالم « الوضع » (أى النمط) حددوه على أساس عناصر معينة ليس منها هذا الذى يعرف بأنه « زائد » وبذلك يصبح معنى لفظ « زائد » أنه هذا ليس من جملة العناصر التى يشتمل عليها « الوضع » الذى ربط النحويون به الإفادة . ولكن البلاغيين يجعلون لهذا الزائد « وظيفة » تقوية المعنى إذ يقولون : « زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى » . فالزائد عند النحويين مؤكد عند البلاغيين أى أن « ما زيد بقائم » هى تؤكد من « ما زيد قائم » ولقد حصر النحويون وعرف البلاغيون مواطن الزيادة وحددوا أماكنها وشروطها حتى كادوا يخلقون لها أنماطا فرعية . ولكن القرآن فوق كل ذلك إذ يجعل لنفسه حرية التصرف فى الزيادة على نحو لا يعترف بأنماط النحويين وحدودهم . ولك أن تتأمل طرق الزيادة فيما يلي :

١ - « فبما رحمة من الله لنت لهم » .

٢ - « فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم » .

٣ - « أتتركون فيها هذه آمنين » .

وفى هذه الشواهد الثلاثة زيادة « ما » بعد حرف الجر بينه وبين مجروره وهى طريقة قرآنية . وربما كانت الزيادة فى الشاهد الثالث مشتملة على حرف الجر بالإضافة إلى « ما » .

٤ - « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة » .

٥ - « وما يستوى الأعمى والبصير
ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور
وما يستوى الأحياء ولا الأموات » .

٦ - « لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم
بالنفس اللوامة » .

ومن الواضح أن الزائد في هذه الشواهد
لفظ « لا » الذى قبل السيئة والنور والحرور
والأموات ، وأقسم ، وهذه زيادة لم توضع لها
أنماط نحوية ولكن القرآن فوق النحو لأنه سنة
متبعة .

٧ - « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت
السموات والأرض وليكون من الموقنين »

٨ - « وكذلك نفصل الآيات ولتستبين
سبيل المجرمين » .

٩ - « وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق
الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها .. »
١٠ - « وكذلك نصرف الآيات وليقولوا
درست » .

وزيادة الواو واضحة قبل لام التعليل
في كل هذه الشواهد وليس هذا الموضع
مما عده النحاة من مواضع الزيادة ولكن
القرآن له طرقه التى لم يتسع لها النحو .

(١) زيادة الضمير :

١١ - « وأسروا النجوى الذين ظلموا » ،

١٢ - « الذين يقيمون الصلاة ويؤتون
الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون »

١٣ - « أولئك الذين لهم سوء العذاب
وهم بالآخرة هم الأخسرون » .

وقد نسب النحاة أشباه الشاهد الأول إلى
لغة بعض القبائل (فقعس وديبر) ولكن
الواضح أن الواو هنا زائدة وكذلك أحد
الضميرين في كل من الشاهدين الآخرين
ولا تبويب لذلك في النحو .

(ب) حذف الحرف :

وفحوى القول بالحذف أن عنصراً من
عناصر التركيب وجب ذكره بحسب
« الوضع » أو القيد أو القاعدة ولكنه لم يذكر
في الاستعمال ومن ثم قيل إنه محذوف
وشرط حذفه وجود ما يدل عليه ، لأن
القاعدة المنهجية العامة تقول : « لا حذف
إلا بدليل » ، ولأن الحذف بلا دليل يؤدى
إلى اللبس . وهناك حروف أوجب النحو
العربى ذكرها في مواضعها منها :

(١) همزة الاستفهام وقد أوجب النحو
ذكرها لأن التراث العربى تراث ينتقل بالكتابة
من جيل إلى جيل ، والكتابة العربية خالية
من علامات الترقيم ومن ثم تخلو من رمز يدل
على الاستفهام ، ولهذا جعلت الهمزة في
أول الجملة الاستفهامية في مقام علامة الاستفهام
التي توجد في آخر الجملة المكتوبة .

(٢) الفاء الواقعة في جواب الشرط عند
ملا يصلح الجواب أن يكون شرطاً لأن معظم
صور الجملة في هذه الحالة ملبسة ، والقاعدة

المنهجية التي عبر عنها ابن مالك تقول :
« وإن يشكل خفيف لبس أو يجتنب » انظر
مثلاً إلى جملة « من عمل صالحاً فلنفسه »
وتصور حذف الفاء فسترى عندئذ أن الجار
والمجرور يصلح للنعت كذلك .

(٣) « قد » قيل الماضي في جملة الحال
لمنع القياس معنى الواو التي قبل قد بالعطف
في نحو : « قال وقد رفع صوته : كيف
حالك ؟ » . فحذف « قد » هنا يؤدي إلى
اللبس .

(٤) حرف الجر يتكرر عند العطف
على ما جر به منعاً لالتباس العطف بمعنى آخر
كالقسم في حالي الياء والواو مثلاً ، وبخاصة
إذا كان المكان غير صالح لنزع الحافض .

ولكن القرآن يحذف ولا يلبس ، وهذا
مما اختص به القرآن . انظر مثلاً الشواهد
الآتية لحذف الحرف (وسترى الحرف
المحذوف مثبتاً بين قوسين في سياق الشاهد) :

١ - « لئن بسطت إلى يدك لتقتلني (ف)
ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك » فحذف فاء
الجواب .

٢ - « ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم
(ف) قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا ... » .

أو « ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم
قلت : لا أجد ما أحملكم على (ف) تولوا ... » .

ففاء العطف محذوفه في أحد الموضعين .
٣ - « قال (أ) ومن ذريتي قال لا ينال
عهدي الظالمين » :
٤ - « (أ) وتلك نعمة تمنّٰها علىّ أن
عبّدت بني إسرائيل » .

٥ - « (أ) مثل الجنة التي وعد المتقون
فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن
لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذّة للشاربين
وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل
الثمرات ومغفرة من ربهم كـ (مثل) من
هو خالد في النار وسقوا ماء حميماً فقطع
أمعاءهم » .

٦ - « إن ربك هو أعلم (ب) من ضل عن
سبيله وهو أعلم بالمهتدين » .

٧ - « قال ربّ أعلم (ب) من جاء بالهدى
و (ب) من هو في ضلال مبين » .

٨ - « قالوا ياموسى اجعل لنا إلهاً كما
(أن) لهم آلهة » .

٩ - « لا تركضوا وأرجعوا إلى ما أترقم
فيه و (إلى) مساكنكم » .

١٠ - « وآخرون مرجون لأمر الله إما (أن)
يعذبهم وإما (أن) يتوب عليهم » .

١١ - « قالوا و (قد) أقبلوا عليهم ماذا
تفقدون » .

(ج) حذف الكلمة :

والمقصود بالكلمة هنا أن تكون مبتدأ
أو خبراً أو عاملاً أو متعلقاً للظرف والمجرور

١١ - « فمن كان منكم مريضاً أو على سفر
فـ (حكمه) عدة من أيام أخر » .

١٢ - « وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن
وقد فرضتم لهن فريضة فـ (فريضتهن) نصف
ما فرضتم » .

١٣ - « كذلك يضرب الله (مثل) الحق
والباطل » .

١٤ - « هو الذي أنزل عليك الكتاب
منه آيات محكمات هنّ أم الكتاب و (آيات)
أخر متشابهات » .

١٥ - « فلما أثقلت دعوا الله ربهما
لئن آتيتنا (غلاماً) صالحاً لنكونن من الشاكرين »

(د) حذف شطر الجملة :

وهنا أيضاً يلزم أن يكون هناك دليل
للمحذف ولكن القرآن يتحدى هذه القاعدة
أحياناً وهو ما يزال بمنأى عن اللبس لسهولة
استخراج المحذوف بالقرائن الحالية حين
تعز القرائن الحالية . وفيما يلي طائفة من الجمل
التي حذف شطرها نجعلها شواهد على هذه
الظاهرة :

١ - « الذين يتخذون الكافرين أولياء
من دون المؤمنين (يخذعون أنفسهم) أيبتغون
عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً » .

٢ - « والذين آمنوا وعملوا الصالحات
(سنخفف عنهم) لانكلف نفساً إلا وسعها » .

أو موصوف أو صفة أو غير ذلك . وكما
وضعتنا الحرف المحذوف بين قوسين عندما
عرضنا الشواهد على حذف الحرف سنضع
الكلمة المحذوفة بين قوسين في شواهد حذف
الكلمة على نحو ما يلي :

١ - « (سنن) سنة من قد أرسلنا قبلك
من رسلنا ولا تجد لسننتنا تحويلاً » .

٢ - « كهيعص (هذا) ذكر رحمة
ربك عبده زكريا » .

٣ - « الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض
الأرحام وما تزداد (هو) عالم الغيب والشهادة »

٤ - « ذلك عيسى بن مريم (أقول)
قول الحق الذي فيه يمترون » .

٥ - « (نزلناه) تنزيلاً ممن خلق الأرض
والسموات العلى » .

٦ - « واضمهم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء
من غير سوء (نجعلها) آية أخرى » .

٧ - « وترى الحبال تحسبها جامدة وهي تمر مر
السحاب (ترى) صنع الله الذي أتقن كل
شيء » .

٨ - « (بلدتكم) بلدة طيبة و (ربكم)
رب غفور » .

٩ - « (تستكبرون) استكباراً في الأرض
و (تمكرون) مكر السيء » .

١٠ - « فمن عفى له من أخيه شيء
فـ (سبيله) اتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان »

٣ - « حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا ألاّ ملجأ من الله إلاّ إليه (غفر لهم) ثم تاب عليهم ليتوبوا » .

٤ - « إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم (لا يضروه شيئاً) وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

٥ - « أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة (ناج من العذاب) وقيل للظالمين ذرّوا ما كنتم تكسبون » .

٦ - « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه (خير أمن قسا قلبه) فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله » .

٧ - « (أذلك الكافر) أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه » .

٨ - « أو آباؤنا الأولون (مبعوثون) » .

٩ - « حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتهم (تباينتم) منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة » .

١٠ - « فإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبغى نفقاً في الأرض أو سُلماً في السماء فتأتيهم بآية (فافعل) ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكرن من الجاهلين » .

١١ - « ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون (لكان خيراً لهم) إنما الصدقات للفقراء والمساكين » .

١٢ - « ولولا أن تأتيهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين (لأصبناهم يعذاب) فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى ... » .

١٣ - « وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون (أعرضوا) وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضون » .

١٤ - « ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم (ما كففتنا أيديكم عنهم) ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً » .

١٥ - « أثنا متنا وكنا تراباً (إننا لمبعوثون) ذلك رجع بعيد » .

١٦ - « ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم (لأصابكم بفعلكم عذاب أليم) إن الذين جاؤا بالأفك عصابة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم ... » .

١٧ - « ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم (ما زكى منكم من أحد أبداً) يأبى الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم » .

(هـ) حذف كلام يقتضيه المعنى :

والمقصود بالكلام الذى يقتضيه المعنى كلام لا يمكن أن يتصل ما بعده بما قبله إلا بواسطة تقديره لأن مضمونه يعد تمهيداً منطقياً لما يأتى بعده بحيث لا يستغنى عنه فهم المعنى وإن استغنى عنه سياق النص . ويكثر هذا النوع من الحذف فى أسلوب القرآن فى سياق سرد الأحداث وفى القصص . ولو أننا وازنا بين المحذوف من النص وبين نظيره فى الأدب المسرحى العادى لوجدنا هذا المقابل فى المسرحية قولاً أو حركة معينة أو عملاً يعينه يراه المشاهد فيستغنى به عن الكلام . ولكن النص القرآنى يستغنى عن المحذوف دون الاستعانة بما ينوب عنه ومع ذلك يظل مفهوماً فهماً تاماً . ولنا أن ننظر فيما يلى :

١- «ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم و (يقولون لهم) ذوقوا عذاب الحريق ... »

٢ - « يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم (يقال لهم)

هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

٣ - « وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض (وتساءلوا) هل يراكم من أحد ثم انصرفوا » .

٤ - « ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره لیسجنن وليكونن من الصاغرين (وعادت إلى مراودته فأبى عليها) قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه ... »

٥ - « ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين (فأدخلوه السجن) ودخل معه السجن فتيان (رأى كل منهما فى المنام رؤيا قصصها على يوسف) قال أحدهما إني أرانى أعصر خمراً وقال الآخر إني أرانى أحمل فوق رأسى خبزاً تأكل الطير منه » .

٦ - « وقال الذى نجا منهما وادّكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون (إلى يوسف فأرسلوه إليه فلما أتاه قال) يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان ... » .

٧ - « ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون (وعاد الفتى إلى الملك فأخبره بما قال يوسف فعجب الملك لما سمع) وقال الملك إئتوني به (فأرسلوا إليه رسولا) فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم (فدعا الملك بهن فأحضرن أمامه) قال ما نخطبكن إذ راودتن يوسف ... » .

٨ - « قال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي
(فأتوه به فأقبل عليه بكلمه ويسمع منه)
فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين
قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ
عليه (فأجابه الملك إلى ما طلب) وكذلك
مكننا ليوسف في الأرض . »

٩ - « ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا
إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا
للغيب حافظين واسأل القرية التي كنا فيها
والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون (فلما
رجعوا إليه وأنبروه بذلك) قال (ليس
الأمر كما زعمتم) بل سولت لكم أنفسكم
أمراً . »

١٠ - « يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف
وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا يأس
من روح الله إلا القوم الكافرون (فذهبوا
يتحسسون من أخويهم حتى إذا بلغوا قصر
العزیز استأذنوا فأذن لهم) فلما دخلوا عليه
قالوا . »

١١ - « وعرضوا على ربك صفاً (فقال
لهم) لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة . »

١٢ - « فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة
قالت ياليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً
(ثم ولدته فنظرت فإذا هي غلام فلم يخفف
ذلك من حزنها) فناداها من تحتها ألا تحزني . »

١٣ - « قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى وألق
مافي يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد

ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى (فأطمأن
قلبه وألقى بمافي يمينه وألقوا مافي أيمنهم
فابتلعت عصاه حبالهم وعصيهم) فألقى السحرة
سجداً قالوا آمنا برب هارون وموسى . »

١٤ - « لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه
أو ليأتيني بسلطان مبين (فلما حضر الهدم
دنا من سليمان) فكش غير بعيد »

١٥ - « يوم تبدل الأرض غير الأرض
والسموات (غير السموات) وبرزوا لله
الواحد القهار . »

١٦ - « وجاءت كل نفس معها سائق
وشهيد (يقولان) لقد كنت في غفلة من هذا
فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد
وقال قرينه هذا ما لدى عتيد (فقال للسائق
والشهيد) ألقيا في جهنم كل كفار عنيد . . . »

(و) الفصل :

والمقصود به أحد أمرين : الفصل بين
أمرين يختص أحدهما بالآخر والفصل بين
الحمل المتتابعة مع إمكان وصلها بعطف
أو نحوه فمن ذلك الفصل بين الموصوف
وصفته وقد وضع الفاصل بين قوسين نحو :

١ - « يسبح لله (مافي السموات ومافي
الأرض) الملك القدوس العزيز الحكيم . »

٢ - « يوم يأتي أمر ربك لا ينفع نفساً
(إيمانها) لم تكن آمنت من قبل أو كسبت
في إيمانها خيراً . »

**(ز) الاختصاص وهو نوع من التضام
النحوى :**

وهذا النوع من الترخيص القرآنى فى الاختصاص من أوضح الأدلة على أن القرآن أوسع من النحو وأن النحاة حين ألقوا بثقلهم على الشعر العربى فجعلوه محال استقرارهم ومعين شواهدهم إنما اعتمادوا على شكل من أشكال التعبير مكبل فى أغلال الوزن والقافية فلا بد أن يحكم الوزن على الحملة الشعرية بالإيجاز وعلى الكلمة الشعرية بتيود فنية متعددة ومن ثم لم يكن للشعر العربى ما للقرآن من الحرية فى مجال التعبير وتلك حرية لا يحد من انطلاقها قيد حتى ولو كان الفاصلة لأن الفاصلة القرآنية لا تتسم بالالتزام على نحو ما تتسم القافية الشعرية . فإذا كان ذلك كذلك فلنا أن ننظر فى الشواهد التالية لنرى مظهر الحرية والتحدى ثم البعد عن اللبس فى بناء الحملة القرآنية :

١ - المعروف أن « لو » تدخل على الفعل الماضى مباشرة أو لكونه خبراً لأن وأن جوابها إذا احتاج إلى رابط اكتفى باللام ومع ذلك نجد فى القرآن : « قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذاً لأمسكنكم نخشة الإنفاق » فدخلت « لو » على الضمير واشتمل جوابها على « إذا » .

٢ - « والمقرر فى جواب لو أن يكون فعلاً ماضياً كذلك ولكننا نجد فى القرآن : « ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير » فنرى الجواب جملة اسمية .

٣ - « وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربى (لتأتينكم) عالم الغيب » .

٤ - « قالت رسالهم أفى الله (شك) فاطر السموات والأرض ... » .

٥ - « وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض (ومغاربها) التى باركنا فيها ... » .

أو بين المعطوف والمعطوف عليه نحو :

٦ - « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين (إحساناً) وبذى القربى ... » .

٧ - « إذ الأغلال (فى أعناقهم) والسلاسل يسحبون ... » .

٨ - « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى حتى يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه (ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا) ولا مستأنسين لحديث) » .

أو بين الفعل ومفعوله بأجنبى نحو :

٩ - « أفلم يروا (كم أهلكنا قبلهم من القرون) أنهم إليهم لا يرجعون » .

١٠ - « قال : آتونى (أفرغ عليه) قطراً » .

أوبين الأداة ومدخولها نحو :

١١ - « فلولاً (إن كنتم غير مدينين) ترجعونها إن كنتم صادقين » .

٣ - من المعروف أيضاً أن الموصولات فيها من العموم ما يأذن لبعضها (مثل من وما) أن ينتقل من الموصولية إلى معنى الشرط فيستعمل أداة للشرط وتلزم الفاء في جوابه إذا لم يصلح هذا الجواب أن يكون شرطاً . أما ما لا يتحول إلى الشرطية فهي الموصولات فإنه إذا وقع مبتدأ فكانت له الصدارة في الجملة اكتسبت من معنى العموم وموقع الصدارة شبهاً بمن وما اللتين انتقلتا إلى الشرطية فصح في خبره أن يقرن بالفاء كما يقرن جواب الشرط . وقد قدم النحاة لنا من ذلك مثالا يقول : « الذي يأتيني فله درهم » ولكن القرآن إذ يشتمل على شواهد من هذا القبيل يضيف إلى هذا التركيب توسعاً آخر في مجالين : الأول : إنه قد يجعل الموصول اسماً لأن ويبقى على الفاء في الخبر : والثاني : أنه قد يسحب هذه الخصائص على « ال » الموصولة فيجعلها كبقية الموصولات الاسمية . ويتضح كل ذلك فيما يلي :

أولاً - الفاء في خبر الموصول المبتدأ :

* « والذين قتلوا في سبيل الله فإن يضل أعمالهم » .

* « والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم » .

ثانياً - الفاء في خبر ان التي اسمها موصول :

* « إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم » .

« إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق » .

ثالثاً - الفاء في خبر الوصف المقترن بسأل الموصولة :

* « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » .

* « والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة » .

٤ - وفي النحو أن النكرة توصف بالنكرة كما توصف المعرفة بالمعرفة ولكن القرآن يتحدى قواعد النحاة في الشواهد الآتية التي وصفت فيها النكرة بالاسم الموصول وهو معرفة :

* « ألقيا في جهنم كل كفار عنيد مناع للخير معتد مريب الذي جعل مع الله إلهاً آخر » .

* « هذا ما توعدون لنكل أبواب حفيظ من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب » .

* « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل » .

* « ويل لكل همزة لمزة الذي جمع مالا وعنده » .

٥ - عطف المتغايرين :

للعطف في صناعة النحو شروط تأتي من الاعتراف بالمشاركة بين المتعاطفين في الخصائص ومن هنا يعطف الاسم على الاسم والفعل على الفعل ثم في نطاق الفعل يعطف الماضي على الماضي ويعطف الحاضر على الحاضر وكذلك المستقبل على المستقبل . هذا في النحو . أما في القرآن فقد يعطف المتخالفان ويظل المعنى مع ذلك واضحاً واللبس مأموراً وينكشف الجانب الجمالي في هذا العطف الذي يتحدى النحو والنحاة . من ذلك :

* « إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى » .

* « يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار » .

* « يوم ينفخ في الصور ففرع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله » .

* « والله الذى أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور » .

٦ - تشويش الرتبة :

ليس في النحو ما يأذن بعكس رتبة محفوظة ولكن القرآن يبدى من الحرية في ترتيب الكلام ما لا مثيل له في نص عربى آخر ومع ذلك يتضح المعنى ويؤمن اللبس ويتحقق الجمال . ومن شواهد هذه الظاهرة ما يلي :

* توسط الخبر المقترن بضمير الفصل بين « لكن » واسمها في قوله تعالى : « لكن هو الله ربى » لكن ربى هو الله .

* تقدم الحال الجملة على الفعل وصاحب الحال في قوله تعالى : « ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه » . وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ويصنع الفلك .

* تقديم نائب المفعول المطلق على المفعول به وصفته الظرف وتقديم ذلك كله على الفاعل في قوله تعالى :

« أثفكاً آلهة دون الله تريدون » * أقريدون آلهة دون الله إفكاً .

* تأخير « لا » المؤكدة للنفي عن موضعها من الكلام كما في قوله تعالى : « وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسىء . . . » وما يستوى الأعمى والبصير ولا الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمسىء .

* تقديم الخبر الجار والمجرور ثم الحال على المبتدأ صاحب الحال في قوله تعالى :

« فله جزاء الحسنى » فالحسنى له جزاء .

هذا نموذج مما يوجد في القرآن من الظواهر التركيبية التي يصعب إحصاؤها في المجلدات الطوال فما بالك بعجالة مثل هذا البحث قصد بها أن تكون على سبيل الإشارة فعسب ، وليس يتسع المقام للكلام في ظواهر أخرى كمجىء الخبر جملة إنشائية وجعل الظرف

مضافاً إليه والترخص في المطابقات ومزج
الكلمة في غيرها وتداخل الشرط في الشرط
وكذلك الشرط في الخبر وعدم تعليق الجار
والمحذور إلى غير ذلك من الظواهر التركيبية
التي تمسك عن الكلام فيها طلباً للاختصار
والاقتصار .

ثالثاً - الأسلوب :

في تناولي لأسلوب القرآن سيكون من
همي أن أكشف عن بعض طرق القرآن
للوصول إلى المعنى إما بإجراء يتصل بالمعاني
الوظيفية لعناصر الكلام وإما بطريقة رد
القرآن على المزاعم التي يزعمها الذين كفروا
من أهل الكتاب والمشركين حتى من بعد
ما بجاعتهم البينة . وسأعرض لشواهد مختصرة
على هذين النوعين على الترتيب وأقتصر
عليهما فقط :

١ - التصرف في المعاني الوظيفية :

سأعرض هنا لوسيلة القرآن للتعبير عن
التكثير والتأكيد والتفصيل والتضمين والقطع
والإشارة ونحو ذلك على النحو التالي :

التكثير :

يستعمل القرآن للتكثير طرقاً تشيع في غيره
كاستعمال « كم » نحو :

« وكم من قرية أهلكناها فجاءها
بأسنا بياتاً أو هم قائلون » .

« وكم قصصنا من قرية كانت ظالمة
وأنشأنا بعدها قوماً آخرين » .

وقد يستعمل الإبهام وسيلة من وسائل
التعبير عن التكثير نحو :

« جنود ما هنالك مهزوم من الأحزاب »

ولكن القرآن يستعمل وسيلة أخرى يكاد
يختص بها وهي « كآين » نحو :

« وكآين من نبي قاتل معه ربيون كثير
فما وهنوا . . . » .

« وكآين من قرية أهلكناها وهي
ظالمة فهي خاوية على عروشها . . . » .

« وكآين من دابة لا تحمل رزقها الله
يرزقها وإياكم » .

التأكيد :

وما أكثر طرق التأكيد في القرآن ولكنني
سأحصر كلامي في الطرق القرآنية التي لا تكاد
تجدها في غير القرآن وأهم ما لفت نظري من
ذلك التأكيد بالحرف ، ومن ذلك :

« الاستفتاح بفاء استثنائية لا تربط

ما بعدها بشيء قبلها في قوله تعالى : « فلم
تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت
ولكن الله رمى » .

« التأكيد بالفاء وثم وبتكرار اللفظ

جميعاً في قوله تعالى : « أولى لك فأولى ثم
أولى لك فأولى » .

التفصيل :

ويلفت النظر من ذلك أن يكون التفصيل
إبدالا مما سبق كما في قوله تعالى :

* « حتى إذا رآوا ما يوعدون إما العذاب
وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكاناً
وأضعف جنداً » .

* أو أن يقع التفصيل موقع الحال كما
في قوله تعالى : « هو الذي خلقكم فمنكم
كافر ومنكم مؤمن » .

التضمن :

وفي القرآن من هذه الظاهرة الشيء الكثير
ولكنني سأختار ثلاثة شواهد يتضح بها
التضمن كما يلي :

* قال تعالى : « وأما ثمود فهذه ينهم
فاستحبوا العمى على الهدى » ومن الواضح
أن حرف الجر «على» ليس مما يدخل على الفعل
« استحب » ولكن الفعل هنا ضمن معنى
« فضلوا » فدخل عليه حرف الجر .

* قال تعالى : « وقال الرسول يارب إن
قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً » والمعروف
أن المفعول الثاني للفعل « اتخذ » إذا جاء وصفاً
فلا بد أن يكون قد نقل إلى الاسمية كأن
نقول : « اتخذت فلاناً حارساً أو صديقاً
أو خليلاً أو رداءً أو وزيراً . . . إلخ »
أما أن يبقى على الوصفية فهذا لا يتفق مع
إرادة الإفادة . وواضح أن « مهجوراً »

غير منقول إلى الاسمية لأنه لا يدل على مسمى
وإنما هو وصف باق على الوصفية فلم يبق
إلا أن يكون القرآن قد ضمن « اتخذوا »
معنى « صبروا » أو « جعلوا » فيستقيم المعنى .

* قال تعالى : « فتبسم ضاحكاً من
قولها . . . » وقد نصب لفظ « ضاحكاً » على
الحال وتعلق به الجار والمجرور . ولقد كان
من الممكن أن يكون المعنى « فتبسم ساخراً »
من قولها على زعم أن « ضحك منه » قد تدل
على « سخر منه » أو « سخر به » ولكن سليمان
لم يكن يسخر من النملة وإنما كان يعجب من
قولها . ولما لم يكن في اللغة « ضحك منه »
بمعنى « عجب منه » فإن هذا المعنى لا ينسب
إلى الآية إلا على سبيل التضمن أي تضمن
« ضاحكاً » معنى « عاجباً » .

قطع المفعول :

ومعنى ذلك أن يعتمد النص إلى مفعول
فيقطعه عن سياقه بتسليط غير فعله عليه كما
في قوله تعالى : « ليجزى الذين آمنوا وعملوا
الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم »
أي « ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات
مغفرة ورزقاً كريماً » .

تقليب الإشارة :

وسأسوق من ذلك شاهدين أحدهما يشار
فيه إلى متأخر في الكلام قبل ذكره مع العلم
أن الإشارة تكون للحاضر لا للآجل . والثاني

يشتمل على إشارة معنى مستخلص لم يصرح
بلفظ ، فالأول :

* قوله تعالى : « ذلك جزاء أعداء الله
النار » .

والثاني قوله تعالى : « ولمن صبر وغفر
إن ذلك لمن عزم الأمور » لأن المشار إليه هنا
هو الصبر المستخلص من « صبر » والغفران
المفهوم من « غفر » .

١٢ - الرد على المزاعم :

وطريقة القرآن في الرد على مزاعم الكافرين
لا تخرج عن واحدة مما يأتي :

(أ) الاعتذار .

(ب) التنزيه .

(ج) الدعاء .

(د) التعجيز .

(هـ) التكذيب .

(و) الوعيد .

(ز) التعليق .

(ح) الإجابة :

١ - بسؤال .

٢ - بأمر بالسؤال .

٣ - بجواب .

٤ - بأمر بالجواب .

(ط) المزج بين اثنتين أو أكثر من هذه
الطرق .

وفيما يلي الاستشهاد على ذلك :

(أ) الاعتذار :

* « ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه
آية من ربه

قل إنما أنت منذر

والكل قوم هاد » .

* « والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما
أنزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه
قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به
إليه أدعو وإليه مآب » .

(ب) التنزيه :

* « وقالوا اتخذ الله ولداً
سبحانه

بل له ما في السموات والأرض
كل له قانتون » .

* « وقالوا اتخذ الله ولداً
سبحانه

بل عباد مكرمون
لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » .

(ج) الدعاء :

* « وقالت اليهود يده الله مغولة
غلت أيديهم
ولعنوا بما قالوا » .

* « ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرمًا
ويتربص بكم الدوائر
عليهم دائرة السوء
والله سميع عليم » .

* « وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون » .

(د) التعجيز :

* « وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » .

* « أم يقولون افتراه »

قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين » .

* « أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم »

هذا ذكر من معنى وذكر من قبلى بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون » .

(هـ) التكذيب :

* « وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون » .

* « وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون » .

* « يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا » .

* « وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون » .

(و) الوعيد :

* « فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتهم أنباء ما كانوا به يستهزئون » .

* « وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة للذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم » .

* « يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم قل استهزئوا إن الله مخرج ما كنتم تحذرون » .

(ز) التعليق :

* « يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة » .

* « وقالوا لولا أنزل عليه ملك
ولو أنزلنا ملكاً لقضى الأمر
ثم لا ينظرون

ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا
عليهم ما يلبسون » .

* « وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول
أيكم زادته هذه إيماناً

فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً
وهم يستبشرون

وأما الذين كفروا فزادتهم رجساً
إلى رجسهم

وماتوا وهم كافرون » .

* « وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان

خيراً ما سبقونا إليه وإذا لم يهتدوا به
فسيقولون هذا إفك قديم

ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة
وهذا كتاب مصدق

لساناً عربياً

لينذر الذين ظلموا

وبشرى للمحسنين » .

(ح) الإجابة :

١ - بسؤال :

* « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا

بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا

أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً
ولا يهتدون » .

* « ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً
معدودات وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون

فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه
ووفيت كل نفس ما كسبت
وهم لا يظلمون » .

* « فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقال

هذا إلهكم وإله موسى فنسى

أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا
ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً » .

* « وقالوا لولا يأتنا بآية من ربه

أولم تأتتهم بينة ما في الصحف الأولى »

٢ - بالأمر والسؤال :

* « وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة

قل أتخدتُم عند الله عهداً فلن يخاف
الله عهده

أم تقولون على الله ما لا تعلمون » .

* « قل من يرزقكم من السماء والأرض

أمن يملك السمع والأبصار

ومن يخرج الحي من الميت

فسيقولون الله !

قل أفلا تتقون

فذلكم الله ربكم الحق

فماذا بعد الحق إلا الضلال

فأنى تصرفون » .

٣ - الجواب :

* « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث

الله من يموت

بلى !

وعداً عليه حقاً

ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

* « أحيى الإنسان ألن نجتمع عظامه
بلى قادرين على أن نسوى بنانه » .

٤ - الأمر بالجواب :

* « فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله
وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في
سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر
قل نار جهنم أشد حراً
لو كانوا يعلمون » .

* « وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه
قل إن الله قادر على أن ينزل آية
ولكن أكثرهم لا يعلمون » .

* « وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئذا
لمبعوثون خالقاً جديداً

قل كونوا حجارة أو حديداً
أو خلقاً مما يكبر في صدوركم » .

(ط) المزج بين اثنتين أو أكثر من هذه الطرق :

* « ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت
أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا
رسولاً فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين فلما
جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل
ما أوتى موسى

أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل
وقالوا سحران تظاهرا وإنا بكل كافرون
قل فأتوا بكتاب من عند الله هو
أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين
فإن لم يستجيبوا لك فاعلم إنما يتبعون
أهواءهم

ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى
من الله
إن الله لا يهدي القوم الظالمين » .

* « وقالوا إن تتبع الهدى معك نتخطف من
أرضنا

أولم نمكن لهم حرماً آمناً يجي إليه
ثمرة كل شئ رزقاً من لدنا
ولكن أكثرهم لا يعلمون

وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها
فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم
إلا قليلاً وكنا نحن الوارثين

وما كان ربك ليهلك القرى حتى
يبعث في أهلها رسولا يتلو عليهم
آياتنا

وما كنا بمهلكي القرى إلا وأهلها
ظالمون » .

* « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم
نذير ل يكونن أهدي من إحدى الأمم فلما
جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً

استكباراً في الأرض ومكر السيء
ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله
فهل ينظرون إلا سنة الأولين

ولن تجد لسنة الله تبديلاً
ولن تجد لسنة الله تحويلاً » .

* « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل
من القريتين عظيم
أهم يقسمون رحمة ربك

نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة
الدنيا

ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات
ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً

ورحمة ربك خير مما يجمعون .

« إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة

إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون

أفنجعل المسلمين كالحجر من

ما لكم

كيف تحكمرون

أم لكم كتاب فيه تدرسون إن لكم

فيه لما تخيرون

سلهم أيهم بذلك زعيم

أم لهم شركاء

فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين

فذرني ومن يكذب بهذا الحديث

سنستدرجهم من حيث لا يعلمون

وأملى لهم

إن كيدى متين

أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون

أم عندهم الغيب فهم يكتبون

فاصبر لحكم ربك

ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى

وهو مكظوم .

« وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين

لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا

أو بدله

قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسه

إن أتبع إلا ما يوحى إلى

إنى أخاف إن عصيت ربي عذاب

يوم عظيم

قل لو شاء الله ما تلوته عليكم

ولا أدراكم به

فقد لبثت فيكم عمراً من قبل

أفلا تعقلون .

« بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو

شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون

ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها

أفهم يوثنون

وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم

فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون

وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام

وما كانوا خالدين

ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء

وأهلكنا المسرفين

أفلا أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم

أفلا تعقلون .

هذا بعض من طرق القرآن في التعبير الحر

وفي التحدى المعجز ظهر بها أن القرآن نص

عربي ولكنه يهيم على اللغة ولا تهيم

عليه اللغة ويتسع للنحو ولا يتسع له النحو

أفلا يجب بعد هذا أن نعترف بصحة قول من

قال : « القرآن لا تنقض عجائبه » ؟

تمام حسان

عضو المجمع

عوائل الأعيان

في غابر العصور والأزمان

للكبير رولف زلهاميم

«الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة» للغزى (ت ١٠٦١-١٦٥١)، وفيه حوالى ١٥٠٠ ترجمة، وأخيراً وليس آخراً : كتاب «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر» للمجيبى (ت ١١١١-١٦٩٩)، وقد ترجم فيه لما يقارب من ١٣٠٠ رجل وامرأة ٥

إن هذه المصنفات وأمثالها لتمسكنا من التعرف على عوائل كاملة، عاشت في القاهرة مثلاً، أو في دمشق وحلب أو في بروسه أو في القسطنطينية، بل وتمسكنا من تتبع وإرجاع أصولها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أحياناً، وملاحقة فروعها إلى عصرنا الحاضر، كما تساعدنا على تبين وقائع وتواريخ حياة بعض أفرادها وأعمالهم ومهنهم. وليس غريباً أن يصبح بوسعنا اليوم تعميق مواد هذه المصنفات المدهشة والإضافة إليها.

كلنا يدرك ضخامة المادة المخطوطة التى خلفها لنا العصور الإسلامية الغابرة

مننا لم يعد خلال مطالعته وأبحاثه إلى أمهات كتب التراجم الإسلامية الثرة، ومن مننا لم يلاحظ أن كثير آمن ذكر فيها من الرجال والنساء ليسوا دوماً أشخاصاً متفرقة بل إنهم ينتمون غالباً إلى عوائل معينة، أخرجت العديد من رجال العلم والدولة. ومما يجدر التنويه به من كتب التراجم الضخمة التى صنفت مثلاً بعد عصر التتار، وهى لعمري غيض من فيض : كتاب «الدرر الكامنة في عيان المئة الثامنة» لابن حجر العسقلانى (ت ١٤٤٩/٨٥٢) وهو يضم ما ينوف عن ٥٠٠٠ ترجمة، وكتاب «المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى» لابن تغرى بردى (ت ٨٧٤-١٤٧٠) وفيه حوالى ٢٨٠٠ ترجمة لأعلام القرن السابع إلى التاسع الهجرى / ١٣-١٥ م، وكذلك كتاب «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» للسخاوى (ت ٩٠٢-١٤٩٧)، ويشمل حوالى ١٢٠٠٠ ترجمة، وكتاب

(*) لقد سقطت على الحبير، فلقد تفضل صديق الأستاذ حمام الصغير وأخرج هذه المحاضرة في حلة عربية أصيلة، فله الشكر على جهوده وأفضاله الجزيلة.

وكلنا يعلم أيضا أن مفهرسى وواصفى هذه الوثائق الثرة يكتبون غالبا - وخصوصاً في أيامنا هذه - بإثبات اسم مؤلف المخطوطة وعنوانها ، ولا يلتفتون إلى التقييدات المتناثرة عادة في أول المخطوطة وآخرها أو على بطائنها وغلافها أو على جزازات محفوظة في داخلها . مع أن هذه التقييدات البسيطة العابرة تستحق منا أقصى الاهتمام فهي التي تؤكد لنا غالباً المادة المعروضة في كتب التراجم والتاريخ ، وقد تعدلها وتوسعها ، وتغني بذلك معلوماتنا التاريخية عن الماضي وأهله ، وتكشف عن حياتهم اليومية وعن أعمالهم وإنجازاتهم ومشاكلهم وحاجاتهم كما أنها تمتاز بمصاحبتها للوقائع وشهودها للأحداث والأفكار ، فهي صادقة بقولها ، لم تتأثر بتفكير مصنف ، ولم تحرف بتداع خاطيء أو برواية راوٍ وتصحيح ناسخ وسنسوق فيما يلي بعض الأمثلة الموضحة لما قلناه^(١) .

لقد عثرنا مثلاً في عداد كنز المخطوطات العربية المحفوظة في مكتبة برلين الغربية على رسالة من أربع أوراق ، تبحث في الحرقه الصوفية المصنفها تاج الدين بن حمويه الحويني^(٢) . من هذه الرسالة ، أو بالأصح : من إجازة مكتوبة في آخرها . أفدنا أن حفيد حفيد المصنف من قبل الأم شهاب الدين الساوجي - ذكره ابن حجر العسقلاني دون إشارة إلى تواريخ حياته - قد درسها يوم الثلاثاء الخامس عشر من ذي القعدة سنة ١٣٤٧هـ / ٢٧ شباط ١٣٤٧م ، أي قبل حلول الطاعون بعامين ، في دار الإمام شمس الدين الحسيني في قبة الطواويس في مدينة دمشق وكان شهاب الدين قد سمعها في صباه على عم أمه وحفيد المصنف الشيخ يوسف ، يوم الجمعة في العشرين من جمادى الآخرة سنة ٦٩٧ - ٤ نيسان ١٢٩٨ ، في دمشق على جبل قاسيون ، وذلك بحضور أمه سفرى وشقيقها محمد وأختها سارة وآمنة . فإن

- (١) لقد اقتبسنا هذه الأمثلة من كتابنا حول المخطوطات العربية ، والذي صدر جزؤه الأول في مدينة فيسبادن سنة ١٩٧٦ ، بعنوان Arabische Handschriften. Materialien zur arabischend Literaturgeschichte . وإننا لا نهدف في هذا المقال إلا إلى عرض نخطط أولى مجمل ، لذا فإننا لن نتعرض إلى ما يحتويه كتابنا من مواد مستقاة من مخطوطات عربية لم تنشر . وموثقة بشواهد وأنساب متممة لها ، وسنكتفي بالإحالة إليها وإثبات ما انتهىنا إليه من مادة جديدة بعد صدوره .
- (٢) راجع كتابنا حول المخطوطات العربية ١ - ٨١ - ٨٨ والرسم ٥ ؛ وانظر كذلك البحث الممتاز للمستشرق الألماني H. L. Gottschalk وعنوانه Die Aulad Saih as-suyuh (Banu Hamawiya) في مجلة Wiener Zeitschrift fuer die Kunde des Morgenlandes ، ٥٣ / ١٩٥٧ / ٨٧ ، والذي فاتنا - للأسف الاستفادة منه آنذاك ؛ وانظر كذلك مقاله في دائرة المعارف الإسلامية Encyclopaedia of Islam ١ - ١٩٥٨ - ٧٦٥ ومايليها (مادة : أولاد الشيخ) ؛ وكذلك كتابه al-Malik al-Kamil von Egypten und seine Zeit. Eine Studie zur Geschichte Vorderasiens und Egyptens in der ersten Haelfte des 7./13. Jahrhunderts الصادر في مدينة فيسبادن ١٩٥٨ ؛ وانظر أيضاً : العلماء بين الحرب والسياسة في العصر الأيوبي (أسرة شيخ الشيوخ) لحامد زيان غانم ، القاهرة ١٩٧٨ .

رجعنا إلى ابن حجر العسقلاني ، لوجدناه
يجهل هؤلاء الإخوة الأربعة ويجهل والدهم
ولكنه يعرف أخواه ، أي عمهم يوسف ،
الذي كان شيخ شيوخ السميساطية في
دمشق ، وتوفي فيها في ربيع الأول
سنة ٧٠١هـ تشرين الثاني ١٣٠١م . أما جده
تاج الدين ، مصنف رسالتنا المذكورة
فقد كان تلميذاً للمؤرخ الشيخ ابن عساكر
(ت ٥٧١ - ١١٧٦) . ورحل إلى بلاد
المغرب في السابع والعشرين من عمره ، وأقام
هناك ست سنين ، كما قدم مصر وعاد إلى
مسيقط رأسه في دمشق عام ٦٠٠ - ١٢٠٤
فتولى فيها منصب مفتي المسلمين ، إلى أن
توفي في الخامس من صفر عام ٦٤٢ - ١٣
تموز ١٢٤٤ ، ودفن في اليوم التالي بمقبرة
الصوفية ظاهر باب النصر ، ولقد كان متأهلاً
بابنة حفيد حفيد الصوفي الشهير القشيري^{هـ}
(ت ٥٤٦٥ - ١٠٧٢م) .

إن مصنف رسالتنا تاج الدين وأعقاب
الذين تلقوا عنه تلك الرسالة ، يشكلون فرعاً
من عائلة ابن حمويه الجويني . التي كانت
تتوطن شمال إيران ، ثم ارتحلت إلى مصر
وبلاذ الشام . أما جدهم الأعلى حمويه فهو
تبعاً لمخطوطة طهرانية - من سلالة الصحابي
أبي أيوب الأنصاري (ت ٥٢ - ٦٧٢) . وإن
ما انتهى إلينا من أعلام تدعى بابن حمويه
الجويني - وعددهم حوالي الثلاثين إلى الآن
فهم من أعقاب أولاده الثلاثة : محمد وعلي

وعبد الصمد . وإن مصنف رسالتنا تاج
الدين هو من نسل أعقاب الابن الأول الإمام
محمد بن حمويه . ولقد ولد محمد هذا في خرکن
(جوين) من ضواحي نيسابور في خراسان
وقرأ الفقه والأصول على إمام الحرمين أبي
المعالى الجويني (ت ٤٧٨ - ١٠٨٥) وبني
خانقاه ببجير آباد إلى جانب داره . وأوقف
عليها أوقافاً . وتوفي هذا المفسر والمحدث
والفقيه ، بعد أن ذاع تصوفه في الآفاق ، في
الأول من ربيع الأول سنة ٥٣٠ / ٩ كانون
الأول ١١٣٥ ، وأعقب علياً ، الذي تسنى
له أن يسمع في مدينة طوس على الإمام
الغزالي (ت ٥٠٥ - ١١١١) ، ولما توفي
في نيسابور سنة ٥٣٩ - ١١٤٤ ، نقل جثمانه
إلى بجير آباد في جوين ودفن هناك إلى جوار
والده . أما حفيده عمر - أحد أبناء علي -
فقد رحل إلى دمشق . حيث ولاه الأمير نور
الدين زنكي مشيخة الشيوخ ، كما وكله
برعاية الأوقاف ، وتوفي عام ٥٧٧ - ١١٨١
وله أربع وستون عاماً وأعقب صدر الدين
ومولف رسالتنا تاج الدين . ولقد ولد
صدر الدين في جوين عام ٥٤٣ - ١١٤٩
وقدم الشام مع والده ، وتأهل فيها للمرة
الأولى بابنة الفقيه قطب الدين النيسابوري
(ت ٥٨٧ - ١١٨٢) ، ثم رحل بعد فترة
إلى القاهرة ، حيث درس بمشهد الإمام
الحسين بن علي وبقبة الإمام الشافعي . ولقد
سيره السلطان الأيوبي الكامل (حكم ٦١٥ /
١٢١٨ - ٦٣٥ - ١٢٣٨) رسولا إلى بغداد

ليستنجاد بالخليفة العباسي الناصر
(حكم ٥٧٥ / ١١٨٠ - ٦٢٢ / ١٢٢٥)
على الإفرنج ، عندما استولوا على دمياط
وباتوا يهدون دلتا النيل ، ولكنه توفي في
الموصل في الرابع والعشرين من جمادى
الآخرة سنة ٦١٧ - ٢٦ آب ١٢٢٠ . ولقد
أضحت تربة زوجه في مقبرة القرافة بالقاهرة
المشوى الأخير لأعقابه ، وفيها نجد شتى العلماء
ومنهم من بلغ في ميدان السياسة شأوا بعيداً
كفخر الدين يوسف مثلاً ، الذى برز شأنه
على شأن إخوته الثلاثة ، ولقد ولد في دمشق
سنة ٥٨٢ / ١١٨٦ ، ودرس فيها وفي بغداد
وارتفع قدره في البلاد ، وتقلد أرفع المناصب
وخير شاهد لنا على ذلك ، أن السلطان الكامل
انتدبه لمفاوضة الإمبراطور الألماني فريدريك
الثاني (حكم ١٢١٢ - ١٢٥٠) . فنجح فخر الدين
في مهمته ، وتوصل معه في أواخر شباط
١٢٢٩ إلى اتفاق فريد ينظم أمور القدس
ومكانتها ولقد حظى فخر الدين بتقدير
واحترام الإمبراطور الألماني - الذى اشتهر
بغزارة علمه وأدبه - ويتضح ذلك من
المناقشات والمراسلات التى دارت بينهما . ولقد
تزعزعت مكانة فخر الدين بموت السلطان
الكامل وتولى ابنه الغلام الغرير الظنون مقاليد
الحكم في القاهرة - ولقد تردد السلطان
الحديد حيناً ، ثم اتهمه بالخيانة العظمى وألقى
به في غياهب السجن ، ولكن الفتى الشجاع

الوفى (١) تحمل السجن والتعذيب ثلاث سنين
بعزم ووقار . ولما عاجل الموت معذبه ، وأطلق
سراحه ، تولى قيادة الجيش لقتال الصليبيين
على أبواب دمياط والمنصورة (٦٤٧ / ١٢٤٩ -
١٢٥٠) . وفي فجر الرابع من ذى القعدة
سنة ٦٤٧ / ٨ شباط ١٢٥٠ فاجأ الصليبيون
أو بتعبير أدق : جماعة الداوية (الاسبتارية)
معسكره وهو في الحمام ، فركب فرسه
وساق لينظم قتالهم ، فحملوا عليه ، وفر
مما ليكه وأجناده ، وظل الأمير والعالم الشاعر
يلدفع عن نفسه ، حتى أثخنه الجراح وأودت
به السيوف والرماح .

وكان ممن بقى في جوين من أفراد عائلة
ابن حمويه ، الصوفى الشهير وتلميذ نجم الدين
الكبرى الشيخ سعد الدين . ولقد نزع إلى
أقاربه في دمشق حيناً من الدهر هرباً من هجوم
التتار ، ولكنه عاد إلى خراسان لمسا ضاق
به الحال ، واجتمع به جماعة من التتار -
وتوفى في عيد الأضحى في العاشر من ذى
الحجة سنة ٦٥٠ / ١١ شباط ١٢٥٣ ، فدفن
في قبر جده محمد . ولقد أعقب صدر
الدين إبراهيم ، وكان شيخاً صوفياً طال
ترحاله ، وتأهل بابنة المؤرخ الفارسي
الشهير ووالى التتار علاء الدين الجوينى
وأسلم غازان شاه على يده . وتوفى في العراق
في الخامس من محرم سنة ٧٢٢ / ٢٤

كانون الثاني ١٣٢٢ . ولقد وجدنا لذريته بقية في خراسان في القرن العاشر الهجري ١٦م.

حوالي منتصف القرن السابع الهجري ١٣م تعالى صليل أسلحة المسلمين والصليبيين في شرقي دلتا النيل ، وسقط الملك الإفرنسي لويس التاسع مع جيشه أسيراً في أيدي المسلمين بالقرب من المنصورة في السادس من نيسان سنة ١٢٥٠ . وفي هذا الأوان ألقى عصا الترحال في القاهرة ، فقيه مالكي يدعى بابن أبي جمرة^(١) . كان أصله من الأندلس ، وعلى وجه التحديد من مدينة مرسية . حيث أقامت عائلته - كما تفيد المصادر - أكثر من ثلاثة عشر جيلاً ، وأخرجت العديد من المحدثين والفقهاء واللغويين . ولعل هزيمة المسلمين في الأندلس ، في الشمال الشرقي من قرطبة أدت إلى نزوح عائلته عبر مضيق جبل طارق حيث تابعت طريقها إلى مصر ، إننا لا ندري ذلك ، ولكننا نعلم أن مدينة مرسية قد سقطت في أيدي النصارى عام ١٢٤١م ، وأن نشوة النصر والتعصب الديني الأعمى دفعهم إلى إحراق المكتبات العامة والخاصة وإهدار مالا يعوض من ذخائر التراث النفيسة ، والوثائق الفريدة حول بلاد أوربا وشعوبها .

لقد عاش ابن أبي جمرة في القاهرة حياة عالم متعبد متنسك ، وتوافدت عليه الناس شرقاً وغرباً للانتفاع بعلمه وبركته ، فانقطع

في زاويته يدرس كتب الحديث وفي مقدمتها صحيح البخاري ، حتماً بشرحه له المسمى بهجة النفوس وتحليها بما لها وعليها . كما درس غيرها من مصنفاته . ولما توفي ابن أبي جمرة سنة ٦٩٥ - ١٢٩٦ دفن في زاويته ، التي لا تزال قائمة ومعروفة إلى يومنا هذا ، وهي تقع حذاء الجبل المقطم على طرف القرافة ، وبالقرب من مدفن المؤرخ ابن سيد الناس (ت ٧٣٤ / ١٣٣٤) الذي جرى ترميمه في السنوات الأخيرة بعد أن نالت منه معاول السنين .

إن حوش ابن أبي جمرة لعل شكل مستطيل محاط بجدار منخفض ، يقارب طول ضلعه الأمامي عشرة أمتار ، والجانب خمسة عشر متراً ، وهو لا يخلو من قبور قريبة العهد . أما ضريح الشيخ فهو إزاء ضلعه الخلفي ويشكل قبة مربعة القاعدة ، طول ضلعها أربعة أمتار تقريباً ، وينخفض مدخل القبر نفسه عدة درجات عن ثرى الحوش ، مما يدل على ارتفاع الثرى على كر الدهور . ولا غرو في ذلك ، فكتب التراجم العربية تفيد أن الحوش قد وارى بعضاً من ذرية الشيخ ومن المعتقدين بكراماته ، ومن المترددين على مقامه للبركة والدعاء وتلاوة القرآن أيام الجمع والأعياد . ولقد طمر التراب زاويته ، فلم يعد يبدو منها ومن محرابها سوى القسم الأعلى المذهب الرشيق . والحوش

(١) راجع كتابنا حول المخطوطات العربية ١ / ٦٣ - ٦٩ وكذلك الرسم ٤

إجمالاً مرتب ونظيف ، فإما هبطنا إلى قبر الشيخ ، رأينا مقامه خلف الباب ، مجلله غطاء حريري أخضر ، طرزت عليه الكلمات التالية ؛ هذا مقام سيدي عبد الله بن أبي جهمرة الأندلسي سلطان المشرق والمغرب المتوفي ٥٦٩٩ هـ (والصحيح ١٢٩٦/٦٩٥) . وقد يتساءل المرء في عجب ودهشة ، كيف تمكن هذا الحوش المتواضع المبني من حجر وطن أن يصمد لمعاول الفناء طوال سبعة قرون . والجواب عن ذلك يكمن في طبيعة المصري وإجلاله لحرمة الماضي ، ولكن ليس ذلك فحسب ، فلقد كان شيخنا في اعتقاد الناس ولياً من أولياء الله ، كما بزغ من أسلافه عديد من الفقهاء والقضاة ، وبوسعنا أن نتتبع أخبارهم إلى عهدهم في مدينة مرسية ، وقبلها إلى مدينة دمشق ، حيث كان أحدهم ، وهو عبد الجبار ، مولى

للخليفة الأموي مروان (حكم ٦٤/٦٨٤ - ٦٥-٦٨٥ هـ) بل وإننا نعرف جده الذي عاصر النبي صلى الله عليه وسلم . ويبدو أن ذرية الشيخ قد تتابعت عن طريق ابنته الشبيخة الصالحة أم الخير ، والتي دفنت في حوشه ، كما دفن فيه آخرون . ومنهم من كان إماماً أعيان القاهرة وإن كتب تراجم القرن العاشر الهجري - ١٦م لم تغفل عن ذكر من دعى بابن أبي جهمرة من معاصريها . وإن الحوش^(١) الذي ارتفع ثراه ، كما ذكرنا ، متراً ونصفاً تقريباً ، ليظهر في حناياه كثيراً من أحجار القبور ، ولكن من سيزعج الموتى في قبورهم ليحصل على بضع من أسماء الأعلام وطرف من أخبارهم .

إن تقييد تملك لمحمد بن أحمد بن محمد ابن عثمان بن المُنَجِّج^(٢) على وجه مخطوطة نفيسة

(١) حوش ابن أبي جهمرة المذكور في الخرائط القاهرية :

Index to Mohammedan Monuments, appearing on the special 1 : 5000 scale maps of Cairo الصادرة في القاهرة سنة ١٩٥١ ، خريطة ٢ ك ١٣ ؛ وكذلك لدى Louis Massignon [في مقاله La cité des morts au Caire (Qarafa-Darb al-Ahmar) المنشور في مجلة المعهد الإفريقي للآثار الشرقية Bulletin de L'Institut Francais d'Archéologie Orientale ٧٩ - ٢٥ / ١٩٥٨ / ٥٧

لوحة ١ Opera minora ٣ - ١ ، بيروت ١٩٦٣ ، وذلك في ٣/٣٣٣-٢٨٥ لوحة (١٧) .

لقد قصدت وصديق الأستاذ الدكتور رمضان عبد التواب هذا الحوش في ١٦ آذار ١٩٧٨ واحتدينا إليه دون عناء ، بمساعدة قيم جامع الإمام الشافعي . وما يستحق الذكر لدلالته الكبيرة في سياق مقالنا ، أننا سألنا القيم أولاً عن موضع قبر المؤرخ ابن سيد الناس ، فلم يعرفه ، بل قال بأنه يعرف مثلاً : قبر ابن عطاء الله السكندري وابن الهمام وابن أبي جهمرة . أي يتمير آخر : قبور الأولياء .

(٢) راجع كتابنا حول المخطوطات العربية ١ / ٥٤ - ٦١ وكذلك الرسم ٣ ؛ وقارن مقال J. E. Gilbert وعنوانه Institutionalization of Muslim scholarship and Professionalization of the ulama in medieval Damascus Studia Islameica ٥٢ / ١٩٨٠ /

مؤرخة في عام ٥٨٠ / ١١٨٤ ، يسوقنا إلى مدينة من أقدم مدن التاريخ وجنة تجرى فيها المياه العذبة النيرة ، إلى مدينة دمشق في غضون القرن الثامن الهجري - ١٤ م . أما مالك المخطوطة فكان - كما يفيدنا ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ / ١٤٤٩) - من أعيان دمشق وناظراً للجامع الأموي . وكان في حورته خزانة غنية بكتب مدونة بخط مصنفها ، لم يضمن على الناس بها ، وخصوصاً على العلماء . وهكذا فقد نظر فيها ابن حجر العسقلاني عندما تلقى العلم في دمشق على يد العالم أم الحسن فاطمة ابنة مالك مخطوطتنا ابن المنجا (ت ٨٠٣ / ١٤٠٠) . وإننا نكاد نعرف خمسين فرداً من عائلة العلماء أبناء المنجا منذ أواخر القرن السادس إلى القرن العاشر

الهجري - ١٢ - ١٦ م : ومن بينهم تسع نساء - عدا أم الحسن المذكورة - عُرفن بتدريسهن أو بروايتهن للتراث أو لحضورهن حلقات العلم . ولا غرابة في هذا الأمر . فكلنا يدرك قيمة العلم في الإسلام . ويعني قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة »^(١) ولقد أخرجت عائلة ابن المنجا كثيراً من القضاة الحنابلة وقضاة القضاة ، والأساتذة وشيوخ الطريقة ، ومن التجار وموظفي الدولة ، واختصت بتربية بظاهر مدينة دمشق في الصالحية على سفح جبل قاسيون وراء جامع المظفرى : ولعل الأيام تظهر هذه التربة المندرسية . أو جزءاً من بقاياها على الأقل . ولقد كان في الجامع

(١) لا يزال هذا الحديث منقوشاً فوق مدخل المدرسة التي بناها ألغ بك في بخارى سنة ٨٢٠ / ١٤١٧ ، وكان مشجعاً للعلم والفنون وحفيداً لغازي العالم تيمورلنك وانظر من أجل هذا الحديث ٣ : سنن ابن ماجه ١ - ٢ ، القاهرة ١٣٧٢ / ١٩٥٢ - ١٣٧٣ / ١٩٥٣ ، رقم ٢٢٤ ؛ الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي ، بيروت ١٣٩٥ / ١٩٧٥ ، ص ٧٢ ومايليها ؛ وكتاب Muhammedanische Studien للمستشرق الكبير I. Goldziher ، الصادر في جزئين في مدينة Halle/Saale ١٨٨٩ - ١٨٩٠ ، ٣٠٥/٢ حاشية ٥ ، وكذلك مقال Abdul ali وعنوانه The inspiration Islam gave to cultivation of knowledge and learning في مجلة Islamic Culture ٥٣ / ١٩٧٩ / ١٧٩ - ١٨٦ . وانظر من أجل عالمات الإسلام . ، مقال A. Nègre وعنوانه Les femmes savantes chez Dahabi في مجلة Bulletin d'Etudes Orientales ١٩٧٨ / ٣٠ (١٩٨٠) / ٧٥ - ٨٣ ؛ وكذلك كتاب Wiebke Walther وعنوانه Die Frau im Islam الصادر في ليزج ١٩٨٠ . وراجع من أجل ألغ بك محاضرتنا وعنوانها Licht aus dem Orient. Morgenlaendische Skizzen vor abendlaendischem Hintergrund Araber und Deutsche. Begegnungen in einem Jahrtausend والتي طبعت في كتاب F. H. Kochwasser و H. R. Reomer في مدينتي توبنجن وبازل ١٩٧٤ ، ص ٥٣ = نور من الشرق . رسوم شرقية على خلفية غربية . في كتاب ألمانيا والعالم العربى ، ترجمة مصطفى ماهر وكمال رضوان ، بيروت ١٩٧٤ ، ص ٦٠ ومايليها .

الأُموي زاوية تدعى بالمنجائية نسبة إلى موقفها ، وهو أحد أعمام والد الشيخ محمد ، مالك مخطوطتنا المذكور وكان متضلعا بعلوم الدين . ولقد فتح بعض أفراد هذه العائلة بيوتهم أجيالا عديدة بخدمة التحصيل وتدريس القرآن والحديث والفقه وغيرها من العلوم . كما كان لهم فضل إنشاء حمام عموي وجامع في مدينة دمشق . ولا غرابة في هذا كله ، فها هذه العائلة إلا حلقة في سلسلة تقاليد الأوقاف الإسلامية العريقة ، التي تستحق منا الإكبار والإجلال .

ولنتقل الآن إلى الحديث عن عائلة أخرى ولتكن عائلة ابن البيلوني^(١) . بعد أن فتح العثمانيون القسطنطينية عام ١٤٥٣ م ، واتخذوها عاصمة لإمبراطوريتهم المتوسعة في جميع الجهات ، شرعت جحافلهم تزحف شرقاً ، متخطية حدود البحر الأسود ، وناشرة القلق في تلك المناطق الممتدة حتى بحر الخزر (قزوین) ، ولقد جرّ هذا على سكان البلاد شدة وضيقاً جليداً ، بعد أن عانوا طويلاً من الغزوات المتكررة ، التي قامت بها جيوش تيمورلنك (ت ١٤٠٥ م) . وهكذا فقد فضل بعضهم النزوح عن وطنه الجميل في مرتفعات القفقاس الشرقية ، والبحث عن وطن جديد يسوده الهدوء والأمان . وكان بين النازحين غرباً صبي يدعى ابن البيلوني ، استقرت

عائلته في مدينة حلب ، وكتب له أن تتجاوز شهرته العلمية يوماً حدود بلده الجديد . كان والده شيخاً حافظاً ، ولكننا لم نعثر له على أثر في كتب التراجم . أما اسم عائلته ، فلعله يعود إلى جد كان يصنع ويبيع البيلون^(٢) - وهو الصابون - في وطنه باب الأبواب (دربند) في داغستان لقد حظى الصبي ابن البيلوني بتلقى العلوم الإسلامية على يد كبار عصره في حلب ومكة ، وبترزين ثبته بأسمائهم وإجازاتهم بمخطوطتهم . وغالباً ما حصل على تقييمات شخصية عن سيرتهم وسيرة أساتذتهم وشيوخهم ؛ وهذا فخر وشرف له . وزاد فيه رفعة إلباسه طاقية الصوفيين ومصافحته بعد سماعه الحديث المسلسل بالمصافحة ولباس الخرقة . وهكذا شب الصبي اللاجئ وغداً شيخاً متضلعا في شتى مجالات العلوم الإسلامية . ولما توفي سنة ٩٢٩ / ١٥٢٣ ، صلى عليه الإمام زين الدين الشماع ، وحدث أن سمع بعد دفنه جماعة مع الشيخ الكيزواني يقرأون على قبره شيئاً من النظم ، فشاط به الغضب لهذه البدعة .

ولقد خلف ابن البيلوني ولدين سماهما محمداً على اسمه ، باختلاف في الكنية - وليس هذا بغريب ، فإننا نجد له لدى عوائل أخرى - وكذلك بنتاً اسمها خديجة (ت ٩٣٠ /

(١) انظر كتابنا حول المخطوطات العربية ١ / ١٩٢ - ١٩٥ وكذلك الرسم ١٢

(٢) لعل أصلها الكلمة اليونانية balaneion ومعناها : الاغتسال بماء حار وحمام عموي .

(١٥٢٤) ؛ فساروا جميعاً على نهج والدهم ، ونالوا نصيبهم من الشهرة والتقدير في مدينة حلب . ولقد حظى أكبر ولديه أبو البركات بإجلال قاضيهام له ، كما كان يدرس أحياناً بعض شخصيات المجتمع العامة ، وتوفي في منبج عام ١٥٢٩/٥٩٣٥ م قبل بلوغ الأربعين من عمره . أما أصغرهما أبو اليسر إمام الحجازية بالجامع الأموي في حلب فكان غاية في التواضع خلقاً ومظهراً ، وكان لا يترفع عن عمل مهمل كان ، بل يقدم على حمل أطباق العجين إلى الخباز على عاتقه ، ومات مطعوناً سنة ١٥٥٥/٩٦٢ . وكان في حياته قد احتضن ابن أخيه محموداً (ولد ٩٣٣ / ١٥٢٦) بعد أن عاجلت المنية والده واهتم بتربيته وتعليمه ، وهكذا حفظ الصبي القرآن جرياً على تقاليد ذاك الأوان ، ثم لازم تلميذ والده المؤرخ والمترجم الشيخ رضى الدين ابن الحنبلى ، وقرأ عليه الكتب المدرسية المعهودة آنذاك في الصرف والنحو والبلاغة والقراءات والفقه والمنطق والحديث كما قرأ رسائل في الأخلاق والنجوم والرياضيات وإلى ما هنالك ، وكذلك أشعار شيخه ومؤلفاته . وأجاز له شيخه رواية جميع ما تجوز له وعنه

روايته . ولقد جلد محمود في طلب مزيد من الإجازات من علماء حلب ، ومن شيوخ دمشق والقاهرة ومكة عند تأديته لفريضة الحج . وغداً شيخاً لا يستهان بعلمه . ولما ثقل سمعه وضعف بصره ، تخلى عن وظائفه وانقطع في منارة ، لم يكن يغادرها إلا للاغتسال ، ولكنه كان يحرص على الاشتغال بمصالح عياله ، بل وحماية الحمام في صومعته بكف الجوارح عنها . وكان الناس يثنون عليه وينسبون إليه الصلاح . وتوفي في الثالث والسبعين من عمره في القاهرة حيث أتاها في طريقه إلى الحج ، فدفن في آخر شوال عام ١١٠٦هـ - ٤ حزيران ١٥٩٨م بالمقبرة المعروفة بالقرافة بالقرب من الجامع الأزهر عند مدفن شيوخه - المحيزين له . وبهذه المناسبة ، فلقد وصلت إلينا مخطوطة صغيرة بخط يده ، محفوظة في مكتبة برلين ، فيها تراجم جده وأبيه وعمه وعمته الشيخة الصالحة القارئة والمتفهمة خديجة (ت ٩٣٠ - ١٥٢٤) ، وكذلك ترجمته إلى العقد الرابع من عمره^(١) وهى جميعها منقولة من كتاب در الحب في تاريخ أعيان

Die Gelehrtenfamilie Ibn am-Bailunt في

الكتاب التذكارى (١) لقد حققنا نص المخطوطة ونشرناه بعنوان Die islamische Welt zwischen Mittelalter und Neu-zeit. Festschrift fuer H. R. Roemer zum 65. Geburtstag باعداد U. Haarmann و P. Bachmann

في مدينة بيروت ١٩٧٩ ، ص ٥٦٢ - ٥٨٢ . ومن أجل ما دونه التاجر الألماني الذى قضى سبع سنين في مدينة

حلب ، كما عهدا أبناء البيلونى ، انظر كتاب A. Tietze وعنوانه Sieben Jahre in Aleppo (1656-1663), ein Abschnitt aus den "Reiss-Beschreibungen" des Wolfgang Aigen

صدر في فيينا ١٩٨٠ ، سلسلة Beihefte zur Wiener Zeitschrift fuer die Kunde des Morgenlandes .

حلب لشيخه رضى الدين ابن الحنبلى (ت ٩٧١
١٥٦٣). ولقد أضاف ابنه الفقيه محمد فتح
الله (ت ١٠٤٢ - ١٦٣٢) ، أشهر أبناء
البيلونى فى جيله ، حاشية إلى ترجمة والده
فى هذه الوثيقة الصغيرة . ولقد أنجب الفقيه
ولداً سماه محمداً (ت ١٠٨٥ - ١٦٧٤)
وصار قاضياً مثله ، وهو الذى ندين له فى
أوروبا بفضل معرفتنا المبكرة لكتاب تحفة
النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار
لمصنفه الرحالة ابن بطوطة الطنجى (ت
٧٧٩ - ١٣٧٧) . فلقد وصل إلينا مختصره
لذلك الكتاب ، فترجم إلى الإنكليزية فى
لندن سنة ١٨٢٩ م . وأخيراً فقد انتهى إلى
سمعنا ، أنه لا يزال فى مدينة حلب قوم
يدعون بابن البيلونى ، ولا شك أنهم من
أعقاب هذه العائلة الكبيرة .

لقد برز أبناء البيلونى - كما رأينا - من غيب
التاريخ فى غضون القرن التاسع الهجرى
وكذلك برز أبناء القوصونى^(١) ، ولكن ليس
فى باب الأبواب (دربند) على ضفاف
بحر الخزر (قزوین) ، بل فى القاهرة على
ضفاف النيل . ففيها عاش الطبيب عبد الوهاب
ابن صدقة (ت ٨٣٥ / ١٤٣١) المسمى
بالقوصونى نسبة إلى جامع قوصون^(٢) . فلعله

كان يقيم فى حيه . وتفيد المراجع أن عبد الوهاب
قد أعقب من زوجه . وهى أخت رئيس
الحراحة فى القاهرة جمال الدين بن عبد الحق
(ت ٨٩١ / ١٤٨٦) .

ورغم وفاته المبكرة فقد نال ابنه محمد
قسماً وافراً من العلم ، ودرس الطب ، فحذق
فى دراسة هذه الصناعة ، وحمد الناس علمه
وعلاجه ، فاشتهر وانتبه البلاط إليه ، فاتخذ
السلطان الأشرف قانصوه الغورى (حكم
٩٠٦ / ١٥٠١ - ٩٢٢ / ١٥١٦) طبيباً
خاصاً له . ولقد حفظ لنا الدهر من مؤلفاته
الطبية مخطوطة فاخرة فى السوم . كتبها
لخزانة السلطان عام ٩١٢ - ١٥٠٦ ، وهى
الآن فى حوزة دار الكتب الوطنية فى القاهرة
وتوفى محمد فى السابع عشر من ربيع الأول
سنة ٩١٧ - ١٤ حزيران ١٥١١ ، وهو فى
الحادى والسبعين من عمره ، وخلف ولداً
خلفه اسماً وصناعة ، ولم يقصر عنه علماً
ومكانة ، كما جمع - تبعاً للمصادر - بين
حسن الشكل والخلق والنباهة والفصاحة . ولقد
أسره العثمانيون مع أتباع السلطان الأشرف قانصوه
الغورى بعد موقعة حلب ، فتمكن من الهرب .
وعفا عنه السلطان العثمانى سليم الأول (حكم
٩١٨ / ١٥١٢ - ٩٢٦ / ١٥٢٠) فى معسكره

(١) انظر كتابنا حول المخطوطات العربية ١ / ٢٠٢ - ٢١٣ وكذلك الرسم ١٣

(٢) راجع كتاب Aegypten und der Sudan. Handbuch fuer Reisende لمصنفه

K. Baedeker صدر فى مدينة ليبزج . ١٩٢٨ (ط ٨) ص ٦٥ لقد بنى هذا الجامع القائم إلى يومنا هذا

سنة ٧٣٠ / ١٣٣٠) . بأمر الأمير سيف الدين قوصون بن عبد الله الساقى الناصرى (قتل ٧٤٢ / ١٣٤٢)

وكان أمير الألف وزوج ابنة السلطان محمد الناصر (حكم ٧٠٩ - ١٣١٠ - ٧٤١ - ١٣٤١) .

في مصر في الرابع عشر من ذى الحجة عام ٩٢٢/٨ كانون الثاني ١٥١٧ ، أى قبل فتح القاهرة بثلاثة أسابيع تقريباً ، في الثامن من محرم سنة ٩٢٣ / ٣١ كانون الثاني ١٥١٧ ومن المعروف أن السلطان سليم الأول قد غادر القاهرة بعد ثمانية أشهر عائداً إلى القسطنطينية ، ومصطحباً لكثير من العلماء والإداريين والمعماريين وأصحاب المهن اليدوية . ولا بد أن صاحبنا محمداً القوصونى كان في عدادهم ، فلقد وجدنا تقييداً له يدل على تملكه لإحدى المخطوطات الأدبية ، مؤرخاً في الديار التركية سنة ٩٢٤/١٥١٨ . كما أن التقرير الطبى لوفاة السلطان الخالد سليم الأول يتضمن توقيعه المؤرخ في التاسع من شوال سنة ٩٢٦/٢٢ أيلول ١٥٢٠ . ويبدو أن السلطان سليمان القانونى ، الذى خلف سليم الأول على عرش السلطنة العثمانية ، قد أذن لمحمد القوصونى بالعودة إلى وطنه . ومهما يكن فقد توفى صاحبنا في مدينة رشيد في الحادى عشر من صفر سنة ٩٣١ / ٨ كانون الأول ١٥٢٤ . ولقد نهج ابنه محمد سبيل والده وجده في ممارسة صناعة الطب وبلغتنا عن حياته أخبار موثوقة ، كتبها زميل له كان على صلة به ودارت بينهما مراسلات وملاطفات ، كما وصلت إلينا تسعة كتب من مصنفاته العلمية .

ولقد ولد ثالث الحمددين هذا في القاهرة سنة ٩٢٠ / ١٥١٤ ، وفقد والده وهو ابن

عشر سنين ، ولكنه كان ذكياً مجداً في طلب العلم ، فلا غرو أن غداً طبيباً تلهج السنة الناس بذكره والثناء عليه . ولما بلغ الرابع والثلاثين من عمره ، استدعى لمعالجة الأمير بايزيد ، والى قرمان فى الأناضول ، فذهب إليه - حتماً إلى مقره فى قونية - ووفق فى علاجه ، فطلبه والد الأمير السلطان العثمانى الشهير سليمان (حكم ٩٢٦ / ١٥٢٠ - ٩٧٤ / ١٥٦٦) فى العام التالى - وكان فى حملة ضد بلاد الفرس - ليعالجه من النقرس ، وعزل لأجله طبيبه اليهودى هامون زاده ، وجعله مكانه . ولاشك أنه قد رافق السلطان إلى القسطنطينية بعد انتهاء حملته فى أواخر سنة ٩٥٦ / ١٥٤٩ ، إذ لما جاء مترجمه وزميله من عهده القاهرى إلى عاصمة العثمانيين للمرة الثانية سنة ٩٦٥ / ١٥٥٦ ، اجتمع به وأخبرنا فى ترجمته ، أنه رآه فى عظمة وجاه ، متولياً رئاسة الحكماء ، وقد سأل فى الحج مراراً ، فلم يأذن له السلطان ، لأنه بات لا يصبر عنه ساعة واحدة ولما توفى السلطان سليمان ، عظمه السلطان سليم الثانى (حكم ٩٧٤ / ١٥٦٦ - ٩٨٢ / ١٥٧٤) من بعده ، ولم يقو على فراقه أيضاً . ولكن قيسونى زاده - اسمه بالتركية - توفى بعد سنتين ، وهو فى الرابع والخمسين من عمره . وذلك فى صفر عام ٩٧٦ / تموز ١٥٦٨ .

ومن بين أعيان القرن الحادى عشر الهجرى / ١٧ م تطالعنا أسماء ثلاثة علماء

يدعون بالقوصوني ، كان أحدهم أكبر أطباء القاهرة ، ولقد وصل إلينا من خزانته العديد من المخطوطات التي خطها بيده ، ولكن لاسبيل لنا لتبين أسباب قرابتهم .

لن نتمكن في نطاق هذا المقال من الحديث عن عائلة المحبوبي^(١) ، التي أظهرت العديد من فقهاء الحنفية ، ولعبت دوراً هاماً في بخارى بين القرن السادس والثامن الهجري - ١٢ - ١٤ م ، وذكرت أخبارها الوثيقة وأنسابها العريقة في تاريخ مقبرة مدينة بخارى مثلاً ، والذي دُوّن في النصف الأول من القرن التاسع الهجري - ١٥ م . ولن نتمكّن كذلك من الحديث عن عائلة الأستروشنى^(٢) ، والتي تطالعنا مثلاً في مدرسة قلعة زندنه في شمال بخارى أو عن عائلة الحمصى الرازى^(٣) في القرنين السابع والثامن الهجري - ١٣ - ١٤ م . وأصلها من الري - وتدعى اليوم بطهران - وبرزت لدى الإنجليبيين في السلطانية ، أو عن عائلة التركمانى^(٤) التي بزغ منها العديد من الرياضيين والفلكيين في القاهرة ، وكذلك في مدينة سراى عاصمة نخانات

آلتون أوردو ، والتي تقع على ذراع من نهر الفولجا بالقرب من البحر الأسود (بالقرب من المدينة المعاصرة فولجوجراد) ؛ أو عن عائلة ابن الوردى^(٥) ، وأصلها من معرة النعمان في الشام ، وتطالعنا في القرن الثامن والتاسع الهجري / ١٤ - ١٥ م في مدينة حلب بصورة رئيسية ؛ ولكننا نود أن نتعرض أخيراً لعائلة ابن الفنارى^(٦) المتفرعة .

لقد عاش أبناء الفنارى في ظلال العثمانيين في مدينتى بروسه والقسطنطينية وغيرهما ، وإننا لانعلم أصلهم علم اليقين ، فبعض المصادر التركية المتأخرة تنص على قدومهم من بلاد ماوراء النهر ، وعلى نسبتهم إلى مكان هناك - لانجد له أثراً في المراجع - أو إلى قرية مزعومة بالقرب من مدينة بروسه . وتفيد بعض النصوص العربية المتقدمة ، أن أقدم أفراد العائلة - واسمه حمزة - كان يصنع الفنارات^(٧) ، وأنه : أهدى فناراً للملك الروم - أى للسلطان العثمانى - فلقب بعدها بالفنارى . أما ابنه شمس الدين محمد (ولد ٧٥١ -

(١) راجع كتابنا حول المخطوطات العربية ١ - ١١٤ - ١٢٥ وكذلك الرسم ٧

(٢) راجع كتابنا المذكور ١ / ١٣٠ - ١٣٤ وكذلك الرسم ٨

(٣) راجع كتابنا المذكور ١ / ١٤٠ - ١٤٧ وكذلك الرسم ٩

(٤) راجع كتابنا المذكور ١ / ١٦٩ - ١٧١ وكذلك الرسم ١٠

(٥) راجع كتابنا المذكور ١ / ١٧٦ - ١٨٦ وكذلك الرسم ١١

(٦) راجع كتابنا المذكور ١ / ٣٢٢ - ٣٣٢ وكذلك الرسم ١٨

(٧) الفنار : من الكلمة اليونانية Phanarion .

١٣٥٠) — أى ابن الفنارى — فقد حصل العلم فى الأناضول وفى مصر ، وعاش فى مدينة بروسه ، واشتهر بفتاويه ، فلم يتوان السلطان العثمانى بايزيد (حكم ٧٩١-١٣٨٩-٨٠٥-١٤٠٣) — وكان يكبره بثلاث سنوات — عن الاستعانة برأيه فى عاصمته بروسه (١) ، كما استدعاه سلطان مصر الوئيد (حكم ٨١٥-١٤١٢-٨٢٤-١٤٢١) ليناظر جمعا من علماء القاهرة . ولقد در كل هذا الشرف على الشيخ الشهير أموالا جمعة ، ولكنه أدى إلى انشغاله عن كتابة ما كان يطمح إليه ، فخلف فى خزانته الحافلة بما ينوف عن عشرة آلاف مجلد ، العديد من كتب الفقه والمنطق والبلاغة والعقائد ، ولم يتسن له إتمام تصنيفه . وكان من عاداته أن يجود على عبده وخدمه بأفخر أنواع الملابس والقراء ، وأن يتواضع فى لباسه وطعامه وشرابه ، كما كان يصبر على كسب عيشه بعرق جبينه ، ليبقى حراً لاتأخذه فى قول الحق — ولو للسلطان — لومة لائم ، ولكن ضيق وقته لم يتيح له محالا واسعا للتكسب من تجارته فى بيع الحرير ، ولقد توفى بعد عودته من الحج عام ٨٣٤ — ١٤٣١ ، ودفن فى بروسه إزاء الجامع الذى بناه له السلطان . كما دفن هناك من بعده العديد من أفراد ذريته وآخرهم — على قدر علمنا — إبراهيم أفندى

والذى دفن عام ١١٣١ / ١٧١٨ حذاء شاه محمد (ت ١٠٥١ / ١٦٤١) ، وهو عقب حفيد حفيد ابن الفنارى ، وكان شيخاً درس فى مدارس متعددة فى بروسه والقسطنطينية ومغنيسية ، وقاضياً فى قونية وصوفية والمدينة المنورة ومن ثم فى بروسه . ولقد اتخذت عائلة ابن الفنارى منذ وفاة ابن حفيده محمد مدفناً ثانياً فى القسطنطينية جوار جامع أبى أيوب الأنصارى (ت ٥٢ / ٦٧٢) . ولقد انتهى محمد المذكور (ت ٩٥٤ / ١٥٤٧) إلى منصب شيخ الإسلام ، وهى أعلى مرتبة دون وزير الوزراء ، وحباه عدله بإجلال وتقدير الجميع فى الدولة العثمانية وهى فى أوج توسعها وعظمتها . كما اشتغل بالعلم وخلد اسمه فى شروحه لكتب الفقه والبلاغة وغيرها . أما أخوه الأكبر محمد شاه (ت ٩٢٩ / ١٥٢٢) فقد حظى منذ ولادته بمنحة شرف من الدولة كرامة لأبيه الشيخ الجواب وقاضى العسكر علاء الدين على (ت ٩٠٣ / ١٤٩٧) . ولم تذهب هذه النعمة سدى ، فقد غدا محمد شيخاً وقاضياً فى بروسه والقسطنطينية وأدرنة ، وقاضياً بالعسكر فى البلاد العربية والأناضول والولايات التركية فى أوروبا كل هذا رغم قصر أجله ، فقد توفى وهو فى السادس والأربعين من عمره . ودفن فى تربة والد جده ابن الفنارى فى بروسه . ولقد تزوجت ابنة عمهما بأمير بحر تمرکز

(١) لقد اتخذ العثمانيون من القسطنطينية عاصمة لهم بعد فتحها سنة ١٤٥٣ م .

بأسطوله في الميناء الشهير جليبولي ، وأنجبت عبيد الله ، الذي ساقته الأقدار إلى منصب القضاء في مدينة حلب . ولما توفي سنة ٩٣٦هـ / ١٥٢٩ خلف وراءه خزانة عامرة . ولقد ضم أحد أقاربه قسماً منها إلى مكتبات بعض أبناء الفناري ، أو إلى أجزاء منها ، ووهبها لابن أخيه عندما فجع بوالديه في صغره وإننا لانعلم مصير هذا الصبي ولا مصير أبناء الفناري الآخر ، فكتب التراجم بدأت تضمحل في ذلك الزمان . ولقد حان الأوان للتنقيب في سجلات البلاد الإسلامية الحافلة لاستنطاقها عن أخبار جديدة حول هذه العائلة وأمثالها من عوائل الأعيان (١) .

لقد استلنا ما ذكرناه من محيط شاسع لا يسر غوره ، ونضضناه فجاء عرضاً موجزاً لسير بعض العوائل الإسلامية ، ومعبراً عن شتى اللونيات التاريخية - الحضارية . ولا شك أن بوسعنا تعميم هذه الملاحظات والأقوال في كثير من نواحيها . ولناخذ مثلاً للتدليل على ذلك ، وليكن عائلة ابن حمويه الجويني فلقد رأينا أن رسالة تاج الدين في الحرقرة الصوفية قد تدارستها العائلة رجالاً ونساء وأولاداً جيلاً بعد جيل . وهذا لم يكن استثناء

نادرًا ، بل كان شائعاً في البلاد الإسلامية في العصور الوسطى ، وهو يوضح نظرة الناس الفريادة إلى التراث ، وموقفهم من كتبه الدينية ، في مثالنا هذا ، كما يجلو للناظر أن التحصيل لم يكن وقفاً على طائفة من العلماء ، بل كان يعم طبقات الناس المختلفة ، تبعاً لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « اطلبوا العلم ولو بالصين » (٢) .

كما يبين للناظر من جانب آخر ، أن هذا التحصيل كان ادخارياً - أو بتعبير آخر - ساكناً محافظاً ، وتشهد هذه الملاحظة كما اقتربنا من العصور الحديثة ، حيث يزداد التخصص ، وتضييق مناهج التعليم . وأبلغ دليل ملحوظ على ذلك هو الإفراط في تصنيف الشروح وشروح الشروح والخواشي ومع أن هذه المصنفات تحلى رغم إسهامها بمستوى رفيع في المناظرات العلمية ، وتم عن حدة في النظر ، ودقة في الكشف عن اللونيات المختلفة في العلوم الأساسية كالنحو ، والبلاغة مثلاً . فإن القارئ يستشف منها ضياع الكلية ، وفقدان طاقة الابتداع والتغيير الحيوية . ولقد أدى ذلك كله إلى سير التحصيل في جميع المعاهد المنتشرة وفق نظام مدرسي ضيق ، وإلى شيوع المخصصات والمبسطات واحتلالها مكان الصدارة في برامج التعليم .

(١) قارن مثلاً سلسلة الوثائق التي تنشرها الجمعية التاريخية التركية في مجلتها الصادرة في أنقرة Belgeler, Tiurk Tarih Belgeler Dergisi وأحدثها المجلد ١٠ ، العدد ١٢ / ١٩٨١ وفيه : Halil Inalcik, Osmanli dare, Sosyal ve Ekonomik Tarihiyle Ilgili Belgeler : Buras Kadi Sicillerinden Secmeler ؛ وكذلك مجلد الوثائق الذي نشره حديثاً محمد أمين في القاهرة ١٩٨١ بعنوان : فهرست وثائق القاهرة حتى نهاية عصر سلاطين المماليك (٢٣٩ - ٩٢٢ هـ / ٨٥٣ - ١٥١٦ م) مع نشر وتحقيق تسعة نماذج ، (المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة) .

(٢) راجع الحديث في كتاب الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي ، ص ٧٢ وما يليها ؛ وانظر كتاب Das meer der seele, mensch, welt und gott in den Geschichten des Fariduddin Attar لمصنفه المستشرق الألماني الكبير Hellmut Ritter صدر في مدينة ليدن ١٩٧٨ (ط ٢) ، ص ٢٨٤

ولقد ساعدت الدولة العثمانية بشعوبها
 المتعددة وبإدارتها المهيمنة على تأصيل هذا
 الوضع ، لأنها كانت تحرص بالدرجة
 الأولى على سرعة تخرج المتعلمين ، لتوظيفهم
 في مرافق الدولة ، ونقلهم من مكان إلى
 آخر تبعاً للحاجة - ألسنا نعاني من هذه
 المشاكل في عهدنا ومجتمعنا الحاضر ؟
 وكمثال على هذا التطور يمكننا أن نشير إلى
 عائلة العلماء أبناء الفناري ابتداء من القرن
 التاسع الهجري - ١٥ م ، فثبت مؤلفاتهم
 لا تحتوي إلا على شروح وحواش . لقد
 كانوا في عصرهم أساتذة معروفين درسوا
 في شتى المراكز العلمية في بروسة والقسطنطينية
 وغيرهما ، كما شغلوا مناصب عالية ،
 وتمتعوا بمكانة مرموقة في البلاط ، ومنهم
 من كان موظفاً جليلاً في عاصمة الدولة
 وولاياتها ، وكم أطلقت أسماؤهم على جوامع
 ومدارس ، وكم حفظتها أوقاف ومقابر
 إلى يومنا هذا ، أوقبيته ، وكم وصلت إلينا
 مخطوطات بخطهم أو من خزانهم تحمل
 أسماءهم ... وكلهم شهود على حيوية ذلك
 الماضي وعظمته . ومع ذلك فهناك من عاش
 في ذاك الزمان . وبث شكواه وألمه منه ،
 فيها هو مثلاً الشيخ علي منق (ت ٩٩٢ /
 ١٩٨٢) - أحد مذيلى كتاب الشقائق

العثمانية في علماء الدولة العثمانية لطاشكبرى
 زاده (ت ٩٦٨ - ١٥٦١) - يقول في
 ذيله المعنون بالعقد المنظوم في ذكر أفاضل
 الروم ، مشيراً إلى الشيوخ الذين عرفهم
 في حياتهم وترجم لهم : « ويا عجباً من هذه
 البحور كيف وسعها أصداف القبور ...
 ولعمري إن ذلك [يعنى تصنيفه واشتغاله
 بالعلم] يعد عند الأكثرين من تضييع
 الأوقات لأن المعارف عندهم خرافات ،
 فأنا قد انتهيت إلى زمان يرون الأدب عيباً
 ويعدون التضلع من الفنون ذنباً ، وإلى الله
 الحنان المشتكى من هذا الزمان قدسل سيف
 بغيه وعدوانه على من تحلى وتقدم على
 أقرانه ... » ويصل أخيراً إلى قوله ،
 الذى يردّدّه معه في عصرنا هذا لسان حال
 العلماء والشيوخ : « يا نفس ... أقصرى
 عن هذه الشكاية ... فإن ذلك دأب الدهر
 وعادته » ، ثم يتمثل بقول الإمام الشافعى
 (ت ٢٠٤ - ٨٢٠) :

محن الزمان كثيرة لا تنقضى
 وسروره يأتيك كالأعياد

ملك الأكابر فاسترق رقابهم
 وتراه رقاً في يد الأوغاد

رودلف زلهاييم

عضو المجمع المراسل من ألمانيا الغربية





في الساعة الحادية عشرة من صباح الأربعاء ٣ من
جمادى الآخرة سنة ١٤٠١ هـ (الموافق ٨ من أبريل
سنة ١٩٨١ م) أقام المجمع حفل استقبال لعضوه الجديد
الدكتور توفيق الطويل ، وفيما يلي الكلمات التي أُلقيت في
هذا الحفل :

●● كلمة الافتتاح للدكتور ابراهيم مدكور رئيس المجمع

وكان توفيق الطويل من الرعيل الأول الذي
اضطلع بهذا العبء لكي يقدم الفكر الفلسفي
للشباب في أساليب مقبولة ولغة سهلة . كان
يحسن العطاء ، وهو صناعته في مصر وخارجها .

أعطى في مصر وفي البلاد العربية . درس
وحاضر ، وكتب ، وألف ولم يقف عطاؤه .
عند الجامعات ، بل كان له عطاء قديم في
مجمعنا هذا . فهو عضو في لجنة الفلسفة
والعلوم الاجتماعية . وأنا على يقين من أنه
سيتابع العطاء ، ولا أدل على ذلك من أنه
يوم أن فكرنا في إخراج جهود لجنة الفلسفة
بإصدار معجم فلسفي ، كان توفيق الطويل
هو الذي أشرف على هذا الإخراج . اضطلع
به مع زميل آخر من أبناء هذا المجمع هو
الأستاذ سعيد زايد .

هذا هو توفيق الطويل في هذه الصورة .
الختصرة التي حرصت على أن أستقبله بها .

سيدي سادتي :

لقد عرفت الزميل توفيق الطويل منذ
أربعين سنة أو يزيد يوم أن لقيته بكلية
الآداب بجامعة القاهرة عام ١٩٣٧ م .

وأشهدكم أن توفيق الطويل الذي عرفته
في ذلك التاريخ هو نفسه توفيق الطويل الذي
نستقبله اليوم : أدب جم ، تواضع تام ،
تفكير واضح ، روية وخلق سمح . ألف
الصمت لا يتكلم إلا بحساب وقدر .

توفيق الطويل الذي لقيته في ذلك التاريخ
حين كنا نعد لبسط الدراسات العقلية في
المدارس الثانوية ، وكان ذلك على أثر
تقرير لراحل كريم هو المرحوم نجيب الهلالي
وأعتقد أن هذا التقرير يعد من الخطوات
الأولى الجادة في تطوير التعليم العام .
والهوض به . وقد شاء الجامعيون حينذاك أن
يعدوا العدة لتطبيق هذا التقرير وهذا الإصلاح

توفيق الطويل

في استقبال الدكتور

سيدى الرئيس

السادة الزملاء

سيداتي وسادتي :

من أعز الأيام على مجتمعنا ، ومن أرسخها في تقاليدنا « يوم الاستقبال » ، فهو يوم لقاء الجمعيين بزميل جديد يستبشرون الخير بقدميه ، ويعقدون على انضمامه إليهم الأمل والرجاء .

ولقد أنابنى الجمع في استقبال العضو الجديد الأستاذ الدكتور توفيق الطويل ، وهو شرف أعز به ، ومهمة أرجو أن أوفق في أدائها . واستقبله اليوم يذكركم باستقبال سلفه الصالح ، من أصحاب الفلسفة وروادها في مصر ، هؤلاء الذين شرف الجمع بوجودهم وحظي بالحبيد من آثارهم .

استقبل الجمع عند إنشائه الأستاذ الدكتور منصور فهمي أحد أساتذة الزميل الجديد الأستاذ الدكتور توفيق الطويل ، وظل منصور فهمي عضوا بالجمع وكاتبا لسره حتى اختاره الله إلى جواره .

نم استقبال الجمع معلم الجيل ، ورائد التعريف بالفلسفة اليونانية . الأستاذ أحمد لطفي السيد : الذي اختير عضوا بالجمع سنة

أربعين ، وكان رئيسه الثاني منذ العام الخامس والأربعين حتى رحل عن عالمنا .

واستقبل الجمع مع معلم الجيل الشيخ الحليل الأستاذ مصطفى عبد الرازق ، الذي سعد الجمع بعضويته في السنوات السبع الأخيرة من حياته وهو شيخ زميلنا الجديد قدוותه ومثله الأعلى .

وفي سنة ست وأربعين كان رئيس مجتمعنا الأستاذ الحليل الدكتور إبراهيم مذكور أحد العشرة الطيبة الذين استقبلهم الجمع ولا يزال يعتز برياسته له .

وظل الجمع يترقب استقبال فيلسوف جديد حتى ضم إلى عضويته الأستاذ الدكتور عثمان أمين الذي سعدنا بزمالته حيننا .

وإن استقبلنا للأستاذ الدكتور توفيق الطويل ليضفي علينا سعادة خاصة ، إذ نحظى بعضو جديد من رجال الفلسفة .

ومن حظ هذا الجمع أن يكرن أعضاؤه من الفلاسفة أهل لغة ، ورجال أدب ، وأن يكرنوا جميعا من الموفقين بين التخصص العلمي وبين المشاركة في حياة مجتمعهم .

كذلك كن شأنهم ، وكذلك أيضا شأن زميلنا الجديد ، فهو خير خلف لسلف من الأساتذة العظم الذين نوارقوا على هذا الجمع .

تخرج الدكتور توفيق الطويل في كلية الآداب سنة أربع وثلاثين من هذا القرن حين كانت الأزمة الاقتصادية آخذة بنخاق مصر والأزمة السياسية ضاربة الأطناب ، فدستور الأمة معطل ، ونظام الحكم رجعى ، والاحتلال البريطانى متوغل فى البلاد بقوة .

وكانت مجالات العمل تضيق بخريجى الجامعة ، وأمل المستقبل تكتنفه غيوم . وإذا كان هذا هو شأن الجامعيين فى تلك الحقبة ، فما بال أصحاب الفلسفة ؟

كان على أصحاب أن يتفرقوا وينتشروا فى الأرض سعياء وراء الرزق فى ظروف شاقة ، ولكنهم يحملون - رغم هذه الظروف - بشارة الأمل ، فهم يكتبون ويخطبون ، ويتخذون من أعلام العصر رواداً من بينهم من اتبع طه حسين ، وفيهم من اتخذ طلعت حرب قدوة ، أما أصحاب الفلسفة فقد جعلوا من شيخهم مصطفى عبد الرازق إماماً يقتفون أثره ويترسمون خطاه ، ومن هؤلاء زميلنا الحديد .

ولقد شارك توفيق الطويل فى الحركة الوطنية فى الثلاثينيات خطيباً وكاتباً ، وحمل مع زملاء له فكرة الدعوة إلى التحرر الاقتصادى من سيطرة رأس المال الأجنبى على مقدرات مصر ، واتخذوا لدعوتهم اسماً مبشراً بالأمل والرجاء «عيد الوطن الاقتصادى» واستطاع توفيق الطويل ، وهو من نعرف وثوقاً وتمكناً ، أن يتفوق على الظروف

والأوضاع المحيطة به ، وأن يدخل الجامعة من أبوابها متميزاً منذ صدر عهده بالتدريس فى جامعة القاهرة ، ثم فى جامعة الإسكندرية ومرة أخرى فى جامعة القاهرة .

ولم يقنع فى تلك المرحلة الباكرة بالجانب العلمى المتخصص ، بل كان الجانب الاجتماعى والثقافى شاغلاً له ، فأنشأ جمعية للمحاضرات والمناظرات اشترك فى نشاطها من كبار المفكرين والأدباء الأساتذة : عباس ، العقاد وأحمد أمين ، وإبراهيم مدكور ، والآنسة مى ، وعبد الرحمن الرافعى ، وأنطون الجميل ، وإسماعيل مظهر ، وتوفيق دياب ، وإبراهيم سلامة ، وإبراهيم ناجى .

وهكذا أدخل فى محيط الجامعة نشاطاً فكرياً وثقافياً عاماً أسهم فيه كبار المفكرين مع الأساتذة والطلاب .

وظل توفيق الطويل قوَّماً على رسالته الجامعية ، وامتد أثره وفضله إلى جامعات عربية أخرى فاخترته الجامعة الليبية أستاذاً بها سنة ستين ، ثم استقر به المقام أستاذاً بجامعة الكويت لست سنوات بين سنتى ثمان وستين وأربع وسبعين ، ودعته جامعات البصرة ، وبغداد ، وقطر ، أستاذاً زائراً تقديراً لمكانته العلمية ، فترك إلى جانب أثره العلمى أثراً عاماً بمحاضراته الثقافية .

ولقد ظل الجمع بين الخاص والعام من سمات توفيق الطويل ومن الخصائص التى تميز بها ، فهو نموذج الأستاذ الجامعى الذى

يذكر ما للجامعة من رسالة في المجتمع إلى جانب رسالتها العلمية الخالصة ، وهو يستجمع خبرته وتجاربه ويقدمها خالصة للمؤتمرات والجامع والمجالس العليا للعلم والادب والعلوم الاجتماعية ، ثم للمجلس الأعلى للثقافة مقررا للمجنة الفلسفة والاجتماع .

ولقد حرص الأستاذ الدكتور توفيق الطويل على ألا يقصر جهده على التدريس والمحاضرة والمشاركة في الحياة العامة بل أقبل كذلك على التأليف والترجمة .

ولعل طبيعة توفيق الطويل وخصائص نفسه ومُسئله هي التي حفظته من مرض أصاب الجامعات ، فجذب من أساتذتها من جذب إلى بريق المناصب في مواقع أخرى غير علمية فمخسرت الجامعة ونحسر البعض أنفسهم .

أما توفيق الطويل ، فظل بعيدا عن مواقع الساطان قريبا من العلم في مخزنه ، وبهنا أعطانا هذا الصرح الكبير من مؤلفاته .

ويكفي أن نتأمل ثبت إنتاجه العلمي لتبين فضل هذا العالم الجليل .

صحب هذا الإنتاج حياته الحافلة ، فأصدر في البدء كتاب « الأحلام في الفكر الإسلامي » بتقديم من أستاذه مصطفى عبد الرازق الذي صوره أصدق تصوير في عباراته القلية :

« الأستاذ توفيق الطويل باحث مدقق يريد أن يصل بعقله إلى بواطن الأمور وظواهرها وأوائها وأواخرها ، هو يعتمد على « العقل »

صرفا . ويريد أن يؤثر في عقول الناس لا في قلوبهم ، أدركت هذا المعنى حين قرأت مؤلفات الأستاذ الطويل ومنها مؤلفات تتصل بالتصوف والمتصوفة ، والتصوف علم القلوب ، ونذكر هذا المعنى حين نقرأ من جديد هذه الرسالة - الأحلام - وقد قرأتها من قبل . وناقشت صاحبها ، وسجلت شهادتي له بالنجاح الممتاز في تأليفها ، وفي عرضها على مجلس الامتحان ، وما أزداد إلا رضا عن هذه الرسالة وإعجابا بجهود المؤلف في إعدادها أولا ، ثم فيما أدخل عليها بعد ذلك من تعديل وتكميل ، دلالة على التسامح إلى الكمال ، والبعد عن الفتنة بعلمه والغرور . وكالما ازداد علم العالم ازداد تواضعه ، وكالما ازداد تواضعا ازداد علما » .

هذه هي رؤية الشيخ الجليل لتلميذه ، وهي رؤية صادق وتقدير ومودة .

ولقد شغل توفيق الطويل بعد التراث الفلسفي العربي فأجال فيه النظر وأصدر كتابه « التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام » وكتابه « الفكر الدينى الإسلامى فى مائة العام الأخيرة » ، و« الشعرانى إمام التصوف فى عصره » .

كما ترجم فصل الفلسفة والإلهيات فى كتاب تراث الإسلام ، وشارك فى تحقيق كتاب « المغنى » للقاضى عبد الجبار ، وأعد بحثا مطولا مسهبا عن فلسفة الأخلاق الصوفية عند ابن عربى .

وللأستاذ الدكتور توفيق الطويل مؤلفات قيمة أخرى منها :

* مذهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق .

* قصة النزاع بين الدين والفلسفة .

* مسائل فلسفية . . ومشكلات فلسفية .

* قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة .

* التصوف في مصر إبان العصر العثماني .

* الفلسفة في مسارها التاريخي .

* جون ستوارت مل .

* قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام .

على أن للزميل الحديد اهتماما آخر بتراث العلم عند العرب ، أولاه جانبا ملحوظا من بحوثه ودراساته . كما صدر له في مجلة « عالم الفكر » الكويتية بحثان كبيران في حجميهما وقيمتيهما :

الأول : عن خصائص التفكير العلمي بين تراث العرب وتراث الغربيين .

والثاني : لقطات علمية في تاريخ الطب العربي .

على أني بعد هذا التطواف أتوقف قليلا عند مؤلفيّه العظيمين :

— أسس الفلسفة . الذي صدر منه حتى الآن سبع طبعات .

— وفلسفة الأخلاق ، نشأتها وتطورها وقد بلغت طبعاته أربعاً .

ولاني لأعجب كيف استطاع الأستاذ توفيق الطويل أن يوفق هذا التوفيق بين

رسالته أستاذا ومدعماً لأقسام الفلسفة والدراسات الفلسفية في الجامعات العربية ، وبين إنتاجه العلمي الغزير الذي يتطلب تفرغاً وجهداً وعناء .

أبكون مرجع هذا ، إلى جانب فضائله وصفاته وخلوص نفسه للعلم ، ما أتبع له من خلوة علمية حين هاجر من مصر إلى الجامعات العربية الأخرى؟ أم يكون مرجعه ما توافر له من حياة كريمة كفأت له أسباب الاستقرار؟ كما تنبئ عبارات إهداء كتابه « أسس الفلسفة » إلى زوجته الفاضلة وما وهبته من جهد ، وقدمته من عون هياً له أسباب الصفاء العقلي ، وأتاح له التوفر على العلم .

إن مؤلفي الأستاذ الدكتور توفيق الطويل عن أسس الفلسفة وفلسفة الأخلاق من شوامخ المؤلفات في تاريخ الدراسات الفلسفية بمصر ، وهما يدلان على خصائص فكره ونفسه ومنهجه .

ففيهما ما يتميز به ؛ من توفيق بين الماضي والحاضر ، من عقلانية في الحكم على الأشياء ، ومن مثالية أخلاقية رفيعة ، كما أنهما ينبئان عن جهد في البحث عن حقائق الأشياء وجلاتها بعبارات ناصعة ، وروية واضحة ، ونزاهة في الحكم ، ودقة في التفكير .

يقف المؤلف موقفاً حكيماً بين دعاة هدم ماضي التفكير الفلسفي ، وأنصار التشبث بالقديم فيقول :

« الأدنى إلى منطق العقل أن نقول مع «ليون روبان» إن إغفال ماضى التفكير ميسور في العلم نفسه ، وليس هذا هو الحال في تاريخ الفلسفة فإن تاريخ الفلسفة فلسفة ، وهو يبدو أمام الفيلسوف في تجدد وتطور متصل ، إلى جانب أنه يسمو على مجرد التوسع في المعرفة ، والمشكلات التي أثارها القدامى من الفلاسفة لم تزل بعد باقية وستظل باقية دوماً ، لم تتغير موضوعاتها وإن طعمها البحث بعناصر جديدة .

« أما تاريخ العلم فليس جزءاً من العلم نفسه ، إنه ماضى العلم ، هو الجزء الفانى من المحاولات التي قام بها العلماء ابتغاء التوصل إلى الحقيقة ، أو هو الجهد الذي أدركه النسيان بعد أن بلغ أصحابه الغاية المطلوبة منه ، وهذا الماضى يشبع رغبة الطامع في التوسع في المعرفة ولا يتجاوز هذا الحد ، أما تاريخ الفلسفة فإنه يكون جزءاً منها ، ويشترك معها في موضوع واحد ، والجديد في الفلسفة يقرم عادة على قديم » .

على هذا النحو يوفق توفيق الطويل بين ماضى الفلسفة وحاضرها ، وعلى هذا النهج يمتضى في مؤلفه الكبير باباً إثر باب ، معرفاً بالفلسفة مجالاً ومنهجاً ، وشارحاً للمذاهب والنظريات الفلسفية ، فيعالج مشكلة الوجود ، ويجلو لنا نظرية المعرفة ، ويفرد باباً للقيم العليا ، ثم يلتقي ضوءاً على قيم الحق والخير والجمال ، ومع اهتمامه بدراسات الفلسفات الغربية

فإنه يتمحري كذلك وضع حكمة الشرق القديم وتراث العرب الزاهر في مكان مرموق من تاريخ الفكر البشرى .

أما كتابه (فلسفة الأخلاق) فيضم أظهر ما عرفت فلسفة الأخلاق ، عبر تاريخها الطويل من قيم إنسانية رفيعة ، وهو يرمى بكتابته إلى هدف أبعد من الدراسة العلمية المجردة إذ يشير في إهدائه إلى ابنائه « حسام ومنى » ، وأنه قد طاب له أن يهدي الكتاب إليهما عسى أن يجدا في بطون صفحاته مثلاً إنسانياً رفيعاً يشبع العقل ، ويستوى القلب ، وتكون له الصدارة في توجيه الحياة ، ذلك لأن توفيق الطويل يستشعر القلق من طغيان الحياة المادية في عصرنا الحاضر على مدلول المثلى العليا ، ومكانها الذي ينبغي أن تحتله من حياة الناس .

وكأنى بالمؤلف يخاطب الجيل كله متخذاً ابنه عنواناً لهذا الخطاب .

ولقد مضى المؤلف في عرض فلسفة الأخلاق عند القدماء بدءاً من مؤسس الفلسفة الخلقية في الغرب سقراط ، حتى فلسفة الأخلاق عند المحدثين ، ويحرص المؤلف أن يفرد باباً لفلسفة الأخلاق في التفكير العربى في عصر الإسلام الذهبى . . ثم يختتم كتابه مؤكداً أن الخلاف بين الفلاسفة في شأن القيم الأخلاقية إنما كان في تفسيرها وتحليلها ، ومنهج بحثها لدراسة مضمونها ، وبعد هذا الخلاف يلتقى جميع فلاسفة الأخلاق فوق أرض واحدة ، وتحت راية واحدة ، تقديرًا للقيم الأخلاقية

واستغراقاً في إكبارها ، حتى الذين ظن البعض خطأ أنهم يمثلون النزعة اللاأخلاقية في فلسفة الأخلاق ، كانوا في الحقيقة يهدمون قيماً بدت لهم هزيلة بالية عسى أن تأخذ مكانها قيم أصليح وأسلم .

ويعود المؤلف في ختام الخاتمة فيقول :

« ما أصدق أن يقال : إن الإنسان هو الكائن الأخلاقي الوحيد ، لأنه - من بين سائر الكائنات - هو وحده الذي يمكن أن يضيق بواقعه ، ويتطلع جاداً واعياً إلى ما ينبغي أن تكون عليه حياته ، وهو وحده الذي يخطط لمستقبله ، وبذلك كان من الحق أن يقال : إن الإنسان لا يكون إنساناً ، مميّزاً من سائر الكائنات بغير مثل أعلى يدين له بالولاء » .

تنبيء مؤلفات الأستاذ توفيق الطويل بأن له إلى جانب غرامه بالفلسفة غراماً آخر في اللغة تدل عليه عباراته ، وعنايته بأن يضم إلى كتابيه معجماً في ترجمة المصطلحات والمذاهب والمسائل التي تناولها .

لقد استنزف زميلنا الحديد في إعداد مؤلفاته جهداً كبيراً ولكن المؤلفين في مصر يعتصرون فكرهم ويجودون علينا بروائعهم ولا يلقون عن جهدهم إلا الصمت .

لقد قرأت عن مؤلفات الدكتور توفيق الطويل صفحات كاملة من التقييم والتقدير في جريدة النهار البيروتية ، وغيرها من الجرائد التي تصدر في البلاد العربية ، ولكنني لم أقع على تعليق واحد عن هذه المؤلفات في صحفنا بمصر .

رحم الله زماناً كانت الصحيفة المصرية فيه منبر الرأي والفكر ، وملتقى قصائد الشعراء وأدب الكتاب وفكر المفكرين .

لقد طغى الإعلان والخبر على الصحيفة ولم يدع للفكر إلا أعمدة تختنق بين صفحات الإعلان التجارية .

وليت المجالات الثقافية بقيت لنا لتسد هذا الفراغ .

لقد كان لنا منذ سنوات مجلة « المحلة » و « الفكر المعاصر » و « الكتاب العربي » ومجلات كانت تربطنا بتيارات الثقافة ، وبالحديد من عطاء الفكر ، ولكنها احتجبت فيجأة ولم نستعص عنها بالبديل .

أيها الزميل العزيز :

وإذ أختتم كلمات الترحيب بك تتدافع إلى الذكريات والخواطر ، وأستحضر زماناً بعيداً كنا نلتاق فيه ونستمع إلى أحاديثك في مجلس خاص فنعجب بوضاعة فكرك ،

ورجاجة ذهنك ، وهدوء نفسك ، وكم كان
لهذه الأحاديث من وقع في نفوسنا يردّها
إلى الطمأنينة ، ويسبغ عليها السكينة ، ويفتح لها
أبواب الأمل .

واليوم ، إذ أستقبلك ، أراك كما كنت في هذا
الزمن البعيد ، وقور السميت سمح الملامح ،
مستضيئاً بالحكمة والمثل . . فيك من شباب
الفكر وحيويته ما يلوح وكأنه على مر السنين
يزيد .

لقد اتخذت لنفسك من عطائك ونضج
عقلك رذكاء قلبك مكانة في حياتنا الفكرية .
وأحسب أن المجيعين ، إذ يستقبلونك اليوم ،
يستبشرون الخير بمقدمك إلى مكانك بينهم
لتضم جهودك إلى جهودهم وتسعى سعيهم الجاد
النبيلى .

وأنت أهل لهذا الجهد وذلك السعى .
وفقلك الله وأثابك عن عطائك العظيم .

بدر الدين أبو غازى
عضو المجمع



٣ - كلمة الدكتور توفيق الطويل

سيادة الرئيس

سيداتي . . سادتي :

كان أملاً بعيد المنال أن أنضم إليكم ، وأن أمثّل بين يديكم في مجمع الخالدين ، وكانت مفاجأة سارة أن أعلم بهذا النبأ على غير توقع ، فكان فضلاً غامراً من أئمة العربية ، وقادة الفكر والأدب أن يروني خليقاً بثقتهم وحسن تقديرهم ، جزاهم الله خيراً ، ووفقني إلى أن أكون أهلاً لثقتكم الغالية . لكن تبعات هذا الاختيار ينوء بحملها الصفوة الممتازة من العلماء ، فكيف لمثلي - مع عجزى وقصورى - أن يقوم بعبء هذه التبعة ؟ ولكني أعاهدكم أن أبذل أقصى الجهد في الإسهام معكم في تحقيق الرسالة الكريمة التي أخذتم أنفسكم بتحقيقها ، عسى أن أكون عضواً جديراً بشرف الانتساب إلى المجمع الموقر ، حالفكم التوفيق لقاء ما تبدلون من جهد في خدمة لغة القرآن الكريم ، ولكم الجزاء الأوفى . وإني لأتوجه بالشكر في هذه الفرصة الطيبة إلى الأستاذ الدكتور رئيس المجمع ، وإلى السيد الأستاذ بدر الدين أبو غازی للتقدمة الطيبة التي قدماني بها إلى حضراتكم وشاء فضلها أن يصفى عليّ من الشناء المستطاب ما أراي غير أهل له ، وأراهما أجدر به مني جزاهما الله كل خير .

وبعد : فإن لغتنا العربية قديمة ضاربة

في القدم ، يحرسها ويمكن لها القرآن الكريم والمشتغلون بدراساته ، وهي تجمع بين الناطقين بها في شتى بقاع العالم العربي وخارجه ، تذكرونا بتراثنا وقوميتنا ، وتحملنا على أن نولي وجوهنا شطر مستقبل واحد ، إنها تصل بين ماضينا وحاضرنا ، وتهيء لمستقبلنا ، فنغضب لشرفنا ونثار لعزتنا .

وقد أثبت استقراء تاريخ الفكر منذ نحو ثلاثة عشر قرناً من الزمان أنها لغة علم وفن وفلسفة وحضارة ، يقول ألدوميلي Oldo mielei أكبر المستشرقين الذين أرنخوا العلم العربي - طبيعياً ورياضياً - يقول :

« إن منتصف القرن الثامن للميلاد كان نقطة تحول فكري بالغ الأهمية في تاريخ العقل البشري » ، ففي ذلك التاريخ نشأ حكم بني العباس في المشرق العربي ، وبدأ حكم الأمويين في المغرب العربي - وأقصد به بلاد الأندلس تحت حكم العرب - ففي المشرق العربي بدأت منذ ذلك التاريخ - منتصف القرن الثامن للميلاد - حركة ترجمة واسعة النطاق نقل فيها العرب إلى العربية تراث اليونان والهنود والفرس وغيرهم من مؤسسي الحضارات القديمة ، وبهذا غنوا تراثنا العربي بتراث الأقدمين من مؤسسي الحضارات ، وسرعان ما تفاعل ذلك التراث الأجنبي الدخيل مع تراثنا العربي الأصيل ،

فكان تجديداً وأصالة وابتكاراً شهد به المستشرقون الذين بهرهم عصر الإسلام الذهبي، فأشادوا به ومجدوا ما وجدوا من كنوزه، واستمرت حركة الترجمة إلى العربية—كحركة أمة أو مدرسة— قرنًا ونصف قرن من الزمان، نقل خلالها العرب حضارة الأقدمين ومصطلحاتهم في الفلسفة والعلوم، وما زال المتخصصون منا في شتى فروع المعرفة العلمية يستخدمون مصطلحات نقلها العرب في تلك الفترة، وهذه شهادة قاطعة بأن لغتنا قد اتسعت للإبانة عن حضارات الأقدمين ومصطلحاتهم الفنية، بل قد أصبح من عمل المجمع الموقر إحياء المصطلح العربي القديم ما أمكن.

بذلك أثبت استقراء تاريخ الفكر أن لغتنا لغة علم وفن وفلسفة وحضارة.

هذا في المشرق العربي، أما في المغرب العربي—وأقصد به بلاد الأندلس، تحت حكم العرب— فقد ازدهرت الحركة العقلية في الأندلس منذ القرن الحادي عشر، متأخرة عن نظيرتها في المشرق العربي، لأسباب لا مجال لذكرها الآن، وشاع النور في حواضر الإسلام الأندلسية، منذ ذلك التاريخ وكان هذا في وقت تغط فيه أوروبا في سبات عميق من الجهالة والتخلف، وقد استلقت النور العربي نظرها، فهمت باليقظة في ضوئه، وتعلمت علمائها على يد علماء العرب، وبدأ هذا في حركتين من حركات الترجمة التي نقلت فيها أوروبا تراث العرب من العربية إلى لغتها العلمية وهي اللاتينية في ذلك الوقت.

أما حركة الترجمة الأولى : فقد بدأت في صقلية في النصف الأخير من القرن الحادي عشر، وكان رائد هذه الحركة هو قسطنطين الإغريقي الذي توفي عام ١٠٨٧ أما الحركة الثانية فكانت في أسبانيا، وكانت أوسع نطاقاً وأكثر شمولاً، ترجمت فيها أوروبا التراث العربي العلمي والفلسفي إلى لغتها وهي اللاتينية في ذلك الوقت، وقد بدأت في طليطلة في النصف الأول من القرن الثاني عشر، وكان رائد هذه الحركة المونسنيور ريموند كبير أساقفة طليطلة، فقد للتراث العربي الإسلامي أن يُنقل إلى أوروبا على يد رجل من كبار رجال الكنيسة، في وقت كانت الكنيسة فيه تشعل نيران الحروب الصليبية لتقضي على الإسلام والمسلمين باسم الدين المسيحي، دين المحبة والسلام والتسامح!

وفي هاتين الحركتين نقلت أوروبا التراث العربي الحضاري إلى لغتها العلمية، وكانت العربية هي الوعاء الذي ضم ذلك التراث الحضاري كله، فأثبتت بهذا أنها لغة علم وفلسفة وفن وحضارة.

وإذا كان هناك من المؤرخين الغربيين من يرجع الحضارة الأوروبية الحديثة كلها إلى اليونان، ويقول عن تراثهم الفلسفي وماضم من مختلف العلوم: إنه المعجزة اليونانية، ويقصدون بها أنها كانت خلقاً عبقرياً أصيلاً جاء على غير مثال. وإذا كان قد أيد هذا أكثر الباحثين الغربيين من أمثال برتراند رسل، فإن من الباحثين الذين أكبوا على دراسة التراث العربي منذ مطلع العصور الوسطى من يعارض المعجزة

اليونانية بما أسماه بالمعجزة العربية ، وكان في مقدمة هؤلاء : جورج سارتون G. Sarton أكبر مؤرخي العلم في عصرنا الحاضر ، ويفسر جورج سارتون ما يقصده بالمعجزة العربية في كتاب (الشرق الأدنى . . الثقافة والمجتمع) .

“Near East, Culture and society”

في بحث ألقاه في مؤتمر نظمته جامعة برنستون بالولايات المتحدة ، وفيه يقول : إن في وسعنا أن نتحدث عن معجزة الثقافة العربية كما نتحدث عن معجزة الثقافة اليونانية ، ويكون معنى المعجزة في الحالين واحداً ، وقد يرى البعض أن في هذا مبالغة رغلوا ، لكن الذي حدث في بلاد اليونان ، ثم في بلاد العرب ، كان من الغرابة بحيث يحمل الإنسان على التطرف في التعبير .

وكذلك في كتاب آخر هو :

History of Science and new Humanism
أى تاريخ العلم والنزعة الإنسانية الجديدة ،
يفسر ما يقصده بالمعجزة العربية فيقول :

« إن خلق حضارة عالمية جديدة شاملة في أقل من قرنين من الزمان ، لأمر يمكن وصفه ، ولكن من المستحيل تفسيره وتحليله على نحو مقنع . . . إن هذه حركة خلاقة تتميز بالأصالة والابتكار ، بل كانت أعظم حركة علمية تتصف بالأصالة منذ مطالع العصور الوسطى حتى نهاية القرن الثالث عشر . . . ومنذ منتصف القرن الثامن للميلاد حتى نهاية القرن الحادى عشر ، فكانت الشعوب الناطقة بالضاد تتقدم موكب الحضارة في الدنيا

بأسرها ، ويرجع الفضل إلى علماءها العرب في أن لغة القرآن المقدسة قد أصبحت لغة العلم العالمية ، وأداة التقدم الإنسانى . وإذا كنا — نحن الغربيين — نرى اليوم أن أقصر طريق يسلكه الرجل الشرقى إلى تحصيل المعرفة هو أن يتمكن من معرفة لغة من لغات الغربيين الرئيسية ، فكذلك كانت اللغة العربية بالنسبة للغربيين إبان تلك العصور ، كانت المفتاح ، بل يكاد يكون المفتاح الوحيد الذى يفتح باب الثقافة الواسعة الجديدة . . . إلخ » .

هذا هو رأى مؤرخ العلم الذى اعترف بأنه حين بدأ في إعداد مادة لمقدمته المعروفة في تاريخ العلوم أغفل شأن العرب مجارة لمن يرون أن تراثهم هو تراث اليونان في ثوب عربى ، فلما أخذ يدرس التراث العربى ويتعمق فهم أسرارهِ ، أدرك خطأه وعدل عن منهجه ، وأولى العرب من التقدير البالغ ما جعله يصف تراثهم بالمعجزة العربية ، ليقابل بينها وبين ما سموه بالمعجزة اليونانية .

وإذا كان سارتون قد أشار في نصه إلى أن العلم العربى كان مزدهراً من منتصف القرن الثامن للميلاد حتى نهاية القرن الحادى عشر ، فإن غيره من الباحثين الغربيين ، وفي مقدمتهم « ول ديورنت » W. Durant وغيره ، يرون أن عصر الإسلام الذهبى يمتد خمسة قرون من الزمان تبدأ بمنتصف القرن الثامن وتمتد إلى منتصف القرن الثالث عشر ، عند غزوات التتار لبغداد عام ١٢٥٨ م . ونحن نعرف ما فعله التتار حين ألقوا بذخائر

المكتبات في نهر دجلة ، وكان الناس والحيول تعبر النهر فوق الكتب التي سدت مجرى النهر ، وسودت مياهه بمداد المخطوطات ، ولكن هذا لم يقوض الحضارة الإسلامية ، بل يقول المستشرقون : إن أوروبا قد توقفت عن نقل التراث العربي منذ ذلك الغزو الوحشي ، أما الحضارة الإسلامية فقد استمرت بعد ذلك ؛ إذ انتقل القبس إلى دمشق ثم إلى القاهرة ، وظل القبس في يدها إلى يومنا الحاضر ؛

وبعد : فلا غرابة بعد هذا أن ينشأ في القاهرة ، إبان القرن العشرين مجمع الخالدين ؛ ليقوم على رعاية العربية بكل مضامينها : لغوية وعلمية وفنية وفلسفية وحضارية . ولا سيما وأن الغرب المسيحي الذي يقود اليوم حركة التقدم في العالم قد بدأ ينصف العرب بعد ظلم وإجحاف .

ويفسر مؤرخو الفكر هذه الظاهرة ، وهي تطور نظرة الغربيين إلى العرب ودورهم في بناء الحضارة الإنسانية ، فيقولون : كان المستشرقون في القرن التاسع عشر يستبد بهم التعصب الديني والتحزب الجنسي ، ومن هنا استخفوا بدور العرب في بناء الحضارة الإنسانية ، فزعموا أنها لا تدين بالفضل لغير أجدادهم من اليونان ، وأكدوا تفوق الجنس الآري الأبيض على غيره من الأجناس ، وسبق أوروبا في الخلق الحضاري على غيرها من القارات . . . وقالوا : إن العرب وقد انحدروا عن الجنس السامي لم يخلقوا

بطبيعتهم للتفكير الأصيل المبتكر ، وأن ما ضمه تراثهم من عناصر الفكر الأصيل دخیل عليهم غريب عنهم ، بل إنهم لم يحسنوا فهم ما نقلوا من التراث القديم ولم يستوعبوا كنوزه ، فشوهوه بشروحههم ، وأتلفوا حقائقه بتعليقاتهم . . . إلى آخر مزاعمهم ، لكن هؤلاء الغربيين قد أخذوا منذ أواخر القرن التاسع عشر وإبان القرن العشرين يكتبون على البحث في تاريخ العلوم عند العرب ، فأدركوا مكان العلم العربي على خريطة العلم العالمي ، وكان في مقدمة هؤلاء : جورج سارتون الأمريكي ، والإيطاليان ألدومبلي (مؤرخ العلم العربي) ، وكارلو ألفونسو نللينو (مؤرخ علم الفلك عند العرب) ، وجولييان ريبيرا الأسباني ، مؤسس ورئيس مدرسة أيبيريا الحديثة للعلوم العربية ، وماكس ماير هوف المتجنس بالجنسية المصرية . . . وغيرهم من أعضاء المجمع العالمي لتاريخ العلوم ، وقد انتشر الكثير من معاهد العربية وعلومها في أوروبا وأمريكا لدراسة ذلك التراث العربي ، ودور العرب في تأسيس الحضارة الإنسانية ؛ ومن هنا عرف الغربيون مكان العلم العربي على خريطة العلم العالمي ، وكشف الباحثون من الغربيين في بحوثهم العلمية وندواتهم الدولية ومؤتمراتهم العالمية - كشفوا عن وثائق ونصوص رفعت الحواجز بين الأجناس ، وأثبتت أن الحضارات الكبرى على اتصال وتفاعل بعضها مع بعض ، وأيدت الدعوة الجديدة هيئة اليونسكو (وهي منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة) .

بجهودها ومؤتمراتها ، حتى أن رئيس قسم اللغات الشرقية وآدابها بجامعة برنستون ، وهو كولر يونج Culer Young ألقى بحثاً عن ديسن الغرب المسيحي للثقافة الإسلامية ، فاختتمه « بتذكير مسيحي أوروبا المعاصرة بالدين الثقافي العظيم الذي يدينون به للإسلام منذ أن كان أجدادهم يسافرون إلى حواضر الإسلام ، خاصة في أسبانيا (بلاد الأندلس) ليتلقوا على أيدي معلمهم من المسلمين الفنون والعلوم وفلسفة الحياة ، وفي جملة ما يتلقونه ، التراث الكلاسيكي القديم الذي أحسن الإسلام رعايته ، وصانه من الضياع حتى استطاعت أوروبا أن تسترده وترعاه ... » لقد قيل هذا البحث في ندوة عالمية عن الثقافة الإسلامية عقدت في برنستون وواشنطن عام ١٩٥٣ م .

وبعد أقل من عامين (١٩٥٥) ظهرت ترجمة بحوث الندوة في كتاب بالعربية تحت عنوان : « الثقافة الإسلامية المعاصرة ، بحوث ودراسات إسلامية » . وكان مترجمها هو العالم الذي يلاحق المستشرقين في أقصى الأرض ويتبع بحوثهم ودراساتهم وينقل منها لقراء العربية ما يراه صالحاً ومفيداً لهم ، ذلك هو عالمنا المحمدي الأستاذ الحليل «محمد» خلف الله أحمد . دعواتنا إلى الله تعالى أن يهبه الصحة والعافية ، وأن يحفظه من كل سوء ، لكي يواصل عطاءه للعلم وطلابه .

وسار في هذه الدعوة الجديدة المستشرقون الذين شاركوا في سلسلة التراث القديم والوسيط

منذ أن صدرت أولى حلقاته عن تراث اليونان عام ١٩٢١ م وتلتها بقية حلقات هذه السلسلة ، فأفردوا كتاباً منها لتراث الإسلام ، شارك في كتابة فصوله الكثيرون من المستشرقين ، وقد ترجم جزءاً منه بالقاهرة لجنة الجامعيين لنشر العلم عام ١٩٣٦ م ، وشرفت بأني كنت مقرر هذه اللجنة ، وترجم بعض زملائنا في جامعة الكويت جزءاً آخر ، وكان في مقدمتهم زميلنا الدكتور حسين مؤنس أحد أعضاء لجنة الجامعيين السالفة الذكر .

ومن عجب أن يكون هذا هو فضل المستشرقين على لغتنا العربية وتراثها ، ومع ذلك يحلو للبعض منا أن يعتبروا أن بعض هؤلاء المستشرقين قد انحرفوا أو ضلوا ثم ينهالون على جميع المستشرقين طعناً وتجريحاً ، مع أن المستشرقين عامة هم الذين وضعوا أقدامنا على بداية الطريق الصحيح ، وأضاءوا لنا الطريق للكشف عن أسرار لغتنا وكنوز تراثنا .

وهكذا أصبح من المعترف به عالمياً أن لغتنا العربية لغة علم وفن وفلسفة وحضارة ، ومن أجل هذا كانت الاستهانة بها أو عدم الالتزام بقواعدها أو عدم الحرص على إحيائها في صفاتها جريئة ، في حق الوطن العربي كله .

ومن أسف أن الفصحى قد أصابها خلال القرون السبعة الأخيرة من الضعف والزال ما أصاب شتى القطاعات في مجتمعاتنا العربي ،

فقلّ العلم باللغة وقواعدها حتى بين أكثر المشتغلين بها ، والذين يكسبون قوت يومهم من تعليمها ، فإذا تعذر لسان الجهال منهم في ضبط كلمة أو إقامة جملة ، دعوا إل اصطناع العامية أو إهمال الإعراب ، أو إحلال الحروف اللاتينية مكان الحروف العربية أو غير ذلك مما ينم عن جهل أو ينكشف عن سوء نية ، يشهد بذلك استخفافهم بلغة القرآن الكريم ، بل إن لغتنا إقْد تعرضت للجمود بسبب تزمت بعض علمائنا السالفين الذين جمدوا بحسن نية ، وقد صدق المرحوم « الأستاذ عباس حسن » حين قال في مقدمة كتابه « اللغة والنحو - بين القديم والحديث » : « إن أدراكنا وشوائب خالطت آراء الصفوة الممتازة من علمائنا السالفين » ، منهم « طائفة أحببت لغتها وأسرفت في الإخلاص لها ، وقصرت جهدها على اتخاذ الوسائل لصيانتها ، وهى لهذا جدمشكورة لكنها أخطأت الطريق القويم لذلك ، فزعمته التمسك بالقديم في غير تسمح ، والحمود عليه في غير مُلائمة ، والوقوف عنده في غير تصرف واجتهاد ، فسنت في اللغويات ما سنته بغير حجة ساطعة أشباه لها في الشرعيات ، من إغلاق باب الاجتهاد وسد المنافذ أمام العقل ، وقصره على ظواهر النصوص والألفاظ . . . إلخ » .

ولاسبيل إلى تدارك هذه الحال إلا بالإخلاص في تعليم الفصحى وقواعدها ، والتوعية بخطر اللغة في حياتنا الاجتماعية والعلمية بوجه خاص ، وتقريب العامية من الفصحى ، وإحياء

الفصحى من كلماتها في العربية ، وبذلك يسهل استخدامها حتى على أنصاف الأميين ، وهم الأكثرية الغالبة من بنى العرب .

وبعد : فإننى أعود فأقول : إن اختيارى عضواً بمجمع الخالدين قد هز كياني واستبد بمشاعري ، ولم يضعف فيّ هذا الشعور أن المجمع كان قد شرفنى باختيارى خبيراً بلجنة الفلسفة عند إصدار المعجم الفلسفى ، وقد شرفت بالاشتراك في تنقيحه وإخراجه ، وقد أريد به كما جاء في مقدمته : « أن يكون معجم مصطلحات فحسب . . . » وأنه قام أساساً على الفلسفة الإسلامية والفلسفات الغربية في كل عصورها ، وحرص على إحياء المصطلح العربى القديم ما أمكن ، وتضمن ألفاً ومائتى مصطلح مع مشتقات موادها . . . » . هذا ويسرنى أن أقول : إن لجنة الفلسفة ، والاجتماع بالمجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية قد اضطلعت بوضع الجزء الأول من معجم أعلام الفلسفة والاجتماع ، وهو الآن في المطبعة ، وهذه اللجنة في وضعها الجديد في المجلس الأعلى للثقافة تقوم الآن بإعداد الجزء الثانى من هذا المعجم ، وإن كنا نعانى الأمرين ؛ لقلة المتخصصين في الفلسفة وهجرة الكثيرين منهم إلى جامعات العالم العربى ، ومع ذلك فإننى أقترح على مجمعنا الموقر أن نواصل المسيرة فنعمل على إعداد معاجم أخرى في شتى فروع الفلسفة ، ونبدأ بإصدار معجم فى مصطلحات المنطق : الصورى

منه والرمزي ، مع مناهج البحث العلمي وفلسفة العلوم . ثم نضع معجماً في فلسفة الأخلاق وفلسفة الجمال ، وهكذا نستوفي الإبانة عن مصطلحات الفلسفة في شتى فروعها :

أما بعد ... فقد أخذت في مجمّعنا مكان عالم نحوي ضليع هو المغفور له الأستاذ عباس حسن. ومن أسف أني لم أحظ بشرف معرفته فأتحدث إليه وأنس بعلمه ، ولكن شهرته مع آثاره العلمية قد تكفلت بإذاعة اسمه بين قراء العربية ، فقد أيدته الله بفيض من التوفيق في دراساته ، فأرسي قدميه في فروع من المعرفة يتسهيّب بها جمهرة الدارسين العازفين عن دراسة النحو لصعوبتها ، أما فقيدنا فقد كان ولوعاً بالنحو متعمقاً في دراساته ، نافراً من كل من ينحرف عن قواعده مع قدرة على الإقناع والإبانة في غير تكلف ولا التواء ، ولم تهياً له مكانته في النحو والأدب عفواً ، وإنما سعت إليه بعد جهود مضمّنية ، تشهد بها آثاره العلمية وبحوثه الشيقة ، وقد أفاد منها الباحثون ونهل من معينها طلابه أجيالاً طوالاً ، وكثيرون منهم يشغلون اليوم مناصب علمية رفيعة ، وحسبه في هذا كتابه « النحو الوافي » - مع ربطه بالأساليب الرفيعة والحياة اللغوية المتجددة « بأجزائه الأربعة ، ثم نقده للشعر في كتابه الذي وازن فيه بين المتنبي وشرقي في إمارة الشعر ، وهو في هذين الكتابين قد زاد العربية في نحوها وآدابها خصوصية وثراء. ويقول رحمه الله في مقدمة

كتابه « اللغة والنحو بين القديم والحديث » : « ... وصلت الأيام بيني وبين اللغة العربية بأوثق الصلات ، وجرى القدر أن أكون من العاكفين عليها تعلماً وتعليماً ، وأن أقضي السنين الطوال في دراسة علومها ، وقراءة ما جادت به قرائح الأفذاذ من أبنائها والأعلام المشتغلين بها ، فوجدتني أمام مورد لا ينضب ، بل بحر فسيح الجنبات بعيد الأعماق » .

كان رحمه الله عزيزاً في علمه ، مختصاً في تأدية واجبه ، بشهادة العالمين المجمعين الجليلين : الأستاذ الدكتور إبراهيم مذكور ، والسيد الأستاذ علي النجدي ناصف . يقول الدكتور مذكور في رثاء الفقيد : « حررنا من صوت جهير ، قل أن تمر جلسة دون أن نسمعه ، ولقد كان رحمه الله رفياً كل الوفاء لمجمعه ، لم يتخلف عن جلسة من جلساته ، ولا عن لجنة هو عضو فيها ، إلا لضرورة قاهرة ... يحقق موضوعات أثرت ، ويمحص أفكاراً عرضت ، ولا يتردد في أن يستأنف الحديث فيما أثير من قبل ، ولا أن يطلب إعادة النظر فيما سبق أن بُت فيه يعنى بالمبدأ والقاعدة ، ولا يبيح الخروج عليهما ، ولا غرابة ، فقد كان نحويّاً ، ونحويّاً إماماً مستظهِراً للقواعد النحوية استظهاراً تاماً ، وربما طغى نحوه على ثقافته كماها . . . » .

ويقول الأستاذ علي النجدي : « ... ما من مصطلح يعرض في المجلس إلا تلقاه بالنقد والتحريض ، لفظاً وأسلوباً ، فإن كان صالحاً

سكت عنه ولم يعترض سبيله ، وإن بدا له فيه
مأخذاً أمسك به وجهه برأيه فيه ، فإما موافقة
عليه وإقرار له كما يراه ، وإما حواراً ومحاكاة
تطول أو تقصر حتى ينجلى الرأى لا حجاب
دونه ولا خلاف عليه ولا وجه لتمادى الحوار
فيه .. وما أعرف من السادة المجمعيين الذين
شرفت بزمالتهم من كان أكثر منه حديثاً
فى المجلس ، ولا أكثر منه ذكراً فى محاضر
جلساته » .

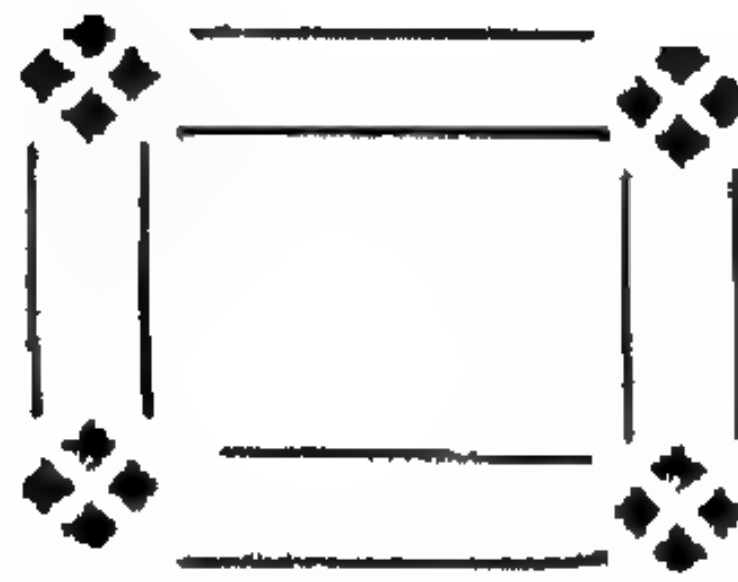
إننا جميعاً نقدر مدى الخسارة الفادحة التى
لحقت بنا بفقدان هذا العالم الجليل ، والذين
يعرفون له فضله وعلمه ، يتوجهون بالدعوة
إلى الله أن يعرضنا عن فقدته خيراً . رحمه الله

رحمة واسعة وجعل الجنة مثواه لقاء ما قدم
لتلاميذه وقرائه من علم نافع . .

أما بعد : فإنى أعود فأكرر لىكم جميعاً
شكرى على الثقة الغالية التى تفضلتم فحبوتمونى
بها ، وعلى فضل الاستماع إلى ، وشرف
الانتساب إلى مجمعنا الموقر ، جزاكم الله
خيراً ، ووفقنى إلى الإسهام معكم فى تحقيق
رسالتكم النبيلة .

. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

محمد توفيق الطويل
عضو المجمع

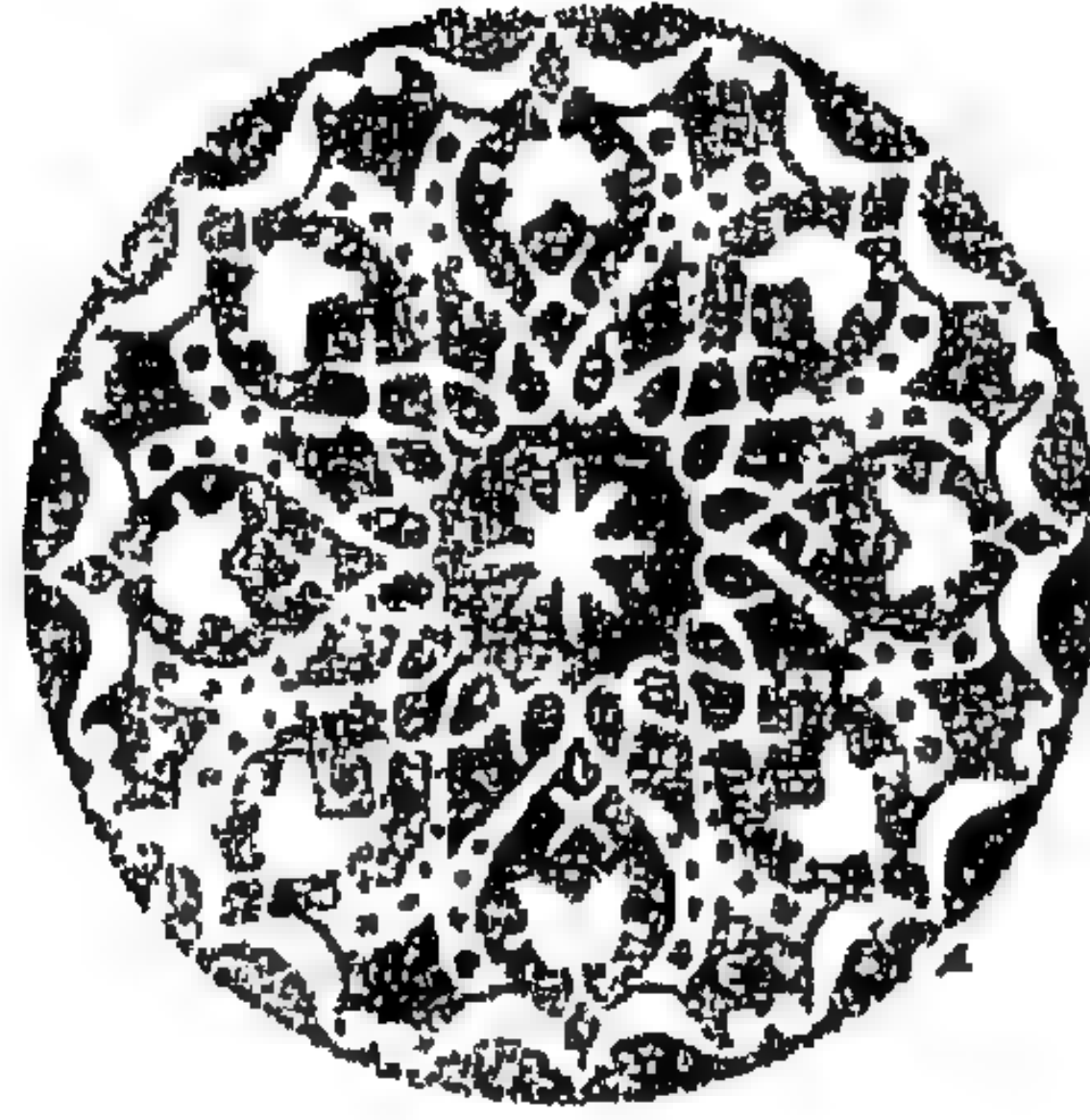


كلمة الختام

للدكتور ابراهيم مدكور رئيس المجمع

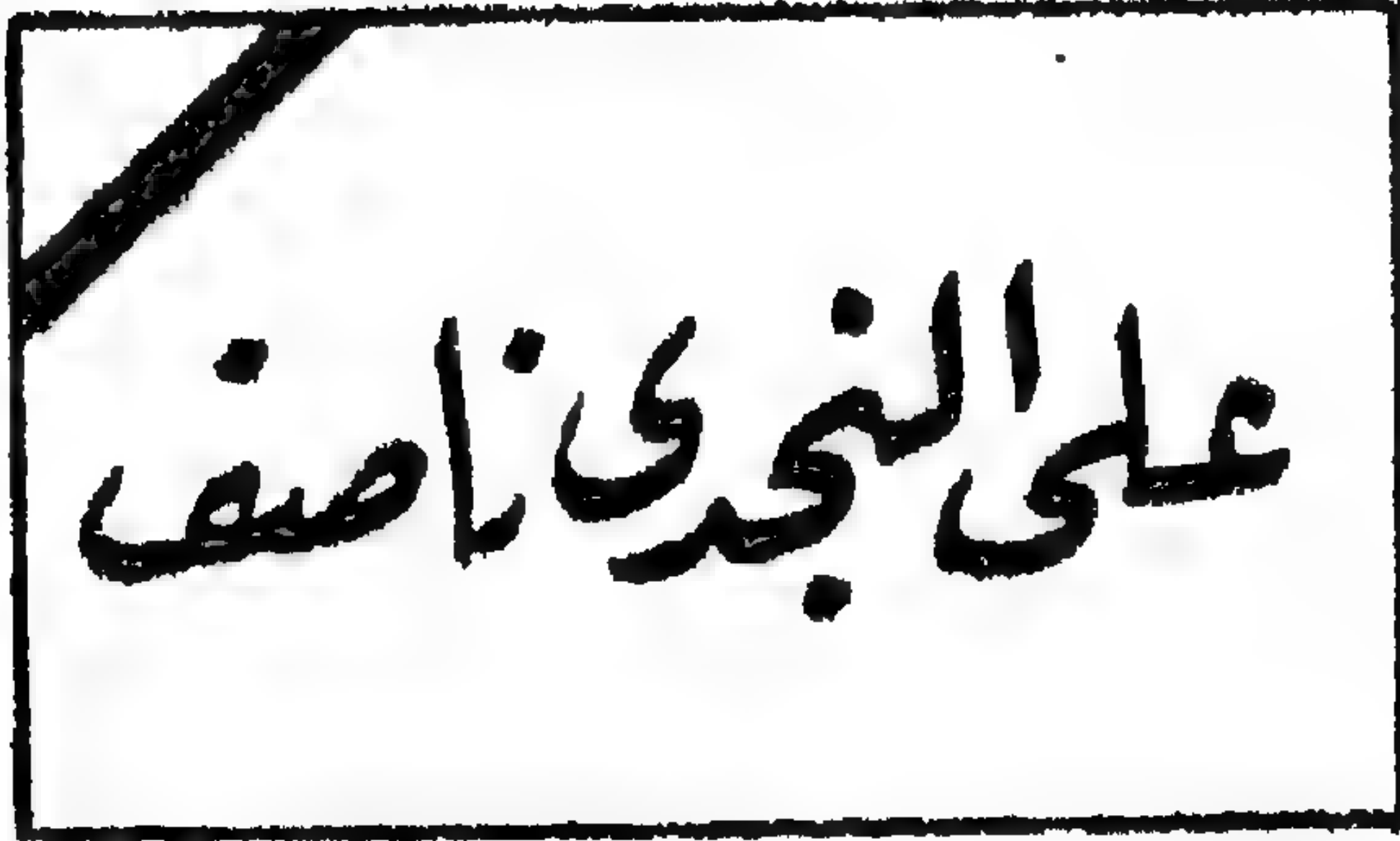
ونشكر كل الذين ساعدوا معنا في إحياء
هذا الحفل، وشكراً لكم جميعاً، ورفعت
الجلسة.

نكرر ترحيبنا بالزميل الجديد وتهنئتنا له،
ونرحب بمقترحاته ونأمل أن تخرج إلى النور
معاجم متخصصة في المنطق والأخلاق وعلم
الجمال، وهذا أمر طبيعي فهو وأدبه، عليهما
نعول.



في الساعة الحادية عشرة من صباح الأربعاء ٢٠ من
جمادى الآخرة سنة ١٤٠٢ هـ (الموافق ١٤ من أبريل
سنة ١٩٨٢ م) أقام المجمع حفل تأبين فقيده المرحوم الأستاذ
على النجدي ناصف ، وفيما يلي الكلمات التي أقيمت في
هذا الحفل :

كلمة الافتتاح للدكتور ابراهيم مدكور رئيس المجمع



في تأبين المرحوم الأستاذ

بسم الله الرحمن الرحيم
أيها السادة :

رحم الله الأستاذ زكى المهندس ، فهو
أول من وجه نظرنا نحو عالم جليل وأستاذ
كبير هو فقيه اليوم المرحوم الأستاذ على
النجدي ناصف ، وجه نظرنا إليه منذ خمس
عشرة سنة أو يزيد ، ولم يكن حظنا سعيداً لننعم
بصحبته وزمالتة منذ اللحظة الأولى التي ذكر
اسمه فيها بيننا ، ولكننا نعمنا به منذ ديسمبر
عام ١٩٧٣ ، تسع سنوات أو تزيد قليلاً
قضناها معنا المرحوم على النجدي ، قضناها
في عطاء مستمر ، عطاء في اللجان المختلفة ،

عطاء في مجلسنا ، عطاء في مؤتمراتنا ، عطاء
كله ذهن صاف ، وأسلوب رقيق ، لا يتكلم
لمجرد الكلام ولكنه صامت إلا إن وجد
ما يقوله من كلام ، ولن أستطيع في فتح
هذا الحديث وبدايته أن أوفى الأستاذ
على النجدي حقه ، وكل ما أرجو أن يجزيه
الله عنا وعن أمته خير الجزاء .

وزميلنا الأستاذ الدكتور شوقي ضيف
سيقول كلمة المجمع عن الفقيه ، ثم بعد
ذلك كلمة الأسرة ، وبلغها الدكتور جلال
النجدي نجل الفقيه .

السيد الرئيس ، الزملاء الأجلاء ، السيدات والسادة :

مهما أملنا أن يمتد العمر بمن نحبهم ونردهم ونقدرهم ونعرف فضائلهم فإننا نفتقدهم واحداً بعد واحد ، إذ لكل "عمر" مقدور وميقات معلوم وأجل محتموم : « فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » ، ولسنا نملك إزاءهم إلا التسليم لقضاء الله الذي لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه .

ولقد خلت اختيار الموت للأستاذ على النجدي ناصف من بيننا في نفوس زملائه غير قليل من الأسى واللوعة ، وضاعفهما أنه حين نزل به القضاء وعلم الزملاء بالنبأ الحزن أسرعوا يحاولون تشجيع جثمانه إلى مقره الأخير ، غير أنه لم يكتب لأحد منّا أن يكون بين مشيعيه ، حتى ينظر كيف يوارى التراب هذا الجسد الطاهر ، بل هذا العلم الشامخ من أعلام العربية ، وكأنما شاء قاصداً أن يرحل في هدوء دون أن يتكلف أحد من زملائه أى مشقة يوم وداعه وأقول نجمه .

وأقولها محزوناً : لقد أخلى الأستاذ على النجدي ناصف في المجمع مكاناً لا يسد أبداً ، خلقة الرفيع النبيل وعلمه اللغوي الغزير وأى زميل له منا لا يخالجه الحزن العميق حين يذكر ما فقدناه فيه من طمأنينة النفس وصفاء

الروح وطلاقة الوجه وعفة اللسان ؟ وبالمثل ما فقدناه فيه من قهر المشاكل اللغوية العويصة وما كان يقدم لها من حلول سديدة في صوت هادئ متزن لين خفيض ، وكأنما يتكلم همساً ، وهو همس كان يحمل دائماً التصويبات اللغوية الصائبة في غير جلبة ولا ضوضاء شأن العلماء الوقورين الأجيلاء . وفي اللجان ، وخاصة لجنة الألفاظ والأساليب ، كان ما يني يضيء جوانب المهمات العسرة ، وما يني يصحح ويصوّب ويصلح الخلل ويداوى السقم ، وما يني يسوّغ - ببراہین لغوية لا تُدحض - ما يُظنُّ ببعض الألفاظ ، والعبارات المتداولة من الانحراف عن الصراط اللغوي السوي .

ومنذ دخل الأستاذ على النجدي ناصف المجمع عضواً عاملاً فيه كان يقدم في كل مؤتمر من مؤتمراته طرفة بارعة من طرف بحوثه الرائعة ولم يكن يروع زملاءه في بحوثه بتحقيقاته وما يشير فيها من أدق الدقائق اللغوية فحسب ، بل كان يروعههم أيضاً بأسلوب ناصع مصفى ، وكأنما نثرت ألفاظ اللغة تحت بصره ليختار لنفسه ولبحوثه منها أسلوباً متسقاً غاية الاتساق ، لا تُبَوِّ في لفظة من ألفاظه ولا التواء ، بل دائماً جمال في الجرس والأداء ، فكل لفظة قد انتخبها بدقة ليتحسّن وقعها في السمع مع شقيقاتها في العبارة ، وبالمثل كل عبارة انتخبها بميزان

لتلتئم أدق التئام مع جاراتها في نسق صوتي بديع ، والموضوع دائما النحو واللغة الشائكان ، وكان يعرف كيف يُخلى بحوثه فيهما من كل شوك ، حتى يسيغها المستمع والقارئ في يسر . ولعل لا أغلو إذا قلت إنه كان يحيل بحوثه فيهما إلى ما يشبه سلسالا عذبا ورياضا نضرة .

وإنها لفجيلة كبرى للمجمع إذ فجع في الأستاذ علي النجدي ناصف أدبيا لايجارى وعالما لغويا لايبارى في تعمقه للغة والنحو وسبره لأغوارهما فقها وتحليلا . وإنه لمّا يعزّى المجمع عن خسارته الكبيرة له أنه أدى للعربية خدمات جلّى تجعله ينتقل من دارنا الفانية إلى الدار الباقية راضيا مرضيا وإن سيرته العلمية وما بذل فيها من جهد شاق متصل لتخليقة أن تُرفع نبراسا مضيئا نصب أعين شبابنا من العلماء كى نحفزهم إلى المزيد من العمل العلمى الجاد الخصب المثمر .

وقد ولد الفقيه بأخرة من القرن الماضى في قرية الصنافين القبلية بمركز منيا القمح في محافظة الشرقية ، لأب كان شيخا مزارعا ، ألحق ابنه بالكتاب كعادة أبناء الريف ، فحفظ القرآن الكريم في سن مبكرة ، ورأى الأب في ابنه مخايل نجابة ، فأرسل به إلى الأزهر الشريف ليتم تعليمه ، وانتظم بين طلابه ، وأخذ ينهل من منابع العرفان فيه وينتقل متفرقا من سنة إلى أخرى ، وبدا له أن يدخل مدرسة دار العلوم ليتزود فيها زادا وافرا

من اللغة والنحو والأدب ودخلها ، وأمضى سنواتها عاكفا على هذا الزاد حتى استوعبه وتمثله ، وتخرج فيها لسنة ١٩٢١ واشتغل بالتدريس في المدارس الحكومية ومدارس المعلمين الأولية التي كانت تخرج المعلمين للأجيال الناشئة في القطر ، وكان القائمون على هذا التعليم يختارون له الصفوة من مدرسي العربية وتصادف أن عُيّن في مدرسة دسوق للمعلمين ، وكان المرحوم الأستاذ الجليل عبد الحميد حسن أمين المجمع السابق مفتشا بوزارة المعارف حينئذ وزار المدرسة واستمع إليه في بعض دروسه وحظى بإعجابه . وذكر ذلك في استقباله عضوا عاما بالمجمع ، إذ يقول : « في مدرسة دسوق للمعلمين حظيت بزيارة الأستاذ علي النجدي ، وكان يلقي درسا يعد من أدق الدروس رأدها على مقدرة المعلم ومهارته في مادته وطريقته وهو درس التعبير أو الإنشاء الشفهى ، وكان موضوع الدرس من مشاهدات البيئة المحلية وهو «دسوق في يوم السوق» وكان في أدائه وإلقائه وحواره نموذجاً للمعلم القدير والمربي الماهر الذى يتخذ من درسه وما يعالج من حقائق وسيلة لبناء العقول وإنشاء الأنفس وكان بذلك محققا لقول شاعرنا شوقي :

أرأيت أعظم أو أجلّ من الذى
يبنى وينشئ أنفسا وعقولا
رأيت كل هذا من الزميل الكريم ، فامتلا
قلبي وسمعى وبصرى إجلالا له وتقديرا .

وانتقل الأستاذ على النجدى ناصف بعد ذلك إلى التفتيش ، وظل في أثناء عمله به يتابع نشر البحوث اللغوية والأدبية في صحيفة دارالعلوم منذ ظهرت في الثلاثينيات من القرن الحاضر إلى أن توقفت عن الصدور في آخريات الحرب العالمية الثانية . ولقت هذه البحوث الأساتذة بدار العلوم ، فانتخبه مجلسها مدرسا بها سنة ١٩٤٣ وتآلق نجمه فيها بين زملائه ، وتدرج في وظائف الدار العلمية حتى أصبح أستاذا ، وأحيل إلى التقاعد فتمحول بها أستاذا غير متفرع حتى لبى نداء به ، وبذلك ظل بالدار نحو أربعين عاما يعلم ويحاضر ويربى الآلاف ويشرف على كثير من رسائل الماجستير والدكتوراه . وفي أثناء ذلك اختير عضوا في لجنة إحياء التراث بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، وحظي الجمع بانتخابه عضوا عاملا فيه سنة ١٩٧٣ ، فنهض بمهمته على خير وجه مشاركاً بالبحث اللغوي القويم والرأى الصائب السليم والألمعية النادرة وكان غزير التأليف ، كما كان غزير التحقيق لكنوز التراث ، غير ما نشره من المقالات والبحوث في المجالات الأدبية والعلمية وفيما يلي بيان مجمل عن مؤلفاته . وأولها كتاب سيبويه إمام النحاة افتتحه بمقدمة عرض فيها للنحو في مؤلفاته المعاصرة ودعا تأليف لجنة تعيد النظر فيه وتخلصه من شوائبه ، وترجم لسيبويه موضعا ما يتميز به من خصائص شخصية ونفسية وعقلية ودرس بعد ذلك الكتاب دراسة تحليلية

دقيقة بيناهم جهة ولغته وما أودع فيه من أصول النحو وشواهد ، وتحدث عن قيمته ومدى تأثيره في النحو والنحاة من بعده . وألقى الدراسة بفهارس مفصلة لشواهد الكتاب من القرآن الكريم والحديث النبوي ومن الشعر والرجز .

وثاني المؤلفات « الدين والأخلاق في شعر شوقي » والكتاب مقدمة ودراسة ، والمقدمة تصور سلطان النزعة المادية وانحرافها بالقيم الفاضلة عن أغراضها النبيلة مع بيان إخفاق الحضارة المادية في إسعاد البشرية ومع الدعوة إلى حضارة روحية تستلهم الدين وتعاليمه ، ومع بيان التأثير العميق القوى بالدين . وتعنى الدراسة بعد ذلك بالموازنة بين بردة البوصيري ونهج البردة لشوقي ، وأيضا بالموازنة بين همزية البوصيري وهمزية شوقي في المديح النبوي . وتحلل الدراسة بقية شعر شوقي في الدين والأخلاق تحليلا دقيقا مع الإنصاف والعرض الطريف .

وثالث المؤلفات « دراسة في حماسة أبي تمام » وقد استهات الدراسة بمقدمة أرتخت لفن الاختيار في الشعر ، وتوسعت في الحديث عن حماسة أبي تمام وآثارها في الدراسات اللغوية . وأخذ الأستاذ النجدى يعرض بعد ذلك منتخبات متنوعة لشعر حماسة أبي تمام دارسا ناقدا محالا ، مع الوصل بين كثير من معاني الشعراء ونحو الخهم وبين واقع الحياة .

ورابع المؤلفات « القصص في الشعر العربي إلى أوائل القرن الثاني الهجري » وقد بدأه الأستاذ النجدي بمقدمة عن نشأة القصص وتطورها ومكانتها من فنون القول مع نقد القصص المعاصرة في لغتها وموضوعاتها وبيان أنها في جملتها لا تصور الشخصية العربية ولا القيم الخلقية الرفيعة . وعرض بعد ذلك أنواعا تسعة للقصص حتى أوائل القرن الثاني الهجري وفي كل نوع قدم نماذج قصصية شعرية درسها دراسة تحليلية مفصلة

وخامس المؤلفات « من قضايا اللغة والنحو » وهو عرض لقضايا طالما أثرت في اللغة والنحو ، كقضية الفصحى والعامية ، وقضية الشعر الحر المعاصر ومكانه من الشعر العربي ، وقضية التأويل والتقدير في النحو ، وقضية الإعراب والمعنى .

وسادس المؤلفات « أبو الأسود الدؤلي » وقد درس فيه الأستاذ النجدي عصر أبي الأسود وحياته ، وتحدث عن ضبطه لآي القرآن الكريم وما قيل عن وضعه للنحو قديما وحديثا ، وانتهى إلى أن النحو عربي عروبة خالصة في نشأته لم يؤخذ عن السريانية ولا غيرها من اللغات . وختم الكتاب بفصل عن شعر أبي الأسود وخصائصه . والمؤلف السابع « ابن قيس الرقيات شاعر السياسة والغزل » وهو دراسة نقدية تحليلية لحياة ابن قيس وشعره وآرائه وخاصة ما اتصل منها بالسياسة .

والمؤلف الثامن « تاريخ النحو » وهو كتيب في سلسلة كتابك التي تصدرها دار المعارف ، وهو إلمام سريع بالنحو في نشأته وتطوره وحياته في الأقطار العربية ، مع تراجم موجزة لأشهر النحاه .

وبجانب هذا النشاط الجهم في التأليف كان للأستاذ النجدي نشاط خصص في تحقيق طائفة من نفائس التراث الديني والأدبي ، منها ما انفرد بتحقيقه ، ومنها ما شارك فيه بأمثا ما انفرد فيه فتحقيق الجزء المتمم للعشرين من كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني بتكليف من هيئة الكتاب وكان قد سبق نشره ، فأتاح له نشره علمية محققة أدق ما يكون التحقيق .

وحقق أيضا منفردا مجلدين من كتاب الاستذكار في فقه السنة المقارن للمحافظ ابن عبد البر القرطبي الأندلسي بتكليف من المجلس الأعلى للشئون الإسلامية وهو كتاب ضخم متعدد الأجزاء ، عماده كتاب الموطأ لمالك وما فيه من الأحاديث النبوية والآثار . وابن عبد البر يدير مباحثه في الكتاب على تلك الآثار والأحاديث عارضا مختلف المذاهب الفقهية ومقارنا بينها مقارنات وافية . وقد نهض الأستاذ النجدي بإحياء المجلدين اللغويين اللذين حققهما من الكتاب على خير وجه وهما يصوران جهدا علميا شاقا جديرا بكل تقدير .

واشترك الأستاذ النجدي في تحقيق كثرين رائعين نفيسين من كنوز القراءات

للدكتور الحكيم هما : كتاب المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها لابن جنى ، وكان قد بناه على كتاب شواذ القراءات لابن مجاهد أكبر شيوخ القراء في زمنه . والكتاب الثانى الذى شارك فيه الأستاذ النجدى كتاب الحجة فى علل القراءات السبع لأبى على الفارسي وكان قد بناه بدوره على كتاب القراءات السبع لابن مجاهد الذى كان لى شرف تحقيقه ونشره ، وقد نُشر من كتاب الحجة مجلد واحد ، وكنا نأمل أن يتم القضاة بالأستاذ النجدى حتى يتم نشره .

وللأستاذ النجدى وراء تحقيقاته ومؤلفاته العلمية بحوث كثيرة فى الأدب واللغة والنقد كان ينشرها فى صحيفة دار العلوم والمجلات الأدبية كما أسلفنا وكذلك فى مجلة المجمع وأذكر من مقالاته فى المجلة الأخيرة مقالة ، كتبها فى عدد نوفمبر سنة ١٩٦٩ عن كتابي « المدارس النحوية » ولم تكن قد انعقدت بيننا صحبة حتى هذا التاريخ . وفيها أسبغ على ثناء هو نفسه أهله ومستحقه الجدير به .

ولم أتحدث حتى الآن عن عمله العلمى بالمجمع وما أفاده من منخور علمه وفكره ، وعمله به صفحة ناصعة تضاف إلى صفحات عمره العلمية المحيطة ، وله فيه جهود خصبة بليجان المعجم الكبير والمعجم الوجيز والأدب والتاريخ وإحياء التراث والألفاظ والأساليب . وكان فى كل مؤتمر سنوى

للمجمع منذ انتخابه عضوا عاملا فيه يقدم فى مؤتمراته بحثا نحويا أو لغويا طريفا ، وأكثر بحوثه كانت تتصل بالقرآن الكريم وآخرها بحثه الذى تلى فى المؤتمر الأخير بعنوان « بين القرآن والنحو » وقد ناقش فيه دعوة قبلت تعليقا على محاضرتى العامة بمؤتمر المجمع فى العام الماضى عن تيسير النحو مؤداهما أن يُعتمد فى التيسير المنشود على نحو يستمد من القرآن الكريم ، ومعروف أن أى دعوة إلى عمل يقوم على أساس من الذكرا الحكيم تقابل بالترحيب تيمنا بالقرآن وارتفاعا إلى أفقه الأعلى .

وظلى الأستاذ الحليل يدير هذه الدعوة فى نفسه حتى كتب بحثه الذى استمعتم إليه فى المؤتمر ، ملاحظا أن ضروبا من أساليب العربية لا يوجد لها نظائر فى القرآن ، والنحو إنما وضع لجميع أساليب العربية ، ويضيف أن لكتاب الله قراءات كثيرة يتنوع الخلاف بينها فى حركات الإعراب وفى بنية الكلمة ، بل إن قراءة واحدة من القراءات سبعة وغير سبعة قد يخالف صاحبها فيها نفسه ، فيقرأ الحركة الإعرابية للكلمة فى موضع أو موضع بقراءة ، ثم يغير حركتها فى موضع أو موضع أخرى ، ويضرب لذلك مثلا الآية الكريمة : (كن فيكون) فقد تكررت تلك الآية فى القرآن إحدى عشرة مرة ، وقرأها ابن عامر أحد القراء السبعة (فيكون)

بالنصب ست مرات ، وقرأها (فيكون)
 بالرفع خمس مرات ، وخلص الأستاذ
 النجدي من ذلك كله إلى قوله : « إننا حين
 تمنينا على الله أن يجعل لنا من القرآن نحواً
 لم نطلب الأمر من مآناه الأصيل لأن القرآن ليس
 كتاب لغة ولكنه دستور حياة ونبراس هداية.
 والأستاذ على النجدي ناصف كان يعلم
 حق العلم - حين قال ذلك - أن النحاة
 منذ سيبويه يستشهدون بآيات القرآن الكريم
 في النحو ، وأن الآية منه وبعض الآية حين
 يشتشهدون بها لقواعدهم بين ما يشتشهدون
 به من الشعر والنثر تكون كالشهاب الثاقب
 والضوء الساطع . غير أن التفكير في شواهد
 القواعد النحوية ومدى الاستعانة فيها بآيات
 القرآن الكريم المضيفة شيء ، وتيسير النحو
 المأمول بتدليل صعبه وتنسيق أبوابه وحذف
 زوائده وتبسيط قواعده للناشئة شيء آخر
 وعن ذلك صدر الأستاذ على النجدي ناصف
 في بحثه : « بين القرآن والنحو » .

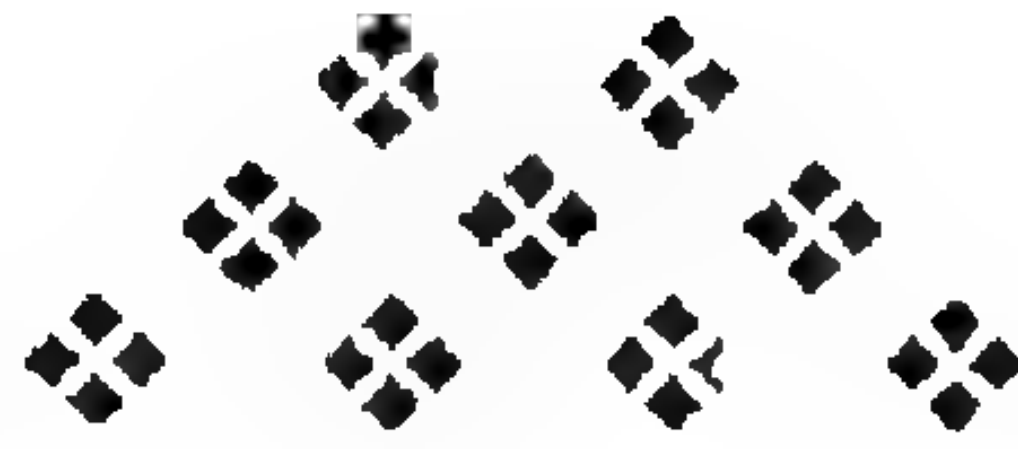
وأعترف بأني لم أكن لأستطيع تبیان
 هذا الموضوع على نحو ما بيّنه في البحث
 بيانا علميا وافيا .

وإذا رجعت - حضراتكم - إلى ما قدمته
 لجنة الألفاظ والأساليب في المؤتمرات طوال
 السنوات التسع الأخيرة فإنكم ستجدون
 له عشرات الفتاوى اللغوية التي سوغ بها
 كلمات متداولة كان يُظنّ أنها نابية
 فإذا هي بفتاويه العلمية السديدة تدخل إلى
 دوائرها وعملتها الفصيحة .
 السيدات والسادة

لعل فيما قدمت ما يصور - من بعض
 الوجوه - خسارة المجمع للعالم الجليل الأستاذ
 على النجدي ناصف وبحوثه وفتاويه
 اللغوية والنحوية المحكمة ، وإنها لخسارة
 فادحة لا تعوّض . وسلام الله عليه يوم
 فقدناه ، وسلام الله عليه يوم نلقاه ، طيب
 الله ثراه ، وجعل جنات الفردوس نزله
 ومثواه .

شوقي ضيف

عضو المجمع



●● كلمة الأسرة لنجل الفقيه الدكتور جلال النجدي

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد الأستاذ الدكتور رئيس المجمع ،

السادة الأساتذة الأجلاء أعضاء المجمع ،

سيداتي سادتي ،

باسم أسرة المغفور له الأستاذ علي النجدي

ناصف ، أتقدم بخالص الشكر والامتنان

إلى مجمع اللغة العربية ، رئيساً وأعضاء ،

على الموقف النبيل الذي بدا منهم جميعاً ،

مشاركة في العزاء ونعياً بالصحف ، ثم

ختاماً بحفل التأبين هذا .

وقد استن المجمع الموقر أن يكرم

أعضاءه الذين مضوا إلى رحاب الخالدين ،

وهو بذلك يضرب أروع الأمثال في الوفاء ،

ولا غرو في ذلك فأنتم القدوة .

وليس لدى ما أقوله بعد الكلمة الكريمة

لأستاذنا الدكتور إبراهيم مذكور رئيس

المجمع والكلمة الجامعة الوافية التي ألقاها

أستاذنا الدكتور شوقي ضيف عضو المجمع ،

والذي كان أحد أصفياء الفقيه ، ولا

أستطيع التعبير عن مدى شكري وشكري

الأسرة لكم جميعاً .

لقد أمضى الفقيه حياته في خدمة اللغة

العربية وآدابها في كلية دار العلوم وفي

مجمع اللغة العربية ، فلم ينقطع يوماً عن

القراءة والبحث والعطاء ، وكنت أشفق

عليه من الإرهاق الذي كان يصبر عليه

حتى وهو مريض ، فكانت آخر محاضرة

ألقاها على أبنائه طلبة الدراسات العليا

بكلية دار العلوم قبل وفاته بأيام ، وكان

آخر أبحاثه ذلك الذي قدمه لمؤتمر المجمع ولم

عمه الأجل لإلقائه بنفسه .

لقد مضى هادئاً إلى الرفيق الأعلى كما كان

هادئاً في حياته ، وإذا كانت وفاته خسارة

فادحة للمجمع ولتلاميذه ، فقد كان رحيله

المفاجيء صدمة عنيفة لأسرته ، حيث

كان نعم الأب المشغول دائماً بمشاكل أبنائه ،

المشير دائماً بالنصيحة .

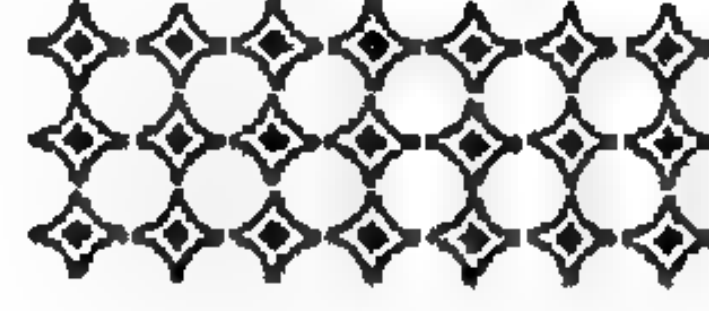
ولا يفوتني في هذا المقام أن أنوه

بالمغفور له الأستاذ محمد زكي عبد القادر

عضو المجمع ، فقد رثا الفقيه في مقاله

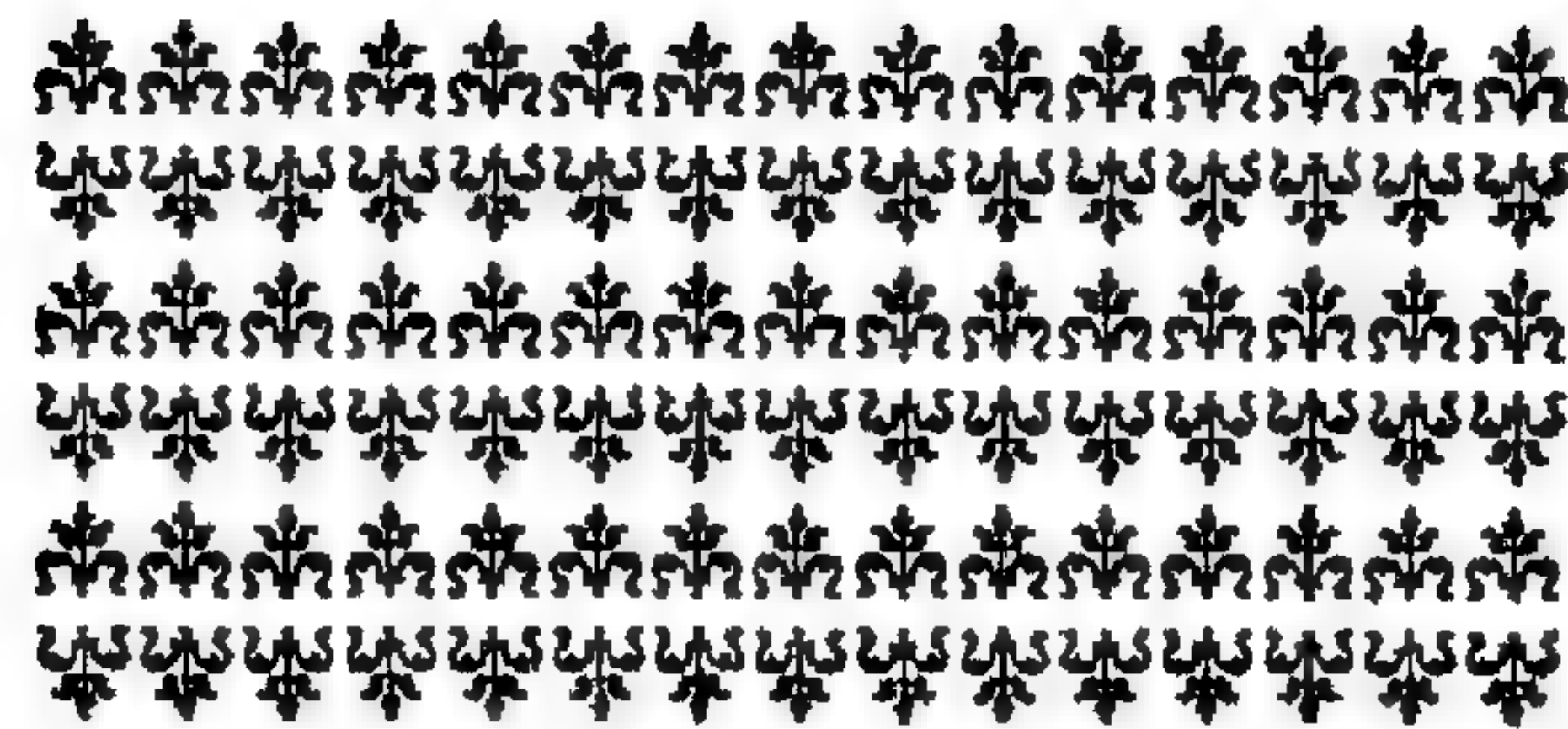
اليومي « نحو النور » بجريدة الأخبار

وشاءت إرادة العلى القدير أن ينتقل إلى
رحابه بعد ذلك بأيام ، فقد المجمع علمين
من أعلامه فى أسبوع ، رحمهما الله
وأسكنهما فسيح جناته .
وفى الختام أكرر الشكر - باسم الأسرة -
لأسرة المجمع ولجميع من شاركوا فى هذا
الاجتماع الخليل بالإعداد أو الحضور .
والسلام عليكم ورحمة الله



●● كلمة الختام للدكتور ابراهيم مذكور رئيس المجمع

أيها السادة .
شكراً لكم جميعاً ، وعوضنا الله فى فقيدنا وفقيد الأمة خيراً ، وجزاه عما قدم
لأمته ولغته خير الجزاء .



في الساعة الحادية عشرة من صباح الأربعاء ٢٧ من
جمادى الآخرة سنة ١٤٠٢ هـ (الموافق ٢١ من أبريل
سنة ١٩٨٢ م) أقام المجمع حفل تأبين لفقيهه المرحوم الأستاذ
محمد زكى عبد القادر ، وفيما يلي الكلمات التى ألقى فى
هذا الحفل :

كلمة الافتتاح للدكتور ابراهيم مدكور رئيس المجمع



في تأبين المرحوم الأستاذ

بسم الله الرحمن الرحيم

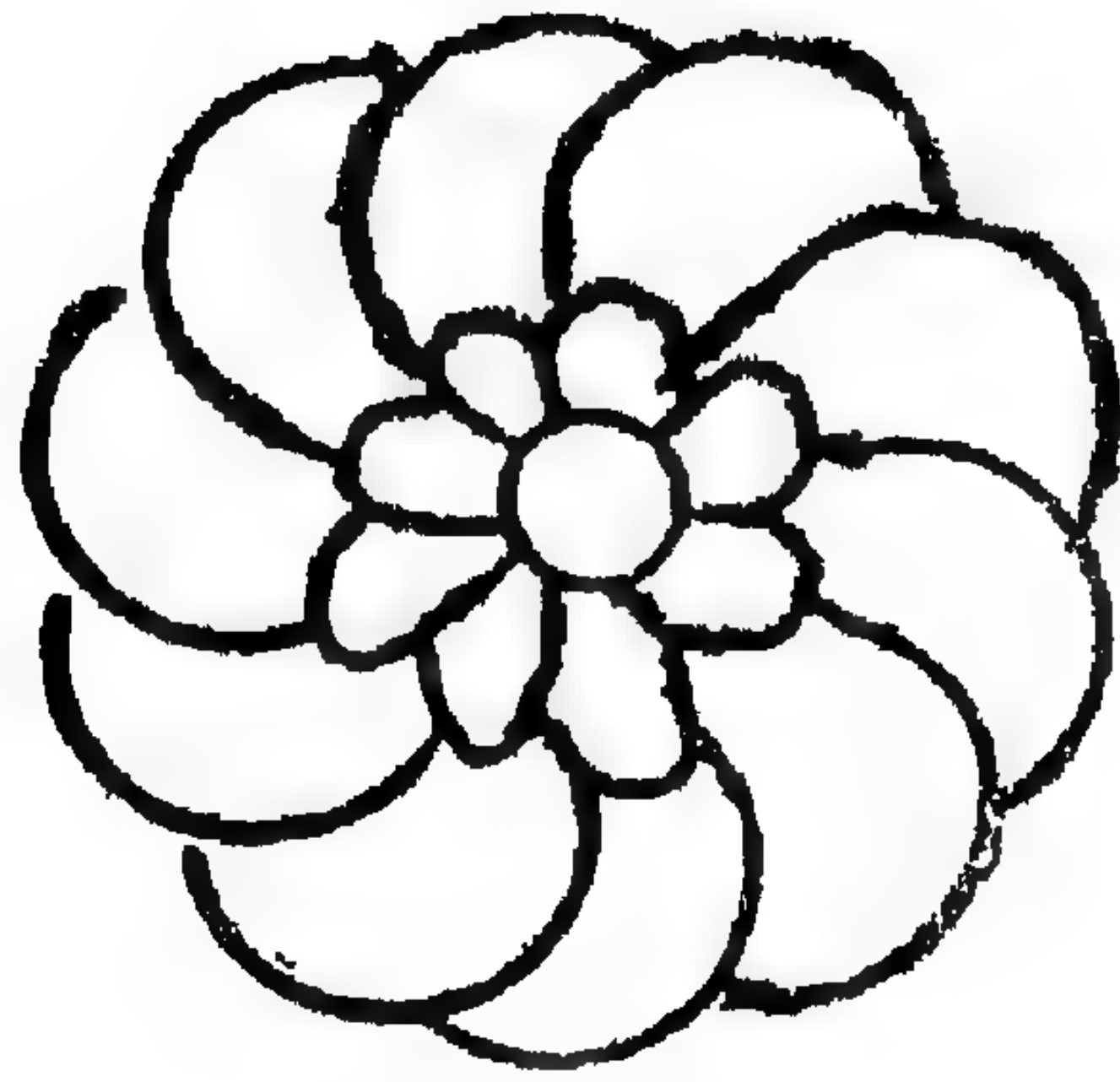
سيداتي وسادتي :

ترجع صلاتى بفقيدها الكريمة إلى عهد بعيد ،
فقد عرفتة منذ ثلث قرن أو يزيد ، جمعتنا
شئوننا العامة ، وحياتنا السياسية التى كنا نحس
حينئذ كشيئا من التدهور ، نأمل أن نفيق إليه
وأن نوجه الأنظار نحوه ، وأن نتدارك
ما يمكن تداركه من نقص ، والتقينا تحت
راية جماعة صغيرة كانت تسمى جماعة نهضة
مصر ، وقد أخذت هذه الجماعة نفسها بمعالجة
مشاكلنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية
معالجة علمية وموضوعية وتقوم على الدرس
والبحث ، وتحاول أن تقدم للوطن المستنير
صورة واضحة عن تلك الحياة فى جوانبها
المختلفة ، وأشهد أن المرحوم محمد زكى عبد القادر
قد مكن هذه الجماعة مما تيسر لديه حين
ذاك من وثائق ، وأهمها مكتبته الذى وضعه

تحت تصرفها ، فكانت تلتقى فيه وتتبادل
الحديث فى مختلف شئونها ، وعاوننا
أيضا بقلمه ، أيد غرضها ودافع عن أهدافها
وفى الواقع كان زكى عبد القادر بعامة معنيا
بحياتنا فى مختلف جوانبها ، معنيا بها عناية
تنبعث من قلبه ويحس بها الإحساس كله ،
ومن هنا حاول أن يرشد وأن ينصح وأن
يوجه ، مجتمعة - كما يقول هو - نحو النور ،
وكم كنا فى حاجة - ولا يزال - إلى نور ،
واستطاع زكى عبد القادر طوال ثلاثين
سنة أو يزيد أن يبدى رؤية فيما يعن له ،
يبدىه فى غير مجاملة ولا تزلف ، فلا يمارى
ولا يداهن ، ولا يخادع ولا يتمنع ، ولا يتبدل
ولا يتغير وكان أمة وحده فى إبداء ما يراه
من نصيح وإرشاد على نحو ما تصوره وآمن
به ، وقد مكنته قلمه من أن يعبر عما يجول
بخطاره فى غير مهاترة أو تحامل خاص ،

ولإنما تعبير صادق عن إحساس صادق
ينشد الحياة وينشد النهوض والتقدم لأمته
التي أحبها وبذل حياته في سبيلها جزاء الله
خير الجزاء عما قدمه لسانه وقلمه في سبيل
أمته ووطنه .

وسيقول كلمة المجمع فيه الزميل الكريم
الأستاذ محمد عبد الغنى حسن ، الذى سبق
له أن استقبله منذ عامين تقريبا ، وأبى
عليه وفاؤه إلا أن يودعه ، رسيقول كلمة
الأسرة بعده نجل الفقيه الأستاذ سمير
عبد القادر .



كلمة الأستاذ محمد عبد الفنى حسن

رحم الله أبا نواس فى هزله ومجونه ،
ورحم الله أبا نواس فى جده ونطقه بالحكمة
حيث قال :

وما المرء إلا هالك وابن هالك
وذو نسب فى الهالكين عريق
فقل لقريب الدار : إنك راحل
إلى منزل نأى المحل سحق

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت
له عن عدو فى ثياب صديق
سيدى الرئيس : زملائي الكرام ، سادتي .
بالأمس القريب جدا ، ومنذ عامين
لاغير ، قدر لي أن أستقبل هنا الزميل العزيز
الراحل « محمد زكى عبد القادر » عضوا
نازلا ، واليوم وفى المكان نفسه وفوق هذا
المنبر بعينه شاء الله أن أودعه فقيدا راحلا ،
فكأننى ما بين استقباليه بالأمس وتوديعه اليوم
أردد قول شيخنا وإمامنا « شوقي » أمير
الشعراء رحمه الله :

ألى الحياة سكنت وهى تصارع
وللى الأمانى يسكن المسلول

لا تخفلن ببؤسها ، ونعيمها
نعمى الحياة وبؤسها تضليل

ما بين نضرتها وبين ذبولها
عمر الورود ، وإنه لقليل

هذا بشير أمس أصبح ناعيا
كاللحم جاء بضده التأويل .

نعم بهذه السرعة سبقنا زكى عبد القادر
إلى رحاب الله . وقد كان دائما سباقا فى
مسيرته على درب الحياة وإن كان وثيد
الخطى منذ عرفته منذ أكثر من نصف قرن .
فقد سبق لى نيل « البكالوريا » وسنه ثمانية
عشر عاما ، وسبق لى نيل شهادة الحقوق
وسنه اثنان وعشرون عاما . وسبق لى
التفخر بالجائزة الأولى فى مسابقة نظمها
وزارة على ماهر باشا سنة ١٩٣٦ ، ثم سبق
إلى رئاسة تحرير « الأهرام » بعد أنطون
الحميل العضو السابق بمجمعنا ، وهو كرسى
لم يشغله مصرى واحد قبل زكى عبد القادر ،
وإنما كان وقفا على إخواننا اللبنانيين . . .
ثم جاء أخيرا وسبقنا إلى قضاء الله فى سرعة
خاطفة ، فلم يبق بيننا فى المجمع غير عامين
ينقصان شهرا . . . فكان بذلك من الأعضاء
الملمين بالمجمع إلما قصيرا ، مثل المرحوم
عبد القادر حمزه باشا الذى لم يبق بالمجمع
غير بضعة أشهر ، والمرحوم الصديق
« إسماعيل مظهر » صاحب العصور الذى
أقام بالمجمع أقل من عام . ومن غرائب الاتفاق
أن ثلاثهم من الجمعيين الصحفيين .

و « محمد زكى عبد القادر » يذكرنى فى
أزاته وفى رفق خطراته واتئاده فى مشيته منذ

عهد الشباب - وهو عهد القوة والفتوة -
 باثنين من كبار أدبائنا وعلمائنا ، عرفتهما عن
 قرب واتصلت بهما اتصال جوار مجاور أو
 تلميذ مصادق . أولهما الأديب الكبير محمد
 السباعي مترجم « الأبطال » لكارليل « وقصة
 المدينتين لديكنز » و « التربية » لهربرت سبنسر ،
 « والرباعيات » لعمر الخيام وغيرها . ووالد
 صديقنا القصاص الشهيد الوزير « يوسف
 السباعي » ، في مشيته المتأنيبة جدا ، التي
 كادت تكون ثباتا لا تحركا . . وفي وقفته
 الطويلة الفاحصة في ميدان السيدة زينب
 رضى الله عنها ، يرصد الرائح والغادي .
 أو ينظر إلى السماء ويطل النظر فيها ،
 كأنه يستلهم معاني فكر جديد . . أو كأنه
 عناه الشاعر خليل مطران بقوله في نظرات
 « نابليون بونابرت » .

قالوا لنابليون ذات عشية
 إذ كان يرقب في السماء الأنجما
 من بعد فتح الأرض ما ذاتتغنى
 فأجاب : أنظر كيف تفتتح السما

وثانيهما الشيخ الفيلسوف الأديب مصطفى
 عبد الرازق ، العضو السابق بمجمعنا ، الذي
 كان يدخل جلسات مجلس الأزهر ، أو مجلس
 الجامعة وكلية الآداب متأخرا عن الموعد ،
 كما جاء زكى عبد القادر إلى الحفل الكبير
 الحاشد الذي أقيم في القاعة الشرقية بالجامعة
 الأمريكية سنة ١٩٥٥ ، تكريما للشاعر
 المهجري الصديق المرحوم جورج صيدح ،
 ولإبداء الرأي في الشعر المهجري جملة ،

فجاء إلينا على منصة الخطباء متناقل الخطوات
 يجر قدميه جرا ، متأخرا جدا عن بدء الحفل ،
 مع أن المفروض أنه كان طرفا - بل حكما -
 في قضية الشعر المهجري بين شاعرنا المجمعى
 العظيم : عزيز أباظة باشا ، وبين جورج
 صيدح ، وبينى . . . وأحسن زكى عبد القادر
 بخرج موقفه أمام الندى كله . . . وعبر عن
 ذلك بقوله في يومياته في اليوم التالي بصحيفة
 الأخبار : (وحينما وصات إلى القاعة الشرقية
 كان الحفل قد بدأ منذ أكثر من ساعة ،
 والحضور في صمت يستمعون إلى حديث
 الأستاذ محمد عبد الغنى حسن عن شعراء
 المهجر . وإنى لأعرف ثقل القادم في موعد
 متأخر وسوء ما يحدثه من صوت أو ضجة
 بقدومه ، فاثرت أن أدخل متلصصا . وأنتحى
 جانبا على مقربة من الباب ، حتى يتاح لى
 الانصراف في هدوء . ولكن تدبيرى كان
 شيئا وتدبير القدر كان شيئا آخر ، فإن
 الأستاذ حسن العروسى لحنى في عين نافذة
 عهدتها منه ، وأخذنى من يدي ، وأجاسنى
 على المنصة . . .) أه

والشيخ مصطفى عبد الرازق عضو سابق
 راحل بمجمعنا ، وزكى عبد القادر عضو
 جديد معجل بالرحيل . . فالموازنة بينهما
 في الأناة واجبة . فقد كان عبد الرازق كما قال
 صديقه طه حسين : (لا يكره شيئا كما كان
 يكره العجلة في القول والعمل والمشى أيضا . .
 كان شديد الأيثار للأناة ، وكان ذلك ربما
 عرضه لدعايات الصديق والزملاء . فما أكثر
 ما كانت تعقد الاجتماعات . ويحضر أعضاء

هذه الاجتماعات في الموعد المقدر ، لا يتأخرون عنه الا الدقيقة أو الدقائق القليلة ، ألا « مصطفى » فكان يأتي دائما متأخرا جدا ، وكان زملاؤه لا يحبون أن يأخذوا في العمل قبل حضوره ، فكانوا ينتظرون وينتظرون ، وربما اضطروهم ذلك إلى بعض الضيق ، ولكنه كان يطالع عليهم بابتسامته الحلوة ، فلا يكادون يرونه حتى يضحكوا له . ولا يأخذون في عملهم إلا بعد دعابة لا تمل . .) أه .

وأذكر من أناة أخى زكى عبد القادر أن مؤتمر المجمع اتعد سنة ١٩٨٠ على رحلة إلى القناطر الخيرية ، وحددنا موعدا للالتقاء وركوب متن النيل في زورق نهري ، ولكن (زكى) فاته الميعاد في مرفأين أو مرساتين حددناهما له ، فما كان منه إلا أن استأجر سيارة « تاكسي » لتقله إلى القناطر ، فكان أسبقنا نزولا بها . وهنا تمثلت في خاطري قصة السلحفاة والأرنب بكل ما فيها من مفارقات الحياة

ومن ذكريات الأناة في خطى (زكى عبد القادر) حتى في أيام شبابه أنه سبقني إلى العمل محررا في جريدة السياسة بتشجيع وترحيب من الدكتور محمد حسين هيكل ، لأنه تخرج صغير السن في مدرسة الحقوق ، وكنت لا أزال أطالب العلم في تجهيزية دار العلوم ، وكنت في طريقى إلى الدار « بشارع المبتديان ، أمر على دار السياسة بالشارع نفسه ، فأجد الصحفي الناشئ « زكى عبد القادر »

يأخذ طريقه إلى القصر الذى كان يحتله حزب الأحرار الدستوريين وجريدته المشهورة ، رفيق الخطى ، متأنيا في مشيته ، كأنه أسد (المتنبي) الذى وصفه بقوله :

يظأ الثرى مترفقا من تبعه
فكأنه آس يحس عليلا

ولعل هذه الأناة في المشية وفي الكلمة هي التى ألهمت زكى عبد القادر الأناة في التفكير والتروية فيه ، فلم يكن عجلا في إبداء الرأى ، وإلقاء الحكم . ولكنه كان يقلب القضايا على كل وجوهها واحتمالاتها ، حتى يخلص له في النهاية رأى يطمئن اليه ويرتاح له .

ولقد بدا ذلك في خلال مزاملته إيانا في لجنة ألفاظ الحضارة التى يرأسها زميلنا الأستاذ بدر الدين أبو غازى . وفي هذه اللجنة يبدو تيار الأخذين بالألفاظ الأجنبية عن طريق « التعريب » لا « الترجمة » . . . وهو تيار يفتح الباب على مصراعيه لغزو لغتنا الشريفة بسيل من الألفاظ الوافدة الغربية المغربية التى ليست من ينية لغتنا ولا من أرومتها . كما يبدو تيار آخر غالب هو الأخذ بالتعريب في إقلال واعتدال . « وزكى » كان جارى المحاور في هذه اللجنة فكنت أرد اندفاعه في الأخذ بالتعريب . وما هى إلا لحظات من التفكير المتأنى ، ليعود لمعسكرنا ، فأرضيه بهذا البيت من الشعر

لعمر و بن امرئ القيس الخزرجي جد عبد الله
ابن رواحة الصبحاني الشاعر رضي الله عنه ،
وهو من شواهد كتب « البيان » :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك

لك راض ، والرأي مختلف

وبمناسبة الشعر وتسكين خاطر محمد زكي
عبد القادر به ، أذكر أنه كان يحبه ، ويجب
الاستماع إليه والاستشهاد به في مقالاته ،
ويوميته ، وخطراته . وكان يرى أن حكمة
الشعراء وتجاربهم قد تركزت به ، وتباورت -
أو تبلرت - فيه . ومما وعيته عنه - رحمه
الله - من الاستشهاد الشعري الجيد ما ذكره
في أحد مؤلفاته الكثيرة منسوبا إلى شاعر
مجهول :

البس لكل زمان بردة حضرت

حتى تحاك لك الأخرى من البرد

وأذكر له - عليه رحمة الله - أنه
كان يطرب للأمثال الشعرية التي أروها له -
في معرض الأحاديث بيننا - تصويرا
لمجتمعاتنا العربية المعاصرة . من مثل قول
الشاعر القديم :

ليس الشفيع الذي يأتيك متزرا

مثل الشفيع الذي يأتيك عريانا

وقول الشاعر الآخر

تعدو الذئاب على من لا كلاب له

وتتقى صولة المستأسد الحامي

وقول الشاعر الآخر ، وهو زفر بن الحارث
على ما حققته :

وقد يذبت المرعى على دمن الثرى

وتبقى حزازات النفوس كما هيا

وكان يستزيدني من هذه الأمثال كلما

لاحت فرصة ، أو سنحت نهزة ، ويسارع
إلى تقييدها في ورقة معه .

وتبدو آراء زكي عبد القادر الناضجة في

تقديم الشعر وتقييمه - أو تنويمه - في

كلمته الكريمة التي كتبها في يومياته سنة ١٩٥٥

عن كتابي : (الشعر العربي في المهجر)

حيث قال متفضلا : (سهرت الليلة أقرأ

كتاب الأستاذ محمد عبد الغني حسن عن الشعر

العربي في المهجر . . . وإني أشعر بعرفان

للأستاذ عبد الغني أن أتاح لي فرصة ممتعة

قضيتها أقرأ شعرا عربيا رصينا حيناً ، وقويا

في معناه حيناً آخر . وهو على الحالين

يجلو مظهرها من مظاهر الأدب العربي الذي

يحيا على الغربة ، ويحاول أن يحتفظ بسماته

في أرض تبعد عنه في العقل والفكر ومناهج

الحياة ، أضعاف ما تبعد عنه في المكان . .

وحسبه أنه بذل هذه المحاولة . وحسب

المهاجرين أن حاولوا الاحتفاظ بمقوماتهم

الأصلية جهد ما استطاعوا . وفي هذا وذاك

شهادة للأدب العربي ولهم بالأصالة وعمق

التأثر ، وصدق الإحساس . . .) فكان -

رحمه الله - بذلك مقلدا بارعا منصفاً لشعر

المهجر وشعرائه ، وموفقا حكما بين الآراء

المختلفة فيه .

وبهذه المناسبة . أستغفر الله ، وأستغفر
الأخلاق ، وأستغفر أخى « زكى » اذا قامت
إنه كان مشغولا بالفكر الأجنبي والفكر
العربى الحديث ، عن الفكر العربى القديم
والأدب العربى القديم
الجميل العميق (الله فى الإنسان) استشهد
على وجود الله بأقوال ثلاثة من غير العرب :
برنارد شو ، حيث قال فى بعض معارض
رأيه : (إن أفضل مكان للبحث عن الله هو
الحديقة . ففيها تستطيع أن تنقب عنه فتجده)
والمهاثما غاندى حيث يقول : (لأقول إن
الله هو الحق ، ولكن أقول أن الحق هو
الله) — والأمبراطور الرومانى الفيلسوف
الفاضل : ماركوس أوريليوس حيث يقول :
(بين كل مافى الكون ، وجه عبادتك إلى
أعظمها . وما هو أعظم مافى الكون ؟ إنه
هذا الكائن الذى يدبر ويحكم . وكما تعبد
أعظم مافى الطبيعة ، تعبد أعظم مافى نفسك ،
قبسا من الله) .

وما لزميلنا المرحوم زكى عبد القادر
ينذهب بعيدا إلى غير الفكر العربى وعنده
القرآن الكريم ، والخطابة العربية ، والشعر
العربى فى جاهليته وإسلامه وبين قديمه
وحديثه . . . ؟

فالله تعالى يقول فى محكم كتابه : (أولم
يروا إلى ما خلق الله من شئ يتفيا ظلاله عن

اليمن والشمال ، سجدا لله وهم داخرون)
سورة النحل ، آية رقم ٤٨ .

وقس بن ساعدة الايادى ، خطيب
الجاهلية المشهور ، يقول من خطبته المأثورة
المشهورة (ليل داج ، وسما ذات أبراج ،
وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج)
ويخلص من هذا وغيره — ما ذكره فى
خطبته — إلى الدليل على وجود الله .

وأبو قيس بن أبى أنس الشاعر المخضرم يقول
قبل أن يهديه الله للإسلام :

سبحوا الله شرق كل صباح
طلعت شمس ، وكل زوال
عالم السر والبيان لدينا
ليس ما قال ربنا محال

وأبو نواس يقول فى وصف زهرة :
تأمل فى نبات الأرض وانظر
إلى آثار ماصنع المليك

عيون من بلخ شاحصات
بأبصار هى الذهب السبك
على قضب الزبرجد شاهدات
بأن الله ليس له شريك
وأبو العتاهية ، يقول :

فيا عجباً ؟ كيف يعصى الإله
أم كيف يحمد الجاحد ؟

ولله في كل تحريك—

وفي كل تسكينة شاهد . .

وفي كل شيء له آية

تدل على أنه الواحد . .

فلماذا الرجوع إن برنارد شو البريطاني ،
وماركوس أوريليوس الروماني ، وغاندي
الهندي وعندنا في تراثنا الفكري ، ومأثورنا
الأدبي ، وكتابنا العظيم غناء كبير ، وحصاد
ثمين ؟ ؟

وزكى عبد القادر كان كاتباً بارعاً مترسلاً
الأسلوب في انسياب وسهولة وسلامة بناء ،
ووضوح عرض ، ورشاقة تعبير ، وقد كان
بلا مرء صاحب قلم منفرد متميز ، ولم يكن
رحمه الله من ذرى الأقلام العنيفة من أعضاء
مجمعنا هذا ، ولكنه كان رقيقاً رقيقاً حتى
في المخاصمة في الرأي ، والمخالفة في الفكر .
ولا أجد أصدق في الدلالة على عفة قلمه
من قول «شوقي» في رثاء «حافظ إبراهيم» :

قلم جرى الحقب الطوال ، فما جرى

يوماً بفاحشة ولا بهجاء

وهو — فوق منزلته الصحافية التي جلتها
يومياته ونحو نوره — قصاص بارع . وما كان
بهذا غريباً عن نظراء له في الصحافة ،
وزملاء قدامى في أعضاء مجمعنا الراحلين —
من أمثال أحمد حافظ عوض ، والدكتور
محمد حسين هيكل ، وإبراهيم المازني ، وعباس
محمود العقاد ، وأحمد حسن الزيات ، ومحمد

فريد أبي حديد . . وبعض قصصه كما قال
في مقدمة كتابه (الخيط المقطوع) : (ينحو
نحو التحليل ، وبعضها الآخر يعتمد على
الحركة ، وبعضها الثالث يصور مواقف
معينة ، وهي جميعاً تنبع من صميم حياتنا .
عرفت بعض أبطالها ، وعاشت بعض
حوادثها . وعشت بأعصابي في أجواثها) .

وقد تميز فقيدها بلون من أدب المناظرة
والجدل في مقالاته ويومياته ، فهو لا يفرض
رأيه على أحد ، ولا يتحدث في النقاش ليكسب
القضية . ولكن الهدوء كان ديدنه في أمره
كله .

وما أجمع كلامه في كتابه : (رسائل
ومسائل) حيث يقول :

(ولست ألزم أحداً برأي بل لعل من
الخبر إلا يلتزم أحد به ، وأن يجري كل
إنسان — صحفياً أو غير صحفى — على سمعته .
فإن هذا الاختلاف في الاتجاه والطبيعة والتفكير
هو الذي يتيح للقراء ما يتيح اليوم من ألوان
صحفية متعددة ، فيحصل كل إنسان على
ما يريد من متاع . .) .

وبمناسبة هدوء فقيدها محمد زكى عبد القادر
في نقاشه — المنطوق لا المكتوب — أذكر أننا —
نحن الجمعيين — على ما هو مفروض فينا
من كبرة السن ، وحنكة التجربة ، ووفاء
السنين المكمل بالمشيب ، قد يفلت منا —
أستغفر الله : أعنى من بعضنا — في مجلس

المجمع وبلحانه زمام الهدوء في النقاش والجدال ،
على درجات تختلف قوة وضعفها ، ومشادة
وملاينة ، حتى لتحكي في ذلك النواذر ...
لأنه خلاف ونقاش لا يرمى إلا إلى الوصول
إلى الحق والحقيقة ، فهما مناط الخلاف ،
وبلوغهما هو نهاية المطاف . كما يقول
شاعرنا القديم :

أدور ، ولولا أن أرى أم جعفر
بأبياتكم مادرت حيث أدور

أو كما قال الشاعر الآخر :

تقول سليمان : لو أقمت سررتنا

ولم تدر أني للمقام أطوف

وأشهد ما رأيت زكي عبد القادر يوما
منفعلا في خلاف ، أو ثائرا في نقاش ، على
الرغم من أنه كان يخالف ويناقش ويعارض
في « لجنة ألقاظ الحضارة » التي كشفت لنا
عن سواء طبعه ونقاء فطرته . وما رأيت
غضبان منفعلا يوما في واحد من مجالس
المجمع ، إلا في جلسة يوم الإثنين ٢١ من
ربيع الآخر سنة ١٤٠٢ هـ - ١٥ من فبراير
سنة ١٩٨٢ - أي قبل مؤتمر المجمع السنوي
بأسبوع واحد ، وقبل وفاته - رحمه الله -
بثلاثة أسابيع كوامل . وهي جلسة بلقاء
مشهورة في تاريخ مجعنا . .

لأنها كانت محل النقاش في موضوع لغوى
خطير ، أثارته لجنة الأصول ، يتصل بقرار
اتخذته في ضبط عين الفعل المضارع من
(فعل) المفتوح العين ، بالضم والكسر معا .
ودار جدال لغوى عنيف حول هذا

القرار ، أقيت بدلوى فيه بين الدلاء . . .
ورأيت - بعد الإشادة بالجهد العظيم الذي
بذلته لجنة الأصول الموقرة - أن نعرض
الموضوع على المؤتمر بمن سيشهده من إخواننا
العرب ، وأن نتوقف في مجلس المجمع
عن إبداء الرأي فيه . . .

ورأى شيخ القانونيين في مجعنا (الأستاذ
مصطفى مرعى) : (ألا يحال الموضوع على
المؤتمر إلا وقد أبدى المجلس رأيا في قرار
اللجنة) . ثم رأيت - كما هو مسجل حرفيا
في مضبطة المجمع - : (أن يؤجل النظر في
هذه المسألة إلى ما بعد المؤتمر . . .) وهنا
دخلنا في مسألة قانونية أثارها فقيدنا ، فلما
اعترض عليه من ناحية القانون بطريقة لم
تعجبه رفع صوته عاليا - لأول مرة - محتجا
وغضب غضبة حسبتها مضرية إلا أنها لحسن
الحظ لم يهتك لها حجاب الشمس . .

ولست أيتها السادة بهذه الحكاية أكشف
سرا من أسرار جلسات المجمع ، وأستاذنا
الرئيس الدكتور إبراهيم مذكور يعلم مدى
حرصى على العمل بالحديث الشريف :
(المجالس بالأمانة) . .

وقد طبعت المناقشات في محضر الجلسة
التاسعة والعشرين على الآلة الكاتبة كما نقول
نحن ، وأورقنت على المرقن ، كما يقول إخواننا
التونسيون وأهل المغرب : وصارت علنية ،
وبهذا زایلتها صفة السرية .

وانطبق عليها المثل العربى : (ما يوم حليلة
بسر) .

ومن فضائل فقيدنا في هذا الباب أنه كان لا يتشبث بالرأى إذا بدا له وجه الخطأ في وجهة نظره . وأذكر له في هذا المعرض هذه الحادثة التي وقعت قبل وفاته بأيام معدودات

فقد كنا في يوم من أيام مؤتمرنا السنوي التي لا تنسى ، نتفكك بأطايب الفكر ولذا ذات الحديث ، حول مائدة سخية بأطايب الطعام .. وجرتنا شئون الحديث وشجعونه إلى أن أروى قول الشاعر :

قالوا يزورك أحمد وتزوره

قلت : الفضائل لا تفارق منزله

إن زارني فبفضله . . . أو زرته

فلفضله،والفضل في الحالين له...

وأشدت بكياسة هذا الشاعر - الذي سأذكر اسمه عما قليل - لأنه ورط صديقا له كان من أصحاب الجاه وأرباب النفوذ في الدولة العباسية . فلم يزره الشاعر مخافة أن يتهم بتملقه إياه ، وتزلفه منه ، واعتذر بهذين البيتين البليغين . . .

فاعترض الفقيد محمد زكي عبد القادر على بأن هذا ضرب من النفاق الاجتماعي لا يحبه ! فقلت له : سبحانه الله : أتسمى هذا الحشد من الكرامة والكياسة واللباقة والبراعة في التخلص نفاقا ؟ فقال : نعم : هذا نفاق :

فلما ذكرته بأن هذا الشعر للإمام الشافعي - رضى الله عنه - وهو من هو في علمه وخلقه واستقامة سلوكه ، سكت ولم يعقب .

ولقد أحب زكي عبد القادر الريف ، بل تعشقه ، بما فيه من سماحة الفطرة ، وأصالة الطبع ، ونخصه ببعض مؤلفاته قصصية ، من أمثال (صور من الريف) و (الخيط المقطوع) و (دعاء الخطيئة) . وعبر في تقديمه لهذا الكتاب الأخير عن حبه العميق للريف حيث يقول : (وفيه - أي في هذا الكتاب - المزج نفسه بين صور من الريف . وصور من المدينة : الأولى تمتاز بأصالتها ، وتعبيرها عن حياة الريف بكل ما تضطرب به من خوف وطمأنينة - وحب وكراهية ، وإيمان واعتماد على الله ، وما يشيع فيها جميعاً من روح مصر العريقة التي طاولت الزمن ، وعاشت عبر القرون ذات شخصية متميزة لم تذب فيها على الرغم مما عرض لها ووقع عليها من اقتحام وغزو ، سواء في العصر القديم أو العصر الحديث ، والفضل في هذا كله راجع إلى تقاليد الريف التي صانت للوطن أصالته وحيويته ودفعت عنه بعد المدى الطويل أو القصير كل من طرأ عليه من الدخلاء . . .) .

ولعل (ريفية) زكي عبد القادر هي التي أفضت به إلى إيمانه التام « بالحرية » ، إلى حد أنه وضع فيها كتاباً برمته ، جمع فيه أقوال الفلاسفة والمفكرين والأحرار في « الحرية » ولم أطرافها من أمم مختلفة ، ولغات شتى على مر العصور ، ما بين قديم وحديث . وإذا كان كتابه (الحرية والكرامة الإنسانية)

قد ضم ما قاله غيره في الحرية منذ أن خلق الله الناس أحراراً ، إلى يومنا هذا ، فإننا ننتهز هذه الساحة لنقتنص رأيه هو في الحرية الذي أبداه في تقديمه لكتاب (محنة الدستور) حيث يقول : (فالحرية هي صمام الأمان ، وهي الكفيلة أن تنمى في الشعب الملكات والقدرات ، وتستخرج أقوى ما فيه من مزايا وفضائل . وهي قادرة بتفاعلها الصحيح مع الشعب - أن تجعله قادراً على تحمل مسؤولياته ، صلباً في الدفاع عن حقوقه واسترداد الضائع منها) .

لقد أحب زكى عبد القادر الريف والقرية ، كما أحب الحاضرة والمدينة ، وأحب القديم كما أحب الحديث ، وأحب وطنه مصر ، كما أحب أوطان الدنيا كلها ، فقد كان مؤمناً عميق الإيمان بالتناسق في الحياة ، وما أصدقه وهو يقول في مقدمته لكتابه (على حافة الخطيئة) : (وما في الحياة يبدو كأنه مختلف متناثر . هو في حقيقة أمره متناسق متآلف مع طبيعة الحياة . . .) على أن الحياة في تقدير راحلنا العزيز - وهو تقدير سليم - لا تكون حياة إلا بالتناقض في المظاهر ، فلو كانت مستوية لكانت رتيبة مملة . وكثيراً ما ألمح إلى هذا المعنى في صلب كتبه ضمناً ، وفي مقدمات كتبه صراحة ، كالذي قاله في مقدمة كتابه (قال التلميذ للأستاذ) : (وعلى الجملة فإن الأقسام الثلاثة - في هذا الكتاب - تمثل فلسفة في الناس والحياة منسوبة إلى الواقع ، آخذة منه صادرة عنه .

وقصارى ما أرجوه أن يشير هذا الحوار العقل للتأمل ، وأن ينعم القلب بالنبض ، والوجدان بالتعمق والنفس بالتوثب بين الرغبة في السمو والانحدار إلى ما هو أدنى . . .) . أو كالذي قاله في مقدمة كتابه نماذج من « النساء » : (هذه نماذج من النساء ، رسمتها من الواقع ، فيها سمات من تضحية تبلغ أحياناً حد القداسة ، وفيها قلق يبلغ أحياناً حد الانحدار ، ولكنها جميعاً تصور نماذج تسعى بيننا ونصادفها في كثير من الأحيان ، وهي ، بعد ، تسرى فيها جميعاً الغريزة بنبضها السليق والعاطفة بسموها الوجداني . ومن الالتحام بين الاثنين تجد المرأة . . . ولكن لماذا المرأة ؟ قل : تجد الإنسان . . .) .

وهذا الإيمان بالتناقض في الحياة هو الذي جعل من زكى عبد القادر رجلاً متفائلاً بالحياة ، طامعاً في الوجه الآخر الجميل منها ، مادامت ذات وجهين ، ومادام كل وجه لا يثبت على حال ، بحكم حركة « التغير » الدائم في الحياة . وما أرقه رحمه الله وأجمل تفاوته وأمله العريض في فضل الله حيث يقول من خاطرة له عنوانها « القلب وأوراق الشجر » : (تبارك الله العلي من منا يرى الورق الخاف يزهر ، والزهر القائم يضحك ، والشجر العارى يكتسى ، ثم يجحد فضل الله أو يحسب داءه لا دواء له ، وجرحه لا برء منه ، ويأسه لا أمل فيه ؟ كلا : كلا إن الربيع الذي يجيء بالمعجزة في الشجر الذي مات ،

والزهر الذى جف ، قادر أن يجيء بمثلها
فى القلوب التى انكسرت ، والأفئدة التى
انجرحت . . .) .

وها نحن أولاء نودع فى « الربيع » أخانا
زكى عبد القادر . . . ولعل هذا الربيع
الحزين - قادر بحكم ما فى الربيع من إعجاز
الخالق المتغير - أن يصح قلوبنا التى انكسرت
بفقد زميلنا العزيز ، وأن يضمم جراحنا
برحيله المفاجئ .

وبعد :

فإن الموت حتم علينا . وقد ذهب « زكى
عبد القادر » ، كما ذهب الناس من قبله ،
وكما سذهب من بعده ، لم يدم أحد ، ولن
يدوم أحد . . . ولو دامت الدنيا لواحد قبلنا
لما وصلت إلينا . وما أصدق الأثر الكريم

القائل : (إن أمراً ليس بينه وبين آدم حى
واحد لمعرق فى الموتى) . وأختم باستحضار
بعض القصيدة التى قالها شوقى فى رثاء شيخى
وأستاذى فى دار العلوم الشاعر البدوى الشيخ
محمد عبد المطلب ، رحمهما الله ، فهى
تنطبق على زكى عبد القادر :

رجل الواجب فى الدنيا قضى
ينصف الأخرى ويقضى ماوجب
عاش عيش الناس فى دنياهم

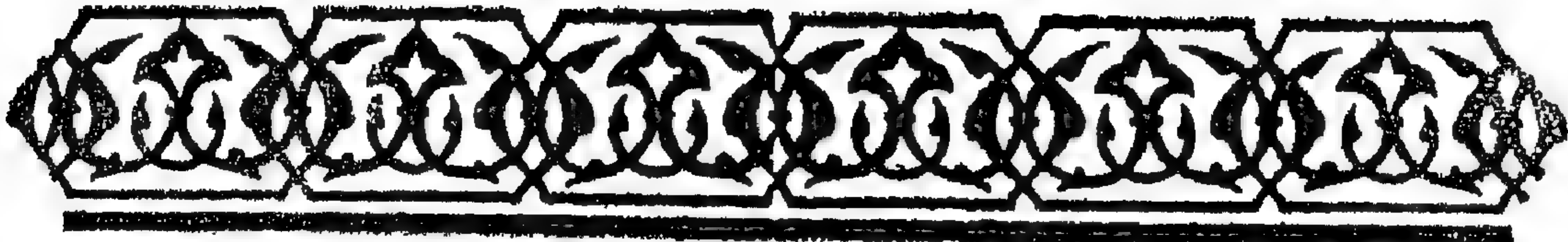
وكما قد ذهب الناس ذهب

أخذ الدرس الذى لقنه

عجم الناس قديماً والعرب

والله يرحم فقيدنا « زكى » ، ويبارك
أعماركم .

محمد عبد الفنى حسن
عضو المجمع



●● كلمة الأسرة لنجل الفقيه الأستاذ سمير عبد القادر

وكانت حصيلة هذه الحياة الفنية من الفكر والعلم والأدب عشرات المؤلفات التي تولى الفقيه إصدار ما يزيد عن نصفها . وكانت أمنيته أن يواصل إصدار ما بقي منها ، ولكن القدر لم يمهل حتى يحقق هذه الأمنية . ونحن نعمل الآن على تكملة رسالته وتحقيق أمنيته بتجميع مخططاته التي لم تنشر تمهيداً لطبعها وإصدارها .

كما أننا نقوم إلى جانب ذلك بتجميع ما صدر من مؤلفاته في مجلدات تضم أعماله كاملة بهدف الحفاظ على تراثه ومبادئه وفكره .

إنني أتقدم إليكم بالأصالة عن نفسي ، وبالنيابة عن أفراد أسرتي بالشكر والعرفان لما أظهرتموه نحو الفقيه من مشاعر فياضة وتقدير ، راجياً لكم جميعاً التوفيق في - رسالتكم الوطنية .

إن تأييدكم اليوم لفقيدنا الغالي وأنتم صفوة العلماء والدارسين والباحثين إنما يدل على قيمة ما قدمه الراحل الكريم لوطنه وأمتة من بذل وعطاء في علم اللغة والأدب والصحافة ، كما أنه تعبير صادق عن وفائكم وتقديركم لشخصه وفكره وعلمه .

لقد كان فقيدنا العزيز يعتز أينما اعتزاز باختياره عضواً في مجتمعكم الموقر ، وكان لهذا الاختيار أطيّب الأثر في نفسه ، فقد عاش حياته يساهم في تطوير اللغة العربية ، ويحاول في كتاباته اليومية في الصحف ، التقريب بين العربية بنقائها وصفائها وقوتها وأصالتها ، والعربية التي تتحرك مع نبض الحياة اليومية ، متمثلة في لغة الصحافة التي تخاطب الجماهير العريضة ، على اختلاف نزعاتها ومستوياتها الثقافية .

●● كلمة الختام للدكتور رئيس المجمع

شاركنا في حفلنا هذا ، وأسأل الله لفقيدنا الرحمة وحسن الجزاء وعوض أمتة فيه خيراً .

سيداتي وسادتي :
باسم الزملاء أعضاء المجمع أشكر كل من

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الإدارة

مصطفى حسن على

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٣/٨٣٤

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٥٨ — ١٩٨٢ — ٢٠٠٠

